دراسات تاريخية
٣

علاقات
بين الشرق والغرب
بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر

تأليف
الدكتور عبد القادر أحمد اليوسف

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

دراساتٌ تاريخيّة
٣

علاقات بين الشرق والغرب
بين القرنين
الحادي عشر والخامس عشر



علاقات بين الشرق والغرب

بين القرنين
الحادي عشر والخامس عشر

تأليف

الدكتور عبد القادر أحمد اليوسف

منشورات المكتبة العصرية

صيدا - بيروت (لبنان)

١٩٦٩

الفصل الاول

تصارع القوى في العالم الاسلامي
في
النصف الثاني من القرن الحادي عشر

الجبهة الغربية :

الاندلس ، الجزر الايطالية ـ المدن الايطالية ، النورمنديون ، المرابطون

الجبهة الشرقية :

السلاجقة : توسعاتهم ، الاصطدام مع البيزنطيين والفاطميين ، مشاكل الامبراطور الكسيوس الاول الدفاعية . تفكك الدولة السلجوقية .

الاوضاع العامة في سوريا ، بداية الفرقة النزارية

الفصل الثاني

آراء في قيام الحرب الصليبية

استعراض سريع لأهم الآراء
الاختلافات حول تحديد الفترة
الاسباب العامة لقيام الحرب
دور البابا اوربان الثاني

الفصل الثالث

اندلاع الحرب الصليبية

ابعاد الاستجابة . الحملة الاولى : المرحلتان الشعبية والارستقراطية المسيرة الكبرى ، الرها ، انطاكيا ، القدس .

الفصل الرابع

دولة القدس ومقوماتها

الرئاسة بين الروحانية والعلمانية . كودفري . الاوضاع الدينية في عهده بلدوين الاول ، حملة سنة ١١٠١ ، مشاكله المالية

بلدوين الثاني
فولك الانجوي
التشكيلات السياسية والعسكرية

الفصل الخامس

المشرق الاسلامي في النصف الاول من القرن الثاني عشر

فعاليات الاسماعيلية النزارية : حلب ، دمشق ، بانياس
مواقفهم من : الصليبيين ـ الفاطميين ـ الزنكيين
مواقف الامبراطورية البيزنطية من: انطاكيا والصليبيين عامة وعماد الدين زنكي
دولة القدس وسياستها تجاه الامارات الاسلامية
الدولة الاتابكية الزنكية : عماد الدين

الفصل السادس

عصر صلاح الدين الايوبي

اسرته ، السباق حول مصر بين اماريك ونور الدين ـ الحملات السورية الثلاث
رئاسة صلاح الدين للوزارة الفاطمية ـ الاعتداء البيزنطي الصليبي
الغاء الخلافة الفاطمية ـ موقف صلاح من نور الدين
قيام الدولة الايوبية ـ مشكلة الوراثة الزنكية ، مشكلة الاسماعيلية
دولة القدس ، معركة حطين واستعادة القدس
الفلول الصليبية تحاصر عكا
الحملة الصليبية الثالثة ونتائجها

الفصل السابع

القسم الاول : الحملات الصليبية في النصف الاول من القرن الثالث عشر

الاوضاع العامة في مملكة القدس
الحملة الصليبية الرابعة ـ دور البابا أنوسنت الثالث
تشكيل الحملة ، دور البنادقة ، الاستيلاء على القسطنطينية وتأسيس الامبراطورية اللاتينية
الحملة الخامسة : الفرق الصبيانية والحملة النظامية

الفصل الثامن

القسم الثاني : الحملات الصليبية في النصف الاول من القرن الثالث عشر

المشرق الاسلامي منذ الحملة الخامسة ـ الخلافة العباسية ، الدولة الخوارزمية ، الدولة الايوبية

الامبراطور فردريك الثاني في الاراضي المقدسة ، الكامل ، استعادة الامبراطور للقدس

الاوضاع الايوبية والصليبية منذ حملة فردريك

الحملة السادسة ـ القديس لويس

الفصل التاسع

المغول وتطورات الاحداث في المشرق

المغول : اصلهم ، جنكيز خان ، اسرته ، كفاحه للزعامة ، اعلان الامبراطورية ، دستور جنكيز خان

الاندفاع المغولي الاول

الاندفاع المغولي الثاني أكوداي ، كيويوك

مانكو والاندفاع المغولي الثالث ، الاتفاق مع الارمن ، هولاكو وفتوحاته ، سقوط بغداد ، الموصل تقدم الولاء ، قيام دولة الخانات في ايران

المماليك : اصلهم ، انقلابهم ضد الايوبيين ، شجرة الدر ، ايبك ، قطز والمغول ، بيبرس البندقداري

الفصل العاشر

المواقف الاوربية والمغولية من تهاوي المملكة الصليبية

كليمنت الرابع ، الحملة الثامنة : جيمس الاول الاراكوني ، القديس لويس ، الامير ادورد

كريكوري العاشر يتحرى اسباب برودة الاستجابة : كليرت ، برونو ، وليم الطرابلسي ، همبرت ، مؤتمر ليون .

قبرص تحاول الانقاذ

مغول فارس والمماليك

سقوط عكا وموقف الغرب

الفصل الحادي عشر

تصارع القوى في العالم الاسلامي في القرنين الرابع عشر والخامس عشر

الجبهة الشرقية : ارمينيا الصغرى ، قبرص ، مغول فارس ، رودس
المد العثماني الاول والبابوية ـ نيقو بولس
تيمورلنك وفتوحاته
المد العثماني الثاني ، فارنا ، موقف البابوية

الجبهة الغربية : الشمال الافريقي والاندلس ، كفاح دولة غرناطة وزوالها
المد البرتغالي

الفصل الثاني عشر

العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الشرق والغرب

العلاقات الاقتصادية : البيزنطيون والفرس ، طرق التجارة مع الشرق الاقصى ، جستنيان الاول وصناعة الحرير . العرب وتأثيراتهم ، الحروب الصليبية والعمليات التجارية

العلاقات الثقافية : تسرب الثقافة الشرقية للغرب ، الاراضي المقدسة ، الاندلس ، دور طليطلة ، صقلية ، القسطنطينية .

مقدّمة

اردنا بهذا البحث سد بعض الفجوات في دراستنا للامبراطورية البيزنطية والعصور الوسطى الاوربية . لذا انصب هذا الكتاب بالدرجة الاولى على الاحداث السياسية والعسكرية في جهات المشرق الاسلامي بقدر ما لغالبيتها من تعلقات مع القضية الصليبية التي هي في الواقع محور الموضوع .

وبالرغم من ان المفهوم الصليبي قد فقد معناه ومبناه بسقوط عكا سنة ١٢٩١ ، الا ان الرواسب النفسية قد طال بها الامد في العلاقات بين الشرق والغرب حتى نهاية العصور الوسطى . ولهذا فقد عالجنا قسما من الاحداث الهامة بعد ذلك التاريخ . غير اننا تطرقنا بشكل مقتضب للدور العثماني املا في عزمنا على تناوله في موضوع آخر في المستقبل . والاعتماد على الله .

المؤلف

١٩٦٩

تصارع القوى في العالم الإسلامي في النصف الثاني من القرن الحادي عشر

الجبهة الغربية :

الانداس ــ الجزر الايطالية ــ المدن الايطالية ــ النورمنديون ــ المرابطون .

الجبهة الشرقية :

السلاجقة ــ توسعاتهم ــ الاصطدام السلجوقي البيزنطي ــ الاصطدام السلجوقي الفاطمي ــ مشاكل الامبراطور الكسيوس الاول الدفاعية ــ تفكك الدولة السلجوقية ــ الاوضاع العامة في سورية ــ بداية تكوين الفرقة الاسماعيلية النزارية .

الجبهة الغربية :

شهد النصف الثاني من القرن الحادي عشر صراعا عنيفا بين المسلمين والاسبان والنورمنديين في كل من الاندلس والشمال الافريقي والجزر الايطالية .

تدهورت الاوضاع في الاندلس سياسيا وعسكريا في فترة ١٠٣١ ــ ١٠٨٥ على اثر انفراط عقد الخلافة الاموية هناك واستشراء داء دول الطوائف ، مما مكن الاسبان من التوسع من معاقلهم الجبلية على حساب المناطق الاسلامية . اذ تمكن سانشو الكبير ٩٩٤ ــ ١٠٣٥ من

توسيع مملكته نافار حيث شملت ثلث الاقسام الشمالية الاندلسية[1] ٠

سار فرديناند الاول ١٠٣٥ ــ ١٠٦٥ ملك نافار على خطة والده في توحيد ممتلكاته الجديدة والتوسع على حساب الاماكن الاسلامية ٠ ومما شجعه على ذلك دعوة البابا الاسكندر الثاني الى الحرب المقدسة في اسبانيا[2] ٠حيث وجه هذا البابا سنة١٠٦٣ دعوته للسلطات الاوربية لتشكيل فرق عسكرية لمناهضة المسلمين في الربوع الاسبانية ٠ واستجاب له النورمنديون بصورة خاصة ٠

هذا وقد مثلت مؤسسة دير كلوني التي تأسست منذ سنة ٩١٠ في برغندي، دورا فعالا في مواصلة الحرب المقدسة ضد المسلمين في اسبانيا ٠ كما سار البابا كريكوري السابع ١٠٧٣ ــ ١٠٨٥ على نفس خطوط ذلك الدير في هذا الشأن ودعا لتشكيل جيش لينهض بأعباء المسئولية في شبه جزيرة ابريا وكذلك لمنازلة المسلمين في الشرق[3] ٠ وبذلك الحماس تمكن الفونسو السادس سنة ١٠٨٥ من الاستيلاء على طليطلة ٠

الجزر الايطالية :

كما شهدت الفترة نزاعا حادا في الجهات الغربية من البحر المتوسط من اجل السيادة على تلك المياه ٠ اذ كانت جزر كل من سردينيا وكورسيكا والبليارد بيد المسلمين منذ القرن الثامن وتم لهم الاستيلاء على صقلية بشكل تام سنة ٩٠٢ بعد حروب في تلك الجزيرة بين القوات الاسلامية والبيزنطية منذ سنة ٨٢٧ ٠ ثم توغلوا بعيدا في ارجاء شبه الجزيرة الايطالية ٠

اخذ ميزان القوى يتأرجح ضد السيادة الاسلامية في تلك الجهات ، بظهور قوتين على مسرح الاحداث الايطالية ٠ الا وهما المدن الايطالية التي تمثلت آنذاك في مدينتي بيزا وجنوا والقوة النورمندية ٠

---

(1) W. Atkinson, A History of Spain and Portugal (Middlesex, 1960) 63-64.

(2) Z. Brooke, A History of Europe, 911-1198 (London, 1962) 84.

(3) W. Durant, The Age of Faith, 325-1300 (N. Y., 1950) 545-46.

اذ سبق لمدينة بيزا ان عانت سلفا من الغارات الاسلامية في سنوات ٩٣٥ ، ١٠٠٤ و ١٠١١ ، لهذا تحالفت بيزا مع مدينة جنوا لصد الغارات الاسلامية اولا ولمحاولة الاستيلاء على الجزر ايضا . وكانت لهما في ذلك التبريكات البابوية التي اعلنت في سنة ١٠٠٤ ان جزيرة كورسيكا هي ملك لاية قوة مسيحية تستطيع انتزاعها من المسلمين[٤] . وقد وقعت تلك الجزيرة فعلا بيد قوات الحلف البيزوي ـ الجنوي سنة ١٠١٥ . ثم اندفع البيازنة سنة ١٠٣٤ نحو الساحل الافريقي واهبين بعض الغنائم التي غنموها هناك الى مؤسسة دير كلوني . كما شنوا هجوما سنة ١٠٦٢ على صقلية مستهدفين بالمرو .

شجعت الاوضاع المتردية في تونس تكرر اعتداءات المدن الايطالية على السواحل الافريقية . اذ مرت البلاد التونسية في فترة عصيبة من حياتها منذ سنة ١٠٥٠ . اذ حرض الفاطميون قبائل بني هلال سنة ١٠٥١ للاغارة عليها لتمرد السلطة الزيرية في تونس على الفاطميين واعلانهم الولاء للبيت العباسي الحاكم في بغداد . فانتهزت مدن ايطاليا والبابوية ظروف الفوضى التي سادت تونس ، فدعت لحملة عسكرية . وهاجم الايطاليون العاصمة التونسية المهدية سنة ١٠٨٧ . واضطر حاكمها على توقيع اتفاقية تضمنت دفع السلطات التونسية غرامة حربية واطلاق سراح الاسرى المسيحيين والامتناع عن القرصنة واعفاء البضائع المحملة على السفن البيزاوية بصورة خاصة من رسوم الكمارك . واعتبرت تلك الحملة كتمرين اولي للحملة الصليبية الاولى[٥] .

كما خاضت القوات الاسلامية في صقلية حربا سجالا مع قوة جديدة الا وهي القوة النورمندية . دخلت هذه ميدان الصراع في بادىء امرها كفرق اجيرة تتاجر بدمائها . ويقال بأن البابوية اول من استخدمتهم لغايات عسكرية في ايطاليا . ثم عمدت السلطات المتمردة في مدينة باري لاستخدامهم سنة ١٠١٦ ضد البيزنطيين[٦] . وبذلك اخذ المغامرون

---

(4) R. Newhall, The Crusades (N. Y., 1963) 16-17.
(5) Ibid., 17.
(6) H. Treece, The Crusades (N. Y., 1964) 55-6.

النورمنديون يتقاطرون على ايطاليا لانفتاح سبل العيش امامهم • وتمكن الاخوان رشارد وروبرت كيسكارت سنة ١٠٦٠ من اعلان نفسيهما اميرين لاول مرة ، الاول على جهات كبوا والثاني على ابوليا وكالابريا • وتمت لهما السيطرة على الاقسام الجنوبية الايطالية سنة ١٠٧١ اثر الاستيلاء على مدينة باري البيزنطية •

ظهر النورمنديون في صقلية سنة ١٠٣٨ كفرق اجيرة تحت امرة البيزنطيين • الا انهم واصلوا الحرب على مسئوليتهم الخاصة منذ سنة ١٠٦٠ بعد الاتفاق مع البابوية • وقد ساعدتهم التفرقة التي عمت الجهات الاسلامية في الجزيرة على تحقيق مأربهم • اذ كان هناك ثلاثة زعماء متنافسين حول السلطة ، استعان احدهم بفرقة روجر النورمندية • وروجر هذا هو الاخ الاصغر لروبرت كيسكارد • وقد دامت الحرب سجالا[٧] منذ سنة ١٠٦٠ الى سنة ١٠٩١ • واستولى كل من روجر واخيه روبرت سنة ١٠٧١ على بالرمو وسنة ١٠٨٦ على سراكيوز ، ثم استتب لهم الامر في صقلية سنة ١٠٩١ • كما استوليا في السنة ذاتها على جزيرة مالطة • وبذلك تم انحسار السيادة الاسلامية البحرية من تلك الجهات واصبح الشمال الافريقي ميدان سباق لمدن ايطاليا والنورمنديين فيما بعد •

المرابطون :

تميزت الجبهتان الاسلاميتان في المغرب والمشرق بظهور قوتين اسلاميتين على المسرح • تمثلت الاولى في دولة المرابطين والثانية في دولة السلاجقة • ويمكن اعتبار المرابطين والسلاجقة بالنسبة لادوارهم الاسلامية بمثابة حركات بعث اسلامية جديدة آنذاك •

والمرابطون في بدايتهم عبارة عن فرقة دينية اوجدها الزاهد عبدالله بن ياسين الجزولي الذي استقر في جهات النيجر سنة ١٠٣٩ عند عودته من الحج • ومن هناك انطلقت عقيدته الاسلامية تبشر بالرجوع الى السنن الاولى والتقشف في الحياة • فلقيت دعوته صداها بين قبائل الصحراء الكبرى حيث دعاهم للجهاد ضد القبائل السودانية الوثنية •

---

(7) S. Runciman, The Sicilian Vespers (Middlesex, 1960) 19-20.

بلغت دولة المرابطين عنفوان مجدها بفضل يوسف بن تاشفين ، حيث دانت لـه المغرب جاعلا عاصمته في مراكش التي اشادها لهـذا الغرض سنة ١٠٦٢ ، ثم امتدت سيطرته على الجهات التونسية وتلقب بأمـير المؤمنين ، وقد استولى سنة ١٠٨٤ على سبته في الوقت الذي كان فيـه الفونسو السادس يضيق الخناق علـى طليطلة حيث سقطت في يـده سنة ١٠٨٥ .

اصبح امراء الاندلس بـين نارين : الاولى هـي زحف الاسترداد الاسباني والثانية المخاطر التي باتت تهددهم عبر المضيق من المرابطين ، ومع ذلك فقد غلب عليهم الشعور الاسلامي فاستنجدوا بالمرابطين ضـد الاسبان ، وقد اشار امير اندلسي متحمس للتعاون مع ابن تاشفين بهذه المناسبة: انه لمن الافضل له ان يكون راعي ابل في الصحراء الافريقية من ان يكون راعي البط في قشتالة[٨] ، وقد هب يوسف بن تاشفين لانجاد المسلمين سنة ١٠٨٦ ، اذ عبر مضيق جبل طارق حيث اتخذ الجزيرة الخضراء قاعدة عسكرية لـه ، وانزل هزيمة كبرى في جيش الفونسو السادس في ٢٣ تشرين اول سنة ١٠٨٦ في معركة الزلاقة ، ثم اتجه ابن تاشفين لتوحيد الامارات الاسلامية الاندلسيـة منـذ سنة ١٠٩٠ تحت قيـادته المركزية مواصلا الزحف نحو الجهات الشمالية حتى وفاته سنة ١١٠٦ ، حيث تمت له السيطرة على ثلثي الاندلس من مصب الابرو حتى نهر التاجة عدا طليطلة .

لقد افزعت فتوحات المرابطين في اسبانيا الفونسو السادس ، فراح يناشد امراء اوربا المساعدات العسكرية ، وقـد استجاب لـه بصورة خاصـة الفرنسيون ، وكـان اكثرهم حماسا هـو ريموند الجيلـي Raymond of St. Gilles سنـة ١٠٨٧ والذي اصبح له شأن يذكر في الحملة الصليبية الاولى .

---

(8) Newhall, op. cit., 35.

الجبهـة الشرقيـة :

اما الجبهة الشرقية فقد اصبحت في هذه الفترة ميدان صراع متداخل بين السلاجقة والبيزنطيين والفاطميين ، وقوة اخرى في دور التكوين الا وهي الفرقة الاسماعيلية الباطنية النزارية •

السلاجقـة :

وهؤلاء من قبائل الغز التركية في اواسط آسيا ، تلك المناطق التي دأبت بين دهر وآخر تقذف بأبنائها شرقا وغربا محدثين تغييرات عالميـة خطيرة• تسمي هؤلاء بالسلاجقة نسبة لسلجوق بن دقاق (القوس الحديدي) لشجاعته وقوته • هاجروا الى بلاد ما وراء النهر حيث اعتنقوا الاسلام في أواخر القرن العاشر[٩] • وكان الرائد في هذا المضمار هو سلجوق على بعض الروايات حيث اعلن سنة ٩٩٢ اسلامه[١٠] •

يعتبر طغرل بك ١٠٣٧ ــ ١٠٦٣ حفيد سلجوق هو المؤسس للدولة السلجوقية • والذي كان في بدايته تحت امرة مسعود الغزنوي سلطان ايران ــ وافغانستان والهند الا انه تمرد عليه وراحت جموع السلاجقة تستولي على ممتلكات الدولة الغزنوية الواحدة تلو الاخرى • اذ تم لهم الاستيلاء سنة ١٠٣٧ على نيسابور عاصمة خراسان • ويعتبر ذلك التاريخ البداية الرسمية للدولة السلجوقية •

تمكن السلاجقة من القضاء على الغزنويين والبويهيين في جهات العراق وايران في فترة حكم طغرل بك • حيث طلب هذا الاعتراف الرسمي بسلطنته من الخليفة العباسي القائم بأمر الله ١٠٣١ ــ ١٠٧٥ • وقد كانت الخلافة العباسية منذ سنة ٩٤٥ تحت الحماية البويهية • ولم ير الخليفة بأسا في ذلك اذ رأى في السلاجقة سيفا جديدا قد يستفاد منه ضد اعدائه ايـا كانوا • لهذا قصد طغرل زيارة الخليفة في بغداد سنة ١٠٥٥ مقدما له الولاء الرمزي • وخلع الاخير عليه لقب المسلمين ونائب وصي أمير المؤمنين •

---

(9) S. Percy Sykes, A History of Persia, Vol. II (London, 1951) 28.

(10) C. Bosworth, The Ghaznavids, Their Empire in Afghanistan and Eastern Iran, 994-1090 (Edinburgh, 1963) 221.

ثم زوج طغرل بنت اخيه ألب ارسلان من الخليفة ، ومكث طغرل في هذه الزيارة في العراق قرابة سنة واحدة حيث استدعته الظروف للعودة الى ايران[١١] ،

ان اعتراف الخليفة بسلطنة طغرل اثار مشاعر محبي البويهيين على اعتبارات مذهبية ، لهذا فقد سادت العراق موجة من القلاقل والحروب الاهلية حالما غادر طغرل العراق ، اذ راح الزعيم البويهي المدعو بالبساسيري يحمل لواء الثورة داعيا للخليفة الفاطمي المستنصر وتمكن ان يبسط نفوذه لفترة وجيزة على بغداد واكثرية اجزاء العراق الوسطى والجنوبية ، ولم يتمكن البساسيري من الصمود امام الجيوش السلجوقية التي دهمته بقيادة طغرل من الجهات الايرانية ، حيث دارت معركة فاصلة سنة ١٠٦٠ قرب واسط انتهت بانتصار السلاجقة ، واعادة الخليفة القائم الى كرسي الخلافة ولكنه لم يستعد عمامته النفيسة ولا جبة الرسول (ص) والشارات النبوية الاخرى ، حيث ارسلها البساسيري سلفا الى الفاطميين[١٢] ، وقد انعم الخليفة على طغرل بلقب ملك الشرق والغرب ودعاه بالسلطان مكافأة لما اسداه اليه من معروف ،

اراد طغرل ان يسبغ على حكمة شرعية اكثر مما حصل عليه وذلك عن طريق مصاهرة الاسرة العباسية ، اذ اقترح على القائم بالله ان يزوجه بنته ، وقد وافق الخليفة المغلوب على امره كرها ، ولحسن حظ القائم لم يتم الزواج نظرا لوفاة طغرل اثر اصابته بسهم في احدى معاركه في جهات الافغان[١٣] ،

بلغت الدولة السلجوقية قمة مجدها في المجالين الداخلي والخارجي في عهدي الب ارسلان اسد الدين ابو شجاع ١٠٦٣ ــ ١٠٧٢ وابنه ملكشاه ١٠٧٢ ــ ١٠٩٢ ، ويعود الفضل في قوتها الداخلية لجهود الوزير نظام الملك الذي هيمن على الوضع لعشرين سنة ،

ونظام الملك هذا هو علي بن حسن ، ولد قرب المشهد (مدينة الرضا)

(11) Percy Sykes, op. cit., 29-31.
(12) Phil. Hitti, History of the Arabs (London, 1960) 475.
(13) Percy Sykes, op. cit., 30-31.

في ايران • ويقال بأنه كان رفيقا لكل من عمر الخيام الشاعر الايراني المعروف والحسن بن الصباح قائد الاسماعيلية النزارية • لقد جلبت مواهب حسن بن علي انتباه القائد السلجوقي شاكر احد اخوان طغرل فقربه ثم انتهى الى تسنم الوزارة في عهدي الب ارسلان وملكشاه محتفظا بذلك المنصب حتى سنة ١٠٨٣ (١٤) •

يعتبر نظام الملك فريد عصره في السياسة والاقتصاد وتشجيعه العلماء وطلب العلم • فهو في مقدمة الساسة الواقعيين في العالم الاسلامي آنذاك • ضمن آراءه في كتابه (سياسة نامة) اي اصول الحكم • وجعل ملكشاه من ذلك الكتاب دستور دولته • أحتوت نظرية نظام الملك ما يشبه نظرية حق الملوك الالهي بالنسبة للسلطة الملكية • اذ اشار الى (ان السلطان قد اختاره الله لذلك المنصب فهو مسئول امام ربه وحده عن سيرته في الرعية •••) ثم عدد الصفات التي يتحلى بها السلطان • اذ عليه ان يتجنب الكره والكبرياء والغضب والشهوة والطمع والاماني الفارغة••• والكذب • ويجب ان يكون التواضع سجيته ، وصفاء الذهن مزاجه ، والرحمة والكرم والصبر والتقوى والمعرفة ديدنه •

اتبع ملكشاه طيلة حكمه تقريبا توصيات وزيره في الامور القضائية • فدأب على عقد مجلس قضائي عام بنفسه مرتين في الاسبوع لمقابلة الناس والاستماع لشكواهم • وامر باتخاذ كافة الوسائل التي من شأنها ان تسهل على الناس الوصول الى المجلس • ان الآراء القضائية لنظام الملك استمدت من ملوك الفرس القدماء وتصرفاتهم • وقد ضرب عدة امثلة على ذلك منها : ان احد ملوك الفرس كان يعقد مجلس عاما في ارض منبسطة وهو على صهوة جواده ولا يبرح المكان الا بعد الانتهاء من حسم المظالم • وهناك ملك آخر طلب من كافة المتظلمين ارتداء اردية حمراء ليميزهم الملك عن غيرهم • ثم اشار ايضا الى امير من بخارى اعتاد الجلوس في احدى الساحات العامة الى ساعات متأخرة من الليل لا يبالي ببرد الشتاء وصقيعه ليعيد الحقوق لاصحابها •

---

(14) Percy Sykes, op. cit., 30-31.

تطرق نظام الملك لواجبات الموظفين ، فقال : ليكن اي عامل من عمال الدولة رحيما بالعباد ، فلا تصح مطالبة الناس بضرائب اكثر من المألوف وان تجبى بكل لطف واعتبار ، ولا يجوز جمع الضرائب قبل اوانها ، والا فيضطر الناس الى بيع ما تحت ايديهم بالثمن البخس لتسديد مـا عليهم فيحيق الدمار بالبلاد ، واشار ايضا الى ضرورة مراقبة الجباة وسـائر الموظفين مقترحا شبكة من الجواسيس على نطاق القطر ، يجوبون البلاد متنكرين بازياء التجار والمتسولين والدراويش ، وعليهم موافاة السلطة المركزيه بالتقارير عن الادارة والاداريين .

عالج نظام الملك مالية الدولة بشكل مفصل ، فأبان ان الجباية تجري في مواقيت معينة في كل سنتين او ثلاث ، وعلى الحكومة دفع رواتب المفتشين من خزينة الدولة مباشرة لا من الجباة المحلية ،ويجب ان تكون في ارجاء البلاد نقاط مواصلات بريدية منظمة وسريعة بين المفتشين والحكومة المركزية .

وعلى كل فان الاتجاه السياسي العام في الدولة السلجوقية ، كما في غيرها من الدول آنذاك سياسة اقطاعية كان فيها حكام الولايات من مماليك السلطان ، يعهد اليهم بالاقطاع مقابل تعهدات مالية وعسكرية .

جاءت نهاية حياة نظام الملك السياسية على اثـر خلاف بينه وبين ملكشاه حول جملة اشياء ، منها : غيرة السلطان من سمعة نظام الملك التي طغت على سمعته ، هذا بالاضافة الى الدور الذي قامت به زوجة ملكشاه طرقان خاتون ، اذ لم تكن هذه لترتاح الى سياسة نظام الملك وشهرته التي عمت الآفاق ، فأخذ توغر صدر زوجها ضده والتمهيد لابعاده ، وحدث ان اختلف السلطان مـع وزيره حول وشاية اتهم فيها حفيد نظام الملك باختلاس مالي ، واضطر الوزير ان يدافع عن حفيده بلهجة عنيفة امـام السلطان مما ادت فيما بعد الى اقالته(١٥) .

وقع نظام الملك مضرجا بدمائه على اثر طعنات سددها اليه اسماعيلي نزاري سنة ١٠٩٢ مكلفا بذلك من قبل الحسن بن الصباح ، وهناك رواية

---

(15) S. Lane-Poole, Saladin and The Fall of the Kingdom of Jerusalem (Beirut, 1964) 12-15.

شائعة آنذاك ، بأن نظام الملك كان رفيقا لكل من عمر الخيام والحسن بن الصباح اثناء الدراسة • ويقال بأنهم تعاهدوا ان يساعد كل منهم الآخر فيما لو تقلد احدهم منصبا خطيرا في الدولة • لهذا عندما تقلد نظام الملك الوزارة بادر الى تنفيذ العهد • حيث عرض ولاية نيسابور على عمر الخيام ، الا انه رفضها مفضلا راتبا شهريا واعانته على مواصلة ابحاثه الفلكية • وقدم نظام الملك له فعلا ما طلبه مــن اموال ووسائل تساعده في البحث العلمي • كما قدم منصبا مغريا لابن الصباح الا ان الاخير استنكف عن قبوله نظرا لانه كان يطمح الى الوزارة • ولهذا فعندما فشل ابن الصباح في مأربه عمد الى اغتيال نظام الملك[١٦] • وعلى كل فيجب ان تؤخذ تلك الرواية بحذر ، وخاصة ان نظام الملك من اشد اعداء الفرقة الاسماعيلية على اعتبارات دينية وسياسية • حيث فكر الوزير بالقضاء على الاسماعيلية ثقافيا وعسكريا • وان الغاية الاساسية من تأسيسه المدارس النظامية في بغداد وايران كانت بالدرجة الاولى لمكافحة كافة المذاهب المناهضة للمذهب الرسمي للدولة وخاصة الفرقة الاسماعيلية[١٧] • وعليه فلا غرابة ان يضع ابن الصباح في قائمة ضحاياه نظام الملك •

اما في المجالات الخارجية فقد اصطدمت الدولة السلجوقية بقوتين كبيرتين هما الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الفاطمية •

الاصطدام السلجوقي ـ البيزنطي :

بدأت الغارات السلجوقية على الجهات البيزنطية سنة ١٠٤٩ من نواحي ارمينيا واستولى طغرل على ملطية سنة ١٠٥٧ • وتمكن الب ارسلان ١٠٦٣ ـ ١٠٧٢ من احتلال مدينتي آني وقارص وهمـا تمثلان الخط الدفاعي الاول عن الامبراطورية البيزنطية في تلك الجهات • اما الموقعة الحاسمة بين الجانبين فكانت قرب ما نزكرت سنة ١٠٧١ شمال بحيرة فان • حيث اندحرت فيها القوات البيزنطية التي قادها الامبراطور رومانوس

(16) Percy Sykes, op. cit., 35-36.

(17) See, C. Cahen, The Selehukids, in A History of the Crusades, Editor K. Setton Vol. (Penns., 1958) 154.

دايوجين الرابع الذي وقع اسيرا بيد السلاجقة وقد اطلق سراحه لعقده صلحا تضمن اقتداء نفسه من الاسر وتعهده بدفع الامبراطورية اتوات سنوية للسلاجقة(١٨) • ولم يكتب لهذا الاتفاق التنفيذ نظرا لخلع رومانوس واعتلاء ميخائيل السابع العرش البيزنطي • واعتبر رومانوس مسئولا عن كارثة مانزكرت فأتهم بالخيانة العظمى فقبض عليه بعد مقاومة حيث سملت عيناه وتوفي بعد ذلك •

تعتبر موقعة مانزكرت من الحوادث الكبرى بالنسبة للامبراطورية البيزنطية وللعلاقات بين الشرق والغرب بصورة عامة • اذ شلت قوى الامبراطورية عسكريا واقتصاديا حيث مهدت الموقعة لاستيلاء السلاجقة على معظم مناطق آسيا الصغرى ، تلك المناطق التي كانت تمد الامبراطورية بالجيوش والارزاق • واعتبرت الكارثة ايضا نقطة تحول في تاريخ الصراع بين المسيحية والاسلام • اذ اخذت الامبراطورية تتطلع الى الغرب الكاثوليكي منذ ذلك التاريخ لانقاذها من المخاطر الاسلامية بالدرجة الاولى ومن المخاطر الوثنية المتمثلة في قبائل البشناق والكومان التي اخذت تنهال على الامبراطورية من جهات الدانوب • ولم يعد بمقدور البيزنطيين الدفاع عن بلادهم بأنفسهم اثر معركة مانزكرت • هذا وقد ساعدت الكارثة على ازدياد حالة الارتباك الداخلي وافسحت المجال امام السلاجقة للتدخل في الشئون البيزنطية • حيث اخذت الفئات المتنافسة من اجل العرش تتسابق في طلب مساعدة السلاجقة ضد بعضها البعض • وتمكن فعلا الامبراطور نقفور الثالث سنة ١٠٨٧ من التغلب على خصومه نتيجة للمساعدات العسكرية التي قدمها السلاجقة(١٩) • كما مهدت موقعة مانزكرت السبيل لتأسيس دولة (روم السلجوقية) في آسيا الصغرى جاعلين قونيا عاصمتهم وراحوا منها يواصلون التوسع شمالا لجهات البحر الاسود وجنوبا لجهات البحر الابيض •

---

(18) A. Vasiliev, A History of the Byzantine Empire, Vol. II (Madison, 1964) 355.

(19) G. Ostrogorsky, History of the Byzantine State, trans. by Hussey (Oxford, 1961) 308.

الاصطدام السلجوقي ـ الفاطمي :

هذا ولم يكن بمقدور الفاطميين آنذاك من كسر الشكيمة السلجوقية نظرا لما انتابهم مـن ضعف منـذ مقتل الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ٩٩٦ ـ ١٠٢١ ، وكان هذا من الشخصيات الغامضة غير المألوفة ترك آثار غرابته في حوادث الازمـان في مصر وسوريا وفي العلاقات الاسلاميـة والمسيحية ، فقد ادعى بالالوهية ، وسام اهل الذمة الذل والهوان لردح من الزمن ، وامر بتهديم دور العبادة المسيحية ولم تسلم من تخريباته كنيسة القيامة ، مما كان لها اهم الآثار في الدعاية للحملة الصليبية الاولى فيمـا بعد[٢٠] ، ناهيك عن تأثيراته السلبية حتى بعد اغتياله والتي لا تقل خطورة عما كانت عليه تصرفاته اثناء حياته ، حيث انكر البعض مقتله واصروا على انه رفع للسماء فكان من ذلك الفرقة الدينية الدرزية ،

استمرت الاوضاع المضطربة تعصف بالكيان الفاطمي في اكثرية سني حكم المستنصر ١٠٣٦ ـ ١٠٩٤ ، بالرغم من الجهود التي بذلها الوزير الارمني الاصل بدر الجمالي ، اذ كان المستنصر ميالا للعبث واللهو ونسبت اليه تصريحات تندد بالقيم الاسلامية ، وادت تصرفاته الى تمرد احدى فرق جيشه سنة ١٠٦٧ ونهبها قصر الخلافة واندلاع الحرب الاهلية ،

ادت وفاة المستنصر سنة ١٠٩٤ الى تجدد الفتنة حول العرش ، اذ خلف ولدين هما المستعلي ونزار ، واستقر رأي الوزير الافضل بن بدر الدين الجمالي على اسناد الخلافة الى المستعلي متغافلا عن حق نزار الذي ايدته الطائفة الدرزية وكذلك فرقة الاسماعيلية الايرانية برئاسة ابـن الصباح ،

انتهز السلاجقة ظروف الفاطميين الصعبة فتوسعوا في المناطق السورية وتهاوت المدن الرئيسية امامهم كالقدس سنة ١٠٧١ ودمشق سنة ١٠٧٦ وحلب سنة ١٠٨٢ ثم اكثرية مدن السواحل ، واستمر الصراع بين السلاجقة والفاطميين في الجهات السورية حتى سنة ١٠٩٧ ، وبالرغم من استعادة الاسطول المصري المعظم مدن الساحل حتى مدينة جبيل شمالا سنة ١٠٨٩

---

(20) W. Durant, The Age of Faith, 325-1300 (N. Y., 1950) 285.

الا ان المناطق الداخلية بقيت بيد السلاجقة وحلفائهم من امراء الاعراب او المـدن او التركمان اللهم الا مدينة القدس حيث استرجعتها الجيوش الفاطمية سنة ١٠٩٨ .

مشاكل الامبراطور الكسيوس الاول الدفاعية :

يعتبر اعتلاء الكسيوس الاول العرش البيزنطي ١٠٨١ ـ ١١١٨ نهاية لعصر الفوضى التي سادت الامبراطورية منذ اندراس الاسرة المقدونية ١٠٥٦ . ومع ذلك فقد ورث الكسيوس تركة مثقلة بالمسئوليات الخطيرة خاصة في المجالات الخارجية . اذ كان عليه تصفية الجبهات المعادية على حدوده . فهناك النورمنديون من جهة الادرياتيك والبشناق والكومان من جهات الدانوب والسلاجقة في آسيا الصغرى . فقد اغار النورمنديون سنة ١٠٨١ علـى سواحل البلقان واحتلوا دورازو سنة ١٠٨٢ وهددوا بالاستيلاء على القسطنطينية ذاتها . لهذا تحالف الكسيوس مع البنادقة لمكافحة الخطر المشترك . ومنح البنادقة لقـاء ذلك امتيازات اقتصادية واسعة في الامبراطورية كونت فيما بعد متاعب جمة للسلطات البيزنطية(٢١) . وعلى كل فقد خف الخطر النورمندي على اثـر وفاة روبرت كيسكارد سنة ١١٨٥ .

لقد حالف الحظ الكسيوس بالنسبة للبشناق والكومان والسلاجقة دبلوماسيا وعسكريا بتغلبه على الحلف البشناقي ـ السلجوقي . حيث اتفق الامير السلجوقي زاكاس امير منطقة ازمير مع قبائل البشناق من اجل الاستيلاء على القسطنطينية واقتسام الامبراطورية وحاصر البشناق فعلا العاصمة برا بينما فرض زاكاس عليها الحصار بحرا ١٠٩٠ ـ ١٠٩١ . وتمكن الكسيوس بوسائله الدبلوماسية من استمالة قبائل الكومان الذين انزلوا هزيمة كبرى في القبائل البشناقية تحت اسوار القسطنطينية ، واضطر زاكاس لرفع الحصار البحري . وتخلص الكسيوس من خطر زاكاس نهائيا ببذره الشقاق بين زاكاس وقليج ارسلان امير امراء السلاجقة في آسيا

---

(21) E. Gibbon, The Decline and Fall of The Roman Empire, Vol. V (London, 1962) 561-75.

الصغرى حيث دبر هذا اغتيال ذلك الامير[٢٢] ٠

حقا ان المصاعب الداخلية والخارجية التي واجهتها الامبراطورية في فترة ١٠٧١ ــ ١٠٩٠ كانت لها تأثيرات بعيدة المدى ، بالنسبة لكل من الامبراطورية البيزنطية والمشرق الاسلامي وانها من جملة اسباب الاندفاع الصليبي نحو تلك الجهات ٠ اذ اخذت السلطات البيزنطية منذ كارثة مانزكرت تناشد بعض حكام اوربا والبابوية تقديم المساعدات العسكرية ٠ حيث جرت مفاوضات في هذا الشأن في عهد الامبراطور ميخائيل السابع ١٠٧١ ــ ١٠٧٨ مع هنري الرابع امبراطوز الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وكذلك مع البابا كريكوري السابع ١٠٧٣ ــ ١٠٨٥ ٠ وقد فكر قداسته جديا في تأليف جيش يقوده بنفسه لمساعدة البيزنطيين ثم اشار الى الاميرين الفرنسيين ريموند الجيلي وكودفري بضرورة المشاركة في ذلك الجيش المزمع تشكيله ٠ غير ان البابا عدل عن رأيه لعدم وصول الجانبين البيزنطي والبابوي الى اتفاق حول اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية ٠ لا بل راح يبارك مشروع حليفه روبرت كيكارد في الهجوم على الامبراطورية البيزنطية ٠ ومع ذلك اخذت السلطات البيزنطية تتطلع مجددا للمساعدات الغربية العسكرية ايام محنة الامبراطور الكسيوس الاول ٠ اذ جرت مفاوضات بين ذلك الامبراطور والبابا أوربان الثاني سنة ١٠٨٩ حول المساعدات العسكرية لقاء تصفية الامر بين كنيستي روما والقسطنطينية ٠ كما طلب الكسيوس من امير فلاندرز ان يجهزه بفرقة عسكرية مأجورة لقتال المسلمين ، وذلك عندما كان هذا الامير في القسطنطينية في طريق عودته سنة ١٠٩٠ من حج بيت المقدس[٢٣] ٠

وعلى العموم ان سياسة الكسيوس في مجاليها العسكري والدبلوماسي انقذت الامبراطورية من مشاكلها الخارجية وخاصة بعد فشل الحصار البشناقي السلجوقي للعاصمة ٠ ولم يعد للمبراطور حاجة آنذاك في الالحاح في طلب الفرق العسكرية الاوربية الاجيرة ٠

---

(22) Vasiliev, op. cit., 384-85.

(23) Newhall, op. cit., 38-39.

تفكك الدولة السلجوقية والاوضاع العامة في سوريا :

انقسمت دولة السلاجقة من ناحية واقعية اثر وفاة ملكشاه سنة ١٠٩٢ الى ثلاث وحدات اساسية متناحرة فيما بينها ، فهناك سلاجقة الاناضول وايران وسورية ، فمع ان السيادة القطرية في آسيا الصغرى الى قليج ارسلان فهو في نزاع مستمر مع امارتي ازمير والدنشمند مما فسح المجـال امام الامبراطور الكسيوس للتدخل في شئونهم والامعان في تفرقتهم ، هذا مع العلم ان لسلاجقة ايران السلطة القطرية على كافة الاجزاء السلجوقية الاخرى الا انهم كانوا في مشاكل وحروب داخلية زعزعت سيادتهم في ايران والعراق ايضا ، وقد بدأ الصراع حول العرش حالما توفي ملكشاه ، اذ اسند هذا عرش السلطنة الى ابنه برقياروق حيث نازعه عليه عمه تتش بن سليمان امير سلاجقة سوريا ١٠٧٧ ـ ١٠٩٥ ، فخاض تتش الحرب في جبهتين ، الجبهة العراقية السورية حليفة السلطان برقياروق ، وتألفت من امارات الموصل في عهد كربوغا وحلب في عهد اقسنقر والرها ، وكتب له النصر في هذه الجبهة وتمكن من قتل اقسنقر ، ثم واصل القتال في الجبهة الثانية الايرانية الا انـه مني بالهزيمة في موقعة الري طهران الحاليـة سنة ١٠٩٥ حيث هلك فيها تتش ، وتعد معركة الري هذه التي اسفرت عن مقتل تتش فاتحة للحروب الاهلية التي اجتاحت سوريا مما بعثرت الجهود وسهلت الزحف الصليبي ،

ظهرت في سوريا سنة ١٠٩٥ اربع امارات سلجوقية هي : حلب حكمها رضوان بن سليمان ودمشق لدقاق بن سليمان والقدس لسقمان بن الارتق وانطاكيا تحت حكم ياغي سيان ، ناهيك عن الامارتين العربيتين هما طرابلس وشيزر ، استقل بالاولى القاضي ابن عمار عن الفاطميين منذ سنة ١٠٨٩ ، اما الثانية فأسسها علي بن منقذ ١٠٨١ وهي موطن المؤرخ أسامة بن منقذ حفيد المؤسس ،

اشتبكت الامارات السورية السلجوقية والعربية في صراعات حادة متداخلة ١٠٩٦ ـ ١٠٩٧ تمركزت بالدرجة الاولى حول النزاع بين الاخوين رضوان ودقاق ، وهكذا انقسمت سوريا وديار بكر بين محوري حلب ودمشق ، اذ التف اراتقة ديار بكر وقبائل بني كلاب العربية وامارة شيزر

حول محور حلب • بينما التف حول محور دمشق اراتقة القدس وياغي سيان امير انطاكيا حتى سنة ١٠٩٧ ودارت رحى معارك متعددة بين اطراف المحورين•وكان المحور الحلبي موجها الهجوم على امارة شيزز حينما كانت طلائع الحملة الاولى الصليبية قد شارفت الجهات السورية • لهذا انسحب رضوان الى حلب وياغي سيان الى انطاكيا • وكان الاخير قد اختلف مع دقاق امير دمشق فانضم الى المحور الحلبي وارتبط مع رضوان بأواصر النسب سنة ١٠٩٧ • اما دقاق لم يكترث للتقدم الصليبي سنة ١٠٩٨ وراح يهاجم بجيوشه ديار بكر • كما انتهز الفاطميون ذلك الظرف فاحتلوا القدس •

اما النعرات المذهبية فقامت بدورها التخريبي حسب الاصول في الجهات السورية • فبالاضافة الى النزاع بين اتباع الفاطميين والسلاجقة من ناحية روحانية فهناك سكان جبل لبنان الذين عصفت بهم التفرقة الدينية • اذ لم يطق الموارنة جيرة النصيرية في الشمال ولا الدروز في الجنوب • وتعرض النصيريون لسيوف الصليبيين بينما كانت السيوف المارونية مع الغزاة وفضل الدرزيون التعاون مع السلاجقة • كما كانت هناك حركة في دور التفقيس كتب لها تاريخ حافل فيما بعد الا وهي الاسماعيلية النزارية او كما تسمى في الغرب فرقة الحشاشين(٢٤) •

الاسماعيلية النزارية :

ظهرت هذه الفرقة في العقد الاخير من القرن الحادي عشر • وتدين بوجودها وتنظيماتها الاساسية الى الحسن بن الصباح • ولد هذا في مدينة قم الايرانية الا انه يعتقد بأن والده عراقي من اهل الكوفة • شب الحسن اماميا اثني عشريا • غير انه تحول الى الاسماعيلية تحت تأثيرات الداعية الاسماعيلي ناصر خسرو • لهذا اخذ يبشر في بداية امره للخلافة الفاطمية • فكسب اعوانا في البلاد الايرانية تمكن بهم من الاستيلاء على معاقل حصينة من اهمها قلعة الموت (عش العقاب) سنة ١٠٩٠ • الا انه انفصل عن

(24) Ibn Al-Qalanisi, The Damascus Chronicle of The Crusades, trans. by H. Gibb (London, 1967) 14-32.

الفاطميين روحيا عند وفاة المستنصر سنة ١٠٩٤ • لانه فضل خلافة نزار بدلا من اخيه المستعلي وكلاهما ولد المستنصر • ومن هنا اخذت فرقة الاسماعيلية التي ازرت نزارا تعرف بالنزارية والتي اصبحت لها تأثيرات كبرى في جهات ايران والعراق وسورية •

والاسماعيلية من الفرق الاسلامية التي تتمسك بالولاء بآل البيت وتتفق مع الفرق الشيعية بالولاء الى البيت العلوي الى الامام السادس من أئمة الشيعة الاثني عشر الا وهو الامام جعفر الصادق • واختلفت فرقة الاسماعيلية مع الركب الاثني عشري بأتباعها اسماعيل بن جعفر الصادق ، الابن الاكبر ، بينما اتبع الآخرون امامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق حسب وصية والده المتوفي سنة ٧٦٥ • اما الاسباب التي حدت بالامام السادس استثناء ولده الاكبر اسماعيل من وراثة الامامة فهي من الامور الغامضة • غير ان هناك من يعتقد بأن السبب في ذلك تطرف اسماعيل في موقفه السلبي تجاه العباسيين • والتف حول اسماعيل اتباع عديدون اطلقت عليهم تسمية الاسماعيلية • واصبحت لهم بمرور الزمن آراء فلسفية وتنظيمات سياسية •

اعتمدت آراؤهم الفلسفية على الافلاطونية الحديثة الى حد كبير • وفسروا الآيات القرآنية بطريقتين : ظاهرية وباطنية • اذ لا يمكن ادراك المعاني الباطنية غير الامام ولهذا فيشار لهم بالفرقة الباطنية ايضا • كما تفلسف الاسماعيلية في تفسير التاريخ حسب معتقدهم • فقسموا التاريخ الى مراحل باطنية واخرى ظاهرية • فهناك فترات تحتم اختفاء الامام تجنبا للاضطهاد والملاحقة وهناك فترات تحتم ظهوره لانتفاء الاسباب الموجبة لتخفيه •

استهوت الآراء الاسماعيلية جماعات لا يستهان بها ، قامت بادوار خطيرة في مجالات الفكر والسياسة • ويعتقد بأن جمعية اخوان الصفا وخلان الوفا تقارب الاسماعيلية رأيا وكذلك القرامطة الى حد ما(٢٥) •

---

(25) Bernard Lewis, The Ismailites and The Assassins, in A History of Crusades, Vol. I Edt. Settan (Penns., 1958) 102-4.

وانتشر دعاة الاسماعيلية في مختلف البقاع الاسلامية في ايران وسورية واليمن والشمال الافريقي • وتكللت مساعيهم في تأسيس الدولة الفاطمية في تونس اولا وامتدت سيطرتهم الى مصر سنة ٩٦٩ حيث اصبحت مقرا لحكمهم • وتعتبر فترة قيام الخلافة الفاطمية مرحلة ضرورية تحتم ظهور الامـــام •

حدث اول انشقاق للاسماعيلية عندما رفض بعضهم الاعتراف بمقتل الحاكم بأمر الله سنة ١٠٢١ حيث اصروا على انه رفع الى السماء رافضين الطاعة لمن جاء بعده • وقاد هذه الحركة في الاراضي السورية فارسي اسمه درزي حيث ايد رأيه قسم كبير مـــن الاسماعيلية هناك واخذوا يعرفون بالدروز • كما حدث الانشقاق الثاني في عهد خلافة المستنصر ١٠٣٦ــ١٠٩٤ والسبب في ذلك تسلط الجهاز العسكري على الخليفة • اذ كان هناك في البداية وزير مدني يرأس الاجهزة الادارية ليستمد اوامره من الخليفة الملهم من قبل الله •

ان المعارك الضارية بين فرق الجيش المصري ، السودانية والليبية والتركية والتي دامت منذ سنة ١٠٦٧ حتى سنة ١٠٧٤ ادت الى وقوع الخلافة الفاطمية كليـــة تحت السيطرة العسكرية • اذ استدعى الخليفة المستنصر قائد الحامية المصرية في عكا والمسمى بدر الجمالي الارمني الاصل سنة ١٠٧٣ لانقاذ البلاد من الفوضى • وما ان تم له ذلك حتى تقلد الوزارة سنة ١٠٧٤ وتلقب بالملك واصبح المتصرف باختصاصات الامامة الفاطمية •

اثارت تصرفات الجمالي بالنسبة للخلافة الفاطمية الاسماعيلية خاصة في سورية وايران • وحاول ابن الصباح عبثا سنة ١٠٨٧ في زيارته لمصر المفاوضة مع اقطاب الفاطميين لاعادة الخلافة الفاطمية لمنزلتها الاولى • حيث امرته السلطات المصرية بمغادرة البلاد(٢٦) • فكان ذلك تمهيدا لمغادرة الزعامة الروحانية ارض مصر الى قلعة الموت •

اعلـــن ابـــن الصباح والاسماعيليون المتطرفون في سوريا وايران الانفصال النهائي عن السلطات الفاطمية الحاكمة في مصر سنة ١٠٩٤ •

---

(26) H. Gibb, The Caliphate and the Arab States, in Setton op. cit., 90.

وذلك على اثر وفاة المستنصر وما دار من صراع حول الوراثة بين نزار والافضل بن بدر الجمالي • اذ فضل الاخير تنصيب المستعلي خليفة وهو في عمر الخامسة بدلا من اخيه الاكبر نزار صاحب الحق الشرعي بموجب وصية والده • ودارت مناوشات بين نزار وقوات الافضل انتهت بانتصار الاخير وايداع نزار وابنه السجن حيث قضيا نحبيهما • لهذا ايد ابن الصباح استمرار الامامة في نسل نزار • وقويت حجته في الدفاع عن اصحاب الحقوق الشرعية حينما اصبح حاميا لطفل هربه البعض اليه قيل انه حفيد نزار •

وجدت الاسماعيلية المتطرفة في سوريا وايران في ابن الصباح القائد الثوري والرحاوني الملهم والذي اصبح قوة يخشى بأسها منذ استيلائه على قلعة الموت سنة ١٠٩٠ والتي راح يقذف منها حمم الموت على اعدائه من حكام وامراء حتى وفاته سنة ١١٢٤ • ويعتبر ابن الصباح المسئول الاول عن تنظيم النزارية فكريا وتكتيكيا • اذ اكد على الاتجاهات الثورية المتطرفة والارهاب والاغتيال والسرية التامة والطاعة العمياء والتنظيم الخلوي •

اما التنظيم الذي اتبعه ابن الصباح فقمته الرئيس او شيخ الجبل وقاعدته الفداوية • والرئيس نائب الامام الغائب وتليه مرتبة كبار الدعاة وهم في جمعية ثلاثية تستمد الاوامر مباشرة من القمة لايصالها عن طريق مرتبة الدعاة الصغرى لسائر الاطراف • وفي الاخير الخلايا الفدائية المسئولة عن تنفيذ الاوامر الارهابية والاغتيالية • وعرف الغرب الفرقة النزارية تحت اسم Assassins وذلك اما لكونهم يمارسون القتل او لتعاطيهم مادة الحشيش المخدرة اثناء تدشين الفدائيين او لتناولهم اياها اثناء الانطلاق للعمل الدموي(٢٧) •

تغلغلت زمر ابن الصباح في الاراضي السورية نافذة اليها من الجهات الشمالية الشرقية في الوقت الذي غزتها الجموع الصليبية من جهاتها الشمالية الغربية •

---

(27) Phil. Hitti, History of Syria (N. Y., 1957) 610.

آراء في قيام الحرب الصليبية

استعراض سريع لأهم ما قيل عن الحروب الصليبية ، نماذج لمختلف المؤرخين في مختلف الازمان .

الاختلافات في تحديد الفترة الصليبية وطبيعتها .

الاسباب العامة لقيام الحرب الصليبية الاولى ـ الدينية ـ الاقتصادية ـ السياسية والعسكرية .

دور البابا أوربان الثاني ـ الخطاب التاريخي العظيم .

استعراض لأهم الآراء :

لا شك ان الحروب الصليبية من الحوادث الكبرى في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصر الوسيط • لذا اصبحت مجالا خصبا للبحث والاستنتاج على مر الدهور • وسار المؤرخون باتجاهات جديدة في بحث الموضوع منذ بداية القرن التاسع عشر • فلم يعد الغشاء التعصبي الذي سيطر على اذهان المؤرخين حينا من الدهر قولا فصلا في تعليل الظاهرة الصليبية وتقييمها • اذ ادرك الفرنسيون قبل غيرهم اهمية تلك الحوادث في سير المدنية الاوربية في النواحي الاقتصادية والثقافية والسياسية • فقد خصصت الاكاديمية الفرنسية سنة ١٨٠٦ جوائز سنية لاحسن ما يكتب في الموضوع من حيث تأثيرات الصليبية في التطورات الدستورية والاقتصادية والاجتماعية بصورة عامة في اوربا • فتقدم كل من المؤرخين Heeren

الالماني وشواسول الفرنسي في بحثين مستقلين اصدرتهما الاكاديمية الفرنسية سنة ١٨٠٨ • وقد نظر كل منهما الى الحروب الصليبية من زوايا جديدة لم تكن مألوفة قبلا • وهكذا توالت النظريات والتحليلات تباعا في بحث طبيعة تلك الحروب[1] •

ولكن على علم مقدما بأن تسمية تلك الحروب بالصليبية ما هي الا تسمية حديثة استحدثها المؤرخون • اذ كانت الاشارة لها حجا سواء اكان الحجيج مسلحا او اعزلا • ومهما يكن من امر هذه التسمية فقد ابديت في تلك الحروب آراء مختلفة زمانا ومكانا • فقد فهمها المؤرخ الديني Guibert of Nogent في اوائل القرن الثاني عشر (انهـا وسيلة جديدة ارادها الله للبشر من اجل التكفير عن الآثام ولغاية الخلاص)[2] • ومن الطريف حقا ان نرى المؤرخ وليم الصوري الذي عاصر الحوادث الاولى ، يعتبر الحرب الصليبية عبارة عن كفاح بين المسيحيين والفرس عبدة النار بدأ منذ استيلاء الفرس على القدس سنة ٦١٤ ونهبهم الصليب المقدس • وان الحروب الهرقلية ذات المظهر الديني انتهت بانتصار الصليب واندحار الفرس • ثم استؤنفت بين المسيحيين والمسلمين منذ سقوط القدس سنة ٦٣٨ بيد المسلمين[3] • بينما نظر مؤرخو البروتستانت للحروب الصليبية بأنها بدعة استغل فيها البابوات ••• الاوهام ليوسعوا سلطانهم[4] • واعتبرها اتباع الفلسفة العقلية في عصر النور ، انها مجرد اندفاعات عاطفية انتجتها جاهلية العصر الوسيط • اذ اشار المؤرخ كبون على سبيل المثال : (انها من مظاهر العناد العنيد تستحق الرثاء منا والاعجاب بوقت واحد • جازف فيها الناس بكل ما يملكون على اختلاف مراتبهم الاجتماعية لستة اجيال متعاقبة ومن اجل ماذا ؟ لمحاولة الاستيلاء على جدث تباعدهم عنه مسافة الفي

---

(1) A. Vasiliev, History of The Byzantine Empire, Vol. II (Madison, 1964) 389.

(2) Quoted in: R. Pernoud, The Crusades, trans. by Meleod (London, 1962) 13.

(3) William of Tyre, A History of Deeds Done Byond The Sea, 2 Vols. trans. by Babeock and Krey.

(4) R. Newhall, The Crusades (N. Y., 1963) 4.

ميل)[٥] • اما مؤرخو المدرسة الرومانسية في اوائل القرن التاسع عشر ، فاعتبروها مظهرا مـــن مظاهر الفروسية وبطولاتها • وفهمها المؤرخون الاقتصاديون بانها هجرة عارمة من الغرب الى الشرق سعيا وراء عيش افضل •

هذا وقد عكس قسم من المؤرخين المعاصرين تلك الآراء في بحثهم الحروب الصليبية ايضا • حيث عرفها المؤرخان ستريز ومونرو بأنها حركة رومانسية كبرى في تاريخ العصور الوسطى ومظهرا من مظاهر التجديد والنشاط للمجتمع الاوروبي التي طرأت عليه بعد زوال خطر الغزو الثاني لاوربا • وهي ايضا حركة توسع ديني ودنيوي منبعثة من التفاؤل الذي عم اقسام اوربا الغربية منذ بداية القرن الحادي عشر[٦] • ويقول عنها فازليف : انها من اهم مراحل الصراع بين المسيحية والاسلام منذ القرن السابع • ومع ذلك فلم يكن الصراع نقي اذ امتزجت فيه اغراض دينية بجانب غرض تخليص الاراضي المقدسة[٧] • واشار اليها ريان Riant بأنها حرب دينية خالصة هدفت لاسترجاع الاراضي المقدسة وتأسيس دولة لاتينية فيها • ويشير اليها المؤرخ رنسيمان : سواء اكانت الحروب الصليبية من اعظم المغامرات الرومانسية او انها آخر الغزوات البربرية فانها تمثل واقعا اساسيا في العصر الوسيط • اذ كان مركز المدنية في بداية تلك الحروب البــلاد البيزنطية والاراضي الاسلامية وما ان اوشكت على الانتهاء حتى اصبح زمام الحضارة في الاقطار الغربية • وتولد من ذلك الانتقال التاريخ الحديث لاوربا[٨] •

اما بالنسبة لمؤرخي المسلمين الذي عاشوا الفترة الصليبية فانهم على العموم اعتبروها مـــن مظاهر التعصب الديني وانها رد فعل للفتوحات

---

(5) E. Gibbon, The Decline and Fall of The Roman Empire Vol. 6 (London, 1962) 102.
(6) Strayer and Munro, The Middle Ages, 395-1500 (N. Y., 1942) 32.
(7) Vasiliev, op. cit., 389.
(8) S. Runciman, A History of The Crusades, Vol. I (Cambridge, 1957) XI.

الاسلامية وانتشار الاسلام ، وعبر عن ذلك ابن الاثير بقوله انها حرب ثأريـة .

وهناك رأي يأخذ به بعض مؤرخي الغرب ويساندهم فيه قسم من مؤرخي العرب المحدثين ، فالمؤرخ ماريوت مثلا يعتبرها مظهرا من مظاهر المسألة الشرقية التي تمثلت بذلك الصراع الابدي بين الشرق والغرب حول الحدود الايديولوجية غير المحددة ، والذي تمثل في العصور القديمة في الصراع بـين الفرس واليونان وبـين الفرس والرومان وبـين الفرس والبيزنطيين ، واتخذ في العصر الوسيط عند ظهور الاسلام صبغة دينية ، حيث استؤنف الصراع بين الاسلام والمسيحية على جبهتين هما : الجبهة البيزنطية في الشرق والجبهة الاسبانية ــ الفرنسية ــ الايطالية في الغرب ، ثم ورث العثمانيون النزاع في صراعهم مع البيزنطيين ، ومن ثم بين العثمانيين والدول الاوربية[٩] ، وعلى ذلك الاساس فلعله يتمثل في الاستعمار بشكليه القديم والجديد وبين الشيوعية والرأسمالية ، ويأخذ بذلك الرأي المؤرخ كروسيه ايضا[١٠] ، ونسج الاستاذ عزيز عطية على ذلك المنوال بقوله انها مسألة شرقية مستعصية الحل منـذ القديم حاولت شعوب اوربا ودولها ايجاد الحلول لها في مختلف العصور فالحروب الصليبية حسب رأيه عبارة عن محاولة فرنسية لحل المسألة الشرقية في العصر الوسيط[١١] .

الاختلاف في تحديد الفترة الصليبية وطبيعتها :

ومهما تعددت الآراء في تعريف الحروب الصليبية فلا يسع المرؤ الا وان يلحظ منها اختلافات اساسية بين المؤرخين حول نقطتين اساسيتين هما : اولا تحديـد الفترة زمنيـا وتشخيص طبيعـة الحروب الصليبيـة ، وثانيا : الاسباب الحقيقية لتلك الحروب .

اما بالنسبة للنقطة الاولى : فتذهب بعض الآراء الى ان الحروب

(9) J. Marriott, The Eastern Question (Oxford, 1958) 1.

(10) A. Grosset, L'Empire du Levant-Histoire de la Question d'Orient au moyen age (Paris, 1946) 1.

(11) A. Atiya, Crusade, Commerce and Culture (London, 1962) 23.

الصليبية بدأت منذ انتشار الاسلام واصطدامه بالقوتين الاوربيتين المتمثلتين في كـل مـن الفرنجة غربـا في العهدين الميروفنجي والكارولنجي وفي الامبراطورية البيزنطية شرقا اذ اخذ الفرنجة على عاتقهم مسئولية الدفاع عن المسيحية في الجهات الغربية في اوربا ضد مسلمي الاندلس في عهد الحاجب الميروفنجي شارل مارتل ٠ وقد تمكن هذا من ايقـاف الزحف الاسلامي سنـة ٧٣٢ في موقعة بـلاط الشهداء ٠ ثـم نهض الفرنجة الكارولنجيون بأعباء الدفاع عن اوربا والاراضي المقدسة ايضا ، متبعين وسائل عسكرية ودبلوماسية بالنسبة للاندلس ومكتفين دبلوماسيا بالنسبة لمسيحيي الاراضي المقدسة ٠

وقد يقال عن العلاقات الدبلوماسية بين ابي جعفر المنصور العباسي وببين القصير ٧٤١ ـ ٧٦٨ بأنها لا تعدوا حدود المجاملات ٠ ولكن هل تمنع المجاملات من وجود مصالح متبادلة ورائها ؟ ان العداء المشترك بين الفرنجة والعباسيين للامويين في الاندلس هو احدى تلك المصالح المتبادلة ٠ ولا يستبعد بأن الوفد الدبلوماسي الفرنجي الذي ارسله ببين سنة ٧٦٢ الى الخليفة العباسي له علاقة بحركة العلاء بن مغيث الحضرمي في الاندلس٠ كما سار شارلمان في عهديه الملكي والامبراطوري على نفس النهج تجـاه العباسيين متوخيا الضغط على الاندلس بمساعدة تأييد العباسيين الادبي ولتأمين مهمة الزوار المسيحيين للقدس وكان يأمل استمرار الضغط العباسي على الامبراطورية البيزنطية في وقت كانت فيه علاقاتها سلبية مع شارلمان لتوسعاته في ايطاليا ولقبوله التاج الامبراطوري الروماني في حادثة التتويج الشهيرة التي تمت في روما سنة ٨٠١ ٠ ويؤكد المؤرخ الفرنجي الكارولنجي اينهارت ان الوفد العباسي الذي ارسله هارون الرشيد سنة ٨٠١ الـى شارلمان كان لتهنئة شارلمان علـى تتويجه امبراطورا ولبحث العلاقـات المشتركة ضد الاندلس ٠ وقـد استمرت تلك العلاقات بـين الاسرتين الكارولنجية والعباسية في عهدي كـل مـن الامبراطور لويس بايوس ٨١٤ ـ ٨٤٠ والمأمون(١٢) ٠

---

(12) راجع للمؤلف ، العصور الوسطى الاوربية ، ٤٧٦ ـ ١٥٧ (بيروت ، ١٩٦٨)

ان العلاقات الكارولنجية ـ العباسية من المواضيع التي تعددت فيها الآراء وتشعبت من حيث وجودها وصحتها ومداها • فهناك من مـن استبعدها لعدم ذكرها في المصادر الاسلامية ، ويتساءلون ايضا ايمد خلفاء عظام امثال ابي جعفر المنصور وهارون الرشيد والمأمون حماة الاسلام الايدي لمصافحة قادة دار الحرب وتوجيه السيوف نحو صدور المسلمين ؟ ! ولعل ذلك التساؤل هو من اسباب اسقاط اخبار العلاقات الكارولنجية العباسية من كتب التاريخ الاسلامي •

امـا الذين يسلمون بوجود العلاقات الدبلوماسية بـين الفرنجة والعباسيين فيحللونها كالآتي : اولا ، هدف الكارولنجيون كسب تأييد العباسيين المعنوي لتبرير تدخلاتهم في الاندلس لكي يظهروا قادة المعارضة للحكم الاموي هناك حلفاء الكارولنجيين ، بأنهـم يقاومون الامويين لا الاسلام لعدم اعترافهم بالخلافة العباسية • ثانيا ، توخي الكارولنجيون خدمة المسيحية عن طريق الاهتمام بالاراضي المقدسة للسهر على راحـة الحجاج ورعاية المسيحيين هناك • ومن هنا نشأ الرأي القائل بأن شارلمان وضع اسس النفوذ الفرنجي في الاراضي المقدسة لما انشأه من مؤسسات خيرية في تلك الجهات ولتسلمه مفاتيح كنيسة القيامة التي حملها اليه رئيس اساقفة القدس • ثالثا ، وجد شارلمان في هارون الرشيد حليفا طبيعيا ضد البيزنطيين • وامل منه مواصلة الضغط العسكري على الدولة البيزنطية لتغض النظر عن توسعاته في ايطاليا ولتسوي مشاكلها مـع كنيسة روما ولتعترف بلقبه الامبراطوري[١٣] •

اما الذين يعتبرون الحروب البيزنطية ـ العربية الاسلامية حربـا صليبية فيذهبون الى ان اباطرة البيزنطيين لم يهملوا بالمرة موضوع القدس• اذ اتخذت المعارك طابعا صليبيا في عهد نقفور فوكاس ٩٦٣ ـ ٩٦٩ الذي حقق انتصارات هامة على المسلمين بحرا وبرا • اذ استرد جزيرة كريت سنة ٩٦١ وتغلب على الحمدانيين واسر ابا فراس الحمداني واستولى على

---

(13) راجع : الدكتور مجيد خدوري ، العلاقات الدبلوماطيقية بين هارون الرشيد وشارلمان (منشورات نادي القلم ـ بغداد) ١ ـ ٧٠ .

انطاكيا سنة ٩٦٩ ثم واصل البيزنطيون تقدمهم على حساب المسلمين في عهد الامبراطور يوحنا ٩٦٩ ـ ٩٧٦ ، حيث اصبحت ولاية حلب تدفع الاتاوات السنوية للبيزنطيين ، وحاول هذا الامبراطور الاندفاع نحو القدس لتخليصه من المسلمين ، حسب رسالة بعثها الى ملك ارمينيا آشوت الثالث حيث جاء فيها (اليك النبأ الرائع : لقد حررت سوريا ... من نير المسلمين واعترفت اماكنها بحكم الرومان ... وان لم يعتصم عبدة الأوثان في قلاع الساحل فاننا سوف ندخل مدينة القدس ونبتهل فيها الى الله بعونه)[١٤] .

هذا ولم يعدم البيزنطيون الوسائل الدبلوماسية في محاولة استعداء الامويين في الاندلس ضد العباسيين واتباعهم في الشرق ، اذ فاتح الامبراطور ثيوفيل ٨٢٩ ـ ٨٤٢ الامويين في الاندلس من اجل تكوين حلف ضد العباسيين ، وهذا ما تشير اليه صراحة رسالة الامبراطور البيزنطي الى عبد الرحمن الاوسط حيث ذكره فيها بملك اجداده في المشرق وضرورة استعادته ، وفيها اشارات تهكم على المأمون والمعتصم ، واجاب عبد الرحمن الاوسط عن رسالة ثيوفيل بوفد رسمي ثنائي لمقابلة الامبراطور في القسطنطينية[١٥] ، وبالرغم من ان المفاوضات البيزنطية الاندلسية لم تثمر عن نتائج ايجابية في ذلك الشأن الا ان احد العضويين الاسلاميين في ذلك الوفد الا وهو يحيى بن الحكم الملقب بالغزال خلف ورائه مغامرات مع زوجة الامبراطور وابنها[١٦] .

ومن الجدير بالملاحظة اختلاف المؤرخين حول طبيعة الحروب

---

(14) Vasilev, op. cit., 310-311.

(16) ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ترجمة : محمود سالم ومحمد صلاح حلمي ، (القاهرة ، ١٩٥٦) ٩٣ ـ ١١٠ : بهره جمال زوجة الامبراطور فأطراها واعجبت به . ويقال ان الامبراطورة زارت يحيى في احدى الامسيات الشديدة البرد مع رفقة ابنها ميخائيل وأحضرت اليه معها نبيذا وكان ذلك في احد القصور الامبراطورية في القسطنطينية التي خصصت لسكن الوفد . وقد نظم يحيى بن الغزال بتلك المناسبة قصيدة شعرية جاء فيها :

واغيد لين الاطراف رخص   كحيل الطرف ذي عنق طويل

الصليبية واهدافها ، اهي التي شنت لتخليص الاراضي المقدسة سنة ١٠٩٦ ام ماذا ؟ اذ يشير البعض الى ان اية حرب تشن بأمر البابوية ولها تبريكاتها في اي وقت من الاوقات او في اية جهة كانت ضد المسلمين او المسيحيين المناوئين لكنيسة روما على اعتبارات سياسية او دينية لها طبيعة الحروب الصليبية . فحروب كريكوري السابع ١٠٧٣ ـ ١٠٨٥ والامبراطور هنري الرابع وكافة حروب البابوية فيما بعد مع الامبراطورية الرومانية المقدسة وحروب البابا انوسنت الثالث ١١٩٨ ـ ١٢١٦ ضد الالبجنسيين في الاقسام الجنوبية من فرنسا ما هي الا حروب صليبية ايضا(١٧) .

يفهم مما سبق عرضه ان الحروب الصليبية من المواضيع المختلف فيها من حيث البداية والنهاية ايضا ، ومع ذلك فان بحثنا سوف ينصب على تلك الحروب التي اشعل فتيلها البابا اوربان الثاني سنة ١٠٩٥ تحت شعار تخليص القبر المقدس والتي طورتها الازمان الى صراع شامل مديد بين الشرق والغرب دام حتى نهاية العصور الوسطى .

الاسباب العامة لقيام الحروب الصليبية الاولى :

تكمن بواعث الحرب الصليبية في جملة عوامل دينية واقتصادية وسياسية وعسكرية .

العامل الديني :

ويتضمن هذا النقاط التالية :

١ ـ الاستحواذ على القبر المقدس وتخليص الاراضي المقدسة من السيطرة الاسلامية .

تـرى مـاء الشبـاب بوجنتيـه	يلـوح كرونـق السيـف الصقيـل
مـن ابنـاء الغطـارف قيصري الـ	عمومـة حـين ينسـب والخـؤول
كـأن أديمـه نصفـا بنصـف	مـن الـذهب الـدلاص او الوذيـل
اتـى يومـا الـي بـزق خمـر	شمـول الريـح كـالمسك الفتيـل
وجـاءت امـه معـه فكانـا	كـأم الخشـف والـرشأ الكحيـل
فقلـت حماقـة منـي ونوكـا	فديتـك لسـت مـن اهـل الشمـول
فـأيـة غـرة سبحـان ربـي	لـو انـي كنـت مـن إهـل العقـول

(17) Austin Evan, The Albigensian Crusade, in Setton walff and Hazard, History of The Crusades, Vol. II (Phila., 1962) 277-325.

راجع ايضا ، للمؤلف ، العصور الوسطى ، المصدر السابق ، ٢٥٣ ـ ٢٥٨ .

٢ ـ توحيد الكنيستين الرومانية والارثودوكسية • اذ وصل الخلاف بين روما والقسطنطينية الى القطيعة الشاملة سنة ١٠٥٤ حول مناطق النفوذ بين الكنيستين وحول امور عقائدية وقد حرمت كل منهما الاخرى • فاتخذت القسطنطينية منذ ذلك التاريخ طريقا لا تشارك فيه روما ولم يكتب النجاح لكافة المحاولات التوفيقية التي جرت فيما بعد ، وخاصة في عهدي ميخائيل السابع والكسيوس الاول •

٣ ـ تطلع كنيسة روما الى فرض زعامتها الروحانية على العالم المسيحي الشرقي •

٤ ـ تأمين سلامة الحجاج والسهر على راحتهم عند الوصول للاراضي المقدسة • اذ ان الحج وزيارة قبور الاولياء والتصدق والصوم والاعتراف بالخطايا هي من مظاهر التوبة الى الله وغفران الذنوب • والتوبة هذه عند الكاثوليك احدى الاسرار السبعة المستندة عليها العقيدة • فلا عجب ان يلقى الحج الى القدس اهتماما بالغا من السلطات الدينية والسياسية في الاقطار الاوربية التي تتبع كنيسة روما ، وان تأخذ اخباره بمجامع قلوب المؤمنين •

بدأ الاهتمام بالحج الى القبر المقدس منذ الاعتراف بالديانة المسيحية في عهد قسطنطين الكبير[18] • ويقال ان والدة الامبراطور المسماة (هيلانة) زارت القدس وينسب اليها تشييد كنيسة القيامة • كما ويعتبر القديس جيروم من اوائل رجال الدين الذين اهتموا بتوفير الراحة لقاصدي البيت العتيق في النصف الثاني من القرن الرابع • اذ تمكن هذا من تشييد دورا لاستراحة الحجاج بواسطة تبرعات المحسنين[19] • كما اهتم شارلمان بذلك الموضوع حيث وهب اموالا لرئيس اساقفة القدس ليقيم فيها مؤسسات خيرية للحجاج في مطلع القرن التاسع[20] • الا ان انحلال الامبراطورية الكارولنجية وحوادث الغزو الثاني على اوربا شغلت الاوربيين لقرنين تقريبا عن الاهتمام باداء فريضة الحج •

---

(18) S. Runciman, op. cit., 39.
(19) R. Pernoud, op. cit., 14.
(20) R. Runciman, «The Pilgrimage to Palestine before 1095», in Setton, op. cit., 68-72.

ومن اهم المؤسسات الرهبنية التي اولت الحج عناية خاصة هـي مؤسسة دير كلوني Cluny • وقد اشاد ذلك الدير اثنا عشر راهبا في هضاب برغندي سنة ٩١٠ على الحدود الالمانية الفرنسية ، بموافقة الامير وليم • وقد اصبح لهذا الدير شهرة واسعة وخاصة في عهد رئاسة هيو Hugh ١٠٤٩ ــ ١١٠٩ ، حيث انتشرت الحركة في فرنسا وانكلترا والمانيا وبولندا والمجر وايطاليا واسبانيا • واعتبر رهبان كلوني انفسهم سدنة الوعي الديني للمسيحية الغربية • ومن اهداف ذلك الدير الاساسية اصلاح الجهاز الكنسي ومواصلة الحرب المقدسة في اسبانيا ومن ثم في الاراضي المقدسة ، وبعث الهمم الدينية بعدة وسائل منها الحج(٢١) • والى هـذا المعنى اشار المؤرخ Sybel : ان حركة دير كلوني لعبت دورا هاما في اوربا • اذ الهبت الحماس الديني ••• ان الشعور بالآثام والخطايا التي استولت على الذهن الاوربي آنذاك جعل المجتمع يميل للتكفير عن ذنوبه بالحياة الصارمة المتزمتة والاعمال الروحانية وبالحج(٢٢) •

كان الحجاج الذين يتوافدون على القدس من جهات اوربا الغربية قلة حتى بداية القرن الحادي عشر • اذ اخذت الاعداد بالازدياد الى درجة كبرى في النصف الثاني من ذلك القرن • وتحول الحجاج من فرق مسالمة الى اخرى مسلحة اثارت مخاوف البيزنطيين والمسلمين على حد سواء • ويشير المؤرخان Strayer and Munro الى ان (الوثائق التي بين ايدينا عن العدد من غرب اوربا الى القدس هو ستة في القرن الثامن واثنا عشر في القرن التاسع وستة عشر في القرن العاشر ومائة وسبعة عشر في النصف الاول من القرن الحادي عشر • ثم اصبح سبعة آلاف سنة ١٠٦٥ حيث قافلة الحجاج التي قادها احد رجال الدين الالمان والمسمى Gunthrer كونثر التي لم يعد منها سوى الفين نتيجة لمصاعب السفر وللهجمات التي شنها عليهم البيزنطيون والسلاجقة(٢٣) • ويعتقد بأن من جملة اسباب ازدياد الحجاج

(21) L. Brehier, L'Eglise et l'Orient au Moyen Age. Les Croisades (Paris, 1928) 32-33.

(22) Quoted in vasiliev, op. 397.

(23) Strayer and Munro, op. cit., 355.

الى القدس قبيل الحروب الصليبية تعود الـى تقلص السيادة البحرية الاسلامية والى انفتاح الطريق البري المار عبر البلاد المجرية بعد اعتناق هؤلاء المسيحية منذ سنة ٩٧٥ ٠

وعلى العموم لم يتعرض الحجاج الى مضايقات عند مرورهم على الاراضي الاسلامية عدا فترات قصيرة في القرن الحادي عشر ٠ اذ تشدد مثلا الحاكم بأمر الله الفاطمي في بداية الامر مع المسيحيين وامر سنة ١٠٠٩ بتهديم كنيسة القيامة وهم بتهديم كنائس اخرى ٠ الا انه عدل عن ذلك واخذ يتقرب للمسيحيين على اثر اغتيال بعض دعاته الذين بشروا بألوهيته في جهات القدس من قبل المسلمين ٠ ولعل سياسة الحاكم بأمر الله ضـد المسيحيين كانت في بداية الامر رد فعـل للسياسة البيزنطية التوسعية في عهدي الامبراطورين نقفور ويوحنا ٠ ومع ذلك فقد عادت الامور طبيعية بين الفاطميين والبيزنطيين في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ٠ وذلك على اثر اتفاق الامبراطور قسطنطين التاسع ١٠٤٢ ــ ١٠٥٥ مع الجهات الفاطمية حول ترميم كنيسة القيامة ٠ كما اجاز الفاطميون احد المحسنين اقامة مستشفى في مدينة القدس سنـة ١٠٧١ للاعتناء بمرضى الحجاج المسيحيين ، عرفت بمستشفى القديس جون والتي تحولت فيما بعد الى مركز فرقة الاسبتارية (الداوية) العسكرية ٠

لذا فان الاخبار التي انتشرت في اوربا قبيل الحروب الصليبية عما يلاقيه الحجاج والمسيحيون في الاراضي الاسلامية من اضطهادات من الامور المبالغ فيها ٠ هذا مع العلم ان فرق الحجاج المسلحة كانت بالفعل موضع ريبة البيزنطيين والسلاجقة على حد سواء ٠ وان اخبار الكارثة التي حلت بقافلة كونثر لعبت دوراً خطيرا في اثارة الشعور الديني الانتقامي بـين الاوربيين ٠

العامل الاقتصادي :

طرأت على اوربا في القرن الحادي عشر بوادر نشاط اقتصادي دفعت القسم منهم الى التطلع نحو آفاق جديدة في داخل اوربا وخارجها وتمثل ذلك في ازدياد فعاليات مدن ايطاليا التجارية والطلب المتزايد على الاراضي الزراعية ٠

اما بالنسبة لمدن ايطاليا التجارية فقد حاولت كل من جنوا وبيسزا والبندقية السيطرة على الطرق التجارية البحرية واحتكار الاسواق منذ اوائل القرن الحادي عشر . وقد رأوا في الحركة الصليبية خير وسيلة لغزو مناهل الشرق الاقتصادية . والى هذا اشار المؤرخ شالندون : (ان المتبصر في تاريخ اوربا في القرن الحادي عشر وتطوراته الاقتصادية وخاصة مدن ايطاليا يدرك سر اهتمام تلك المدن بتهيئة السفن ونقل الصليبيين الى الشرق)[٢٤] . ويشير المؤرخ ستيفنسون الى ان مساندة حكومات المدن الايطالية للصليبيين كانت لقاء امتيازات اقتصادية[٢٥] .

اما بالنسبة لازدياد الطلب على الاراضي الزراعية فيتوضح ذلك في اوربا الغربية باستصلاح الاراضي عن طريق قطع الغابات وتجفيف المستنقعات ونشوء تعاقدات اقطاعية جديدة . ويعزا ذلك الى ازدياد النفوس خاصة في فرنسا وتكرر موجات القحط والجفاف . ولعل ذلك من جملة الاسباب التي تفسر لنا سر تبني الفرنسيين للمشاريع الصليبية منذ البداية . اذ ضاقت امارة نورمنديا بالنورمنديين فراحوا يفتشون لهم عن اراضي جديدة تتوافر فيها الخيرات وقلة الاخطار . وعلى هذا الاساس فان الهجرة النورمندية الى الجهات الايطالية الجنوبية والاستيلاء عليها ١٠١٦ ــ ١٠٩١ والاندفاع نحو سواحل الادرياتيك الشرقية والفتح النورمندي لانكلترا سنة ١٠٦٦ والاندفاع الصليبي نحو الشرق ظواهر متلازمة ونتيجة لتطورات اقتصادية داخل المجتمع الاوربي .

الاسباب السياسية والعسكرية :

وتكمن الاسباب السياسية والفكرية في الدرجة الاولى في المأزق الذي وجدت فيها الامبراطورية البيزنطية نفسها في فترة ١٠٧١ ــ ١٠٩١ . حيث وجه الاباطرة خلالها نداءات الاستغاثة الى اوربا اللاتينية طلبا لمساعدات عسكرية لمواجهة الاخطار التي تناوحتها من قبل الجموع غير

---

(24) F. Chalandon, Histoire de la première Croisade jusqu'a l'election de Godefroi de Bouillon (Paris, 1925) 1.

(25) W. Stevenson, The Crusoders in The East (Beirut, 1968) 5.

المسيحية كالبشناق والكومان والسلاجقة . اذ استنجد ميخائيل السابع على اثر كارثة مانزكرت بالبابوية راجيا منها التوسط لدى امراء اوربا لايجاد فرق عسكرية اجيرة لمقاومة اعداء الدين . وكان الاعتقاد السائد في اوربا ان القسطنطينية تمثل خط الدفاع الاول من جهة الشرق ضد المسلمين . وكتب فعلا البابا كريكوري السابع جملة رسائل لحكام اوربا . فقد حث امير برغندي على مديد المساعدة للبيزنطيين . وجاء في رسالته الموجهة الى هنري الرابع امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة قبل ان يستعر الخلاف بينهما (دمر المسلمون المسيحية وساموا المسيحيين انواع الخسف والهوان والعذاب . ففي كل يوم يقتلون اعدادا كبيرة منهم بقصد الابادة ...) وقد طلب البابا منه تقديم المساعدة لكيلا يقضى على الدين في تلك الربوع[(٢٦)] . هذا وقد كرر الامبراطور الكسيوس طلب المساعدة قبل انتصاره على الحلف البشناقي السلجوقي كما ذكرنا آنفا .

كما ان تدهور الاوضاع الداخلية للسلاجقة واشتعال الحروب الاهلية في آسيا الصغرى وسوريا منذ سنة ١٠٩٢ والعداء بين الفاطميين والسلاجقة من الامور المشجعة للزحف اللاتيني نحو الشرق . هذا بالاضافة الى الانتصارات البحرية التي حققتها كل من بيزا وجنوا والنورمنديين على القوى الاسلامية في الجهات الغربية من البحر المتوسط والتي ادت الى بداية انحسار السيادة الاسلامية البحرية في تلك الجهات . وكانت هذه الظاهرة من جملة الاسباب التي شجعت قيام الدعوة الصليبية وسهلت مهمة ارتياد البحر نحو الاراضي المقدسة . كما وجد المغامرون من فرسان اوربا في الدعوة الصليبية ميادين جديدة لممارسة بطولاتهم الفروسية .

دور البابا اوربان الثاني :

اتخذ البابا اوربان الثاني ١٠٨٨ ــ ١٠٩٠ خطوتين هامتين لتحريك الجماهير : الاولى في مؤتمر بيازنزا Piacenza في الجهات الشمالية من ايطاليا في مارس سنة ١٠٩٥ ، والثانية في مؤتمر كلرمونت Clermont في فرنسا في تشرين الثاني سنة ١٠٩٥ . دعا في المؤتمر الاول الى ضرورة

---

(26) Vasilev, op. cit., 396.

مساعدة الدولة البيزنطية عسكريا • وتشير المصادر الى ان وفدا بيزنطيا كان حاضرا في الاجتماع • ومع ذلك فيعتبر المؤرخ بلكريف Palgrave بأن ذلك الوفد كان وفدا مزيفا جاء بافراده الامير النورمندي بوهيمند حيث البسهم ازياء بيزنطية وما هم في الحقيقة الا عملاء لذلك الامير • اذ اراد من وراء ذلك اثارة الحماس في المؤتمرين لتحقيق مآربه على حساب الامبراطورية البيزنطية(٢٧) • وبالرغم من ذلك فلم تكن استجابة المؤتمر بالمستوى المطلوب • لهذا واصل اوربان تجواله في مسقط رأسه فرنسا • فالتقى بأمير طولوز ريموند الجيلي واتفقا على عقد مؤتمر عام في كلرمونت•

استمرت اجتماعات مؤتمر كلرمونت من اليوم الثامن عشر من تشرين الثاني حتى الثامنة والعشرين منه سنة ١٠٩٥ • وحضر المؤتمر ثلثماءة من رجال الدين تدارسوا جملة امور دينية ودنيوية • فأصدروا في حقهـا القرارات كالاستثمار العلماني لوظائف رجال الدين والسيمونية اي المتاجرة بالمناصب الدينية والتأكيد على مراعاة قاعدة العزوبة والهدنة الربانية التي تحرم القتال بين المسيحيين في المواسم الدينية وفي ايام معينة من الاسبوع • ثم اصدر المؤتمر عقوبة التحريم ضـد ملك فرنسا فيليب الاول لتعاطيه الفاحشة • واخبر البابا اوربان المؤتمر بأنه سوف يلقي خطابا جماهيريا ليدلي بتصريح خطير • فراحت الجموع تترى بالالوف الى كلرمونت ولم تكن الكاتدرائية بكافية لاستيعابهم فعقد الاجتماع في البسيطة خارج المدينة من جهات باب سورها الشرقي حيث وضع التاج البابوي على المنصة في وسط السهـل(٢٨) • ومـا ان استكمل الجمـع حتـى نهـض اوربـان ملقيـا خطابـه الشهـير الـذي يعتبـر اعظـم خطـاب في تاريـخ الكنيسة في العصر الوسيـط • حيـث يمثـل البدايـة الرسمية للحرب الصليبية • وقـد وجـه خطابه لابناء جلدته باللغـة الفرنسية بدلا من اللاتينية • وبالرغم من اهمية ذلك الخطاب التاريخي فلم يدون في حينه • اذ اعتمد المؤرخون المعاصرون آنذاك على الذاكرة او الروايات المتناقلة فجاءت رواياتهم متغايرة • ومع ذلك فيورد المؤرخ

---

(27) Quoted in, Ibid., 401.
(28) Runciman, op. cit., 107.

وليم اوف مالمسبوري الخطاب على النحو التالي :

يا امة الفرنج ! يا ابناء السلالة التي احبها الله واصطفاها . وصلتنا من جهات القدس والقسطنطينية انباء مفجعة مفادها : ان امة من الامم ... اشتطت عن السبيل فعاثت في الديار المسيحية سلبا وحرقا وقتلا . فقادوا جموعا منهم اسرى واهلكوا آخرين بالتعذيب المؤلم . ودمروا دور الله واستولوا على بلاد تابعة لليونان شاسعة الامتداد لا تقطع بمسيرة شهرين .

على من تقع تبعية الثأر واستعادة الديار ؟ الا تنهضوا انتم بهذا الامر ؟ يا من شرفكم الله بفضله واسبغ عليكم العزة والسؤدد ... وحباكم من نصره على اعدائكم ... لتكن مآثر الاجداد ... مآثر شارلمان ومن سار بسيرته حافزا لكم ، واستعادة القبر المقدس ... سببا لاستنفاركم . ابعدوا الهواجس المثبطة عن افكاركم . فلا خوف على اموالكم وعوائلكم . ان الارض التي تعيشون الآن عليها المحصورة بين البحار والجبال لهي اضيق من ان تستوعبكم . لهذا فأنتم تقتلون بعضكم بعضا وهلك منكم الكثير ...

اربأوا بأنفسكم عن الضغائن وانتزعوا الحقد من قلوبكم واسلكوا سبيل الله حيث البيت وانقذوا تلك الارضين ... وامتلكوها لانفسكم . ان القدس من اكثر بلاد الدنيا ثمارا فهي جنة الافراح ومركز الدنيا . تناشدكم الآن المساعدة . فاقصدوها بكل شوق . تغفر لكم ذنوبكم وجزاؤكم دار الخلود(٢٩) .

لقد حرك الخطاب شجون المستمعين فدوى الجمهور بالصيحة المعهودة انها مشيئة الله ... انها مشيئة الله . واتخذ اوربان من تلك الصيحة نداءه الحربي . فعلت شارات الصليب الصدور وجثا قسم من الامراء امام البابا ناذرين انفسهم واموالهم في سبيل الله ، ثم حذا حذوهم آلاف الجماهير والرهبان .

ومهما تعددت الاساليب التي اوردت ذلك الخطاب فيفهم من مجموعها ان البابا اوربان الثاني اكد في كلرمونت على جملة امور منها : تحديد

(29) F. Ogg, Source Book of Medieval History (N. Y., 1907) 282-88.

موعد سفر الحملة في ١٥ آب سنة ١٠٩٦ وان تكون القسطنطينية نقطة التجمع والانطلاق • ثم الاستعراض العام لما يلاقيه المسيحيون في الشرق من اضطهاد ، والدعوة لحمل السلاح والوعد بغفران الذنوب والتهديد بعقوبة التحريم لمن ينكص على عقبيه ، والاشارة بخدمات الفرنسيين الى الكنيسة ودورهم التاريخي في مقارعة المسلمين ، ثم الاشارة الى فرص المجد والثراء التي تنتظرهم في الشرق •

عاد البابا اوربان الثاني الى روما بعد تجوال في فرنسا دام لسنتين تقريبا • وبالرغم عما يعرف عن روما بأنها اقل المدن ايمانا فقد رحبت به بحماس كبير • ثم شرع البابا بازالة العراقيل التي تحد من فعاليات الصليبيين • اذ حرر الاقنان وكذا الاتباع من يمين الولاء والطاعة لاسيادهم طيلة اشتراكهم في الحرب • ثم انعم على الصليبيين امتياز المرافعة في المحاكم الدينية بدل المحاكم الاقطاعية • ووضع املاك كافة المحاربين تحت الحماية الكنسية اثناء غيابهم لمدة ثلاث سنوات[٣٠] •

وهكذا صادفت الدعوة للحرب الهوى في النفوس • اذ رحب بها المتدينون لوعدهم بثواب الآخرة ، وانس بها الاقنان لتحريرهم من وثاق الارض • وطربت لها المدن التجارية الايطالية لانها فرصة للثراء • وتنفس المثقلون بالديون الصعداء لتعطيل الدعوة استيفاء الارباح • وصفق لها المجرمون لانها حولت عقوبة الموت الى جهاد مدى الحياة في فلسطين • ورأى فيها المغامرون من تجار وافاقين ظرفا للكسب في (ارض الحليب والعسل)[٣١] •

لقد عهد البابا بالرئاسة الروحانية لقيادة الحملة المنتظرة الى اديمار اسقف مدينة Puy لانه اول المتطوعين من رجال الدين • وكتب في ذلك الخصوص الى امراء فلاندر في شباط سنة ١٠٩٦ شارحا لهم جهوده وجهاده ومستنفرا اياهم للحرب وجاء فيها :

---

(30) W. Cox, The Crusade (London, 1910) 29.

(31) J. Thomson, Economic and Social History of the Middle Age, 300-1300 (N. Y., 1931) 389.

من خادم خدم الله الاسقف اوريان الى ...

نعتقد سلفا بأنكم على علم مع اخوانكم بالاخبار المتواردة عما انزله البرابرة من تخريب في بيوت الله في الشرق . ومما يبعث الاسى في النفس حقا ان مشهد المسيح وقيامته امسيا قيد عبودية لا تطاق . لهذا زرنا الاراضي الفرنسية والححنا هنـاك علـى الامراء والرعيـة ليشرعوا في تحريـر كنائس الشرق ... وقد رفعنا اوزار من يشترك في الامر . ثم عينا ابننا العزيز اديمار قائدا للحملة . فان ارشدكم الله للنهوض بالواجب فليكن معلوما ... بأن الحملة ستغادر بعون الله في يوم معراج السيدة العذراء ...(٣٢)

ثم وضح البابا بعض شروط الانخراط في الحملة بموجب رسالة وجهها لسكان مدينة بولونا في ايطاليا سنة ١٠٩٦ . حيث اشار فيها الى انه (يمكن للقضاة والرهبان الاشتراك في الحملة فيما اذا استحصلوا موافقة اسقف المدينة او رئيس الدير ...)(٣٣) . كما لا يجوز للمتزوجين حديثا الاشتراك في الحرب بدون موافقة زوجاتهم(٣٤) .

(32, 33, 34) Quoted in, Pernoud, op. cit., 25.

الفصل الثالث

اندلاع الحرب الصليبية

ابعاد الاستجابة ، الحملة الاولى : المرحلة الشعبية ـ حماس الفقراء ـ نماذج القادة ـ مواقفهم من اليهود ـ بطرس الناسك وما نسب اليه ، خاتمة المرحلة .
المرحلة الارستقراطية او النظامية : نماذج القادة واهدافهم ـ المواقف البيزنطية على الصعيدين الرسمي والشعبي ـ جهل الصليبيين بالفوارق بينهم وبين البيزنطيين ـ فارس لاتيني يتحدى الامبراطور .
المسيرة الكبرى الاولى نحو انطاكيا ، حوادث عبر الطريق ، الرها اولى الامارات الصليبية ـ سقوط انطاكيا ـ استئناف السير نحو القدس ـ حوادث الطريق ـ سقوط القدس ـ المذبحة العظمى ـ الشاعر المظفر الابيوردي .

ابعاد الاستجابة :

لقد شاركت كافة الشعوب الاوربية في تلبية الدعوة للزحف نحو الشرق حيث الاراضي المقدسة عدا اسبانيا وروسيا • اذ يعتقد ان البابا اوربان الثاني اوعز الى الاسبان البقاء في ديارهم حسب رسالة وجهها الى زعماء ذلك البلد وذلك لمواصلة الكفاح ضد المسلمين واعادة ما تهدم من دور العبادة هناك بدلا من الذهاب الى الاراضي المقدسة • وبذلك حافظ الاسبان على الجناح الايمن الاوربي • اما بالنسبة للشعوب الروسية فانها حافظت على الجناح الاوربي الايسر • وذلك لصمودها امام قبائل الكومان الوثنية المنهالة عليها من الجهات الآسيوية منذ منتصف القرن الحادي عشر •

ويعلق المؤرخ كلوجفسكي على ذلك بقوله (بأن دفاع روسيا عن نفسها هو دفاع عن اوربا)[1] .

ويقول المؤرخ Leib لو اراد الروس الاسهام الفعلي في الحرب لقيل لهم ادفعوا عن جهاتكم الغزاة الوثنيين ، بذلك تقدمون خدمات كبرى للمسيحية ، كما قال البابا اوربان الثاني للاسبان[2] . ويقول المؤرخ المعاصر Guibert :[3]

> لقد لبى المسيحيون النداء ، وراحوا يتوافدون من كل حدب وصوب ولم يعد الامر مقتصرا على الفرنج ، اذ يرى الانسان الاسكوتلنديين ... عديمي الخبرة في الحرب ، حفاة مسربلين بجلابيب جلدية خشنة ، حاملين زادهم في اكياس مدلاة على جوانبهم . جاءوا من بلادهم ... باسلحة بسيطة ليقدموا لنا ثمرات ايمانهم . وسمعت اناسا لا اعرف الى اية امة ينتمون من امم البرابرة لا يفقه لهم قولا . عبروا عن رغبتهم في الاسهام في الحرب بالاشارة ، بوضعهم اصبع على آخر بشكل صليب .

الحملة الاولى ١٠٩٦ ـ ١٠٩٩ :

تقع هذه في مرحلتين ، عرفت الاولى بالمرحلة الشعبية غير النظامية وسميت الثانية بالارستقراطية اوالنظامية . اما بالنسبة للاولى فتألفت من حشود آلاف الفقراء من مختلف البقاع . يحدو بعضهم الايمان الصادق وتداعب الاوهام والمغريات نفوس البعض الآخر . اذ يقول المؤرخ Guibert في رغبة الفقراء الجامحة :[4]

> التهبت نفوس الفقراء حماسا ، فلم يعد اي منهم يفكر برقة حاله ، او هل له من الحكمة في شيء ان يترك اهله ومزرعته .

---

(1) V. Kluchevesky, A History of Russia, Trans. by Hogarth, Vol. I (N. Y., 1932) 192.

(2) B. Leib, Rome, Kiev et Byzance à la fin du XI siècle (Paris, 1924) 180.

(3) Quoted in, R. pernoud, The Crusaders, trans. by Meleod (London, 1962) 27-28.

(4) Quoted in, R. pernoud, The Crusaders, trans. by Meleod (London, 1962) 27-28.

> حيث اخذ الناس يبيعون ما لديهم بأثمان بخسة فكان الواحد منهم يبتغي المال بأسرع ما يمكن ليدفعه لاسره ثمنا لحريته . لذلك هبطت الاسعار ... لكثرة المعروض في الاسواق . اذ بيعت سبعة خراف بما يعادل خمسة دنانير وهذا شيء لم يسمع بمثله قبلا ...

تجمعت الفرق الشعبية تحت عدة قيادات سارعة بالتحرك شرقا قبل موعد الحملة المقـــرر ، سالكين الطريق البـــري حيث نقطـــة الالتقاء في القسطنطينية • ويصف المؤرخ السابق مسيرة قسم من الجموع بقوله :

> حدثت اشياء عجيبة تثير السخرية والرثاء . حيث استخدم بعضهم الثيران بدل الخيول لجر عرباتهم ذات الاطارين ملبسين اضلاف الثيران انعلة من حديد ... ناهيك عن الاطفال الذين كلما لاحت لهم في الافق مدينة لوحوا بأيديهم وعلت صيحاتهم القدس ... القدس ... القدس .

اما القادة لتلك الفرق الشعبية الذين خلف بعضهم تاريخا مثقـــلا بالويلات فمنهم اميكو Emico of Leiningen • وهذا الماني اشتهر طيلة حياته بقطع الطرق سالبا ناهبا • وافتـــه الفرصة الصليبية فراح يجمع السلاح من بني قومه مقنعهم بقدسية رسالته حيث ان الله قد وهبه معجزة بنقش الصليب على جسمه وانه وعده بأن يكون امبراطورا على القدس • فصدقه الناس ونسبوا اليه المعجزات حتى بعد وفاته(٥) •

لم يكن اميكو في اعماقه صليبيا ، اذ لم يعر الدين ادنى اهتمام ، وما هو الا افاق كبير • همه الاوحد اخذ الاموال والاغارة على اعداء الدين الوحيدين في تلك الجهات الا وهم اليهود في العديد من المدن الالمانية • هاجم مدينة شباير في يوم السبت في ٣ مايس سنة ١٠٩٦ وكان من بين قتلى اليهود احد عشر زعيما دينيا • فساد الفزع بين اليهود في المدن الاخرى وخاصة مدينة كولون في ٢٩ منه حيث افاد مؤرخ المدينة ما نصه :(٦)

> وصلت مدينة كولون اخبار مفزعة في يوم الاحد ٢٩ مايس

---

(5) Z. Oldenbourg, The Crusades, trans. by Anne Carter (N. Y., 1966) 82.

(4) Quoted in Prenoud, op. cit., 30.

سنة ١٠٩٦ حول ما حل بالاحياء اليهودية في شبايد وورمز ومينز . لذا التجأ كل يهودي لاحد من معارفه المسيحيين لقضاء يومي عيد الاحد الابيض وقامت عصابات اميكو بعد العيد مباشرة بالهجوم على الحي اليهودي . فهدموا المعبد ومزقوا التوراة ... ثم ساقوا الزعيم موسى بن اسحق الى المعبد حيث اعدموه هناك .

وقد شارك اميكو تلك الاعمال ضد اليهود في جهات الراين الفرنسي الافاق المدعو بوليم النجار ذي التاريخ الاسود الذي اكتسبه اثناء اقامته في اسبانيا .

وهناك عدد آخر من القادة الشعبيين الالمان نخص بالذكر منهما فولكمار Valkmar وكوتشالك Gattschalk ، اذ اشتهر هذان بسلب اليهود وقتلهم بالجملة ، هاجم الاول مدينة براغ وقتل الالوف من اليهود ، ولم تقتصر تلك الاعمال على اليهود فحسب بل تعدتها الى الجهات المسيحية اثناء سيرهم شرقا وخاصة في البلاد المجرية مما اضطرت الملك المجري كولمان الى اعطاء الاوامر بابادتهم ، وبذلك هلك القسم الاعظم من الفرق الشعبية الالمانية ونجا بعض القادة بأنفسهم اما لاستسلامهم للقوات المجرية امثال كوتشالك او عن طريق الانهزام بفضل سرعة جيادهم امثال فولكمار ، واميكو ووليم النجار[٧] ، وبذلك فلم يكتب لافراد تلك الفرق الوصول للاراضي البيزنطية عبر المجر ، هذا مع العلم بأن هذه الفرق شرعت في التحرك شرقا في اعقاب والتر المفلس والناسك .

ان الفرق الشعبية التي تمكنت من اجتياز الاراضي المجرية والوصول الى القسطنطينية هي التي كانت بقيادتي والتر المفلس Walter Sans-Avair وبطرس الناسك ، لقب الاول بالمفلس لتواضعه ، جمع حوله حشودا فرنسية وسار بصحبة بطرس الناسك حتى مدينة كولون حيث فارقه هناك لتفضيله الاسراع في السير نحو القسطنطينية ، وقد سمح له ملك المجر كولمان بحرية المرور والتموين في بلاده ، الا انه سرعان ما فقد ضبط فرقته حال وصوله الحدود المجرية ـ البيزنطية في مدينة سملين الواقعة

(7) F. Duncalf, Clermont to Constantinople, in A History of the Crusades, Edit. Setton and Baldwin (Penns, 1958) 262-175.

على نهر Save ، اذ امتنع ستة عشر من رجاله العبور وراحوا يسلبون سوق المدينة ، فتصدت لهم القوات المجرية فانتزعوا منهم اسلحتهم وثيابهم وساقوهم عبر الحدود عراة ، وقد اصطدمت قوات المفلس بالسلطات البيزنطية في بلغراد على اثر نهبهم ضواحي المدينة فتصدت لهم قوات البيزنطيين واجبرتهم عسكريا على المحافظة على حسن السلوك اثناء السير بعد ان قتلوا منهم عددا واحرقوا بعضهم في ساحة كنيسة المدينة ، فواصلوا السير الى مدينة نيش حيث ساعدهم القائد البيزنطي نكيتا على متابعة السير نحو القسطنطينية التي وصلوا اليها في منتصف شهر تموز ، ومكثوا هناك انتظارا لبطرس الناسك(٨) .

بطرس الناسك :

وهو الشخصية الروحانية الكبرى في المرحلة الشعبية ، اذ يعتبر هذا رائد الحملة الصليبية برمتها فكرة ومشرعا حسب الرواة الشعبيين المتناسين ان المسئول الاول هو البابا اوربان الثاني ويليه ريموند الجيلي الذي استشاره البابا قبل اعلان الدعوة ، وتدور الروايات الشعبية حول خبر مفتعل مفاده ان المسيح ظهر لبطرس في المنام مسلما اياه رسالة البابا ، اما المناسبة فكانت كالآتي :(٩)

قصد بطرس القدس حاجا قبل الحرب الصليبية ، مستضيفا عند احد المسيحيين هناك الذي افاده بأخبار مفزعة عما يلاقونه في المدينة ثم اكد له ذلك رئيس اساقفة القدس ، فأجهش بطرس في البكاء ، فخاطبه رئيس الاساقفة بقوله لو اراد الله انقاذ البيت بالدموع والحسرات فلدينا الكثير منها ... الا اننا نسمع بشعب يقال له الفرنج متعهم الله بالسلام والقوة الى هذا الوقت ، عساهم ان يشفقوا علينا وينهي الله مصاعبنا ، والامر كما ترى لا نتوقع المساعدة من اليونان ولا من امبراطورهم لانهم اعجز من الدفاع حتى عن اوطانهم ، فاقترح بطرس ان يزوده برسالة الى

---

(8) S. Runciman, A History of the Crusades, Vol. I (Combridge: 1957) 122-23.

(9) Pernoud, op. cit., 38-39.

البابا والامراء يدعوهم فيها لانتشالهم ••• ففرح رئيس الاساقفة بالاقتراح واستشار جماعته فأسرعوا في كتابة الرسائل وعهدوها الى بطرس • وبينما كان بطرس وسنانا في باحة القبر المقدس حدثت له رؤيا المسيح مسلما اليه الرسالة ومشيرا عليه الشخوص رأسا وعونه معه (فقد حان الوقت لتنظيف مدينتي وانقاذ شعبي) • فقصد بطرس البحر حيث مدينة باري الايطالية ومنها الى روما حيث قابل البابا اوربان الثاني •

انه لمن المسلم به الآن تاريخيا ان بطرس لم يزر روما في السنوات التي سبقت مؤتمر كلرمونت ولم يلتق بالبابا نهائيا • اما بالنسبة للرسالة فان بطرس قد تكلم الكثير عنها واراها للناس • وهنا تعلق المؤرخة زيو اولدنبرك (تبدو القصة لنا وكأنها من بنات افكار الناسك)[10] • وعلى كل فقد طارت شهرته في الآفاق وعلت على البابوية وامراء الدنيا لانه يوجه الكلام الى البسطاء من فقراء الناس وليس للامراء او الكنيسة •

لقب بطرس بألقاب عدة من قبل مؤرخي القرنين التاسع عشر والعشرين تراوحت بين التمجيد والاحتقار • فمنهم من وصفه بالقدسية بينما اتهمه آخرون بالغوغائية والتخريف • والحقيقة ان بطرس محط الاحترام لكل من يراه آنذاك معتبرين اياه من اهل الله حقا • وقد عامله القادة هكذا واعتمدوا عليه •

يفهم مما تقدم ان لبطرس شخصية فذة ومقدرة ادبية زانتها طلاقة اللسان حتى يخيل الى من يستمع الى مواعظه بأن الله قـد ارسله ملاكا للعباد • اما قوام بطرس وهيئته فكان صغير الجرم نحيفا مهلهل الثياب • غالبا مـا يشاهد على حماره يجوب في موطنه الفرنسي جهاته الشمالية والغربية وقد تجمع حوله عدد غفير من الناس اخذوا يقتفون اثره • لهذا فكان بطرس زعيما روحانيا كبيرا قبيل الدعوة الصليبية • حيث قابله الناس بالاصغاء والحماس المنقطع النظير اينما حل او القى موعظة • وان الحظيظ من الناس من تسعفه الفرصة ليهلس شعرة من ذلك الحمار محتفظا بهـا تبركا[11] • وقيل عن والد بطرس بأنه فارس نورمندي • ومع ان بطرس

(10) Oldenbourg, op. cit., 78.
(11) Ibid., 80-81.

لم يكن قسا ولا راهبا فلم يتشكك احد في غيرته الدينية . وقد انهالت عليه الهبات التي يوزعها بدوره على مستحقيها . اذ يشير المؤرخ Albert of Aix : بأنه كان يجهز من تعففن من بنات الهوى بالصداق ليعينهن على حياة كريمة(١٢) .

لهذا فقد كان بطرس قائدا جماهيريا ايضا ، استفاد من شهرته بتسخيرها مع الخط المنسجم للبابوية في حربها الصليبية . واخذ بطرس يدعو السكان للتبرع من اقطاعيين ويهود ومحسنين . واضطر اليهود للاسهام ماديا دفعا لما يبيته الغد من بلاء . حيث استحصل رسالة من راباي مدينة روان الفرنسية يستحث فيها اليهود في كل مكان للتبرع الى بطرس(١٣) .

وبالرغم مما يتمتع به بطرس من سمعة وتقوى الا انه لا دراية له بالحروب ولا ضبط الجيوش . اذ اخذ يفقد السيطرة على جموعه كلما تقدم شرقا ويشير المؤرخ Guibert :(١٤)

> حينما جمع بطرس الناسك جيشا ضخما من الدهماء سار بهم خلال الاراضي المجرية . فاغراهم ثراء البلد . فهاجموا السكان الوديعين . وكانت العادة هناك تكويم الحبوب عند نهاية الحصاد في وسط الحقول باكوام عالية ولم تراع جماعة بطرس حنان السكان فشنوا عليهم الحرب بلا مبرر ..... واشعلوا النيران في اكوام الحبوب ...

تعقدت المشاكل بين فرقة بطرس والمجريين بشكل خطير عند وصولهم مدينة سملين . حيث اشتبك الطرفان في معركة اسفرت عن استيلاء الصليبيين على المدينة ومقتل اربعة آلاف مجري . اما اسباب ذلك الحادث فقد تعود نسبيا الى اجراءات الامن المشددة التي اتخذها حاكم المدينة والى هياج فرقة بطرس عند سماعهم بحقيقة الاخبار التي جرت للستة عشر فارس من اتباع المفلس في تلك المدينة . فقد شاهدوا بأم اعينهم ملابس اولئك

---

(12) Ibid., 80-81.
(13) Ibid., 80-81.
(14) Permoud, op. cit., 31-32.

الفرسان واسلحتهم معلقة على الاسوار • ويقال بأن معركة سملين كانت نتيجة لمشاجرة بين بائع مجري وصليبي حول شراء زوج من الاحذية فتطورت الى معركة عامة •

لقد خشي بطرس والقادة من انصاره مما قد يقوم به الملك المجري كولمان من رد فعل انتقامي فهرعوا الى الجانب البيزنطي بعد عبورهم نهر Save حيث مدينة بلغراد التي هجرها اهلها خوفا من تكرار مأساة سملين • ودخلت فرقة بطرس بلغراد واضرمت فيها النار بعد نهبها ثم غادروا الى مدينة نيش مقر الحاكم البيزنطي نكيتا الذي استعد للامر عسكريا •

سارت الامور بشكل اعتيادي في مدينة نيش بين الصليبيين والسكان فشرعوا في مغادرتها قاصدين مدينة صوفيا تحت حراسة الجيوش البيزنطية • وما ان اوشكت مؤخرة الجيش الصليبي الابتعاد عن ضواحي المدينة الا واشتبك افراد المؤخرة في مناوشات مع القوات البيزنطية تطورت الى معركة حاسمة ابيد فيها القسم الاعظم من فرقة بطرس • وسبب الحادث على ما يبدو ان جماعة من الصليبيين الالمان عبروا عن استيائهم عما لقوه من معاملة تجارية سابقة في مدينة نيش ، باضرام النيران ببضعة طواحين في ضواحي المدينة • لهذا امر نكيتا بمهاجمة مؤخرة الجيش الصليبي وحاول بطرس عبثا تفادي الكارثة التي خسر فيها قاصة نقوده وثلاثة ارباع جيشه البالغ الثلاثين الفا • وقد انهزم بطرس في المعركة مع خمسمائة من اتباعه بعيدا في الهضاب معتقدا بفناء كافة جيشه • الا انهم وجدوا سبعة آلاف من جماعتهم قد نجوا بأرواحهم • ولم يحاول نكيتا الاجهاز عليهم فتركهم يواصلون السير الى صوفيا ومنها الى فليبولس وادريانو بل حيث القسطنطينية • وقد امر الامبراطور الكسيوس جيشه ان يشرف على مسيرة بطرس من صوفيا الى العاصمة وان لا يسمح لهم في الاقامة في اية مدينة اثناء الطريق اكثر من ثلاثة ايام وان يقدموا لهم المواد الغذائية • وقد وصلت بطرس رسالة من الامبراطور قبيل وصوله العاصمة يخبره فيها عن عفوه عما ارتكبه جيشه من جرائم وانه يضمر له الود والتقدير ولم يتمالك بطرس نفسه ازاء تلك المشاعر حيث انهالت من عينيه دموع

الشكر[١٥] .

نهاية المرحلة الشعبية :

وصل بطرس القسطنطينية في اليوم الاول من آب ومكث هناك حتى اليوم السادس منه . وكانت في انتظاره الجموع الغفيرة الايطالية التي وفدت حديثا للقسطنطينية بالاضافة الى جموع والتر المفلس . وقد احسن الامبراطور اليهم ودعا بطرس الى قصره حيث اكرمه ماديا ومعنويا . واليك بعض الاوصاف المعاصرة لبطرس وجماعته في القسطنطينية اذ اشارت المؤرخة بنت الامبراطور الكسيوس آنا كومنينا :[١٦]

> التفت حول راية بطرس جموع غفيرة يلهب الحماس الديني قلوبها . لقد امتلأت الطرقات بأناس تطفح البشرى والحمية على وجوههم نظرا لما يهدفون اليه من سبب مقدس . ويرى الناظر وراء صف المحاربين رؤوسا بشرية لا حصر لها مع زوجاتهم واطفالهم يحمل كل منهم صليبا احمر على كتفه . انهم فاقوا رمال البحر ونجوم السماء عددا .

ويشير المؤرخ Guibert :[١٧]

> اصدر الامبراطور مرسوما يخولهم فيه ابتياع ما يحتاجون اليه . ثم نصحهم بعدم عبور البحر الذي يفصلهم عن الاتراك وذلك لقلة عددهم بالنسبة للسلاجقة . ومع ذلك فلم يكن كرم اليونانيين ولا نصيحة الامبراطور بكافية لردعهم عن التهور والطيش. اذ سلكوا سلوكا في منتهى الغرابة والصلافة. حيث هاجموا القصور في المدينة منزلين فيها الدمار وشاعلين النيران في الابنية العامة وانتزعوا الرصاص من سقوف الكنائس ... لهذا امرهم الامبراطور بعبور البوسفور بدون تأخير .

لقد تم عبور الجنود الصليبية الى الشاطىء الآسيوي في ٦ آب سنة ١٠٩٦ حيث نيقوميديا ومنها الى معسكر كيبوتوس . وقد انقسم

---

(15) Runciman, op. cit., 124-27.
(16) Anna Comnena, The Alexiad, trans. by Dawes Vol. II (London, 1928) 240.
(17) Pernoud, op. cit., 33.

هؤلاء حال عبورهم البحر الى فريقين منفصلين تألف الاول من الفرنسيين بما فيهم بطرس والمفلس وتألف الآخر من الالمان والايطاليين • وراح الطرفان يتباريان في السلب والنهب والقتل في القرى المجاورة بلا تمييز بين الفوارق الدينية • وقد جرأتهم تلك الانتصارات الى الاقتراب من جهات نيقيا العاصمة السلجوقية • اذ احتل الالمان والايطاليون قلعة زريكوردون Xerigordon الا ان الجيوش السلجوقية فرضت الحصار الشديد حولها فقطعت عنهم التموين وخاصة المياه • وهنا توصف حالة المحاصرين في القلعة بما يأتي :(١٨)

قاسى رجالنا الشدائد من العطش حيث اضطروا الى امتصاص دماء الخيل والحمير لاطفاء الظمأ . ورمى الآخرون بخرق في مجاري القاذورات لترطيبها ثم امتصاصها . وشرب آخرون ادرار بعضهم البعض ...

لقد اضطرت القوات الالمانية والايطالية الى الاستسلام فكان مصيرهم القتل والعبودية •

فزع الفرنسيون في كيبوتوس لاخبار الكارثة ، فتشاوروا في الامر وغلبت كفة القائلين بضرورة الخروج للعدو واخذ الثأر • وما ان ابتعدوا عن معسكرهم الا ودهمهم السلاجقة فأبادوا اكثريتهم ولاذ الباقون بالفرار الى المعسكر والسلاجقة في اعقابهم حيث انقضوا على من في المعسكر فكانت مذبحة رهيبة هلك فيها والتر المفلس والآلاف من الناس • اما بطرس الناسك فخف الى القسطنطينية لمقابلة الامبراطور حال سماعه بكارثة زريكوردون وبقي هناك حتى وصول الحملة النظامية • وقد تمكن الامبراطور من ارسال نجدة صغيرة الى كيبوتوس اعادت الاحياء من الصليبيين الى القسطنطينية • واشارت المؤرخة آنا كومنينا الى عظام القتلى من الصليبيين (شكلت العظام اكواما هائلة كالروابي والتلال والجبال ...)(١٩) •

---

(18) Quoted in : Runciman, op. cit., 130.

(19) Comnena, op. cit., 245.

المرحلة الارستقراطية :

سميت بهذا الاسم لقيادتها من قبل الامراء ولكثرة ما ضمت من الفرسان تمييزا لها عن الحملة الشعبية ، وقد تكونت في موعدها المقرر وشرعت فرقها بالتوجه نحو القسطنطينية في آب سنة ١٠٩٦ ، ولم يشترك في الحملة الامبراطور الجرماني ولا بقية الملوك ، فالامبراطور هنري الرابع كان في صراع مع ابنه والبابوية في آن واحد ، كما ان فيليب الاول ملك فرنسا في حالة التحريم وكذا الامر بالنسبة لوليم الثاني ملك انكلترا لاختلافه مع انسلم رئيس اساقفة انكلترا ، ومن اهم القادة من الامراء هم : كودفري امير لورين السفلى ، وكان هذا من انصار الامبراطور هنري الرابع والعدو الالد للبابا السابق كريكوري السابع وهو اول من تسلق اسوار روما اثناء حصارها من قبل ذلك الامبراطور سنة ١٠٨٢ ، اشترك كودفري في الحملة للتكفير عن سيئاته ، ومع ذلك فله صفات حببته الى الناس كالشجاعة والحكمة والاستقامة ، فالتف حول رايته ثمانون الف راجل وعشرة آلاف فارس[٢٠] ، ثم الامير هيو فرمندوا وقد سمي هيو الكبير اما لانه اخو ملك فرنسا او لضخامة جسمه ويتصف بشدة الطموح ، اما الامير روبرت صاحب نورمندي فهو اخو وليم الثاني ملك انكلترا ، اضاع العرش الانكليزي ورهن امارته املا في الكسب في الاراضي المقدسة ، ووصف بالاهمال والتسيب ، يرتسم على وجهه كل ما في قلبه من حب وعداء صريح العبارة ولا يشك بامانة الآخرين ، وقد اضر نفسه بطيبة قلبه وكرمه حيث آلت نهايته الى مصير مؤلم في نورمندي بعد رجوعه من الاراضي المقدسة ، وهناك ريموند الجيلي امير منطقة طولوز اول من تطوع من الامراء في مؤتمر كلرمونت وله تاريخ حافل في محاربة المسلمين في اسبانيا ، ثم روبرت الثاني امير فلاندر ويوصف هذا بشراسة الطباع ينظر للحرب الصليبية وكأنها مشروع استثماري ولهذا فلقبه اقرانه بروبرت المقدسي ، اما بوهيمند النورمندي امير صقلية فهو الابن الاكبر لروبرت كيسكارد ، اتصف بوهيمند بالطموح والخشونة وشراسة الطبع

---

(20) Oldenbourg, op. cit., 95.

والكره للبيزنطيين اثر حروب مديدة خاضها ضدهم في عهد ابيه الا انه تصرف خلاف ما يضمره حينما تقابل مع الامبراطور الكسيوس في القسطنطينية[٢١] •

نظمت الحملة تحت القيادات الآتية : جيش وسط فرنسا بقيادة هيو سلك الطريق البحري الى القسطنطينية حيث وصلها قبل زملائه في اكتوبر سنة ١٠٩٦ • وجيش شمال فرنسا حيث قسم الى ثلاث قيادات حسب الامارات في تلك الجهات الا وهي نورمندي بقيادة روبرت سار بحرا ووصل العاصمة البيزنطية في نيسان ١٠٩٧ • وفلاندر بقيادة روبرت الثاني سلك البحر ووصل الى القسطنطينية في مايس ١٠٩٧ ثم لورين بقيادة كودفري واخيه بلدوين سلكا البر حيث وصلا في ديسمبر • وهناك جيش جنوب فرنسا بقيادة ريمون الجيلي سلك الطريق البري فوصل للعاصمة البيزنطية في نيسان ١٠٩٧ • والجيش الاخير هو الايطالي النورمندي بقيادة كل من بوهيمند واخيه تانكريد قصدا القسطنطينية بحرا فحلا هناك في نيسان ١٠٩٧ •

الموقف البيزنطي تجاه الصليبيين :

كانت المواقف بين الجانبين سلبية على العموم في المجالين الرسمي والشعبي • فقد ذهل الامبراطور الكسيوس عند سماعه بما حدث في مؤتمر كلرمونت • لانه لم يكن ليتوقع المساعدة الغربية بشكل حرب صليبية ولم يكن راغبا بذلك • حقا لقد سبق للامبراطور وان طلب المساعدة العسكرية بواسطة البابوية ، ولكنه ارادها على شكل فرق اجيرة تأتمر بأمره للدفاع عن القسطنطينية • اما مسألة تحرير الاراضي المقدسة التي خرجت عن السيطرة البيزنطية منذ دهور ولت فلم تكن بأمر ذي بال بالنسبة للامبراطور لاو لا حتى البيزنطيين الاعتياديين لانه لم يظهر من بينهم طيلة القرن الحادي عشر اي داعية لحرب صليبية ولم تجد دعوة اوربان الثاني اي حماس بين الجماهير البيزنطية •

---

(21) R. Yewdale, Bohemond 1, Prince of Antioch (Princeton, 1924) 44.

قاسى الكسيوس الشدائد من الفرق الشعبية وهو على علم بما يواجهه من المشاكل عند وصول فرق الامراء . واشارت الى ذلك كريمة الامبراطور :(٢٣)

> سمع الامبراطور بأن جيشا عظيما من الفرنج اخذ يقترب من البلاد فانتابته الوساس من جراء ذلك . لانه يفهم بنياتهم الخبيثة وتقلبات امزجتهم ... ونتائجها المتوقعة . ان ثراء الامبراطورية يحرك اطماعهم ولا تجدي معهم المواثيق والعهود على احترام البلاد لانهم ينبذونها وراء الظهور حالما تسنح لهم الفرصة . ومع ذلك فقد عبأ الامبراطور قواه استعدادا للطوارىء .

> لقد برهنت الاحداث على ان الجيوش الفرنجية اكثر مما تناقلته الاخبار . وان سلوكهم لادهى واخر . انه العالم الغربي باجمعه وسكانه ـ انها هجرة كاسحة . اسر تقتفي اثر اسر قاطعة اوربا من الطرف الى الطرف قاصدة آسيا . لقد وصل الكليتون بكامل عددهم وعدتهم فضاقت بهم رحاب المسالك وبصحبتهم جماهير عزلاء حاملين الصلبان ومن بينهم النساء والاطفال . انهم البحر بأمواجه المتلاطمة . ايخطر على البال حدوث تحركات هائلة كهذه ؟ لقد استنفر البسطاء بدافع الرغبة الاكيدة من اجل القبر المقدس والحج . الا ان الاناس الفطنين امثال بوهيمند لهم اسبابهم الخفيه ...

لقد شبه المؤرخ كبون موقف الامبراطور الكسيوس من الموج الصليبي بذلك الراعي الذي رفع يديه نحو السماء يستجدي غيثها لينبت المرعى فجادت عليه بالطوفان . اذ اعتقد البابا اوربان الثاني بأن الامبراطور سيكون مسرورا او شاكرا لتلك المساعدات العسكرية وانه سيسارع في رأب الصدع بين الكنيستين والاعتراف بزعامة كنيسة روما العالمية . لقد خاب ظن البابوية في ذلك لان اوربان قدم الى الكسيوس كل ما يخشاه ويبغضه . اذ اراد فرقا يسند بها جيشه فجاءته موجات كاسحة متمردة . وكأن لسان حاله يقول اللهم قني شر اصدقائي(٢٤) .

لقد عاثت جيوش كودفري وبلدوين وريموند الجيلي في الاراضي

---

(23) Commena, op. cit., 250-60.
(24) Oldenbourg, op. cit., 57.

البيزنطية . ويروي لنا شاهد عيان الا وهو رئيس اساقفة بلغاريا ثيوفيلاكت عن تصرفات جند كودفري واخيه عند مرورهم في بلغاريا التي كانت تابعة للبيزنطيين آنذاك :(٢٥)

> لقد جمدت الكلمات على شفتي من هول الصدمة التي وقعت علينا كالصاعقة . لا ادري ماذا اقول . اهي مسيرة فرنجية ام غزو لبلادنا ؟ لم نعد نشعر بوجود انفسنا حيث جرعنا الغزو الامرين . لقد روضت نفوسنا على تقبل الاهانات ...

كما افتعل كودفري سوء تفاهم مع السلطات البيزنطية العليا حول التأخير الذي حدث للامير هيو في دورازو ، فراح يهاجم جهات ادريانو بل(٢٦) . كما اشتبك ريموند في جهات الغرب من الامبراطورية بسلسلة من المعارك مع الحاميات البيزنطية فاستولى على مدينة Roussa ورفع علمه عليها كما قضى على ثلة عسكرية بيزنطية في مدينة Rodosta ، بالرغم من الرسائل الودية التي بعثها اليه الامبراطور(٢٧) .

لقد دون الامبراطور الكسيوس انطباعاته عن حملة الامراء بوصيته الى ولده :

> هل تتذكر ما حصل لي من حركة الغرب الى هذا البلد ؟ تلك الحركة التي تمثل ابد الدهر وصمة عار في جبين روما الجديدة واهانة للعرش . يلزمك التفكير يا بني مليا بايجاد ما تلقم بـه افواه البرابرة التـي تنفث علينـا سموم الكره والبغضاء ...

ولعل من اخطر المواضيع التي كدرت العلاقات بـين الامبراطور وبعض القادة الصليبيين هو طلب الامبراطور بتأدية القادة يمين الولاء له . وقصد الكسيوس بذلك التأكد مـن ان الاراضي التي كانت في حوزة الامبراطورية في سنة ١٠٧١ في آسيا الصغرى يجب ان تعادله حالما يتم تخليصها من ايدي السلاجقة . اما الاراضي التي فقدت قبل ذلك التاريخ

---

(25) Yewdale, op. cit., 44.
(26) S. Cox, The Crusades (N. X., 1910) 48-9.
(27) Pernoud, op. cit., 48.

فتبقى بيد الصليبيين على ان يكتفي منهم الامبراطور بموالاته(٢٨) ، ومع ذلك فلم يلـق الامبراطور صعوبات كبيرة في تأدية القادة للقسم سوى كودفري وريموند الجيلي ، اذ تذرع الاول بعدة حجج منها الفارق المذهبي وعدم جواز تأدية القسم الى سيدين في آن واحد ، نظرا لانه من اتباع الامبراطور الجرماني ، وتطورت العلاقات بين الطرفين وادت الى مناوشات عسكرية انتصر فيها الامبراطور فاضطر الى اخذ القسم والاسراع في العبور الى آسيا الصغرى ، اما ريموند الجيلي فاشترط مقابل تأدية القسم ان يقود الامبراطور بنفسه جيشا لقتال المسلمين وعند ذلك فقط يكون له تابعا من ناحية عسكرية في تأدية المهمة المقدسة . وقال انه جاء الى هذه البلاد تاركا اهله واولاده لا ليستبدل سيدا بآخر وانما للجهاد في سبيل الله ، فاضطر الامبراطور الى عقد مؤتمر مع القادة لمناقشة الموضوع ، وانقسم المؤتمرون بين مؤيد ومعارض الى ريموند الجيلي وهدد بوهميند ان يخوض الحرب بجانب الامبراطور ان دعت الحاجة ، واخيرا وافـق ريموند على تأدية قسم شكلي تعهد فيه المحافظة على الامبراطور وان لا يقوم بعمل من شأنه الاضرار به ،

لقد حدث حادث طريف للامبراطور الكسيوس مـع احد النبلاء الفرسان اثناء تأدية اليمين السابق ، اذ اشارت كومنينا :(٢٩)

(اجتمع الجميع ومن بينهم كودفري اثناء تأدية اليمين والكل وقوف غير ان هناك نبيلا كانت له الجرأة ان يجلس بجانب الامبراطور ، وبالرغم من امتعاض الكسيوس الا انه لم ينبس ببنت شفة ، لانه على علم بمقدار غطرسة الفرنجة ، غير ان الامير بلدوين راح ماسكا ذلك النبيل حيث اجبره على النهوض وموبخا اياه بشدة بقوله : يجب عليك ان لا تسلك هــذا السلوك بعد ان قطعت على نفسك التبعية للامبراطور قبل هنيهة ، ان عادة الاباطرة لا تسمح لرعاياهم اختيار اماكن الجلوس ... وعلى اولئك الذين اصبحوا اتباعا لجلالته ان يتعرفوا على عادات البلاد ، ولم يجب النبيل بلدوين وانما صوب نظرات حادة الى الامبراطور مدمدما بكلمات غـير

---

(28) Yewdale, op. cit., 45.
(29) Commena, op. cit., 270.

مفهومة ، فلحظها الامبراطور من تحرك شفتيه فطلب ان تترجم له كلماته ، حيث اتضح بأنه قال : انظروا اليه ... يا له من شخص مزعج يحاول الجلوس بمفرده بينما القادة الشجعان وقوفا حوله ، ولم يعلق الامبراطور بشيء في حينه ، وعندما استأذن الجميع بالانصراف طلب الامبراطور ذلك اللاتيني ... وسأله عمن يكون ومن اي بلد جاء وما هي منزلته الاجتماعية ؟ فأجاب : انا فرنجي نقي الدماء انتمي الى النبلاء ، واعلم شيئا واحدا عن البلد الذي جئت منه : ففي احدى منعطفات البلد الذي ولدت فيه معبد قديم يهرع اليه الرجل المبارز يطلب فيه من الله المساعدة وينتظر غريمه ، لقد مكثت طويلا هنا في انتظار الغريم الا ان الرجل الجسور لم يحضر ابدا ، فأجابه الامبراطور : ان كنت تفتش عن مناسبة للمبارزة بدون ان تجدها فانك الآن في طريقك للارتواء منها).

لقد كره الصليبيون البيزنطيين امبراطورا وشعبا منذ ان داست اقدامهم ارض البلاد ، فقد ذكر مؤرخ معاصر صليبي عن الامبراطور الكسيوس (شغل عرش القسطنطينية يوناني مزيف خائن اسمه الكسيوس كومنينوس) ، بينما وصفه كبون بذلك الثعلب الذي يقتفي خلسة آثار الاسد ليلتهم فضلاته[٣٠] ، ويشير كبون بذلك الى محاولته استغلال الجهود الصليبية لاسترداد ما فقدته الامبراطورية من اراضيها في آسيا الصغرى ، اما سبب كره الصليبيين للشعب البيزنطي بصورة عامة فيعود لاختلاف الايديولوجتين ، فالشعب البيزنطي آنذاك في قمة الحضارة بالنسبة لأوربا اللاتينية التي لم تزل تتخبط في القيم البربرية ، لهذا فكان الصليبي بالنسبة للبيزنطي مجرد بربري خشن الطباع ، وقد فهم الصليبيون البيزنطيين بأنهم شعب لا رجولة فيه انغمسوا في ملاذهم فهم اعجز من الدفاع حتى عن اوطانهم ، ان اتهام البيزنطيين بالجبن مرده نظرة الجانبين الى الحرب ، اذ اعتقد الارثوذوكس بأن الحرب مهما كان سببها مقدسا فهي اثم من الآثام الكبرى ، وعلى الجنود المساهمين في اية حرب الامتناع

(30) E. Gibbon, The Decline and Fall of The Roman Empire, Vol. 6 (London, 1962) 93.

عن حضور الاحتفالات الدينية لبعض الوقت من اجل الغفران • ان اراقة الدماء لاي سبب كان ولو كانت دماء اعداء الدين لا تعتبر فضيلة ابدا عند البيزنطيين • وانه لمن المستغرب لديهم ان يروا رئيس اساقفة ممتطيا صهوة الجواد متوجها لساحة الوغي والخوذة الفولاذية على رأسه والسلاح في يده • ان الازدواج بين الحرب والعقيدة المسيحية من الامور المتناقضة بالنسبة للبيزنطي بينما اعتبر اتباع كنيسة روما ذلك الازدواج فضيلة •

فـلا عجب اذن ان يكون الموقف البيزنطي سلبيا تجـاه الحركة الصليبية على الصعيدين الشعبي والرسمي • ولم يكن الكسيوس بالخائن كما نعته وليم الصوري ولا بذلك الثعلب • فان سياسته كانت واقعية املتها الظروف ولم يكن ليسمح لنفسه من ناحية سياسية ان يورط شعبه في حرب تعصبية ضد الاسلام من اجل استعادة القبر المقدس • لهذا كرس فعالياته لتحاشي مخاطر الصليبيين اولا وامكانية الاستفادة منهم في استرداد مـا استولى عليه السلاجقة من مناطق حيوية للامبراطورية في آسيا الصغرى ، لهذا اغدق على زعمائهم الاموال وجهزهم بالمواد الغذائية وهيأ لهم السفن لعبور البسفور ثم سير معهم فرقة بيزنطية تحت قيادة مانويل بوتومايتس M. Butumites

المسيرة الكبرى الاولى :

عبرت الجيوش الصليبية الى الشاطىء الآسيوي في فترات متفاوتة وتجمعت في مدينة نيقوميديا في صيف ١٠٩٧ ومنها اندفعت الى نيقيا حيث فرضوا عليها الحصار ولم تتمكن جيوش قليج ارسلان من فك الحصار عنها فاستسلمت صلحا للقائد البيزنطي بوتومايتس • وادى ذلك الى تذمر القادة الصليبيين لان المفاوضات النهائية للاستسلام جرت بدون علمهم ولانهم حرموا من نهب المدينة التي حرستها الجيوش البيزنطية هذا بالاضافة الى استغرابهم من معاملة الكسيوس الرحيمة للسكان هناك • ومع ذلك فقد ارضى الامبراطور الصليبيين بما قدمه للقادة من اموال من خزائن قليج أرسلان التي وقعت بيد البيزنطيين في نيفيا • وقد شجع سقوط نيقيا المدن الايطالية في أن تشرع بدور فعال في عرض خدماتها على الصليبيين •

واصل الصليبيون زحفهم في اسيا الصغرى في ٢٦ حزيران أي بعد

اسبوع واحد من سقوط وكانت معهم فرقة بيزنطية بقيادة الجنرال تاتيكيوس Taticius واحرزوا انتصارا ساحقا على السلاجقة في موقعة دوريلايو Dorylaeum في اليوم الاول من تموز حيث شتتت[٣١] جيوش قليج ارسلان ٠ وقد لعب الممثل البابوي اديمار دورا هاما في ذلك الانتصار ٠ وانفتح امامهم الطريق للتقدم خاصة وان قليج ارسلان لم يعد باستطاعته مواصلة المقاومة فامر باخلاء المدن التي تعترض سبيل الصليبيين٠ فاستولى هؤلاء على قونيا ، وهرقيله التي كانت تابعة الى الدانشمند ٠

لقد حدث اختلاف بين القادة انفسهم والجنرال البيزنطي تاتيكيوس في هرقلية حول افضل السبل التي يسلكونها ٠ اذ رجح الجنرال اتباع طريق قيساريا ــ مرعش فوافقه اكثرية القادة عدا تانكرد وبلدوين حيث سارا بطريقين منفصلين[٣٢] ، وراح الاميران يتسابقان في بسط التفوق في المناطق الارمنية مما ادى الى اشتباكات فيما بينهما ٠ امـا الجيش الرئيسي فقد سار في طريقه المرسوم حيث قيساريا ــ كومانا ــ كاكسون ــ مرعش ٠ ولم تخلو المسيرة من اصطدامات بسيطة مع الدانشمند ، الا ان خسائر الصليبيين في الارواح والمواد كانت كبيرة نسبيا وذلك بسبب العوارض الطبيعية كوعورة الطرق الجبلية والبرد والامطار في المسافة بين كاكسون ومرعش ٠ وقد مكثوا في المدينة الاخيرة ثلاثة ايام انحدروا منها الى سهول انطاكيا ٠

اما بالنسبة الى تانكريد وبلدوين فقد فشل الاول في تثبيت اقدامه في اية جهة من ارمينيا وذلك لمقاومته من قبل بلدوين فاضطر الى التوجه شرقا حيث وافته الظروف بالاستيلاء على الاسكندرونة ومنها سار للالتقاء بالجيش الرئيسي في جهات انطاكيا ٠ اما بلدوين فقد وافته الفرص في الاستيلاء على بعض المناطق الارمنية ثم التقى بالجيش الرئيسي في مرعش ويقال بان عودته كانت للتشاور مع اخيه بوهيمند ولرؤية زوجته المريضة التي توفيت هناك ٠ وقد انفصل ثانية عن الجيش الرئيسي عند مغادرته

---

(31) Setton, op. cit., 290.

(32) Runciman, op. cit., 190-91.

مرعش متوجها الى الجهات الارمنية الشرقية[٣٣] .

الرها اولى الامارات الصليبية :

لقد فضل بلدوين السير بموجب مخططه الرامي الى التوسع على حساب المناطق الارمنية بمساعدة مستشاره الارمني باكـراد Pakrad وقد وافته الفرصة حينما استنجد به امير الرها الأرمني طوروس والذي كان من ناحية نظرية تابعا لسلاجقة ايران والطرق منذ ١٠٩٤ . وكان طوروس في مركز حرج في الداخل والخارج ، فهو على خلاف مذهبي مع رعاياه لكونه ارثوذكسي بينما اكثرية الرها من المونوفستين هذا بالاضافة الى ما يتهدده من اخطار من امارة الموصل في عهد اميرها كوربوغا الذي كان يستعد لقيادة حملة للدفاع عن انطاكيا وفي مخططه بنفس الوقت الاستيلاء على الرها .

وافق بلدوين على تقديم المساعدة لطوروس بعد ان اشترط عليه أن يكون وريثا للامارة من بعده . ولم يمانع طوروس في ذلك نظرا لكبر سنه ولا نسل له . وقد جرت مراسيم استقبال حافلة الى بلدوين عند دخوله الرها في شباط ١٠٩٨ ، حيث اعلنه طوروس ابنا ووريثا له . وله تمر سوى ايام قليلة حتى دبرت مؤامرة من قبل الارمن ضد طوروس اسفرت عن ثورة تنازل فيها عن العرش . اما بلدوين فكان على علـم بالمؤامرة الا انه غض الطرف عنها لانها كانت في صالحه حيث اخبر بان المتآمرين يحاولون اسناد العرش اليه بعد الاطاحة بطوروس . وقد طلب الاخير من بلدوين ان يسمح له بمغادرة الرها الا انه ابقاه مدة في القصر اشبه بالسجين . فحاول الهروب من احدى النوافذ الا انه وقع اسيرا بيد الثوار الذين قطعوه في الحال اربا اربا[٣٤] . وبذلك اعلن بلدوين نفسه أميرا بناء على رغبة الثوار في ١٠ مارس ١٠٩٨ فتأسست اولى الامارات الصليبية .

---

(33) Ibid., 200-1.

(34) Setton, op. cit., 303-4.

سقـوط انطاكيـا :

اشرنا سابقا الى أن انطاكيا كانت تحت حكم ياغي‌سيان ، وقد فرض الصليبيون عليها الحصار منذ تشرين اول ١٠٩٧ حتى حزيران ١٠٩٨ ٠ ووجد الصليبيون انفسهم في ظروف عصيبة اثناء تلك المدة لقلة الارزاق وصعوبة المناخ ولغارات الجيوش السورية ٠ لهذا اخذ بعضهم بالتسلل والهروب من المعسكر وكان بينهم بطرس الناسك ووليم النجار الذي قصد ايطاليا بعد نجاته من المجر فاصطحب حملة هيو ٠ وكان النجار مسؤولا عن هروب الناسك ٠ الا ان الفرسان تعقبوهم فجاؤوا بهم ثانية الى المعسكر وسط احتقار الجند ٠ فعفي عن بطرس اما النجار فأبقاه بوهيمند في خيمته واقفا على قدميه ليلة كاملة عقابا له ثم وجه اليه كلمات قاسية فتعهد النجار بان لا يعمد للهروب مرة اخرى ٠

هذا بالاضافة الى انسحاب الجنرال البيزنطي تاتيكيوس وعودته للقسطنطينية عن طريق قبرص بحجة امدادهم بالمواد الضرورية ومشاورة الامبراطور ٠ الا ان الاسباب الحقيقية لانسحابه تعود لاختـلافه مع الصليبيين حول كيفية الاستيلاء على انطاكيا والى عدم اطمئنان القـادة اليه لاتهامه بالتفاوض مع الجهات الاسلامية وتحريضهم لشن هجوم على الصليبيين ولعلمه بأن هناك مؤامرة على حياته(٣٥) ٠ وعلى كل فقد فرح بوهيمند لرحيله بصورة خاصة لان ذلك سوف يحرر الصليبيين من‌قسمهم في اعادة الاماكن التي فقدها البيزنطيون منذ ١٠٧١ الى الامبراطور ، لان انطاكيا فقدتها الامبراطورية منذ ١٠٨٥ ٠

وضع بوهيمند نصب عينيه الاستئثار بامارة انطاكيا ، وانه على يقين بانها ستسقط في يده بالرغم من فشل الحصار عليها ٠ اذ كان في مفاوضات خفية مع الارمني فيروز قائد احد ابراج المدينة ، حيث خان هذا الاخير سيده ياغي سيان وتفاهم مع بوهيمند على‌ان يفتح له الباب المكلف بحراسته ليلا ٠ وقد احكمت بينهما خطة في هذا الشأن ، وتم فعلا تسلل بوهيمند

---

(35) Runciman, op. cit., 219-24.

وجماعة من فرسانه الى برج فيروز ثم تبعته الجموع الصليبية حيث تم فتح بقية الابواب من سور المدينة(٣٦). وقد هب ياغي سيان من نومه مذعورا معتقدا بانه قد قضي الامر فتمكن من الهروب الى خارج المدينة حيث لقي حتفه قرب ارمناز ، وذلك على اثر سقوطه من على جواده فاصيب بكسور خطيرة افقدته الوعي(٣٧) . وقد عثر عليه بعض الفلاحين الارمن فاحتز رأسه وقدم هدية الى بوهيمند(٣٨) .

بالرغم من احتلال المدينة الا ان قلعة انطاكيا بقيت صامدة من ٣ حزيران حتى ٢٨ تموز حيث قوى عزم المدافعين حينما اقبلت جيوش كوربوغا في اليوم الخامس من حزيران وعين لقيادة القلعة احمد بن مروان ثم فرض الحصار على المدينة. وقد اضطر الصليبيون للتفاوض مع كوربوغا بدون جدوى اذ طلب هذا الاستسلام بدون قيد او شرط . لهذا اقترح بوهيمند القيام بمجازفة شن هجوم على الجيش الاسلامي منتهزا فرصة انسحاب دقاق امير دمشق وذلك للدفاع عن امارته التي باتت الجيوش الفاطمية تهددها من جهات فلسطين . وحقق بوهيمند انتصارا حاسما على الجيش الاسلامي فانسحب كوربوغا عائدا الى الموصل بعد خسائر فادحة .

ويعزو البعض الحماس الذي قاد الصليبيين لذلك الهجوم الناجح لمعجزة حققها فلاح في معية جيش ريموند الجيلي والمسمى بارتلميو ، حيث ادعى هذا بان القديس اندرو ظهر له في المنام عدة مرات يعلمه بأن الحربة التي وكز بها جنب المسيح مدفونة في احدى زوايا كنيسة القديس بطرس في انطاكيا . وقد تم العثور على قطعة حديد بالية بعد أن اجرى الحفر هناك ومع أن الممثل البابوي اديمار ساوره الشك في الامر وكذلك بعض القادة الا ان البسطاء اعتبروها حقيقية وهي علامة على هداية المسيح ورعايته لهم . ويعلق الاستاذ رونسيمان على الحادثة (من المحتمل أن يكون

---

(36) Pernoud, op. cit., 68.
(37) Ibn Al-Qalanisi, Damascus Chronicle, trans. by Gibb (London, 1967) 44.
(38) Setton, op. cit., 318.

بارتلميو قد دفنها أو أن له الموهبة الالهية في التحري عن المعادن)[٣٩].

أما قائد القلعة احمد بن مروان فكان يراقب سير المعركة من قلعته بين الصليبيين وجيوش كوربوغا . فدارت مفاوضات بينه وبين بوهيمند على الاستسلام . وقد تم ذلك فعلا مقابل السماح لاحمد وحاميته مغادرة المدينة بدون أذى .

لقد اصبح بوهيمند بحكم الواقع صاحب امارة انطاكيا . فهو الذي حقق النصر بأساليبه الخاصة في فتح المدينة وقهر جيوش كوربوغا واستسلام القلعة اليه . لهذا اضطر القادة الى الموافقة على مضض منهم . وبذلك تكونت ثاني الامارات الصليبية .

المسيرة نحو القدس :

لم يحاول امراء سوريا اثر معركة انطاكيا مقاومة الغزاة في اراضيهم . وكل ما هدفوا اليه رؤية حشود الاعداء تسير عبر اراضيهم باقل خسارة ممكنة . وقد اشترى امير شيزر حسن سلوك الصليبيين بما قدمه لهم من اموال وادلاء . وحاول بنو عمار في طرابلس الاقتداء بذلك المسلك ، الا أن ثراء الامارة حرك اطماع ريموند الجيلي وكودفري . كما فضل كل من رضوان حاكم امارة حلب ونسيبه حاكم حمص اتباع سياسة الحياد اثناء مرور الصليبيين عبر اراضيهم . اذ ارسل الاخير وفدا مزودا بالهدايا الى ريموند في الوقت الذي كان فيه يشدد الحصار على حصن الاكراد . وقد تعهد الوفد نيابة عن الامير الحمصي بحرية مرور اتباع ريموند في جهات حمص[٤٠].

ان محاولات القادة في الاستحواذ على الاراضي السورية قد اخرت المسيرة نحو القدس . اذ حاصر كودفري جبله التابعة الى طرابلس . وتخلص امير طرابلس من خطره باشاعته ان جيشا عظيما في طريقه لابادة الفرنجة بقيادة الخليفة العباسي . واسرع ريموند الجيلي باخبار كودفري وروبرت امير فلاندر بذلك الخبر طالبا منهما القدوم اليه لمساعدته . لهذا

---

(39) Runciman, op. cit., 245.

(40) Ibid., 267.

فك كودفري الحصار وتوجه الى ريموند الذي كان محاصرا عرقه . وقد غضب شديدا حينما اكتشف عدم صحة الخبر . واخذ البعض يتشكك بأن ريموند الجيلي نفسه قد لفق الخبر لكي يمنع كودفري من الاستيلاء على جبله . وتدهورت العلاقات بين كودفري وريموند بشكل خطير حينما استمر بمحاصرة عرقه محاولا عبثا اقناع القادة بضرورة فتحها مستعينـا برؤيا بارتلميو الذي ادعى بان المسيح اوصى بذلك .

لقد اودت الرؤيا الاخيرة بالفلاح البائس الى التهلكة . اذ اخذ يتساءل الزعماء في جيشي كودفري وامير فلاندر عن اباطيل بارتلميو وانه مجرد أداة مسخرة بيد ريموند وما الحربة المقدسة الا قطعة حديد بالية قام بدفنها في كنيسة القديس بطرس . وحاول ريموند الجيلي جهده الدفاع عن بارتلميو بلا طائل . وبلغ اللغط اشده بين الصليبيين تحت اسوار عرقه حول الموضوع . وهنا تقدم ارنولف احد رجال الدين في معية روبرت امير نورمندي باقتراح يختبر فيه صحة ادعاءات بارتلميو عن طريق التحكيم المحني Ordeal وذلك بأن يقتحم ذلك الفلاح نيرانا ملتهبة حاملا معه الحربة فان لم تمسسه النار بسوء فذاك الدليل على صدقه . ادى بارتلميو امتحان المحنة الا انه توفي بعد اثني عشر يوما متأثرا بحروقه(٤١). وادى موته الى الاعراض عن موضوع الحربة المقدسة من قبل الكثيرين والى رفع الحصار عن عرقه ومواصلة السير نحو القدس بقيادة كودفري في ١٣ مايس ١٠٩٩ .

تسلم القادة في ١٠ نيسان ١٠٩٩ رسالة من الامبراطور الكسيوس يطلب منهم الانتظار قرب طرابلس لانه في طريقه اليهم لكي يواصلوا السير معا نحو القدس . ولم يوافق القادة على اقتراح الامبراطور لريبتهم في نواياه ، عدا ريموند الجيلي . وقد اصروا على فتح القدس بانفسهم مهما كانت التضحيات . وقدر الجيش الزاحف على القدس بأربعين ألفا(٤٢) .

وقد حاول الفاطميون عبثـا التوصل الى تفاهم مع الصليبيين حول

(41) Oldenbourg, op. cit., 130.
(42) W. Stevenson, The Crusaders in the East (Beirut, 1968) 32-33.

سوريا والقدس وذلك في مرتين • كانت الاولى في انطاكيا • اذ ارسل الخليفة العادل وفدا للصليبيين اثناء حصارهم انطاكيا يعرض عليهم اقتسام سورية على أن تكون القدس والمناطق الفلسطينية للفاطميين • والثانية اثناء حصار عرقه • اذ تعهد فيها الفاطميون اعطاء الصليبيين الحرية التامة في زيارتهم للقدس وتقديم كافة التسهيلات لقاء عدم تعرض الصليبيين للممتلكات الفاطمية • وقد رفض الصليبيون تلك العروض •

كانت القدس بيد الفاطميين انذاك حيث انتزعوها من سقمان بن الارتق سنة ١٠٩٨ في الوقت الذي كانت فيه الجيوش الصليبية تحاصر انطاكيا • هذا ولم يتمكن والي القدس الفاطمي افتخار الدولة من الصمود امام الحصار الصليبي اكثر من مدة شهر وعشرة ايام حيث استسلم الى ريموند الجيلي بعد ان امنه على حياته وحياة جنده في منتصف شهر حزيران ١٠٩٩ •

مذبحة القدس :

اعتبرت المذبحة التي انزلها الصليبيون في القدس من اعظم الجرائم في التاريخ آنذاك • اذ لم يسلم الاسرى الذين احتموا براية تانكريد من القتل • واندفعت الجموع الصليبية الى كل مكان وبيت في القدس تذبح كل انسان تراه • كما اشعلوا النيران في معبد اليهود الذين احتمى فيه هؤلاء وبذلك هلكت كافة الجالية اليهودية حرقا • كم هلك من المسلمين ؟ لا توجد احصائية دقيقة عن الموضوع ، وانما قدرت بالالوف[43] • اذ يعتقد ابو الفداء بأنها حوالي السبعين ألفا في المسجد الاقصى • ومهما كان العدد فقد جاء في رواية مؤرخ معاصر (بان خاض رجالنا الى ركبهم بالدماء)[44] •

احدث سقوط القدس موجة فرح عارمة في الغرب اذ حقق فيها رجال الكنيسة الغربية هدفهم المنشود بعد التضحيات الجسام • اما بالنسبة للعالم الاسلامي فكانت كارثة كبرى وخاصة في قاعدة الخلافة • اذ

---

(43) F. Heer, The Medieval world, Europe, 1100-1350, trans. by Sondhiemer (N. X., 1963) 135.

(44) Quoted in Pernoud, op. cit., 89.

وصل حملة الانباء الى بغداد في شهر رمضان محاولين استنفار الناس للقتال (فاجتمع اهل بغداد في الجوامع واستغاثوا وبكوا حتى انهم افطروا من عظم ما جرى عليهم) .

وقال في ذلك الشاعر المظفر الابيودوري قصيدة منها (٤٥) :

مزجنا دماء بالدموع السواجم
فلم يبق منا عرضة للمراجم
وشر سلاح المرء دمع يفيضه
اذ الحرب شبت نارها بالصوارم
وكيف تنام العين ملئى جفونها
على هفوات أيقظت كل نائم
أترضى صناديد الاعاريب بالاذى
وتغضي على ذل كماة الاعاجم
وتلك حروب من يغب عن غمارها
ليسلم يقرع بعدها سن نادم

---

(45) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ، ٩٨ - ٩٩.

الفصل الرابع

دولة القدس ومقوماتها

الرئاسة ، كودفري ، الاوضاع الدينية في عهده ، بلدوين الاول ،
حملة سنة ١١٠١ ، مشاكله المالية
بلدوين الثاني
فولك الانجوي
الامارات التابعة للقدس
المقومات السياسية والعسكرية

رئاسة القدس بين الروحانية والعلمانية :

اثار الاستيلاء على القدس نقاشا حادا بين القادة ورجال الدين اتباع كنيسة روما حول عدة نقاط منها : رئاسة الدولة الجديدة ، اتكون علمانية ام روحانية ؟ وما هو مدى الارتباط بالبابوية ؟ لا سيما وان بطرقية القدس تابعة للارثودوكس . وقد كان المفروض ان يكون رئيس الدولة روحانيا الا ان القادة رفضوا مقدما اية محاولة من هذا النوع على اعتبارين : الاول تبعية بطرقية القدس للارثودوكس ولم يصفوا حسابها بعد ، والثاني احتياج القدس الى عسكري يعرف كيف يدافع عنها . الا ان الاعتبار الاول لم يكن بأمر ذي بال اذ لم تحاول السلطات اثارة الموضوع بالاضافة الى ان رئيس القدس الارثودوكسي سيمون غادر الى قبرص قبل سنتين من وقوع القدس بيد الصليبيين[1] . فاعتبر المنصب شاغرا مما فسح

(1) Z. Oldenbourg, the Crusades (N. X., 1965) 149.

المجال لاشغاله بمرشح كاثوليكي • اما الاعتبار الثاني فقد رجحت فيه كفة النبلاء وسلم رجال الدين بالامر الواقع •

ان انصياع رجال الدين لقرار الامراء حول الرئاسة العلمانية كان لظروف خارج ارادتهم • فلم تكن هناك قيادة بابوية منذ وفاة النائب البابوي اديمار في انطاكيا سنة ١٠٩٨ • اذ ان تمشكل البابا اوربان الثاني في قضايا الامبراطورية الرومانية المقدسة قد قلل من اهتمامه في مراقبة سير التطورات في الاراضي المقدسة • فقد طلب القادة اثر وفاة اديمار ان يشخص اليهم بنفسه ليتولى القيادة العليا أو ان يرسل من ينوب عنه • فلم يستجب للمطلب الاول واخطأه التوفيق في اختيار ممثله • اذ عين نائبا عنه رئيس اساقفة بيز' المدعو ديمبرت Daimhert الذي ابحر الى انطاكيا في اواخر سنة ١٠٩٨ • وراح هناك يساهم في مغامرات بوهيمند ضد اللاذقية البيزنطية[1] • ولم يعرج على القدس الا في ديسمبر سنة ١٠٩٩ بعد أن تقرر مصير رئاسة دولة القدس •

كودفري ١٠٩٩ – ١١٠٠

لقد اسفرت مشاورات الامراء عن اسناد رئاسة حكومة القدس الى كودفري أمير لورين الذي لعبت الظروف دورا في فوزه بذلك المنصب • فقد كان هناك قسم من الامراء يمكن اسناد الرئاسة لاي منهم امثال روبرت امير نورمندي وروبرت الثاني امير فلاندر وريموند الجيلي امير طولوز • اما الاولان فاعتذرا عن الترشيح لانهما لا ينويان الاقامة في القدس • اما ريموند الجيلي الذي اشتهر باطماعه ومهاتراته فكان على علم مقدما بانه لا يحظى باجماع الاراء لهذا ابدا رفضه لترشيح نفسه سلفا[3] بالرغم من انه كان يرغب فيه في دخيلة نفسه • وهنا تعلق الاستاذه زيو اولدنبرك بقولها (لو كانت رغبة القادة حقيقية عند مفاتحتهم أياه لقبل المنصب ولاتخذ تاريخ دولة القدس طريقا اخرا • الا ان القادة لا يطمأنون اليه لسبب بسيط

---

(2) S. Runciman, A History of The Crusades, Vol. I (Combridge 1957) 299-300.

(3) Cox Bart, The Crusades (N. X., 1910) 74.

هو انه في علاقات حسنة مع الامبراطور الكسيوس الذي لا يرتاح اليه هؤلاء ...) لهذا خلا الجو الى كودفري فاسندوا اليـه الامـارة بعد استفسارات شكلية عن سلوكه فلم يجدوا فيه شيئا مشينا . اذ قال رجل الدين الملازم له : بانه يمكث في الصلات طويلا فيضطر أهله الى تناول الطعام باردا او مطهيا اكثر من اللازم . وهكذابدا كودفري وكأنه المـلاك نسج الخيال الاسطوري حوله هالة من التبجيل فصيره في مصاف رولان او شارلمان في هذا الشأن(٤) .

لم يكن كودفري بتلك العفة والنزاهة . فقد عرف بالطموح والحذر والاستئثار . فقد رأينا سابقا مثلا انه لم يكن بذلك الحماس الذي يدفعه رأسا الى القدس ، فقد اضاع الكثير من الوقت للحصول على املاك في طرابلس اثناء مسيرة الحملة من انطاكيا . ولعب دورا فعالا في مذابح القدس لانه اقسم أن يطهر الدين بدماء المسلمين . ومع ذلك فقد احبه الناس لما اظهره من تواضع عندما لم يلقب نفسه بالملك بتصريحه القائل : بانه لا يلبس التاج الذهبي في المكان الذي وضع فيه على راس المسيح التاج الشوكي ، وفضل ان يلقب بحامي القبر المقدس . ويعتقد بانه لجأ الى ذلك الاسلوب ترضية لكبرياء القادة . الا انه صرح من ناحية اخرى بان لا يرضى ان يكون رئيسا لدولة القدس بمجرد القول . لهذا طلب من ريموند الجيلي تسليمه قلعة داود في القدس والا فانه على استعداد لتقديم استقالته . وتساءل كودفري : كيف يتسنى لي ان اكون اميرا على هذه المدينة وفيها قوة تفوق ما لدي . وقد اضطر ريموند الى تسليم القلعة.

اتخذ كودفري اجراءات هامة في الصعيدين الداخلي والخارجي ساعدت على ارسـاء قواعـد دولـة القدس . اذ يعتبـر المشرع الاول لدستور القدس Assize of Jerusalem وهو عبارة عن مجموعة قوانين اقطاعية مستمدة من واقع الحياة في اوربا اللاتينية انذاك بكـافة جوانبه المادية والمعنوية مع تحوير بسيط في التشكيلات القضائية(٥) . اما

---

(4) Oldenbourg, op. cit., 150-51.

(5) E. Gibbon, The Decline and Fall of The Roman Empire Vol. 6 (N. Y., 1962) 89.

في المجال الخارجي فقد حقق كودفري انتصارا مذهلا على الجيش الفاطمي الذي كان بقيادة الوزير الافضل في موقعه قرب عسقلان في آب سنة ١٠٩٩ وغنم الصليبيون المعسكر الفاطمي فوقع بايديهم سيف القائد ورايته . وسارع على اثر ذلك امراء مدن الساحل لتقديم الهدايا والاموال الى كودفري تجنبا لمخاطره . كما حاول الاستيلاء على تلك المدن باتفاقية عقدها قبيل وفاته مع قادة اساطيل مدينة البندقية في حزيران سنة ١١٠٠[٦] .

الاوضاع الدينية في عهده :

لعل من اقوى الشخصيات الدينية عند وفاة اديمار هو ارنولف . انه نفس الرجل الذي لعب دورا هاما في احالة بارثلميو الى حكم النار فكان سببا في موته . حاول ارنولف جهده ليرتقي الى منصب رئاسة القدس وما كان بامكانه تحقيق تلك الامنية الا بعد وفاة سيمون وقد فاز فعلا في الرئاسة سنة ١٠٩٩ . وبذلك اصبحت بطرقية القدس تابعة لروما .

لقد التف الكاثوليك حول قيادة ارنولف الذي ينسب اليه كل شيء عدا التدين لانه كان مشهورا بحياته المسفه وما كان بامكانه ان يسمو الى رئاسة القدس الروحانية لولا رعاية روبرت امير نورمندي . وبدأت المشكلة تتأزم بين ارنولف والارثودكس حينما عمد الى مصادرة الاملاك الدينية الارثودكسية ثم امر باضطهاد زعمائهم حينما ابوا تسليمه الصليب المقدس . وبذلك انقلبت افراح مسيحيي الاراضي المقدسة اتراحا وهم الذين استقبلوا الجيوش المسيحية بالدموع والدماء[٧] .

لقد اضطر ارنولف الى التخلي عن منصبه عند وصول ديمبرت الى القدس في كانون اول سنة ١٠٩٩ . وديمبرت هذا رئيس اساقفة مدينة بيزا رشحه البابا اوربان الثاني لينوب عنه في الاراضي المقدسة . لهذا قاد فرقة من ابناء مدينته بنفسه بالرغم من شيخوخته نظرا لخبرته العسكرية التي اكتسبها في قتال المسلمين في جهات اسبانيا . وقد فرض ديمبرت نفسه على احداث القدس منذ اول قدومه اليها . ولم يكن هذا زعيما روحانيا

---

(6) راجع ص ٨٣ من هذا الفصل .

(7) Oldenbourg, op. cit., 159.

بالمعنى المطلوب • فقد اشرنا آنفا بانه توجه رأسا الى انطاكيا بدل القدس وراح يغامر مع بوهيمند من اجل استيلاء على اللاذقية المسيحية البيزنطية• وحينما فشل في ذلك القى المسؤولية على بوهيمند بقوله ان الاخير غرر به لاخباره ان البيزنطيين حلفاء المسلمين • ولم يتورع عن ارشاء بوهيمند وبلدوين أمير الرها وحتى كودفري نفسه لقبولهم به بدلا من ارنولف • وكان كودفري آنذاك محتاجا الى الاموال الوفيرة التي جلبهامعه ديمبرت وكذلك لفرقته العسكرية • ويقال بان كودفري وعد ديمبرت لقاء ذلـك ان يتنازل له عن القدس فيما اذا استولى على مدينة تضاهيها روعة كدمشق او القاهرة(٨) • وعلى كل فلم يعش كودفري لينفذ وعده اذ توفي في ١٨ تموز سنة ١١٠٠ واعلن ديمبرت عند وفاة كودفري أن كلا من يافا والقدس بما فيها قلعة داود وجنود كودفري يجب ان تسلم له حسب الوعد الذي قطعه الاخير على نفسه • ولم ينجح ديمبرت في ذلك المضمار لمعارضة القادة العسكريين اتباع كودفري الذين عهدوا بولائهم الى أمير الرها بلدوين لانه من بين الذين رشحهم كودفري لتولي حكم القدس من بعده واوصى بـه توصية طيبة •

بلدوين الاول ١١٠٠ – ١١١٨ :

احتفلت القدس في يوم عيد الميلاد سنة ١١٠٠ باول ملك مسيحي لها• فالتاج الذهبي الذي رفض كودفري ان يضعه على رأسه قد استهوى بلدوين حيث توج في كنيسة بيت لحم بالرغم من معارضة تانكريد الوصي علـى عرش انطاكيا اثناء وقوع بوهيمند الاول في اسر الدانشمند ١١٠٠ ــ ١١٠٣ اذ غادر هذا القدس بدون ان يقدم الولاء لبلدوين • كما ان ديمبرت حاول محاولات يائسة للحيلولة دون تولي بلدوين العرش معتمدا في ذلك على مساعدة بوهيمند له قبل علمه بوقوعه في الاسر ، وقد اضطر أن يقوم بعملية تتويج بلدوين بنفسه • وسرعان ما نشبت الخلافات بين الملك ورئيس الاساقفة الذي اراد الانفراد بالقدس ورام‌الله ويافا فاستصدر بلدوين امرا

(8) Runciman, op. cit., 311-12.

من المجلس الروحاني باقالة ديمبرت سنة ١١٠٢ الذي راح محتميا بامير انطاكيـا ٠

لقد انقسمت بطركية القدس في عهده بين فئتين : أيدت الاولى رئاسة أرنولف بينما حاولت الثانية اعادة ديمبرت وقد فاز أرنولف بذلك المنصب للمرة الثانية بعد تاريخ صاخب مرت به كنيسة القدس منذ اقالة ديمبرت حتى اعتلاء ارنولف سنة ١١١٢ وقد استمرت رئاسته الى نهاية عهد بلدوين الاول ٠

اعتمد بلدوين الاول في مشاريعه الدفاعية والتوسعية على كل من البابوية ومدن ايطاليـا التجارية ٠ اذ وجه البابا بسكال الثاني سنة ١١٠٠ الدعوة للجهاد في الاراضي المقدسة فاستجابت له جموع غفيرة لمبـارية وفرنسية والمانية شرعت بالتحرك شرقا سنة ١١٠١ بثلاث دفعات هي[٩] :

١ ـ الدفعة للمباردية : وسميت بذلك نظرا لان اكثرية المشتركين فيها من اللمبارد وتألفت في خريف تلك السنة ٠ سارت عبر المجر الى الاراضي البيزنطية حيث القسطنطينية ٠ وقد حدثت مناوشات بينهم وبين الجند الامبراطوري فأرغمتهم السلطات البيزنطية على عبور البوسفور قبل استكمال التجمع الصليبي ٠ ثم لحقت بهم فرقة فرنسية كان فيها ريموند الجيلي الذي تولى القيادة العامة بناء على توصية الامبراطور الكسيوس ٠

استهدفت الفرقة اللمباردية بالدرجة الاولى تخليص بوهيمند من اسر الداتشمند في قلعة نقصار ٠ وقد عارض ريموند هذه الفكرة في البداية الا انه اضطر الى الموافقة لتعنت اللمبارديين ٠ وقد استولوا في طريقهم على انقره ومنها قصدوا كانكا التي تؤدي الى قلعة نقصار ٠ وقـد استعـد السلاجقة لملاقاة هؤلاء ، فتناسوا احقادهم وكونوا حلفا ثلاثيا تألف من قليبج ارسلان وامير الدانشمند الغازي ومن رضوان امير حلب ٠ وتمكنوا من ابادة تلك الجيوش الصليبية في موقعة مرسفان التي لم يسلم فيها غير بعض القادة ومن بينهم ريموند الذين لاذوا بالفرار حيث الساحل ومن هناك الى القسطنطينية ٠

---

(9) Runciman, op. cit., Vol. II, 18-32.

٢ ـ الدفعة الفرنسية : وكانت هـذه بقيـادة امير نفر Nevers وليم الثاني الذي غادر في شباط الاراضي الفرنسية الى ايطاليا ومنها عبر الادرياتيك الى ساحل البلقان ثم سار من هناك نحو القسطنطينية • وقد ابيدت فرقته في اسيا الصغرى في موقعة هرقلية • ونجا وليم مع بعض فرسانه بالتجائهم الى احدى القلاع البيزنطية حيث ارسلوا من هنـاك بحرا الى انطاكيا فوصلها وليم بحالة اشبه بالمتسولين •

٣ ـ الدفعةالفرنسية ـ الالمانية: وابرز من فيها من امراء فرنسا هو وليم التاسع امير منطقة اكوتين الذي سار عبر المجر سوية مع الامير الالماني ويلف امير امارة بفاريا ثم التقت بهما احدى سيادات القصر النمساوي آيدا اجمل نساء زمانها التي رغبت في تأدية فريضة الحج • وقد ابيدت الفرقة الفرنسية الالمانية برمتها في كمين نصبه السلاجقة قرب هرقلية ايضا • وخلص القادة انفسهم بعد جهود جهيدة • اما سيدة القصر النمساوي فلم يعثر على خبرها منذ ذلك الوقت •

القى الاوروبيون مسؤولية الكوارث الثلاث على عاتق الامبراطور الكسيوس الذي اتهم بالاتفاق سرا مع السلاجقة حيث وصفوه (بالعقرب التي لا تقاتل وجها لوجه وانما تلدغ من مؤخرتها) • ومع ذلك فقد عامل الامبراطور القادة الفارين بكل اكرام عند رجوعهم الى القسطنطينية ثم جهزهم[١٠] بالاموال والسلاح مسهلا مهمة ابحارهم الى الاراضي المقدسة• ومع ذلك فلعل تهور الصليبيين وعنادهم وفقدان الانضباط العسكـري وعدم معرفتهم بالتكتيك العسكري السلجوقي من جملة اسباب الكـوارث الثلاث • وهنا تشير المؤرخة كومنينا الى : (•••انهم لا يسمعون النصيحة ولا يتقيدون بالضبط العسكري ولا يهتمون للخطط الاستراتيجية ••• تراهم يقاتلون بضراوة والحقد يغلي في قلوبهم • وحينما يقوم عدوهم بنصب الكمائن تلو الكمائن ••• تنقلب شجاعتهم الى جبن عجيب•••)

لقد ثبطت تلك الكوارث حماس الاوربيين لعدة سنوات، كما اخيبت أمل بلدوين في الاستفـادة من قوى الاوربيين البرية • وادت الى اعتماد مملكة القدس بصورة رئيسية على القوى البحرية لمدن ايطاليا التجارية

(10) Oldenbourg, op. cit., 180-81.

مقابل امتيازات اقتصادية وسياسية(١١) ٠

لقد استولى بلدوين الاول بمساعدة الاساطيل البيزوية والجنوبية والفنيسية في فترة حكمه ١١٠٠ ـ ١١١٨ على كافة مدن الساحل ما عدا صور وعسقلان ٠ واثارات التوسعات وما رافقتها من مذابح للسكـان الامنين مشاعر السلطات الفاطمية في مصر التي حاولت عبثا استرداد مناطقها في الجهات السورية ٠ وهذا ما يتوضح من معارك الرملة الثلاث ١١٠١ ـ ١١٠٥ والغارات الفاطمية على الجهات الصليبية في ١١١٣ ـ ١١١٥ ٠ اما بالنسبة لمعارك الرملة الثلاث فقد حقق بلدوين في اولاها نصرا على الفاطميين وكاد ان يقع في الاسر في المعركة الثانية ١١٠٢ لولا تسلله ليلا من قلعة الرملة والالتجاء الى يافا وهناك مكنته الظروف من تحشيد قواه والاستعانة بفرق حجاج مسلحة انكليزية وفرنسية والمانية وصلت ذلك الميناء ، فالحق هزيمة بالجيش الفاطمي قرب يافا سنة ١١٠٢ ٠ ثم كتب النصر لبلدوين على الجيوش المصرية في موقعة الرملة الثالثة سنة ١١٠٥ بالرغم من مساندة جيوش بعض الامارات السورية لها ٠ وقام الفاطميون بغارات خاطفة داخل الاراضي الصليبية في فترة ١١١٣ ـ ١١١٥ تغلغلوا فيها الى مشارف القدس٠ وادت تلك الى ان يفكر بلدوين الاول بالقيام بهجوم على مصر نفسها وفعلا وصل بجيوشه النيل سنة ١١١٨ الا انه اضطر للتراجع على اثر اصابته بمرضه الاخير الذي اودى بحياته ٠

مشاكل بلدوين الاول المالية :

ان خطط بلدوين الاول الدفاعية والتوسعية تطلبت اموالا طائلة لم يكن الحصول عليها سهلا ٠ فاكثرية مرافق البلاد اضحت رهن احتكارات مدن ايطاليا التجارية ٠ ولم تكن الموارد الاقطاعية بكافية لدعم الجهاز العسكري ٠ كما ان الثروات التي تحصل عليها الدولة من اسلاب المـدن المفتوحة لم تشكل موردا يعتمد عليه وانها كانت في تناقص مستمر ٠ اما

---

(11) Setton and Baldwin, A History of the Crusades Vol. I (Penns., 1958) 367.

الرسوم المالية المفروضة على الحجاج والقوافل التجارية البرية فمنوطة بالظروف •

ان الضائقات الاقتصادية التي احاقت ببلدوين اضطرته الى التفتيش عن المال انى وجد • فشارك الكنائس والاديرة فيما يقدم لها من هبات وراح يعتصر خزانة رئيس الاساقفة في القدس عصرا وكانت من الاسباب الهامة في اختلافه مع ديمبرت • ثم احتال في الحصول على الدراهم عن طريق مشاريع زيجية • فقد تزوج من الاميرة الارمنية اردا Arda بنت الامير طفنوس طمعا في مالها • ثم اصبحت عديمة النفع حينما امتص ثروتها • لذا هجرها واحتجزها في دير من الاديرة • ولم يتورع عن اسناد تهمة اخلاقية لها حيث اشار الى ان القراصنة اعتدوا على عفافها حينما كانت في سفرة بحرية من اللاذقية الى يافا • ثم اخذ يفتش عن زوجة مثرية اخرى • فنصب شراكه لارملة صقلية الا وهي الاميرة ادليد ام الامير روجر الثاني • وتعد ادليد من اغنى الاميرات في اوربا قاطبة • وادليد هذه في اواسط عمرها رضيت ببلدوين زوجا على امل ان يدعم مركز ابنها ولتطمأن على مستقبله واشترطت على بلدوين ان يوصي بعرش القدس الى ابنها روجر • وجاءت الخطيبة الى القدس ومعها الخزائن التي نقلتها بحرا سبع سفن • وتم الزواج باحتفالات رائعة • ولم تكن ادليد لتعلم بان لزوجها زوجة اخرى مطلقة بصورة غير شرعية سمح لها بالخروج من الدير والسكنى في القسطنطينية مع والدها الذي سلبه الفرنجة امارته في مرعش(١٢) •

لقد ابتلع بلدوين ثروة زوجته ادليد خلال بضعة سنوات ١١١٢ — ١١١٨ الا انه لم يكن من السهل عليه هجرها املا في الاستفادة العسكرية من القوات النورمندية الصقلية ، وقد خاب امله في ذلك نظرا لاعتراض البابوية على طلاقه الاول وزواجه الثاني لانهما جريا بصورة منافية للشرع الديني • وقد اعلن بلدوين على اثر ذلك الغاء زواجه من ادليد التي عادت الى صقلية تجر اذيال الخيبة وقد انحنت على كتف ابنها عند استقباله لها تذرف عليه دموع الاسى والخذلان واصبح مثلها محط تندر الاميرات

(12) Runciman, op. cit., 102.

الاوربيات آنذاك ، اما موقف روجر من فعلة بلدوين فانه صرح بانه سوف لا يقدم اية معونة لدولة القدس ما زال بلدوين في قيد الحياة(١٣) .

بلدوين الثاني ١١١٨ – ١١٣١ :

لم يترك بلدوين الاول وريثا لهذا وقعت مهمة اختيار الملك الجديد على عاتق الامراء ، اذ فضل قسم منهم اسناد العرش الى اخيه الاكبر يوستاس امير بولون والذي كان في فرنسا وله من العمر ستين سنة . بينما فريق اخر بلدوين لوبورك Baldwin of Le Bourg امير الرها حيث كان موجودا انذاك في القدس ، وايدهم في ذلك رئيس اساقفة القدس وبذلك فكانت الاغلبية بجانب بلدوين الذي انتخب ملكا تحت اسم بلدوين الثاني . هذا مع العلم بان يوستاس قبل الدعوة وشد الرحال قاصدا الاراضي المقدسة ولم يسمع باعتلاء بلدوين الثاني للعرش ، الا اثناء الطريق وهو في الاقسام الجنوبية في ايطاليا . وصرح يوستاس عند سماعه الخبر بانه لا يود محاربة بلدوين من اجل الدنيا في ارض مقدسة دفن فيها اخواه بعد جهاد مشرف(١٤) .

يعتبر بلدوين الثاني من ملوك القدس الافذاذ . حاول جهده للتوحيد بين الآراء . وانصف بالتقوى لهذا احبه رجال الدين وانس بـه القادة لشجاعته وفروسيته واطمأن اليه عامة الناس لتواضعه . وحاول تقوية روابطه مع الامارات الصليبية الثلاث الا وهي الرها وانطاكيا (وطرابلس التي وقعت بيد الصليبيين سنة ١١٠٩ فاصبحت من نصيب الامير برترام احد ابناء ريموند الجيلي) اذ اسند بلدوين الثاني حكم امارة الرها الى تابعة جوسلين بينما زوج بنتيه من اميري انطاكيا وطرابلس .

امضى بلدوين الثاني معظم اوقاته في الدفاع عن مملكة القدس باماراتها الثلاث . اذ تولى الدفاع عن انطاكيا ضد جيوش اتابكه الموصل ودمشق التي انزلت هزيمة كبرى في الجيش الانطاكي سنة ١١١٩ في موقعة سهل الدماء بين حلب وانطاكيا . حيث قتل روجر اوف سالرنو الوصي على

---

(13) Oldenbourg, op. cit., 242.
(14) w. of Tyre, A History of Deeds Done Beyond the Sea, trans. by Babcock and Krey (N. Y., 1943) XII, 3.

بوهيمند الثاني امير انطاكيا ، والت الوصاية انذاك الى بلدوين الثاني .
كما ان الاخير اصبح المسؤول المباشر عن الدفاع عن امارة الرها بعد وقوع
الامير جوسلين في اسر بلك الارتقي واحتجازه في قلعة خرتبرت ١١٢٢ ـ
وحاول بلدوين الثاني انقاذ جوسلين الا انه وقع في الاسر ولم يطلق سراحه
حتى سنة ١١٢٤ في عهد الامير الارتقي تيمورتاشي ، اذ وعده بلدوين
بثمانية الاف دينار وبقسم من الاراضي التابعة لامارة انطاكيا ، ثم تقديم
مساعدة عسكرية ضد الزعيم القبلي دبيس(١٥) .

لقد اجتازت دولة القدس اثناء اسر بلدوين فترة حرجة من تاريخها
مكللة بالانتصار ، اذ تمكنت من صد هجمات الاراتقة من الشمال والفاطميين
من الجنوب وذلك نتيجة للمساعدات التي قدمتها الاساطيل التابعة للبنادقة .
كما احتلت قوات دولة القدس بمساعدة البنادقة سنة ١١٢٤ مدينة صور .

وجد بلدوين الثاني نفسه في مركز قوي بعد اطلاق سراحه على
أثر الانتصارات التي احرزتها قواته بمساعدة البنادقة . لهذا نكث عهده مع
تيمورتاشي بالرغم من انه ترك لديه رهائن بشرية من بينهم اولاد بعض
النبلاء وابن جوسلين واحدى بنات بلدوين الثاني نفسه ، ويعتقد بان الاخير
كان راغبا في دفع الفدية الا انه ليس بامكانه الوفاء بالشرط المتعلق بالاراضي
الانطاكية لانها لم تكن من املاكه المباشرة وانه مجرد وصي على بوهيمند
الثاني لهذا كتب بلدوين الثاني الى تيموتاشي رسالة جاء فيها : (بعد اطلاع
رئيس اساقفة انطاكيا على طبيعة التنازلات التي وعدناكم بها حول انطاكيا :
فانه رفضها رفضا باتا واني لا استطيع مخالفته في الرأي لهذا امرني بأن لا
اتقيد باليمين الذي حلفته امامكم وقد برأ ساحتي منه)(١٦) .

لم يكتف بلدوين في نكث وعوده الى تيمورتاشي بل عمد الى التحالف
مع كل من الزعيم القبلي دبيس وسلطان شاه بن رضوان حاكم حلب
السابق الذي اغتصب امارته الاراتقة ، وعانت الجهات الاسلامية السورية
الشدائد من السياسة العدوانية التي اتبعها هذا الثالوث العربي السلجوقي

(15) Runciman, op. cit., 171.
(16) Oldenbourg, op. cit., 258-59.

الصليبي ، اذ وصلت غارات دبيس الى مشارف بغداد كما فرض بلدوين وسلطان شاه الحصار حول حلب فتضور السكان جوعا • وقد اضطر تيمورتاش الى الانهزام من المدينة لهذا طلب السكان مساعدة امير الموصل أقسنقر البورسكي حيث تمكن من انقاذ حلب من براثن الثالوث السابق • وكادت الدوائر ان تدور على مملكة القدس لولا اغتيال البورسكي في نوفمبر سنة ١١٢٦ •

لقد انشغل بلدوين الثاني في اواخر سنيه في التهيئة لوراثة العرش من بعده • اذ لم يكن له وريث من الذكور وانما له اربع بنات • لهذا اراد ان يحقق الوراثة لابنته الكبرى بموجب العادات الفرنسية الاقطاعية عن طريق تزويجها • لهذا استشار ملك فرنسا لويس السادس في الامر فاقترح عليه ان يزوجها بالامير الفرنسي فولك الانجوي • وتم اقتران هذا الامير ببنت بلدوين الثاني الكبرى المسماة ملسندا Melisende سنة ١١٢٩ •

فولك الانجوي Fulk of Anjou ١١٣١ ــ ١١٤٣ :

يعتبر هذا من عظماء امراء فرنسا وكانت امارته هناك نموذجا في التنظيم والاستقرار • وقد ذهل عند وصوله القدس من الفوضى التي ضربت اطنابها في مملكة القدس ، اذ لم تكن مملكة القدس لتمثل وحدة متماسكة لا في جوانبها الاجتماعية ولا السياسية • فهناك العديد من اللغات بحسب تعدد الجنسيات الاوربية ناهيك عن تعدد المذاهب • فهناك الكاثوليك والارثودكس والمونوفست والنساطرة بجانب المسلمين • اما من ناحية سياسية فانقسم ولاء السكان بين عدة اطراف فولاء الفرسان لرؤساهم والبابوية وولاء السكان البسطاء اما للامبراطور البيزنطي او لزعمائهم الروحانيين • ثم هناك تعدد المحاكم القضائية وتداخلها بالاضافة الى امتيازات المدن التجارية الايطالية في النواحي القضائية اذ لا يطيع تجار المدن الايطالية في الاراضي المقدسة سوى قوانين حكومات مدنهم • هذا وقد تدهورت العلاقات بين القدس من جهة والامارات الصليبية الثلاث من جهة اخرى حال وفاة بلدوين الثاني • فقد حاول كل من اميري طرابلس والرها اشعال ثورة في انطاكيا لتقويض سلطته هناك في وقت كانت فيه المخاطر الاسلامية تهددهم من كل جانب ومكان •

لم يكن بمقدور فولك الانجوي صهر مجتمع دولة القدس اجتماعيا وسياسيا في بوتقة واحدة ولم يحاول ذلك ، الا انه فضل الابتداء في معالجة اخطر المشاكل الا وهي الاحتفاظ بسيطرة القدس على انطاكيا [١٧] ، وتمكن بجيش قاده الى هناك من اعادة الامن الى نصابه والاحتفاظ بحق وصايته على بنت الامير بوهيمند الثاني الا وهي كونستانس حيث قتل والدها في معركة خاضها ضد جيوش الغازي ملك الدنشمند سنة ١١٣٠ وارسل رأسه هدية للخليفة العباسي في بغداد .

وبالاضافة الى مشاكل فولك الانجوي في مملكة القدس فكان عليه ان يواجه مشكلة زوجته مسلندا ملكة القدس ، اذ لم تشعر مسلندا بالراحة الزوجية مع فولك الذي يكبرها بأكثر من عشرين سنة وما كان الزواج لحب متبادل وانما لضرورات سياسية . الا ان الملك فولك قد وقع في حب حقيقي لزوجته الشابة التي راحت هي بدورها تبادل غيره الحب . اذ عشقت ملسندا صديق صباها هيو اوف بويسيه الذي يمت الى اسرتها بصلة من القرابة . وأثار ذلك الحب المتبادل حفيظة الملك الكهل وادى الى فضيحة في القصر الملكي والى نتائج معقدة . اذ كلف الملك بصورة غير مباشرة احد الفرسان ان يبارز هيو الا ان الاخير فر من القدس طالبا حماية المصريين له في عسقلان . وهنا تظاهر فولك بالعفو عنه شريطة ان يغادر الى اوربا . وقد دبرت مؤامرة لاغتيال بطل الغرام قبل رحيله حيث سدد له فرنسي طعنة لم يبرأ منها وقد توفي بعيد وصوله الى صقلية . وعمد فولك لتبرئة ساحته بسجن القاتل واعدامه.هذا ولا يعلم بالضبط فيما اذا اعتقدت الملكة ببراءة زوجها من دم عشيقها ام لم تعتقد فان العلاقات بينهما كانت ايجابية اذ لم يقدم فولك على أي امر من امور الدولة ما لم يأخذ رأي زوجته مقدما الى ان هناك من يعتقد بان سبب ذلك هو خوفه الدائم من انتقام زوجته التي اخذت تطارد كافة المتهمين بافشاء سر حبها الى الملك[١٨] .

---

(17) Runciman, op. cit., 177-78.

(18) Oldenbourg, op. cit., 309.

تشكيلات مملكة القدس ومقوماتها :

الامارات التابعة :

اتبعت دولة القدس كل من الامارات الثلاث الا وهي الرها وانطاكيا وطرابلس ، اسس بلدوين الامارة الاولى في جهات اعالي الفرات١٠٩٨ وهي اولى الامارات من حيث التأسيس والسقوط سنة ١١٤٤ ، اخذت روابطها الاقطاعية مع دولة القدس بالوهن تدريجيا منذ اواخر حكم بلدوين الثاني وقد فضل اميرها جوسلين ان يكون تابعا مباشرا لانطاكيا بدل القدس سنة ١١٤٠ ، اما امارة انطاكية ١٠٩٨ ــ ١٢٦٨ التي تأسست في الاقسام الشمالية الغربية من جهات سوريا فتدين بوجودها الى بوهيمند ، وتميز تاريخها في النصف الاول من القرن الثاني عشر بصراع حاد مع الاباطرة البيزنطيين ، اما علاقتها بمملكة القدس فكانت تبعية نظرية ،

لقد استكملت مملكة القدس كيانها على اثر الاستيلاء على امارة طرابلس سنة ١١٠٩ ، وكانت هذه تحت حكم فخر الملك ابي علي بن عمار الذي حاول عبثا الاحتفاظ بامارته عن طريق التقرب من الصليبيين ، اذ مثل ريموند الجيلي الخطر الاكبر على طرابلس في بداية الامر منذ سنة ١٠٩٩ حتى وفاته سنة ١١٠٥ فقد حاول في التاريخ الاول الاستيلاء على عرقه ووافته الفرصة في اعقاب حملة سنة ١١٠١ الفاشلة ، اذ استولى في تلك السنة على طرسوس بمساعدة الاساطيل الجنوية ، وراح يهاجم مدينة طرابلس نفسها ، لهذا اضطر فخر الملك ان يطلب المساعدات العسكرية من امير حلب جناح الدولة وامير دمشق دقاق ، الا ان ريموند شتت تلك الجيوش سنة ١١٠٢ ثم استولى على مدينة جبيل سنة ١١٠٣ الكائنة جنوب طرابلس ،

استمرت المخاطر تحيق بطرابلس بعد وفاة ريموند الجيلي سنة ١١٠٥ اذ تولى حركة التوسع الجيلي وليم جردين منذ ذلك التاريخ حتى سنة ١١٠٨ ومن ثم تولاها برتراند بن ريموند الجيلي ، حيث كان هذا في امارة طولون عند وفاة والده فغادرها متوجها الى ايطاليا فاجرى اتفاقا مع حكومة جنوا حول الاستيلاء على طرابلس ثم عرج على القسطنطينية للتفاهم مع الامبراطور الكسيوس وللحصول على مساعدات مالية ، وصل الاراضي

المقدسة سنة ١١٠٨ فراح يواصل الضغط على تلك الامارة ، فطلب فخر الملك المساعدة العسكرية من اراتقة الجزيرة الفراتية وقاد الملك الارتقي سقمان جيوشه نحو سوريا الا ان قواته فضلت الرجوع نظرا لوفاته ،

لجأ فخر الملك الى مصدر اخر املا في انقاذه من الخطر الجيلي ، فقد سافر الى بغداد محاولا اقناع السلطان السلجوقي محمد في مساعدته عسكريا ولم يكن هذا ولا خليفة المسلمين في وضع يمكنهما من الاستجابة لذلك الطلب ، وامضى فخر الملك اربعة اشهر في بغداد اضاع فيها امارته ، اذ عهد بحكم الامارة سنة ١١٠٨ اثناء مدة غيابه الى قريبه ابي المناقب ، وقد اتفق ابو المناقب مع قادة طرابلس على توجيه الدعوة للفاطميين ، فارسل الافضل جيشا بقيادة شرف الدولة الذي اعتقل كافة المؤيدين لفخر الملك في طرابلس وارسلهم الى مصر ، ولم يتمكن القائد الفاطمي من الصمود امام جيوش الصليبيين واساطيل جنوه التي حشدت ضد طرابلس سنة ١١٠٩ فاضطر الى الاستسلام ، وقد عهد بلدوين الاول بامارة طرابلس الى برتراند على ان يكون تابعا له ، كما استولت امارة انطاكيا في عهد تانكريد الوصي بوهيمند الثاني على اخر المدن التابعة لامارة طرابلس الا وهي جبالة الكائنة شمال بانياس سنة ١١٠٩ والتي كان قد اقام فيها فخر الملوك عند عودته من بغداد ، واضطر الى الانتقال الى دمشق حيث عاش ضيفا على خزينة واليها ،

المقومات السياسية والعسكرية :

استند الحكم في دولة القدس على الاسس الاقطاعية والقضائية التي احتواها دستورها Assize of Jerusalem الذي وضعت خطوطه الاساسية في عهد كودفري[١٩] ، اذ قسمت البلاد الى اربع اقطاعيات كبرى والى اثني عشر اقطاعية صغرى ، والكبرى هي يافا والكرك والجليل وصيدا وكونت كل من القدس وعكا وطبرية اقطاعات خاصة بالملك مباشرة ، ويمكن لرؤساء الاقطاع بنوعية الكبير والصغير ان يقطعوا اجزاء من اراضيهم لاتباع جدد حسب تعهدات عسكرية ومالية ، وكان التملك الاقطاعي في

(19) Gibbon, op. cit., 89-92.

عهدي كودفري وبلدوين الاول لمدى الحياة الا انه اصبح وراثيا في عهد بلدوين الثاني .

اما اجهزة الحكم فتألفت من المؤسسات التالية :

أ ـ المؤسسة الملكية : يعتبر الملك القائد العام للجيوش وهو المرجع الاعلى لكافة القضايا الزمنية وله الحق من ناحية نظرية منع الاقطـاعيين من بيع او رهن اراضيهم . وكان المفروض في العرش ان يكون انتخابيا غير انه اصبح وراثيا ومع ذلك فلم تكن هناك قاعدة منتظمة في اتباع اي من هذين الاسلوبين .

ب ـ المؤسسات القضائية : نظمت هذه بموجب ما جاء في دستور القدس وهي اولا المحكمة العليا والتي يتولى رئاستها الملك وتمثل اعلى سلطة قضائية ويتكون اعضاؤها من كبار الاقطاعيين او اتباع الملك المباشرين الذين يستلمون الاقطاع مباشرة منه . وتتلخص اختصاصات المحكمة العليا في توضيح القوانين وتفسيرها والعمل على ازالة المتناقضات بينها وبين التعهدات الاقطاعية وحل المشاكل بين النبلاء .

ثانيا ـ المحاكم الصغرى : وهو محاكم المدن يشرف على رئاستها من ينوب عن الملك من امراء الاقطاع الكبير يساعده في ذلك اثنا عشر محلفا يختارهم الرئيس من بين اتباعه اللاتين . وتعقد هذه المحاكم ثلاثة ايـام في الاسبوع تنظر في الدعاوى المقامة من قبل غير النبلاء وفي قضايا التجاوزات على الاراضي ومعالجة قضايا العبيد .

ثالثا ـ المحاكم المحلية او الطائفية : وتتألف من خمسة اعضاء اثنان منهم من اللاتين والبقية من سكان المحلة او الطائفة الدينية وتنظر في قضايا عامة الناس حسب تقاليدهم الدينية ويحق لكل فرد تأدية اليمين في تلـك المحاكم حسب كتابه المقدس . هذا ويمكن استئناف الدعاوي التي تبت فيها هذه المحاكم من قبل محكمة المدينة .

رابعا ـ المحاكم التجارية الممتازة : وهذه خاصة بتجار مدن ايطالية يترافعون فيها حسب قوانين حكوماتهم .

هذا مع العلم بان العقوبات في مختلف الجرائم قد حددت بدستور المملكة ، كما اجاز ذلك الدستور طرق المبارزة والتحكيم المحني في تحري الحقائق كما هو الحال في اوربا أثناء عهدها الاقطاعي .

ح ــ المؤسسة الادارية : وتتبع هذه في تقسيماتها ومسؤولياتها تدرج المراتب الاقطاعية • فكبير الوزراء Seneschal هو من اتباع الملك المباشرين المسؤول الاداري الاول • وينوب عن الملك في الوحدات الاقطاعية الكبرى افراد الاقطاع الكبار viscounts والذين يقومون بدورهم في اسناد الاشراف الاداري على اتباعهم في اجزاء اقطاعاتهم •

اما بالنسبة لجيش الدفاع الصليبي فقد اعتمد في تكوينه على ما يلي :

١ ــ التعهدات الاقطاعية : ان من ابرز شروط التبعية الاقطاعية هي الخدمة العسكرية • اي ان على الشخص الموهوب اقطاعا ان يكون فارسا مستعدا للقتال في الجيش المركزي بانخراطه المباشر او غير المباشر حسب تدرجه الاقطاعي • هذا بالاضافة الى الخدمة السنوية لعدد من الاسابيع • وان على الاقطاعي ان يقدم عددا من الفرسان عند الضرورة يتناسب مع عدد ضياعه ونفوسها ومواردها[٢٠] • كما ان امراء المدن الكبيرة عليهم تجهيز عدد معين من الفرسان سنويا وعند الضرورة ايضا • فيجب على القدس مثلا ان تقدم واحدا وستين فارسا • ونابلس خمسا وستين وعكا ثمانين • ان الخدمة العسكرية لهذه المدن مقتصرة على النبلاء الذين يشرفون عليها او الذين يتملكون فيها عقارات • اما التجار فيكتفى منهم بدفع ضرائب معينة كبديل عن الخدمة العسكرية •

٢ ــ الحرس الملكي الخاص : ويعتمد في تشكيله على الاقطاعات التابعة للتاج مباشرة ويحتوي ايضا على جنود اجيرة مقابل رواتب نوعية او نقدية •

٣ ــ فرق الفرسان الدينية : ومن اشهر هذه الفرق هي :

أ ــ فرسان المعبد Knights of the Temple : وهي عبارة عن فرقة ديرية في الاصل • اسسها فرنسي يدعى هيو بايان Hugh of Payen مع سبعة زملاء له سنة ١١١٨ في مدينة القدس بعد موافقة الملك بلدوين الاول • اذ خصص لهم رواقا في المسجد الاقصى في ساحة معبد سليمان بن

---

(20) J. Thompson, Economic and Social History of The Middle Ages (N. Y., 1928) 397.

داود • اتبعت الفرقة في اول امرها تعاليم الاديرة البندكتية ، ثم تحولت الى مؤسسة عسكرية ــ دينية بعد ان وافقت البابوية على ذلك سنة ١١٢٨•

تألفت الفرقة من ثلاث مجموعات : يشار الى الاولى بمجموعة الفرسان التي تقتصر على النبلاء الذين يمثلون القيادة • ويشار الى الثانية بمجموعة عموم المحاربين الذين ينتمون الى الطبقة المتوسطة • اما المجموعة الاخيرة فهي التي تضم رجال الدين • هذا وتميز النبلاء المحاربون بشعار البدلة البيضاء ذات الصليب الاحمر • اما شعار عموم المحاربين فبدلة سوداء ذات الصليب الاحمر(٢١) •

لقد اصبحت هذه الفرقة العسكرية ــ الدينية بمرور الزمن تجارية ايضا • وذلك لما حصلت عليه من عوائد الاقطاعيات ومن النهب ، فكونت لها اسواقا تجارية صيرفية وخاصة في فرنسا • واصبح همهم الاوحد بعد سقوط عكـا سنة ١٢٩١ تعاطي الاعمال التجارية مما حركت اطماع فيليب الرابع الذي راح يطاردهم ويستولي على ثرواتهم ١٣٠٧ ثم امرت البابوية رسميا بحل الفرقة سنة ١٣١١ •

٥ ــ فرسان القديس يوحنا (الاسبتارية) Hospitallers :

وهم اصحاب المستشفيات ويشار لهم بكتب المسلمين بالداويـة لاشتغالهم في التطبيب • بدأت الفرقة حياتها الاولى بممارسة الاعمـال الخيرية في القدس بالسهر على راحة الحجاج والاعتناء بمرضاهم • اذ اجاز الفاطميون سنة ١٠٧٠ جماعة من تجار مدينة أمالفي الايطالية تأسيس دار لهم في القدس من اجل استخدامها للاغراض المتقدمة•وقد اهدى المؤسسون في البداية رمزيا مؤسستهم الى القديس يوحنا المتصدق وهو احد بطاركة الاسكندرية الاوائل الذي عاش في القرن السابع • ومارست هذه الفرقة اعمالها الدينية الخيرية تحت اشراف السلطات الديرية البندكتية • الا ان الفاطميين اجلوهم عن القدس قبيل فرض الحصار الصليبي عليها • ثم عادوا اليها ثانية بعد فتحها • حيث وافقت السلطات الصليبية على استئنـاف اعمالها كفرقة مستقلة عن الاديرة البندكتية مرتبطة مباشرة بالبابوية • الا

(21) Runciman, op. cit., 157-58.

انها تحولت الى مؤسسة عسكرية ـ دينية سنة ١١١٨ عندما تولى قيادتها ريموند لبوي Raymond of Le Puy ثم اتخذوا الصليب الابيض شعارا لهم[٢٢] ٠

لعبت فرقة القديس يوحنا دورا هاما اثناء الحروب الصليبية وما بعدها وبقيت فعالة في جهات البحر المتوسط من قاعدتها الاخيرة في مالطة في سنة ١٧٩٨ ٠

حـ ـ فرسان التيوتون : وهذه فرقة المانية يرجع تاريخها الى سنة ١١٨٩ اثناء الحصار الصليبي لميناء عكا في الحملة الثالثة ٠ اسسها بحارة السفن الالمانية التي ساهمت في الحصار ٠ اذ حولوا سفنهم الى مستشفيات للاعتناء بالمرضى والبرص ثم تطورت فعالياتهم عندما اصبحت عكا العاصمة الثانية للدولة الصليبية فكونوا فرقة عسكرية دامت فعالياتها هناك حتى سقوط عكا[٢٣] ٠ حيث تحولوا منها الى الجهات الشمالية الشرقية من الامبراطورية الرومانية المقدسة لمقاتلة الشعب البروسي والاستيلاء على اراضيه ٠

٤ ـ اساطيل المدن الايطالية : اعتمدت الدولة الصليبية على اساطيل المدن الايطالية التجارية في فتح السواحل بصورة خاصة لقاء اتفاقات اقتصادية معينة ٠ ومن اوائل هذه الاتفاقات هي التي حدثت قبيل وفاة كودفري سنة ١٠٩٩ بينه وبين البنادقة ٠ حيث اشترط هؤلاء لقاء مساعدتهم له في فتح مدن الساحل ان يكون لهم في كل مدينة يساعدون على فتحها احدى الاسواق الرئيسية وكنيسة وثلث الغنائم ٠ اما في حالة الاستيلاء على طرابلس فلهم نصف غنائمها ، وان تكون طرابلس منطقة احتكارية لهم مقابل ضريبة سنوية يؤدونها الى كنيسة القيامة ، وان تعفى بضائعهم من الرسوم في كافة الارجاء الواقعة تحت سيطرة كودفري الذي لم يعش لينفذ الاتفاق ٠ وعقد خلفه بلدوين الاول سنة ١١٠١ اتفاقا مماثلا مع الجنويين فاستولى بواسطتهم على ارسوف وقيصرية في تلك السنة[٢٤] ، ثم

---

(22) Ibid., 157.

(23) Cox, op. cit., 122-23.

(24) E. Byrne, The Genoese Colonies in Syria, Munro Essays (N. Y., 1928) 139-48.

اتفق معهم سنة ١١٠٣ فساعدوه على الاستيلاء على عكا ، وبفضل الاسطول الجنوي ايضا تمكن الصليبيون من الاستيلاء على طرابلس سنة ١١٠٩ ، وبيروت سنة ١١١٠ • وساهمت اساطيل مدينة بيزا في المشاريع التوسعية الساحلية لامارة انطاكيا منذ سنة ١٠٩٨ حتى سنة ١١٠٨ في العمليات ضد اللاذقية • اذ حصل تجار بيزا بموجب اتفاق مع سلطات انطاكيا على احد الشوارع الرئيسية في انطاكيا وعلى حي من الاحياء الهامة في اللاذقية • كما ساهمت البندقية في فتح مدينة صور سنة ١١٢٤ • وبصورة عامة فقد اعتمدت مملكة القدس في قواها البحرية التوسعية والدفاعية على اساطيل مدن ايطاليا التجارية منذ بدايتها •

٥ ــ الحجاج المسلحون يكون حجاج المقدس مــن صغار الفرسان والامراء مصدرا عسكريا موقتا • اذ غالبا ما يشترك هؤلاء في مشاريع مملكة القدس العسكرية فيجمعون بين سببي الدين والدنيا • ومن اوائل الامثلة على ذلك في تاريخ مملكة القدس هو تسخير بلدوين الاول لجموع قوافل الحج البحرية الانكليزية والفرنسية والالمانية سنة ١١٠٢ في معركة يافا ضد الفاطميين • ثم تمكن بلدوين ايضا من الاستفادة من فرق الحج البحرية الفلمنكية والدانماركية والانكليزية سنة ١١٠٦ في فرضه الحصار على صيدا التي لم يتمكن منها ففضل رفع الحصار لقاء مبالغ ادتها المدينة •

٦ ــ الامدادات الصليبية الاوربية اتخذت هذه شكل حملات صليبية ترسل بين اونة واخرى كلما دعت الضرورة كما سيتوضح ذلك في سياق البحث •

المشرق الإسلامي في النصف الأول من القرن الثاني عشر

الاسماعيلية النزارية في : حلب ــ دمشق ــ بانياس . مواقفهم من الصليبيين ــ الفاطميين ــ الزنكيين
الامبراطورية البيزنطية وانطاكيا ، التحالف الصليبي ــ البيزنطي الموقت . موقف عماد الدين زنكي
دولة القدس : سياستها تجاه الامارات الاسلامية
الدولة الاتابكية الزنكية : عماد الدين ، نشأته ، خدماته في جهات العراق الوسطى والجنوبية . ولاية الموصل مقدرته الادارية ــ توسعه في سورية ــ حرب الوراثة السلجوقية . موقفه من دمشق . اسقاطه الرها وصداه . نهاية عماد الدين الحملة الصليبية الثانية ونتائجها .

تمثلت القوى الرئيسية التي لعبت ادوارا هامة في المشرق الاسلامي في تلك الفترة في كل من الاسماعيلية النزارية والامبراطورية البيزنطية ودولة القدس والدولة الزنكية التي اسقطت الزها فكانت من نتائجها الحملة الصليبية الثانية :

الاسماعيلية النزارية :

وجد دعاة الحسن بن الصباح في الاراضي السورية ترحيبا من رضوان امير حلب ، اذ سمح لقائد الفرقة السورية الحكيم المنجم ان يمارس

نشاطه الثقافي والسياسي هناك آملا في الاستفادة منه ضد اعدائه وقد سخر هذا فعلا خدماته الى امير حلب • اذ ارسل الحكيم سنة ١١٠٣ ثلاثة من الفدائيين الى مدينة حمص حيث اغتالوا حاكمها جناح الدولة اثنـاء صلاة الجمعة • فادى ذلك الى هياج كبير في داخل المسجد وخارجه • ففتك المصلون بالقتلة وباناس اخرين ابرياء من الصوفيين اشتبه بهم • وقد اضطر العديد من الاجانب في حمص الى الهجرة الى دمشق[١] •

واستمرت الفرقة النزارية في تنفيذ مآرب رضوان في عهد قائدها المسمى بابي طاهر الصائغ • اذ ارسل هذا قسما من فدائييه الى أفاميا فتسللوا الى قلعتها وداهموا حاكمها خلف بن ملاعب الذي قضى نحبه على ايديهم بطريقة دراماتيكية • وقد اعلن الفدائيون من اعلى برج القلعة بان افاميا اصبحت تابعة الى رضوان سنة ١١٠٦ • وحفز هذا العمل أمير انطاكيا تانكريد للاستيلاء على تلك المدينة مستعينا بتحالفه مع مصبح بن ملاعب وتمكن تانكريد فعلا من احتلالها في تلك السنة وتأسير ابي طاهر وجماعته واقتيادهم الى انطاكيا • الا انه اطلق سراحهم بعد افتداء انفسهم فتوجهوا الى حلب[٢] •

وجه رضوان خناجر الاسماعيلية ضد شخصية اسلامية عسكرية لها تاريخ مجيد في حمل لواء تحرير الاراضي المقدسة ، الا وهو مودود امير الموصل ١١٠٨ ــ ١١١٣ • اذ كلف هذا من قبل الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية بحمل راية الجهاد في الاراضي السورية • وهاجم مودود المراكز الصليبية في جهات الرها وانطاكيا في سنوات ١١١٠ و ١١١١ و ١١١٢ بمساعدة حليفيه طغتكن امير دمشق وايلغازي امير الجزيرة الفراتية • الا ان رضوان فضل السير على خط معاكس بتحالفه مع امارة انطاكية فاشتبك في عدة مواقع مع قوات مودود[٣] • وحينما اراد الاخير القيـام بهجوم عام على الصليبيين وحلفائهم سنة ١١١٣ دبر رضوان اغتياله

(1) Ibn Al-Qalanisi, The Damascus Chronicle of The Crusades, trans. by Gibb (London, 1967) 57-58.
(2) Ibid., 74.
(3) W. Stevenson, The Crusaders in The East (Beirut, 1968) 87-88.

بالاتفاق مع ابي طاهر الذي ارسل فدائييه فتمكن من قتل مودود اثناء زيارته لدمشق •

لقد توفي رضوان سنة ١١١٣ ففقدت الفرقة النزارية نصيرها في حلب • اذ لم يعد بامكان السلطات التغاضي عن ازدياد نفوذهم الذي اصبح خطرا يهدد حلب ذاتها • وعليه فقد اتفق القائد ابن بادي مع الامير الب ارسلان بن رضوان ١١١٣ ــ ١١١٤ على التخلص من الاسماعيلية • وتمكنت قوات ابن بادي بمساعدة سكان حلب من الوثوب على الاحياء الاسماعيلية فقتلوا ابي طاهر مع قسم كبير من اتباعه[٤] •

اعادت الفرقة تنظيم صفوفها على يد القائد بهرام الذي احاط تحركاته بسرية تامة • وكون علاقات طيبة مع وزير دمشق الملقب بالمزدقاني فحبب هذا الى الامير طغتكين ١١٠٣ ــ ١١٢٨ امكانية الاستفادة من الاسماعيلية• لهذا اصبحت دمشق القاعدة الثانية لهم بعد حلب • واقطعتهم السلطات الدمشقية حصن بانياس سنة ١١٢٦ • فاخذوا ينشرون الرعب في تلك الجهات تحت ستار مولاتهم لحكام دمشق وخاصة لذلك الوزير[٥] • وقد أثار بهرام قبائل وادي التيم لاغتياله احد زعمائهم الا وهو برق بن جندل• فدارت معركة بين تلك القبائل واسماعيلية جهات بانياس انتهت بانتصار القبائل وابادة الجيش الاسماعيلي ومقتل بهرام حيث حمل راسه الى القاهرة هدية للسلطات الفاطمية •

انتهز امير دمشق تاج الدين بوري ١١٢٨ ــ ١١٣٢ الهزيمة التي حلت بالجيش الاسماعيلي في بانياس فقرر ابادة الاحياء منهم في دمشق • لهذا عمد الى التخلص من وزيره المزدقاني عن طريق المراوغة والاغتيال • حيث استدعاه في شهر ايلول سنة ١١٢٩ الى القصر للمناقشة معه حول امور البلاد وعند انصرافه اوعز الى الحراس بقتله ثم رمي براسه من اعلى القصر وحرقت جثته علنا • وكان ذلك اشارة لاعلان مذبحة عامة هلك فيه الالوف من الاسماعيلية في دمشق[٦] •

---

(9) Ibn Al-Qalanisi, op. cit., 145.
(5) Ibid., 179-80.
(6) Ibid., 190-94.

وبالرغم من الكارثة التي حلت بهم في دمشق فسرعان ما لموا شملهم تحت قيادة اسماعيل في جهات بانياس وتحالفوا مع المملكة الصليبية ضد دمشق متنازلين عن قيادة حصن بانياس الى الصليبيين • وعلى كل فقد اخذوا بالتوسع نحو الجهات الجبلية الشمالية السورية فاستولوا على قدموس سنة ١١٣٣ وقدر عددهم انذاك بستين الف مقاتل(٧) •

اما مواقف النزارية من الدولة الفاطمية فكانت عدائية • فقد راح الخليفة الفاطمي المدعو بالامر باحكام الله ضحية لخناجرهم سنة ١١٣٠ • وهكذا فقد استمرت الفرقة تمثل قوة ارهابية في الجهات السورية حتى الربع الاخير من القرن الثالث عشر •

الامبراطورية البيزنطية وانطاكيا :

لقد كان موقف البيزنطيين من الصليبيين سلبيا على وجه العموم • اذ رفض امراء الرها ان يكونوا اتباعا للامبراطور كما انكر ملوك القدس الادعاء البيزنطي بأن القدس كانت فيما مضى بيزنطية • ولعل من اخطر المواضيع التي كدرت العلاقات مع البيزنطيين هو موضوع انطاكيا • فقد اشرنا سابقا ان بوهيمند اعتبرها خاضعة له بموجب الفتح متجاهلا اتفاقه مع الامبراطور وقسمه له • وجعل منها منطلقا للاستيلاء على المدن والاراضي المجاورة اسلامية كانت ام بيزنطية • اذ هاجم اللاذقية التي كانت للبيزنطيين وذلك سنة ١٠٩٩ بمساعدة ديميرت النائب البابوي البيزوي • الا انه اضطر الى الانسحاب نتيجة لمقاومة المدينة ولمعارضة القادة امثال روبرت امير فلاندر وروبرت امير نورمندي وريموند الجيلي امير طولوز والذين كانوا جميعا في طريق عودتهم الى اوربا بعد سقوط القدس • وسار تانكريد على نهج بوهيمند تجاه البيزنطيين منذ وصايته الاولى على امارة انطاكيا في الوقت الذي كان فيه بوهيمند اسيرا بيد الدانشمند ١١٠١ ــ ١١٠٣ حيث استولى على المدن البيزنطية المجاورة بما فيها اللاذقية سنة ١١٠٣ • ثم عاود بوهيمند سياسته العدائية تجاه البيزنطيين حال اطلاقه من الاسر •

---

(7) Phil. Hitti, History of Syria (London, 1957) 610.

الا انه لم يتمكن من مقاومة الجيوش البيزنطية التي اعادت سيطرتها سنة ١١٠٤ على اللاذقية ٠ لهذا فكر في ضرورة الاستنجاد بالبابا بسكال الثاني لمساعدته في اعداد حملة صليبية لمكافحة ما يتهدده من مخاطر وبصورة خاصة من جهات الامبراطور الكسيوس ٠ وسافر فعلا الى ايطاليا سنة ١١٠٥ واقنع البابوية بالمشروع وتجمع حوله ما يقارب ٤٣ الف مقاتل توجه بهم عبر الادرياتيك حيث دورازو والمناطق البيزنطية البلقانية ٠ الا ان مشروعه التوسعي على حساب الامبراطورية في تلك الجهات انتهى بنتيجة خاسرة ٠ حيث تغلبت عليه جيوش الامبراطورية في جهات البانيـا واملى عليه الامبراطور الكسيوس معاهدة Devol ديفول سنة ١١٠٨ التي اقسم فيها بوهيمند يمين الطاعة والولاء معترفا بتبعيته للامبراطور٠ وقد غادر بوهيمند على اثر ذلك الى ايطاليا ولم يعد لانطاكيا حيث توفي سنة ١١١١[٨] ٠

لم يكتب لمعاهدة ديفول التطبيق الفعلي ٠ اذ ان تانكريد الوصي على الامارة رفض الاعتراف بتلك المعاهدة وراح يهاجم اللاذقية التي وقعت بيده سنة ١١٠٨ ٠ ولهذا اضطر الامبراطور الى تسوية خلافاته مع السلاجقة والاستنجاد بهم ضد المخاطر الصليبية التي تهدد الجانبين وخاصة مخاطر امارة انطاكيا ٠ فكاتب الكسيوس السلطان السلجوقي محمد سلطان فارس والعراق على ضرورة التحالف ضد الصليبيين وبصورة خاصة ضد مشاريع تانكريد التوسعية التي امتدت الى جهات الفرات ٠

لقد سار الامبراطور يوحنا كومنين ١١١٨ ـــ ١١٤٣ بموجب سياسة ابيه الرامية الى استرداد المناطق التي فقدها البيزنطيون في اسيا الصغرى وسوريا ٠ وتمكن فعلا من استعادة بعض المناطق في اسيا الصغرى نتيجة للاختلافات بين امارتي الدانشمند وقونية ٠ واستولى يوحنا ايضا على الدولة الارمنية في جهات قلقيلية وبذلك اصبحت له حدود مشتركة مع امارة انطاكيا من تلك الجهات[٩] ٠

(8) R. Yewdale, Bohemond 1, Prince of Antioch (Princeton, 1924) 106-133.

(9) A Vasiliev, History of The Byzantine Empire, Vol. I (Madison, 1964) 415-16.

اتبع الامبراطور يوحنا عدة اساليب من اجل السيطرة على انطاكيـا، بالسلم تارة وبالقوة تارة اخرى • اما بالنسبة لوسائله السلمية فقد اقترح مرتين ارتباط الاسرة الحاكمة في انطاكيا باواصر المصـاهرة مع الاسرة الكومنينية البيزنطية • وكان الاقتراح الاول سنة ١١١٩ عرض فيه يوحنـا على روجر اوف سالرنو ١١١٣ ـ ١١١٩ الوصي على بوهيمند الثاني ان يزوج بنته الى احد امراء الاسرة الحاكمة البيزنطية • وقد فشل الاقتراح نتيجة لمقتل روجر في احدى اشتباكاته مع المسلمين في سهل الدماء سنة ١١١٩ • اما الاقتراح الثاني فكان في سنة ١١٣٦ والذي كاد ان يتم فيه الاتفاق بين اميرة انطاكيا الس Alice بنت بلدوين الثاني وبين يوحنا على ان تزوج بنتها من ابن الامبراطور ، لولا معارضة ملك القدس فولك الانجوي وبعض القادة الانطاكيين[١٠] •

اما بالنسبة لاستعمال القوة ، فقد حاصر مدينة انطاكيا سنة ١١٣٧ واضطر اميرها ريموند الى الاعتراف بتبعية الامارة للبيزنطيين • وقد ادى ذلك الاعتراف الى تنقية الجو نسبيا بين البيزنطيين والصليبيين الى امـد موقت • اذ تم الاتفاق بين الطرفين سنة ١١٣٧ على توحيـد الجهـود العسكرية وتوجيهها ضد حلب التابعة لعماد الدين زنكي ولانتزاع مدينة حمص من ايدي حكام دمشق وكذلك للاستيلاء على دولة بني منقذ في شيزر • ثم اتفق الجانبان البيزنطي والصليبي على تكوين امارة جديدة في حالة الاستيلاء على تلك المناطق تعهد الى امير انطاكيا مقابل ضم انطاكيا الى املاك الدولة البيزنطية • وقد تقدمت الجيوش البيزنطية ــ الصليبية سنة ١١٣٨ نحو حلب • الا ان انشغال تلك الجيوش بمحاصرة بعض المدن والقلاع الكائنة بين انطاكيا وحلب اتاحت الفرصة لعماد الدين لكي يستعد الاستعداد الكافي لمواجهة القوات الزاحفة والتي فرضت الحصار فعلا على حلب • واضطر الامبراطور الى فك الحصار عن حلب بعد ثلاثة ايام[١١] •

اما بالنسبة لامارة شيزر الواقعة في الاقسام الوسطى من نهر العاصي

(10) Z. Oldenbourg, The Crusades (N. Y., 1966) 310.

(11) S. Runciman, A History of The Crusades, Vol. II (Cambridge, 1957) 220-26.

فقد حاصرتها الجيوش البيزنطية الصليبية مدة من الزمن وتراجعت عنها ٠ ومن جملة الاسباب الهامة التي حالت دون سقوط شيزر هي : اختلاف الصليبيين والبيزنطيين اثناء حصار شيزر ٠ اذ رفض ريموند استبدال انطاكيا بشيزر الامارة المزمع انشائها والتي هي في غياهب الغيب ٠ هـذا بالاضافة الى عدم رغبة جوسلين امير الرها في ان يرى ريموند قريبا من حدود امارته ٠ كما ان التحشدات السورية والامدادات العسكرية التي تقاطرت الى عماد الدين من الجهات العراقية اخذت تلقي الفزع في الجانب الصليبي وقد تكون للحرب النفسية التي شنها عماد الدين بقصد ايقـاع التفرقة بين قادة الصليبيين والجانب البيزنطي من جملة اسباب خـلاص شيزر ٠

لقد اكتفى الامبراطور البيزنطي بالموافقة على شروط الصلح التي تقدم بها امير شيزر المسمى بابي العساكر في صيف سنة ١١٣٨ والتي تضمنت دفعه اتاوات سنوية للامبراطورية البيزنطية[١٢] ٠

ان الاختلاف بين الامبراطور يوحنا وريموند امير انطاكيا حول مصير شيزر ادى الى تدهور العلاقات بين الطرفين والى انفصام عرى التحالف البيزنطي الانطاكي ٠ لهذا قرر البيزنطيون ضم امارة انطاكيا مباشرة للامبراطورية عن طريق القوة ٠ ودخل الامبراطور يوحنا المدينة سنة ١١٣٨ دخول الفاتحين ٠ ولم يقف ريموند وانصاره ازاء ذلك مكتوفي اليدين ٠ اذ اثاروا النعرات الطائفية بين الارثودوكس والكاثوليك فوثبت الجماعة الثانية على الاولى بشكل مفاجيء فكانت مجزرة هائلة ذهبت ضحيتها المئات من الانفس الارثودوكسية ٠ وقد اضطر الامبراطور الى الانسحاب من المدينة[١٣] ٠

حاول الامبراطور يوحنا استعادة انطاكيا والقدس ايضا عن طريق القوة سنة ١١٤٣ ٠ اذ تقدم في جهات اسيا الصغرى بجيش كبير الا انه توفي اثناء الطريق ٠ لهذا تشجع الامير ريموند فقدم طلبا للامبراطور الجديد مانويل بن يوحنا يناشده فيه التخلي عن منطقة قليقيا فتجددت

---

(12) Ibid., 217.
(13) Z. Oldenbourg, op. cit., 311-12.

المعارك بين الطرفين في فترة ١١٤٣ — ١١٤٤ ٠

لقد فزع ريموند عند سماعه بسقوط الرها بيد عماد الدين سنة ١١٤٤ فسارع الى وقف القتال ضد البيزنطيين وهرع الى القسطنطينية ليكفر عن سيئاته وليستجدي عطف الامبراطور مانويل ومساعدته ٠ الا ان الاخير رفض مقابلته ولم يسمح له بها الا بعد ان راح ريموند ساجدا على قبر الامبراطور الراحل يوحنا ٠ عندها عامله مانويل بالاكرام واغدق عليه الهدايا وتحدث معه عن مساعدات بيزنطية عسكرية في المستقبل والتي بقيت مجرد وعود ٠ والشيء الوحيد الذي اسفرت عنه الزيارة في هذا المضمار هو تهيب عماد الدين من مهاجمة انطاكيا خوفا من استثارة الامبراطور البيزنطي[١٤]٠

دولة القدس :

لقد شجعت الاوضاع المضطربة في الجهات السورية على سياسة بلدوين الثاني التوسعية خاصة بعد تفكك دولة الاراتقة على اثر وفاة ايلغازي سنة ١١٢٢[١٥] ٠ اذ انقسمت دولتهم الى اربع امارات هي: ديار بكر والتي اصبحت من حصة سليمان بن ايلغازي ، وماردين حكمها تيمورتاش بن ايلغازي ١١٢٢ — ١١٥٤ وحكم ابن اخ ايلغازي المسمى بلك امارة خرتبرت ١١٢٢ — ١١٢٤ والتي اشتملت على حران ، ثم امارة حلب وحكمها سليمان بن عبد الجبار الارتقي وآلت عند وفاته سنة ١١٢٤ الى تيمورتاش٠

وبالرغم من الحروب الأهلية بين امراء الاراتقة فلم تكن السياسة التوسعية للملك بلدوين لتلقى ذلك النجاح ٠ اذ تمكن بلك من دحر جيوش بلدوين الثاني واقتياده اسيرا الى عاصمته خرتبرت سنة ١١٢٣ ومنها الى حران حيث بقي محتجزا لمدة ستة اشهر تقريبا ٠ اما مواقف بلدوين الثاني من دمشق فتدور حول الحيلولة دون تحالف دمشق والقاهرة ٠

اما سياسة الملك فولك الانجوي ١١٣١ — ١١٤٣ فهدفت بالدرجة الاولى الى تفادي خطر الدولة الزنكية المتزايد ٠ لهذا فقد حاول في باديء

---

(14) Runciman, op. cit., 238.
(15) Ibin Al-Qalanisi, op. cit., 166-69.

الامر الاستفادة من المواقف العدائية بين عماد الدين والبوريين في دمشق. وعليه فقد توصل فولك الانجوي الى اتفاق مع معين الدين انـر القائد المتسلط على شؤون دمشق . ولم يكتب لهذا التحالف الدوام نظـراً للسياسة المعتدلة التي اتبعها الزنكيون حيال دمشق ، ولعدم محافظة الصليبيين على عهودهم مع دمشق وخاصة في عهد الملك بلدوين الثالث ١١٤٣ ـــ ١١٦٢ . اذ اتفق الاخير مع تيمور تاش ضد دمشق سنة ١١٤٧ . وادت هذه المحادثة الى تحالف عسكري بين دمشق والزنكيين ضد جيوش مملكة القدس ، كمـا حاولت القدس بمساعدة الحملة الصليبية الثانية الاستيلاء على دمشق حيث فرض عليها الحصار الفاشل سنة ١١٤٨. وتعتبر السياسة السلبية التي اتخذها بلدوين الثالث تجاه دمشق من جملة الاخطاء الكبيرة في السياسة الصليبية وكانت لها تأثيرات بعيدة على مستقبل القدس فيما بعد(١٦) .

الدولة الزنكية (الاتابكية) :(١٧)

وهي القوة الكبرى التي قلبت التوازن في ذلك الصراع الى صالح المعسكر الاسلامي . بدأت هذه الدولة بداية متواضعة وضع حجرهـا الاساسي عماد الدين زنكي في الموصل سنة ١١٢٧ في العراق . وكان تابعاً لسلاجقة ايران الذين لهم السيادة على العراق . وعماد الدين هذا ابن اقسنقر بن عبدالله الملقب بقسيم الدولة احد مماليك السلطان السلجوقي ملكشاه . اذ عهد الاخير بولاية حلب سنة ١٠٨٦ الى اقسنقر الذي لقي حتفه على يد امير امراء سلاجقة سورية تتش بن ملكشاه سنة ١٠٩٤ .وذلك لان اقسنقر قد انحاز الى جانب برقياروق السلطان الشرعي للسلاجقة في

---

(16) A. Atiya, Crusade, Commerce and Culture (London, 1962) 70-71.

(17) (اتابك) وهذه متألفة من كلمتين (أتـا) معناها الاب او المربـي و (بك) لقب اشبه بالامير . وتفيد الكلمة المركبة ابا الامراء او مربي الامراء . اذ كان سلاطين السلاجقة يعهدون بالاشراف على اولادهم الى امير مؤتمن من اتباعهم . واصبحت الاتابكية مؤسسة لها قواعدها الخاصة ويعتقد بأن السلطان ملكشاه هو اول من اطلقها على نظام الدولة وزيره المشهور .

وقت كان فيه تتش يستعد لمقاتلة اخيه السلطان برقياروق •

كان عماد الدين في العاشرة من عمره عند مقتل والده • لهذا تكفل كربوغا والي الموصل تربيته لانه رفيق والده في السلاح ، اذ احضر كربوغا مماليك قسيم الدولة اق سنقر وامرهم باحضار عماد الدين زنكي وقال : هو ابن اخي وأنا اولى الناس بتربيته • لهذا انعم كربوغا على عماد الدين ومماليكه بالاقطاعات في جهات الموصل وحاربوا له ببسالة • ومما يذكر عن كربوغا انه عانق عماد الدين في ميدان معركة قرب مدينة امد في وقت كان فيه مصير المعركة في كف القدر ، ثم التفت الى مماليكه قائلا : هذا هو ابن سيدكم ، قاتلوا من اجله•فالتف هؤلاء حول عماد الدين وحملوا على العدو حملة رجل واحد حققوا فيها النصر • وكانت هذه اولى المعارك التي خاضها عماد الدين وهو لم يتجاوز الخامسة عشر من العمر[19] • وعاش زنكي في بلاط الامارة في الموصل مقربا الى كافة الولاة الذين تعاقبوا على الحكم بعد وفاة كربوغا سنة ١١٠٢ الذين خصوه بالمزيد من الضياع والامتيازات وعهدوا اليه بقيادة الحملات ضد الصليبيين فذاع صيته ولقب بالشامي نظرا للشجاعة النادرة التي ابداها في احدى معارك مودود في جهات طبرية •

لقد انعم عليه السلطان السلجوقي محمود سنة ١١٢٢ باقطاع فيجهات واسط والاشراف على امن البصرة في وقت كانت فيه تلك الجهات الوسطى والجنوبية العراقية مسرحا لقبائل بني اسد التي ثارت ضد الخليفة العباسي المسترشد بالله والسلطات السلجوقية بقيادة زعيمها دبيس بن صدقة سنة ١١٢٣ •وقد اتخذ هذا مقره في الحلة وهاجم منها المدائن وبات يهدد بغداد[20] • فخرج الخليفة بنفسه لقتاله .• وضم جيش الخليفة فرقةموصلية بقيادة البرسقي ثم فرقة اخرى بقيادة عماد الدين • وتقابلت جيوش الخليفة ودبيس قرب ترعة النيل التي تربط دجلة بالفرات واسفر القتال عن انتصار الخليفة • وكان عماد الدين قائد ميمنة قوات المسترشد •

---

(18) Ibin Al-Qalanisi, op. cit., 23.

(19) ابو شامة ، كتاب الروضتين ، جـ ١ (القاهرة ، ١٩٥٦) ص ٦٧

(20) نفس المصدر ، ٨٣ ـ ٧٤

أخذ عماد الدين يتطلع الى منصب في بلاط السلطان مباشرة . لهذا جمع المقربين من اتباعه مخاطبا اياهم : لقد اصبحنا في وضع لا يطاق . اذ ان علينا تلبية اوامر العديد من الولاة الجدد الذين يعهدون الينا بمهمات في انحاء متباعدة ، فاليوم هنا ولربما غدا في سورية ، فما هو الرأي ؟ فاجابه احدهم : الا وهو زين الدين علي بالمثل التركماني : اذا كان لا بد على المرء من ان يحمل حجرا على راسه فليكن ذلك الحجر قد قد من جبل اشم . فان كان لا بد لنا من الخدمة فليكن المخدوم هو السلطان نفسه . لهذا قصد عماد الدين وحاشيته الى همدان لمقابلة السلطان محمود . وهناك اسندت اليه وظيفة والده السابقة حيث يتشرف بالوقوف الى يمين السلطان . الا ان الجهات المسؤولة عن النفقات لم تخصص لم موردا ماليا فاضطر الى الانفاق مما لديه على نفسه وجماعته حتى نفذ ما عنده . وهنا ذكر عماد الدين صديقه صاحب المثل التركماني بقوله مداعبا اياه : أرأيت ؟ لقد وضعنا الحجر على رؤوسنا حقا .

وافى الثراء والجاه عماد الدين على اثر اشتراكه مع السلطان محمود في لعبة الكرة والصولجان . ولا يعلم ماذا دار بينهما في اثناء ذلك من حديث ، الا ان السلطان خاطب حاشيته حال انتهاء المباراة موبخا اياهم على اهمالهم تدبير نفقات عماد الدين . ثم التفت السلطان اليه مشيرا عليه بالزواج من ارملة احد قواده التي كانت محط رعايته وهي من اثرى الاميرات آنذاك . وامر اتباعه بتجهيز عماد الدين بما يليق به من ذهب وفضة(٢١) .

عاد زنكي الى العراق سنة ١١٢٤ الى اقطاعه في واسط مضافا اليه اقطاعات جديدة في البصرة ولم ينس معروف السلطان . اذ انضم الى جيوش السلطان محمود الذي زحف على بغداد نتيجة لاختلافه مع المسترشد بالله والذي ارغم على الصلح عسكريا . فانعم السلطان السلجوقي على عماد الدين بشحنكية بغداد (مديرا عاما لامنها) . ثم عينه سنة ١١٢٧ حاكما عاما على الموصل وملحقاتها وعهد اليه بالاشراف على

(21) S. Lane — Poole, Saladin and The Fall of the Kingdom of Jerusalem (Beirut, 1964) 33-39.

تربية ولدي السلطان فحصل بذلك على لقب الاتابك .

حكومة زنكي وفعالياته في سوريا ١١٢٧ ــ ١١٣٠ :

اتخذ عماد الدين عدة اجراءات داخلية في ولايته جعلت منها قوة لا يستهان بها وقاعدة صلدة للانطلاق . اذ تبع نفس الاساليب التي سار عليها ملكشاه في حكم امبراطوريته . فقد جعل عماد الدين ادارة الموصل مركزية يساعده عدد كبير من المفتشين الماليين وشبكة تجسس هائلة . فكانت عيون عماد الدين مبثوثة فيقصور الامراء وبلاط السلطان السلجوقي نفسه . فهو على علم بكل تصرفات السلطان أكان ذلك في الليل او النهار . وفرض رقابة شديدة على حرية المرور في مناطقه ، ولم يسمح لرعاياه مغادرة البلاد خشية اذاعة الاسرار عن نقاط الضعف في اجهزة دفاعه . كما لم يسمح للفلاحين بالهجرة خوفا على اقتصاد الولاية .

اما شدته في الحكم واطاعة الناس له ففيها الروايات المتعددة فيقال : انه داهم ذات مرة فلاح زورقه وهو نائم اثناء واجبه فما ان افاق ونهض مشاهدا سيده المرعب امامه حتى سقط ميتا من شدة الخوف . وكثيرا ما تشكى خدمه من قسوته ولم يكن لاي منهم الجرأة على استفهامه عن امر كلف به احدهم ولم يفهمه . فيقال بانه كلف احد خدمه ان يمسك بقطعة من الكعك (خشتكانه او خشتنانه) اثناء وليمة من الولائم ثم انشغل عماد الدين عنه فلم يجروء المسكين ان يترك تلك القطعة جانبا بل احتفظ بها . وبعد مرور سنة من الحادث طلب عماد الدين ذلك الخادم فجأة فما كان منه الا واخرج على الفور القطعة ملفوفة باعتناء في منديل وقد انعم على ذلك الخادم بمنصب سني[٢٢] على حرصه .

ان عماد الدين صيرفي رجال ايضا ، يختارهم لمراكز القيادة بدقة تامة (ويبذل لهم العطاء ولا يسمع فيهم وشاية واشي او حسود) . ومن ابرز الامثلة على ذلك اعتماده على قاضي القضاة كمال الدين حيث خصص له راتبا سنويا قدره عشرة آلاف دينار . وقد قيل لعماد الدين انه لمبلغ كبير وهناك من الناس الاخرين من هم على استعداد لاشغال المنصب

---

(22) ابو شامة ، المصدر السابق ، ١١١ ــ ١١٤

بخمسماية دينار • فقال لهم ابهذا العقل والرأي تدبرون دولتي ؟ ان كمال الدين يقل له هذا القدر وغيره يكثر له خمسماية دينار • فان شغلا واحدا يقوم فيه كمال الدين لهو خير من مائة الف دينار •

واشار عماد الدين ذات مرة مخاطبا حاشيته : انظروا الى هذا الرجل الذي هو خير من عشرة الاف فارس يعني كمال الدين وذلك على اثر نجاحه في مهمة دبلوماسية عسكرية في بغداد ، أظهر فيها قاضي القضاة اساليب سبقت الاساليب المكيافيلية بازمان عدة • اذ كلفه عماد الدين بان يشخص لبغداد ليستحث السلطان السلجوقي والخليفة لارسال المساعدات العسكرية في وقت كانت فيه الجيوش البيزنطية والصليبية تهدد حلب وشيزر • وافاد قاضي القضاة :[٢٣]

فلما وصلت الى بغداد وأديت الرسالة ، وعدني السلطان بانفاذ العساكر • ثم اهمل ذلك ولم يتحرك بشيء ••• فلما رايت عدم اهتمامه بهذا الامر العظيم احضرت فلانا ••• فقلت : خذ هذه الدنانير وفرقها في جماعة ••• من بغداد • واذ كان يوم الجمعة وصعد الخطيب المنبر بجامع القصر قاموا وانت معهم • واستغاثوا بصوت واحد : وا أسلاماه ! وا دين محمداه ! ويخرجون من الجامع ويقصدون دار السلطنة مستغيثين • ثم وضعت انسانا اخر يفعل مثل ذلك في جامع السلطان • فلما كانت الجمعة وصعد الخطيب المنبر ، قام ذلك الفقيه ومشق ثوبه والقى عمامته عن راسه وصاح ، وتبعه اولئك النفر بالصياح والبكاء • فلم يبق بالجامع الا من قام يبكي • وبطلت الجمعة ، وسار الناس كلهم الى دار السلطان • وقد فعل اولئك الذين بجامع السلطان مثلهم • فاجتمع اهل بغداد وكل من بالعسكر عند دار السلطان يبكون ويصرخون ويستغيثون ، وخرج الامراء عن الضبط وخاف السلطان في داره وقال ما الخبر ؟ فقيل له : ان الناس قد ثاروا حيث لم ترسل العساكر الى الغزاة • فقال : احضروا ابن الشهر زوري (كمال الدين) وقال : فحضرت عنده وأنا خائف منه الا انني عزمت على صدقه وقول الحق ••• فقال : يا قاضي ما هذه الفتنة ؟ فقلت ان

---

(23) نفس المصدر ، ٨٩ – ٩١

الناس قد فعلوا هذا خوفا من الفتنة والشر ولا شك ان السلطان ما يعلم كم بينه وبين العدو ، وانما بينكم نحو اسبوع . ولئن اخذوا حلب انحدروا اليك في الفرات وفي البر ، وليس بينكم بلد يمنعهم عن بغداد ... فقال اردد هؤلاء العامة عنا وخذ من العساكر ما شئت وسر بهم والامداد تلحقك . قال : فخرجت الى العامة ومن انضم اليهم وعرفتهم الحال ، وامرتهم بالعود فعادوا وتفرقوا ...

ولعل من اهم ميزات عماد الدين ، اعتبار نفسه المكلف بحمله راية الجهاد ضد الفرنجة . وقبل الابتداء في منازلتهم فضل تصفية الحساب مع امارات الحدود الاسلامية المعادية له وخاصة امراء الاراتقة في جهات ماردين وديار بكر . وتمكن فعلا سنة ١١٢٨ من الاستيلاء على جزيرة بن عمر ونصيبين وقاد التوسع في جهات الجزيرة الفراتية الى ان يكون وجها لوجه امام امارة الرها . لهذا عقد هدنة مع امير الرها جوسلين الثاني لكي يفرغ لمواصلة العراك مع الاراتقة ، وليأمن خطوطه الخلفية . كما اتاحت له تلك الهدنة من مد يد المساعدة الى حلب التي استنجدت به ضد التهديدات الصليبية فضمها الى املاكه سنة ١١٢٨ وتلتها حمص سنة ١١٢٩ . وحقق نصرا على قوات بلدوين الثاني في موقعة الاثارب سنة ١١٣٠ ثم قفل راجعا نحو الموصل حيث وجد نفسه متمشكلا بحرب الوراثة السلجوقية .

حرب الوراثة السلجوقية :

ادت وفاة السلطان السلجوقي محمود سنة ١١٣١ الى حروب من اجل السلطنة بين امراء السلاجقة تورط فيها كل من عماد الدين والخليفتين المسترشد ١١١٨ — ١١٣٥ والراشد ١١٣٥ — ١١٣٦ . ومرت الاحداث بالادوار التالية :

الدور الاول : ساند فيه عماد الدين زنكي الامير مسعود بن محمد ضد الجبهة المتألفة من امير فارس سلجوق بن محمد وهو اخو مسعود ثم الخليفة المسترشد حيث ايد الحق الشرعي للسلطان داود بن محمود . وسارت فرق زنكي ومسعود نحو بغداد الا ان النصر كان بجانب الخليفة وسلجوق سنة ١١٣١ . فانهزم عماد الدين وجيوش الخليفة تتعقبه الا ان

حاكم تكريت نجم الدين ايوب هيأ له وسائل عبور دجلة فوصل الموصل سالما • هذا وقد حصل تفاهم بين مسعود من جهة والخليفة وسلجوق من جهة ثانية اسفر عن اعلان مسعود سلطانا على ان يكون سلجوق ولي عهده[٢٤] •

الدور الثاني : تجددت فيها الحرب بين كل من الاخوين مسعود وسلجوق من جهة وعمهما الامير سنجر من جهة اخرى حيث طالب الاخير باسناد السلطنة الى طغرل بن اخيه محمد وتم النصر الى سنجر واعلن طغرل سلطانا •

الدور الثالث : استؤنفت حرب الوراثة السلجوقية سنة ١١٣٣ بين مسعود وسنجر وطغرل وتمكن الاول من الاستحواذ على السلطنة • فحاول المسترشد الاستفادة من ذلك الظرف فأراد الحاق الموصل اليه مباشرة والقضاء على زنكي حليف مسعود • ففرض الحصار على الموصل لثلاثة اشهر بدون جدوى ، اذ اضطر الى الانسحاب الى بغداد استعدادا لمحاربة مسعود[٢٥] • ودارت المعارك بين الخليفة ومسعود في جهات همدان حيث وقع المسترشد اسيرا بيد قوات مسعود وقد تمكن بعض فدائيي ابن الصباح من المسترشد في مراغه بايران سنة ١١٣٥[٢٦] •

الدور الرابع : اندلعت هذه المرة بين الخليفة الراشد وعماد الدين وداود بن السلطان محمود وبين السلطان مسعود وحليفه صدقه بن دبيس• فجاء عماد الدين الى بغداد بفرقة عسكرية • ولم يتمكن الحلفاء من صد مسعود عن بغداد ففضل عماد الدين التراجع الى الموصل ومعه الخليفة الراشد حيث خلعه مسعود واسند الخلافة الى المقتفي • وحاول الراشد استعادة حقه متحالفا هذه المرة مع دبيس بن صدقه وبعض حكام جهات فارس ، ولم تتمكن هذه الجيوش من مقاومة مسعود وقد ألقي القبض على صدقه بن دبيس وامر مسعود باعدامه • اما الراشد فتفرقت عنه

---

(24) ابو الفداء ، المختصر في اخبار البشر ، ج ٥ ، ١١ — ١٢

(25) ابن الاثير ، الكامل ، ص ١١ ، ٢ •

(26) نفس المصدر ، ٩٠ — ١١

الجيوش وعمد حراسه الى اغتياله وهو في مدينة اصفهان[٢٧] • اما عماد الدين فلم يشترك في الاحداث الاخيرة اذ جدد الولاء لمسعود وراح يكرس جهوده للانحاء السورية ومنازلة الصليبيين •

فعاليات عماد الدين في سوريا ١١٣٥ ـ ١١٤٤ :

استأنف عماد الدين مشاريعه الجهادية في سورية حالما تم انقشاع الغيوم عن سماء الموصل • فبدأ اولا باستعادة هيمنته على الاجزاء التي خرجت عن طاعته اثناء انشغاله في حرب الوراثة السلجوقية • ثم راح يتوسع على حساب امارة انطاكيا مستغلا خلافات الاسرة الحاكمة هناك حتى ان اميرة انطاكية حاولت الاستعانة به ضد خصومها • وقد نازل عماد الدين الصليبيين في موقعة الاثارب ١١٣٦ فأنزل بجيوش مملكة القدس هزيمة نجا منها فولك الانجوي بحياته •

ولعل من اخطر المشاكل التي جابهها عماد الدين في تلـك الفترة الزحف البيزنطي وحصار حلب بالاشتراك مع الصليبيين والذي جاء الى نتيجة فاشلة حسبما اشرنا سابقا • اما المشكلة الثانية فهي امارة دمشق اذ حاول عماد الدين ضمها بطرق دبلوماسية وعسكرية فلم يوفق في الحالتين وادت الى نتائج عكسية • فقد رتب زواجه من زمرد خاتون ام الامير محمود سنة ١١٣٨ ثم زوج بنته الى ذلك الامير ولم يكتب لخطته النجاح لاغتيال محمود وتسلط القائد انر على مقدرات دمشق • لهذا حاول زنكي استعمال الاسلوب العسكري فحاصر دمشق مرتين سنة ١١٣٩ بـدون جدوى • وقد اضطر انر الى ان يرمي بنفسه في احضان مملكة القدس • اذ اوفد هذا اسامه بن منقذ للتفاوض مع فولك الانجوي لتكوين حلف مشترك ضد عماد الدين • وتوصل الطرفان الدمشقي والقدسي الى اتفاقية تعهدت فيها دمشق ان تدفع عشرين الف دينار شهريا الى مملكة القدس ، بالاضافة الـى وعدهم بتسليم حصن بانياس اليهم في حالة استعادته مـن عماد الدين[٢٨] •

---

(27) نفس المصدر ، ٢٣ ـ ٢٤

(28) راجع عن اسامة : الدكتور حسين مؤنس ، نور الدين محمود ـ سيرة مجاهد صادق (القاهرة ، ١٩٥٩) ١٦٨ ـ ١٧١

لقد فضل عماد الدين تأجيل مشروع دمشق لانه لم تبق من المناطق السورية الاسلامية بعد استيلائه على بعلبك سنة ١١٣٩ غير دمشق ۰ لهذا راح يؤمن السيطرة على جهات حدوده من ناحيتي الشرق على حساب المناطق الكردية والشمال الغربي على حساب الاراتقة تمهيدا لمهاجمة امارة الرها ۰ هذا وقد وجد عماد الدين تبريرا لمهاجمة امارة ديار بكر وضمها بعد ان تحالف اميرها قره ارسلان مع امير الرها جوسلين الثاني ضد زنكي۰

سقوط الرهـا :

لقد اختار عماد الدين الظرف الملائم للهجوم على الرها ۰ اذ لم يكن جوسلين الثاني على وئام مع سيده ريموند امير انطاكيا لاختلافهما حول مصير رئيس اساقفة انطاكيا اللاتيني ۰ فبالرغم من سوء تصرفات رئيس الاساقفة ردولف واقالته من قبل البابوية الا ان ريموند عمد الى التنكيل به ۰ فأودعه السجن ثم توفي فيه ويقال بأنه دس اليه السم ۰ واثارت هذه الحادثة مشاعر الكاثوليك ومن بينهم جوسلين ، وقد عمد هذا الى اتباع سياسة متطرفة ضد الكنيسة الارمنية في الرها تحيزا لكنيسته اللاتينية مما اضعفت حكمه هناك ۰ هذا بالاضافة الى عودة العلاقات العدائية بـين ريموند امير انطاكيا والامبراطورية البيزنطية منذ اول حاكم مانويل حول انطاكيا نفسها وجهات قلقيلية فكانت هناك مناوشات عسكرية بين الطرفين۰ وشجعت تلك العلاقات العدائية بين انطاكيا والبيزنطيين زنكي على القيام بهجومه على الرها لانه امن عدم تدخل مانويل في القضايا الصليبية ۰ اما دولة القدس فلم تكن بوضع يمكنها من اسعاف الرها ، اذ كانت آنذاك تحت حكم امراءه الا وهي ملسندا الوصية على ابنها القاصر ۰ لقد فرض زنكي الحصار على الرها في وقت غياب جوسلين عنها ومعه اكثرية قواته فترك الدفاع للمواطنين المدنيين واكثريتهم من الارمن الذي تمنوا زوال حكم جوسلين وتعنت الكنيسة الكاثوليكية ۰

لهذا لم تصمد المدينة اكثر من اربعة اسابيع حيث استسلمت في ٢٣ كانون الاول سنة ١١٤٤ ۰ وعامل الارمن المواطنين الاصليين في الرهـا بالحسنى واحترام دور عباداتهم بينما كان عنيفا في معاملته للاقلية مـن الدخلاء الاوربيين ۰ واعتبر المسلمون فتح الرها هو فتح الفتوح وتبارى

الشعراء في تقديم تهانيهم الشعرية ، اذ انشد القيسراني قصيدة مطولة منهـا :[٢٩]

وفتح حديث في السماع حديثـه
شهـي الـى يـوم المعـاد معاده
فأضرمها نارين حربـا وخدعـة
فمـا راع الا سورهـا وانهـداده

ثم له في قصيدة اخرى :

فتـح الفتـوح مبشـرا بتمامـه
كالفجر في صـدر النهـار الايب
اترى الرها الورهاء يـوم تمنعت
ظنـت وجوب السور سورة لاعب
شدا الـى ارض الفرنجة بعدهـا
ان الدروب علـى الطريق اللاحب

وقال الشاعر بن الابر :

يهـدي بمعتصـم بـالله فتكتـه
حديثهـا نسـخ المـاضي وانساه
ان الرهـا غـير عمورية وكـذا
مـن رامها ليس مغـزاه كمغزاها

وله قصيده اخرى قال فيها :

هو الفتح انسى كـل فتح حديثه
وتـوج مسطور الروايـة والنقل

لقد اذهل سقوط الرها القادة الصليبيين وايقن ريموند امير انطاكيا بأن نهايته اصبحت وشيكة لهـذا سارع الـى القسطنطينية طالبا صفح الامبراطور مانويل وغفرانه ومهديا ابنته زوجة له • ثم راحت وفود مملكة القدس تذيع النبأ في اوربا وتطلب المساعدات العسكرية فكان منها الحملة الصليبية الثانية •

---

(29) ابو شامة ، المصدر السابق ، ٩٧ ــ ١٠٧

نهاية عماد الدين زنكي :

لقد اغتيل زنكي من قبل غلمانه في مدينة جعبر الواقعة شمال غرب الرقة في سهل صفين على الفرات ، وذلك اثناء النوم سنة ١١٤٦ ، اذ يقال بأنه ثمل ذات ليلة فقصد الفراش ، بينما عكف غلمانه على احتساء ما تبقى ، فأخذت الخمرة برؤوسهم فحدثت لهم ضجة وعربدة ايقظت عماد الدين ، فوبخهم بعنف ثم عاد لينام ، فامتلأت قلوب الغلمان فزعا ورعبا لما يبيته لهم سيدهم من عقاب مؤلم صباح الغد ، فدفعهم الخوف الى قتله ولاذوا بالفرار ... ثم سمي زنكي على اثر ذلك بالشهيد(٣٠) .

لقد كانت لعماد الدين مآثر عدة من الناحيتين المادية والمعنوية اذ ترك آثاره للوقت الحاضر خاصة في الجهات العراقية الموصلية ، اذ لم تزل مدينة آشب وقلعتها القديمة التي اعاد بنائها واسماها بالعمادية تحمل اسمه الى هذا اليوم(٣١) ، ومن ابرز الامثلة على آثاره المعنوية قيامه بواجب الجهاد وتوحيد الجهات الاسلامية السورية ولم يبق خارج الوحدة غير دمشق ثم خلده الشعراء بقصائدهم في فتح الفتوح ، وكأن الله غفر له كافة ذنوبه بفتحه الرها ، اذ روى في هذا الشأن ان عماد الدين (الشهيد) قد رآه احد الزهاد حلما في المنام فسأله الزاهد كيف يعاملك الله ؟ فأجاب بكل مغفرة ، ومن اجل ماذا ؟ فأجاب عماد الدين : بسبب الرها(٣٢) .

نور الدين محمود ١١٤٦ ــ ١١٧٤ :

ترك عماد الدين عدة اولاد اكبرهم سنا سيف الدين غازي ونور الدين محمود ، وقد اختلف الاخوان والقادة في كل من حلب والموصل حول العرش ، وانتهز اعداؤهم ذلك الظرف فاستولى حاكم دمشق انسر على بعلبك ودانت لـه حمص وحماة بالولاء ، كما تمكن امراء الاراتقة في ديار بكر من استعادة ما فقدوه من مدن ، وتوغلت جيوش امارة انطاكيا الى حدود مدينة حلب ، وحاول جوسلين الثاني استعادة الرها فاحتلها فعلا

---

(30) نفس المصدر ، ١٠٨

(31) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ٣٥

(32) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ٣٨

وحاصر قلعتها الا ان نور الدين استعادها بعد اسبوع واحد سنة ١١٤٦ ٠

ادرك الاخوان كثرة خصومهم وحراجة مواقفهم ، فسارع سيف الدين الى تسوية الامر مع اخيه ٠ اذ تم الاتفاق على تقسيم المملكة الى شطرين ٠ فأصبح نور الدين ملكا على الجهات السورية ومقره في حلب ، واصبح الثاني ملكا على الاجزاء العراقية متخذا الموصل مقرا له ٠

لقد شرع نور الدين في توحيد مملكته وصيانتها معتمدا على رجال الدين اصحاب الطرق الدينية الذين كانوا خير اداة له في توحيد البلاد عقائديا على حساب مكافحة التشيع وقد يكون لاختلافه السياسي مع الفاطميين ونشاط الاسماعيلية النزارية الارهابي وموالاته للخلافة العباسية ما يبرر سياسته تلك ٠

تمكن نور الدين من توسيع ممتلكاته على حساب امارة انطاكيا في الاجزاء الواقعة الى الجهة الشرقية من نهر العاصي ٠ وقد وقع في تلك الجهات في قبضته جوسلين الثاني امير الرها السابق سنة ١١٥٠ حيث امر بتسميل عينيه وايداعه السجن في حلب حيث توفي فيه سنة ١١٥٩ ٠ واتخذ نور الدين مواقف ايجابية تجاه انر حاكم دمشق لفصل روابطها مع دولة القدس وتمهيدا لتوحيد الجهود ضد المملكة الصليبية والصليبيين ٠

الحملة الصليبية الثانية :

احدث سقوط الرها رد فعل شديد في الاوساط البابوية ٠ فما ان وصلت رسالة الاستغاثة التي وجهتها حكومة القدس للبابا يوجين الثالث في خريف سنة ١١٤٥ حتى قرر الدعوة لتأليف حملة صليبية ٠ واعتمد في ذلك على القديس برنارد اوف كليرفو وهو الشخصية الثانية ذات المقام السامي في العالم الغربي آنذاك بعد البابا ٠ وامتاز هذا القديس بمقدرة هائلة في التأثير في نفسية الجماهير وتحريكها[٣٣] ٠ هذا بالاضافة الى انه من اشهر رجال الاديرة في اوربا ، وهو الذي وضع الاسس الدينية والعسكرية لفرقة فرسان المعبد لهذا فقد اعتمد عليه البابا فأنابه عنه ليمثله في مؤتمر Vezelay في فرنسا الذي عقد بأمر من الملك لويس السابع

(33) G. Cox Bart, The Crusades (London, 1910) 87.

سنة ١١٤٦ .

مثل القديس برنارد دورا هاما في الدعوة للحملة الصليبية الثانية لا يقل خطورة عن دور بطرس الناسك في الحملة الاولى . الا ان برنارد لم تكن له نظرة اكبار الى بطرس . اذ عزا فشل بطرس الى قلة ادراكه وتعصبه الاعمى .

ترأس برنارد مؤتمر فيزلي الذي ضم ملك فرنسا وامراءه ورجال الدين . حيث قرأ فيه برنارد رسالة البابا في اعلان تشكيل الحملة . ثم القى خطابا مؤثرا حث فيه الناس على الجهاد والاستشهاد في سبيل ملك الملوك فتعالت صيحات الحضور بالموافقة طالبة شارات الصلبان رمز التطوع في الحملة . فوزع ما يحمله منها حتى نفذت ثم شرع بتمزيق ملابسه فوزعها كشارات صليبية . وهكذا تكللت مساعيه بالنجاح في فرنسا والهب حماس الامراء الذي كانوا في البداية في تردد بين الاشتراك وعدمه .

واصل برنارد دعايته في كل من برغندي ولورين وفلاندر والمانيا . ورافق حماس الجماهير موجات من الاضطهاد ضد اليهود في كل من فرنسا والمانيا كما حدث في الحملة الاولى . وهنا يشير المؤرخ برنهاردي Bernhardi : ان موجة الحماس التي عمت فقراء الناس في المانيا سببها الاول المجاعة التي انتشرت في تلك السنة . اذ رأى هؤلاء في الحملة خلاصا من اوضاعهم المزرية واملا في عيش افضل في جهات المشرق . اما بالنسبة لامبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة كونراد الثالث فقد حاول الاعتذار في البداية لانشغاله في محاربة بعض النبلاء المتمردين ولحروبه ضد السلافيين ولسوء الاوضاع الاقتصادية . الا انه وافق مكرها عندما احرجه برنارد بمواعظه الدينية وخاصة في مجلس الامراء الامبراطوري Diet المنعقد آنذاك في مدينة شباير سنة ١١٤٦[٣٤] . وقد انتقد قسم من المؤرخين برنارد على اشراكه الامبراطور في الامر . اذ اشار اليها Kugler بأنها من اعظم المحاولات بلاءا . وقال عنها اسبنسكي

---

(34) W. Bernhardi, Konrad III, (Leipzig, 1883) 530-33.

Uspensky بأنها من الاجراءات المميتة والاخطاء الجسيمة .

تألفت الحملة الثانية من ثلاث فرق رئيسية هي :

١ ـ الفرقة الانكليزية :

اتجهت هذه من انكلترا في اواخر ربيع سنة ١١٤٧ . وقد اجبرت العواصف سفنهم على الاحتماء بالساحل البرتغالي . وهناك تفاوض الامير البرتغالي الفونسو هنري مع هؤلاء لاشراكهم في حربه ضد المسلمين من اجل الاستيلاء على مدينة لشبونة . وتمكن الامير من اقناعهم بقوله لهم بأنه لا فرق هناك من ناحية دينية في قتالهم المسلمين في لشبونة او الاراضي المقدسة ، هذا بالاضافة الى ما سوف يغنمونه من اسلاب واملاك . وقد ساهم هؤلاء فعلا في حصار لشبونة واسقاطها سنة ١١٤٧ . ولم يواصل السير منهم الى الاراضي المقدسة غير انفار قلائل .

٢ ـ الفرقة الالمانية :

قادها الامبراطور كونراد الثالث الذي شرع بالتحرك في اواخر مايس سنة ١١٤٧ سالكا الطريق البري نحو القسطنطينية . ولم يسمح له بدخول الاراضي البيزنطية الا بعد ان اقسم على انه لا يقوم بأي عمل من شأنه الاضرار بالامبراطورية البيزنطية اثناء مروره في اراضيها . ومع ذلك فلم يتمكن كونراد من السيطرة على تصرفات جنده النزقة . فمن ذلك مثلا ما رواه مؤرخ معاصر بقوله :(٣٥)

> حدث حادث مفزع بالقرب من مدينة هليوبولس موجزه : ان بعض الجرمان دخلوا للشرب في احدى الحانات . وجلس بالقرب منهم رجل احتسى كأسا من الخمر ، ثم بدأ يزاول حيلا سحرية . اذ اخرج من حزامه افعوانا وضعه فوق الكأس فاخذ الافعوان يتحرك حركات مسلية وتثير الاعجاب . فما كان من الجنود الجرمان الا وهجموا على الرجل فقطعوه اوصالا ، مبررين عملهم بأن الرجل عبارة عن جاسوس بيزنطي يحاول استدراج الاخبار منهم . وحدث من جراء ذلك هياج

(35) R. Pernoud, The Crusades, trans, by Meleod (London, 1962) 129.

عظيم . واراد حاكم المدينه ان يسوي الأمر صلحا الا ان الألمان انهالوا عليه وعلى اتباعه بالسيوف ، ثم راحوا يعيثون في القرى المجاورة .

ولهذا فقد كان الجو مشحونا بالعداء بين البيزنطيين والالمان مقدما قبل وصولهم القسطنطينية .

٣ ـ الفرقة الفرنسية :

قادها الملك لويس السابع شرعت السير في حزيران سنة ١١٤٧ سالكة الطريق البري . وقد اصطحب لويس السابع زوجته الينور والتحق به امراء طولوز وفلاندر . وقد سارت تلك (الجموع الغفيرة في اواسط اوربا في مقدمتهم نساء مسلحات بالسيوف والحراب ومتسربلات بالدروع متوهمات ان الحرب نزهة من النزهات الممتعة) . وقد حاول الامبراطور البيزنطي مانويل الحصول على ضمانات من لويس السابع بعدم الاعتداء على السكان اثناء السير في الامبراطورية فوعد بوعود مبهمة زائفة .

الموقف البيزنطي تجاه الحملة الثانية :

كانت المواقف بين الطرفين سلبية بصورة عامة على الصعيدين الشعبي والرسمي . اما بالنسبة للصعيد الاول فيتوضح من رواية الراهب اودو حيث يقول :(٣٦)

> لقد اخذنا نشعر بالاهانات التي يوجهها لنا البيزنطيون عندما قاربنا القسطنطينية . ان الناس الذين هم خارج الامبراطورية يبيعون لنا كل ما نحتاجه من طعام ومواد بكل امانة . لذا كانت علاقاتنا معهم سلمية . اما اهل القسطنطينية فقد اوصدوا الابواب دوننا ولا يبيعون الحوائج الا بعد استلام اثمانها مقدما وهم في مكانهم في اعلى الاسوار حيث ينزلون لنا المشتريات بالحبال . انها طريقة بطيئة في التسلم والاستلام . لهذا اضطر الصليبيون ان يسدوا حاجاتهم عن طريق نهب القرى والمزارع المجاورة .

اما بالنسبة للصعيد الرسمي فيتوضح من موقف الامبراطور مانويل

---

(36) Ibid., 130.

الاول ١١٤٣ ـ ١١٨٠ تجاه كونراد الثالث ولويس السابع • لقد كانت العلاقات بين الامبراطورين كونراد الثالث ومانويل ايجابية قبيل الحملة الثانية • حيث وجد كل منهما في الآخر حليفا طبيعيا في العداء المشترك ضد النورمنديين في صقلية • اذ مثل هؤلاء خطرا على املاك اباطرة الجرمان في ايطاليا بالاضافة الى عدائهم التقليدي للبيزنطيين ومطامعهم في جهاتها الغربية البلقانية • ولتوثيق العلاقات بين الامبراطورين تزوج مانويل من اخت زوجة الامبراطور كونراد الاميرة برتا • واشار كونراد في رسالة الى مانويل الى هذا الزواج (عبارة عن عهد للتحالف الدائم والصداقة المستمرة) ثم تعهد بأن يكون (صديقا لاصدقاء الامبراطور مانويل وعدوا لاعدائه) • كما وعد ايضا ان يساعد الامبراطور ليس بفرق مستأجرة فقط بل انه سيقود بنفسه كافة جيوشه فيما اذا تعرضت الامبراطورية للخطر • وهكذا فقد بدأ الزواج وكأنه ختم العلاقات بين الطرفين بالصداقة الابدية(٣٧) •

الا ان الحملة الصليبية قد بددت آمال البيزنطيين في صداقتهم للالمان ، وعرضت الامبراطورية الى خطرين في آن واحد الا وهما خطر الامبراطورية الرومانية المقدسة وخطر النورمنديين • اذ اخذت الشكوك تساور كونراد منذ دخوله الحدود البيزنطية في نوايا الامبراطور الذي اقام جيشه في مواقع ستراتيجية على الطريق ثم شرع بتقوية وسائل الدفاع عن القسطنطينية •

حقا لقد افزعت الحملة الثانية الامبراطور مانويل • لانه رأى فيها خطرا على بلاده • ولعل الاوامر التي اصدرها لترميم الاسوار استعدادا للطوارىء الصليبية لخير دليل على عدم ثقته بالصداقة الالمانية • هذا بالاضافة الى اعمال السلب والقتل التي قامت بها الفرقة على طول طريقها في الامبراطورية • لهذا حاول مانويل التخلص من مخاطر الالمان بأسرع ما يمكن بتجهيزهم بسفن للعبور الى الشاطىء الآسيوي • ومع ذلك قدمت السلطات البيزنطية الى كونراد نصائح قيمة كأن يسير بجيشه في

---

(37) Vasiliev, op. cit., 417.

محاذاة الساحل وأن يتحاشا التوغل في داخل الاناضول وان يأمر بارجاع غير المحاربين الى اوطانهم ثم زود كونراد بالادلاء الخبراء في معرفة المسالك • الا ان كونراد لم يعمل بتلك المقترحات لعدم ثقته بالامبراطور وفضل اتباع طريق الحملة الصليبية الاولى(٣٨) •

اما موقف الامبراطور مانويل من ملك فرنسا فكان سلبيا ايضا لانه يشك فيه بأنه حليف لروجر الثاني النورمندي امير صقلية الذي هجر المشروع الصليبي وراح يجاهد ضد البيزنطيين في سواحل البلقان ، فاستولى على جزيرة كورفو ثم وصلت غاراته الى داخل اليونان وخاصة مدينة كورنثا • حيث نهبها واختطف خبرائها في صناعة الحرير فأرسلهم الى صقلية • وقد وصلت تلك الاخبار الى الفرنسيين وهم خارج اسوار القسطنطينية فساورتهم فكرة الوثوب على العاصمة •

ومما وتر العلاقات سماع الفرنسيين بوجود حلف بيزنطي سلجوقي ثم عدم موافقة لويس السابع في اخذه القسم على ارجاع الاراضي التي يستولي عليها من السلاجقة الى الامبراطورية • الا انه تراجع بصورة غير متوقعة عن تعنته وانصاع لرغبة الامبراطور اما اسباب هذا التحول المباشر من جانب لويس فيعزا الى جملة اسباب منها : احتياجه للمساعدات البيزنطية وخوفه من وجود تحالف بيزنطي ـ سلجوقي وللتسابق مع كونراد الثالث حول الغنائم وخاصة بعد ان اشاع البيزنطيون في معسكر لويس اخبار انتصارات وهمية حققها كونراد في آسيا الصغرى(٣٩) • بينما يعتقد الاستاذ رونسيمان بعكس ذلك اذ يقول بأن سبب التحول المفاجيء في موقف لويس هو لسماعه بالكارثة التي حلت بالجيش الالماني في آسيا الصغرى فسارع الى تسوية الامور مع الامبراطور ليتفرغ للعبور الى آسيا الصغرى من اجل معاونة كونراد ضد السلاجقة(٤٠) •

الحملة الثانية في آسيا الصغرى :

تعرض جيش كونراد الى مأساة كبرى في آسيا الصغرى • اذ نصب

---

(38) Ibid., 420.
(39) Ibid., 421.
(40) RunCiman, op. cit., 269.

له السلاجقة كمينا اسفر عن ابادة تسعة اعشاره ، وتمكن كونراد من الانهزام مع فلول جيشه الى نيقيا • وقد التقى الملك لويس السابع بفلول الجيش الالماني في تلك المدينة • وسار منها الجيشان في طريق واحد ، ولم تمنعهما وحدة الهدف من تبادل الشتائم والاهانات اثناء الطريق • وقد تمرض كونراد عند وصوله مدينة افيسوس قرب مدينة ازمير الحالية ، ثم ابحر منها عائدا للقسطنطينية ابتغاء الاستشفاء وبقي فيها حتى مارس سنة ١١٤٨ حيث تحسنت فيها صحته وعلاقاته مع الامبراطور مانويل الذي سهل وصوله بحرا للاراضي المقدسة •

اما جيش لويس السابع فقد انزل به السلاجقة ايضا خسائر كبيرة في جهات قونية • وعندها قرر سلوك طريق البحر الى انطاكيا مع عدد من فرسانه تاركا جيشه ليشق طريقه برا الى الاراضي المقدسة •

لقد حاول امير انطاكيا ريموند الاستفادة من الجيش الفرنسي في شن هجوم على حلب ، فلم يوافقه لويس السابع • وقد اثار هذا الرفض مشاعر زوجته الينور بصورة خاصة حيث اتهمته بالجبن • ويقال ان سبب تحمس الينور يعود لعلاقات مع ريموند حامت حولها الشبهات • وهكذا اخذت العلاقات بالتدهور بين لويس وزوجته وبين لويس والامراء الصليبيين • وقد اضطر لويس ان يغادر انطاكيا سرا تحت جنح الظلام مصطحبا معه الينور على كره منها والتي اخذت تطالب بالطلاق[٤١] •

حصار دمشق :

لقد قرر الصليبيون فرض الحصار على دمشق نتيجة لما اتخذ من قرارات في مؤتمر عكا المنعقد في حزيران سنة ١١٤٨ • وتألف ذلك المؤتمر من ملسندا ملكة القدس مع ابنها القاصر بلدوين الثالث ورؤساء فرقتي فرسان المعبد والاسبتارية وملك فرنسا وامبراطور المانيا • ولم يدم حصار دمشق سوى اربعة ايام حيث تراجع عنها الصليبيون في ٢٨ تموز •

امـا اسباب فشل الحصار فتكمن في جملة عوامل منهـا : اخطاء

---

(41) A Richard, Histoire des Comtes de Poitou Vol. II (Poris, 1903) 93-96.

ستراتيجية اذ حولوا معسكرهم في منطقة الغوطة او الاحراش والبساتين الى السهل المكشوف ٠ ثم عدم رغبة قسم من الامراء القدامى مواصلة الحرب اعتقادا منهم بأن السياسة الايجابية مع دمشق خير ضمان ضد توسع نور الدين ٠ هذا مع العلم انه لا فائدة لهم من وراء سقوط دمشق اذ قرر لويس وكونراد مصيرها سلفا بوعد امير صليبي من اوربا بها كما خيب هذا الاتفاق آمال ملسندا لانها ارادتها اقطاعا للقدس ٠ ويعتقد بأن انر حاكم دمشق كان على اتصال بالامراء الصليبيين القدامى اثناء الحصار ولربما دار بينهما حديث الصلح لقاء ما قدمه من نقود ذهبية تبين بعد فوات الاوان انها عملة مزيفة ٠ وعلى كل فقد فعلت مفعولها المطلوب في حينها ٠ وقد اخذ هؤلاء الامراء بالالحاح على الصليبيين من اتباع لويس وكونراد برفع الحصار وخاصة ان النجدات العسكرية اخذت تنهال على دمشق من ملحقاتها ومن نور الدين ٠ لهذا اضطرت الجيوش الفرنسية والالمانية الى رفع الحصار ٠

لقد غادر كونراد الاراضي المقدسة في ٨ ايلول سنة ١١٤٨ بحرا من عكا الى الاراضي البيزنطية وامضى مدة في البلاط الامبراطوري تحالفا اثنائها ضد الورمنديين ٠ اما لويس السابع فأخذ يؤجل سفره بالرغم من الحاح كبير وزرائه سوجيه Suget بضرورة القدوم الى فرنسا بأسرع ما يمكن وقد كان سوجيه بالرغم من كونه رئيسا لدير القديس دنيس وهو اعظم دير في فرنسا ثراءا الا انه كان كارها الاشتراك لويس في المشروع الصليبي ٠ وعلى كل فان سبب تأجيل لويس لعودته لفرنسا يعود الى علمه مقدما بأن الوصول الى فرنسا معناه طلاق زوجته وما يتبعه من التباسات سياسية ٠ لان الينور هي اميرة اكوتين المشهورة بامكانياتها المادية وقوتها العسكرية لهذا حاول تجنب اليوم المشؤوم على قدر المستطاع ٠ وقد اضطر الى الابحار من الاراضي المقدسة في اوائل صيف سنة ١١٤٩ حيث توجه الى صقلية وفيها عقد حلفا مع روجر ضد الامبراطورية البيزنطية ، ثم توجه فيما بعد الى فرنسا ٠

نتائج الحملة الثانية :

ادت الحملة الثانية الى جملة نتائج سلبية بالنسبة للصليبيين

فبالاضافة الى ما احاق بها من كوارث في آسيا الصغرى وفشل مهمتها في الاراضي المقدسة ، فانها خلقت جـوا مشحونا بالريبة والمخاوف بـين الصليبيين القدماء منهم والجدد ، فبالرغم من حاجة امراء مملكة القدس الى المساعدات العسكرية الاوربية فهم لا ينظرون بعين الارتياح الى ما يبيته هؤلاء من اطماع على حساب سلطتهم واملاكهم في الاراضي المقدسة . ولعل من ابرز الامثلة على ذلك ما دار من مساومات حول دمشق مقدما ، ثم استيلاء برتراند امير لاتكودوك على العريمة في جهات طرابلس ممـا استنفز ريموند الذي استعان بأثر حاكم دمشق ضده(٤٢) .

وأسفرت الحملة عن تدهور العلاقات بـين فرنسا وامارة انطاكيا والامبراطورية البيزنطية ، اذ ألقى لويس مسؤولية المصائب في آسيـا الصغرى على عاتق البيزنطيين وخيانتهم لاتفاقهم سرا مع السلاجقة ، لهذا تحالف مع روجر ملك صقلية واقنع البابا في توجيه حملة ضد البيزنطيين . الا ان كونراد الثالث لم يوافق على ذلك وبدون اشتراك الامبراطورية الرومانية في الموضوع يجعل امر احتلال الامبراطورية متعذرا ، هذا وان امير انطاكيا ريموند كان حليفا تابعا للامبراطورية البيزنطية بالاضافة الى انه المسؤول عن تطليق زوجته الينور .

ومن نتائج الحملة الاخرى تضعضع مركز القديس برنارد الـذي اشركوه في مسؤولية كوارث الحملة اذ كلفت مواعظه وخطبه الحماسية تضحيات هائلة في الاموال والارواح ، وعلى حد تعبير احد المؤرخين الالمان المعاصرين آنذاك (لقد اقفرت المدن والقلاع وقل عدد الرجال الى درجة اصبحت نسبتهم رجلا واحدا لكل سبعة نساء ، وقد تأكدت تلك النسوة بأنهن لا يرون بعولهن واخوانهن واطفالهن الى الابد حيث راحوا ضحايا في آسيا الصغرى ، وقد وجهت التهم الى برنارد الذي دفع بهؤلاء الى تلك المجازر البشعة) ، اما دفاع برنارد عن نفسه فقال فيه بأنه ما تكلم الا نيابة عن خليفة المسيح فلا بـد ان يكون سبب الكارثة تحت اقدام الصليبيين انفسهم لخلاعة تصرفاتهم التي لا يتسامح الله معها(٤٣) .

---

(42) Runciman, op. cit., 149.
(43) Cox, op. cit., 93.

اما بالنسبة للجانب الاسلامي فان فشل الحملة ادى الـى ارتفاع المعنويات بين المسلمين عدا حاكم دمشق مجير الدين وبطانته في دمشق الذي راح يختلق الاختلافات مع نور الدين ومتحالفا مع مملكة القدس التي شجعه استيلاؤها على عسقلان الفاطمية سنة ١١٥٣ ان يقدم على تلك الخطوة وان يسمح لرسل القدس ان يقوموا بجباية الاموال لملكهم بلدوين الثالث في امارة دمشق • وقد هزت تصرفاته مشاعر الناس في داخل دمشق حيث فتحوا ابوابها لنور الدين سنة ١١٥٤ وانفتحت بها ابواب الكوارث على القدس منذ ذلك التاريخ •

الفصل السادس

عصر صلاح الدين الأيوبي

اسرة صلاح الدين ، الهجرة الى بغداد ، الاسرة في تكريت ، موقفها من عماد الدين في حرب الوراثة السلجوقية ، أيوب في بعلبك ودمشق .

السباق بين اماليك ونور الدين حول مصر ، شيركو والحملات السورية الثلاث ، رئاسته للوزارة الفاطمية ، صلاح الدين ورئاسة الوزارة الفاطمية ، التحالف الصليبي البيزنطي ، الغاء الخلافة الفاطمية ، مواقفه من نور الدين ، قيام الدولة الايوبية ومشاكلها .

الاوضاع العامة في مملكة القدس ، استرداد القدس ومواقع اخرى ، الفلول الصليبية تحاصر عكا .

الحملة الصليبية الثالثة ونتائجها .

اسرة صلاح الدين :

هي اسرة كردية من فرع قبيلة الروادية التي تقطن جهات ارمينياه ان والد صلاح الدين هو نجم الدين ايوب المولود في قرية اجدنكان قرب مدينة دوين في ارمينيا والتي كانت تدعى سابقا دابيل عاصمة ارمينيا الشمالية في القرن العاشر . اما رئيس الاسرة فهو شاذي بن مروان الذي قرر مغادرة مدينة دوين طلبا لعيش افضل في بغداد ليؤمن مستقبل اولاده . ولم يعرف عن شاذي هذا سوى انه صديق لطبيب يوناني الا وهو بهروز الذي ارتفع من مرتبة العبودية في مدينة دوين الى وظيفة عليا في البلاط الفارسي واصبح مربيا لاولاد امراء السلاجقة فأنعم عليه بحاكمية مدينة بغداد .

لقد اكرم بهروز وفادة شاذي عليه مراعيا له حقوق الصداقة القديمة فعين نجم الدين ايوب قائدا لحامية قلعة تكريت ولحق به كل من شاذي وابنه الآخر شيركوه . الا ان تصرفات شيركوه الطائشة هددت مستقبل الاسرة بالدمار . اذ قتل ذات مرة شخصا بصورة اعتباطية قيل انه اعتدى على امرأة . هذا بالاضافة الى ان بهروز لم يعد مرتاحا من تصرفات الاسرة بكاملها اثناء حرب الوراثة السلجوقية وكذلك لايوائهم عماد الدين وتسهيل امر هروبه حينما كانت تطارده جيوش الخليفة العباسي المسترشد . لهذا امر بهروز بعزل نجم الدين فاضطرت الاسرة الى مغادرة تكريت سرا في الليلة التي ولد فيها يوسف صلاح الدين سنة ١١٣٨[1] .

قصد كل من ايوب واخيه شيركوه الموصل مقر عماد الدين الذي لم ينس للاسرة فضلها . اذ عين ايوبا حاكما على بعلبك حالما سقطت بيده سنة ١١٣٩ . وتعد هذه آنذاك من شهيرات المدن بتاريخها وثرائها وموقعها الاستراتيجي حيث امضى فيها صلاح الدين سنيه الاولى المبكرة ١١٣٩ — ١١٤٦ .

فقد ايوب حاميه الاكبر عماد الدين على اثر اغتياله ، فخافت الاسرة ثانية على مستقبلها . اذ طالبت سلطات دمشق باعادة بعلبك الى نفوذها . ولم يتخذ ايوب اية خطوة للدفاع عن المدينة ، بل اتفق مع الجيوش الدمشقية الغازية على تسليم المدينة لقاء اقطاعه بعض الضياع ذات الموارد الوفيرة قرب دمشق وخصص له قصر في داخلها فابتسم له الحظ مرة اخرى . حيث لقي حظوة ايضا في بلاط الامير أبق مجير الدين ١١٣٩ — ١١٥٤ . ثم اصبح قائدا عاما للقوات الدمشقية واحتفظ بذلك المنصب حتى استيلاء نور الدين على دمشق سنة ١١٥٤ . ولقد لعب نجم الدين ايوب دورا هاما في تسليم المدينة صلحا الى نور الدين بعد مفاوضات استمرت لايام ستة انتهت بتجريد مجير الدين من امارته . وقد عين ايوب واليا على دمشق مكافأة له . ثم جعل نور الدين ايضا شيركوه نائبا عنه ليشرف على الامارات السورية من مقره في حمص .

---

(1) S. Lane - Poole, Saladin (Beirut, 1964) 5-6.

عاش صلاح الدين في دمشق في بلاط نور الدين ١١٥٤ ـــ ١١٦٤ ولم يتميز خلالها بشيء هام سوى انه على حد تعبير ابي شامة انه تعلم مـــن نور الدين السير في السبيل السوي •

السباق حول مصر بين اماليك ونور الدين :

انحطت الاوضاع السياسية في مصر الى دركها الاسفل منذ سقوط عسقلان سنة ١١٥٣ بيد ملك القدس بلدوين الثالث ١١٤٣ ـــ ١١٦٢ وذلك بسبب الصراع حول السلطة الوزارية وما رافقه من مؤامرات واغتيالات وحروب اهلية • وغدت الخلافة الفاطمية مجرد شبح هزيل يلوح بـــه الوزراء للناس خدمة لمصالحهم الانانية • فقد تواطأ الوزير عباس مع ابنه نصر على اغتيال الخليفة الظافر سنة ١١٥٤ ثم اشاع بأن القتلة هم اخوة الخليفة فأزهقت ارواحهم واسند الخلافة الى الفائز بن الظافر وهو في عمر الخامسة • ولم يتمكن عباس من السيطرة على الامور فاستخف به الجند وخاصة عند افتضاح امر جريمته • حيث هب حاكم الصعيد ابن رزيك لاخذ الثأر فما كان من عباس الا وجمع اهله وسطا على الخزينة وشد الرحال متوجها نحو سورية ومعه المؤرخ الامير اسامة بن منقذ الذي لعب دورا ملتويا في احداث السياسة الفاطمية(٢) • وقد هجم عليهم الصليبيون اثناء الطريق فقتل عباس واسر ابنه نصر • وقد باع فرسان المعبد نصرا الى ابن رزيك حيث اعدم في القاهرة وعلقت جثته لمدة سنتين على باب زويلة في القاهرة •

استمر حكم ابن رزيك المضطرب منذ ١١٥٤ حتى ١١٦١ وآل مصيره الى الاغتيال نتيجة لمؤامرة دبرتها عمة الخليفة العاضد • اما سبب ذلك : ان ابن رزيك اختار العاضد خليفة على اثر وفاة الفائز سنة ١١٦٠ ، ثم زوجه بنته • ولم ترتح عمة الخليفة لذلك التصرف فأرسلت اليه جماعة انهالت عليه بالسكاكين • ولم يكن العادل داريا بذلك ولا راضيا به لهذا سلم عمته الى ابن رزيك قبيل مماته حيث قتلها بيده • ثم عين العاضد للوزارة

(2) Usamah Ibn Munqith, Kitab A-Itibar trans. by Hitti (Beirut, 1964) 44-54.

العادل بن رزيك ولم يستقم الامر للعادل حيث لقي مصرعه بعد خمسة عشر شهرا على يد والي الصعيد شاور السعدي الذي لم يدم حكمه غير ثمانية اشهـر ٠

بلغ الصراع حول الوزارة غايته سنة ١١٦٣ وخرج عن نطاقه الداخلي الى مجال دولي ٠ وذلك على اثر انتصار ضرغام اللخمي قائد فرقة البرقية ٠ وقد اتبع هذا سياسة تميزت بقصر النظر في الداخل والخارج ٠ اذ امر باعدام كافة القادة الموالين لخصمه فأضر ضررا بليغا في اجهـزة القيادة للجيش المصري[٣] ٠ الا ان شاور نجا بحياته وشخص الى نور الدين ٠

الحملة السورية الاولى :

لقد طلب شاور السعدي المساعدة العسكرية من نور الدين لاستعادة منصبه في مصر لقاء شروط منها : ان يسدد نفقات الحملة والتنازل عـن بعض مناطق الحدود وان يكون تابعـا لنور الدين وان يدفـع له ثلث الواردات المصرية سنويا ٠ وبالرغم من هذه العروض المغرية فقد تردد نور الدين في الموضوع ٠ وقد يعزا سبب التردد الى عدم ثقة نور الدين بشاور السعدي بالاضافة الى ما يتهدد الحملة من مخاطر من قبل الجهات الصليبية وخاصة اثناء السير في الصحراء[٤] ٠ وقد تبدد ذلك التردد على اثر قيام ملك القدس اماليك بغزو مصر في ايلول سنة ١١٦٣ ٠

اما السبب المباشر الذي حدا بأماليك ١١٦٢ — ١١٧٤ ، ان يغزو مصر فيعود لاختلافه مع ضرغام حول تسديد المبالغ التي تعهدت السلطات المصرية منذ سنة ١١٦٠ بدفعها سنويا لمملكة القدس لقاء العلاقات السلمية٠ الا ان الحكومة المصرية لم تدفع منها شيئا ٠ وحققت الجيوش الصليبية انتصارا على الجيش المصري في ايلول سنة ١١٦٣ في موقعة بلبيس ٠ وعمد ضرغام الى كسر السدود كخطة دفاعية لاعاقة تقدم أماليك ٠ وفعلا اضطر الاخير الى الانسحاب ٠ الا ان ضرغام بادر الى تسوية خلافاته مع القدس حالما سمع بعزم نور الدين على مهاجمة مصر واعدا اياهم دفع المخصصات

---

(3) ابو الفداء ، المختصر في تاريخ البشر ، ج ٥ (بيروت ، ١٩٦١) ٥٦

(4) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، ج ١١ (القاهرة ، ١٣٠٣) ١١٢

السابقة وزيادتها [٥] . ولم يمهله الزمن ليرى تلك المساعدات الصليبية .

ارسل نور الدين حملته الاولى في نيسان سنة ١١٦٤ تحت قيادة شيركوه الذي اصطحب معه يوسف صلاح الدين والذي كان في عمر السابعة والعشرين . وانزل الجيش السوري هزيمة بضرغام في بلبيس فتقهقر نحو القاهرة محتميا بأسوارها .

اخذت مواقف ضرغام تزداد حراجة الى ان اودت به الى الممات . اذ كان في علاقات سلبية مع الخليفة العاضد ثم اهاج الرأي العام في القاهرة لسوء تدبيره الاقتصادي بوضع يده على واردات الاوقاف الدينية . وجاء الى اجله المحتوم حينما رفض الخليفة مساعدته معنويا في استنفار الناس للقتال . اذ وقف مدة من الزمن خارج القصر الفاطمي املا في ان يؤذن له بالدخول . ولما فشل في ذلك راح وحـده يستصرخ الناس في شوارع القاهرة وقد عثر به جواده فكبا على الارض في حي السيدة نفيسة فهجم عليه هناك فقضى نحبه[٦] . وكانت جيوش شيركوه في جهة القسطاط ومعه شاور السعدي الذي اسند اليه العاضد الوزارة حـال مقتل ضرغام في مايس سنة ١١٦٤ .

وما ان استتب الامر للسعدي حتى اخذ يخطط لاجبار الفرقة السورية على الانسحاب . فقد رفض دخول الجيوش الى القاهرة كما امتنع عن تسديد التعهدات المالية التي وعد بها نور الدين . لهذا امر شيركوه ابن اخيه يوسف صلاح الدين باحتلال الجهات الشرقية . فعمد السعدي الى مد يده الى القدس . وقد عرض على أماريك لقاء مساعداته العسكرية سبعة وعشرين ألف دينار وتموين الجيش الصليبي وتقديم مكافأة مالية لفرسان الاسبتارية عند نجاح المهمة[٧] .

تمكن الصليبيون وانصار السعدي من فرض الحصار حول شيركوه في بلبيس لثلاثة اشهر . ثم اضطر كل من شيركوه وأماريك على تسوية

---

(5) S. Runciman, A History of the crusades, Vol. II (Cambridge, 1957) 365-67.

(6) Lane-Poole, op. cit., 82-8.

(7) ابو شامة ، كتاب الروضتين ج ١ (القاهرة ، ١٩٥٦) ١٢٥

الامر بانسحاب الطرفين من الاراضي المصرية • اما الاسباب التي ادت بشيركوه الى قبول الاتفاق فتكمن في اقتراب الخطر البيزنطي من الحدود السورية وخشية نور الدين من اتحاد بيزنطي صليبي • اما الاسباب التي حدت بأماريك الى الاتفاق فتعزا الى اشتداد حملات نور الدين على المملكة الصليبية • حيث استولى على حارم وحاصر بانياس[٨] • لهذا فضل الصليبيون الرجوع للدفاع عن قواعدهم •

الحملة السورية الثانية :

بالرغم من ان الحملة الاولى لم تأت بنتائج ملموسة الا انها ذات نفع كبير بالنسبة للقيادة السورية • حيث استطلع شيركوه البلد وخبر احواله اذ كان حسب رأيه بلا قوة يؤبه لها على الصعيدين الرسمي والشعبي وهناك حكومة مهتزة مكروهة وهوة بين الحاكمين والمحكومين • لهذا اخذ شيركوه يسرف بالالحاح على نور الدين بضرورة وضع اليد على مصر • فاقتنع بآراء قائده وتحريضات الخليفة العباسي فأنفذه على رأس حملة في بداية سنة ١١٦٧ مصطحبا معه صلاح الدين ايضا • واتخذ شيركوه معسكره بالقرب من الفسطاط •

اما السعدي فقد وجه النداء ثانية الى أماريك حال سماعه بمسيرة شيركوه • لهذا توجه ملك القدس بجيشه حيث عسكر في جهة الجيزة مقابل معسكر شيركوه والنيل يفصل بينهما • وكأن الصليبيين لم يثقوا بالسعدي فأرادوا لقاء مساعداتهم ان تكون لهم معاهدة مصدقة من قبل الخليفة العاضد نفسه • وفعلا قابل وفد منهم الخليفة في بلاطه الذي بهرت مداخله ونفائسه ومراسيمه عقول الوفد[٩] • واضطر الخليفة خلافا للعادة ان ينزع قفازه ويضع يده في يد رئيس الوفد السير هيو ويردد بعده القسم كلمة كلمة على احترام الاتفاق الذي تضمن : عدم انسحاب قوات القدس الا بعد ان يتم انسحاب شيركوه وان تدفع مصر اربعمائة الف دينار على قسطين متساويين • يدفع الاول مقدما والآخر بعد استكمال المهمة •

---

(8) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ١٣٢

(9) W. of Tyre, Deeds Done Beyond the sea, trans. by Babcock and Krey, II, 350.

احرز شيركوه في البداية انتصارين • كان الاول في معركة البابين حيث صد فيه الهجوم الذي قام به أماليك نفسه مع فرسانه الخاصين به • والثاني احتلاله الاسكندرية التي فتحت الابواب له بدون معارضة • فعهد بادارتها الى صلاح الدين ثم غادرها شيركوه الى جهات الصعيد •

لم تحقق الحملة السورية الثانية اهدافها • والسبب المباشر في ذلك هو الحصار الذي فرضته القوات الصليبية والسعدية على الاسكندرية برا وبحرا والذي دام لشهرين او اكثر • حيث تعرض السكان في المدينة للمجاعة وطالبوا بالاستسلام الا ان صلاح الدين وفرقته تمكنوا من اعادة الثقة في نفوس الجماهير المتذمرة • هذا مع العلم بأنه لم يكن بمقدور شيركوه ان يفك الحصار من الخارج[١٠] • لهذا انتهز وجود اكثرية القوات الصليبية والسعدية في جهات الاسكندرية وراح يفرض الحصار على القاهرة تخفيفا للضغط عن الاسكندرية واملا في التفاوض من اجل الصلح• وفعلا تم الاتفاق بين شيركوه وأماليك على انسحاب الطرفين من الاراضي المصرية •

لقد نفذ شيركوه الاتفاق وقفل راجعا الى سوريا • اما أماليك فلم يغادر مصر الا بعد ان عقد اتفاقا جديدا مع السعدي الذي تضمن زيادة الاتاوة السنوية التي تدفعها مصر للقدس الى مائة الف دينار وان يعهد بأبراج اسوار القاهرة للقوات الصليبية بحجة الدفاع عنها في المستقبل ، وعهد بالاشراف على هذه القوات الى قيادة دائمة في القاهرة[١١] •

---

(10) تشير بعض المصادر الغربية الى ان شيركوه تسلل ليلا من الاسكندرية اثناء الحصار لشدة المجاعة مع قسم من جيشه وراح ينهب قرى الصعيد .

ويشير ابن الاثير بأن شيركوه وافق على الانسحاب لقاء دفع الصليبيين له ما يقارب الخمسين الف دينار .

راجع عن الخبر الاول :
Runciman, A History of the Crusades, Vol. II (Cambridge, 1957) 375.

(11) Runciman, op. cit., 376.

الحملة السورية الثالثة :

وسببها المباشر تصميم دولة القدس على الاستيلاء على مصر ، اذ زحفت جيوشهم بقيادة أماليك سنة ١١٦٨ للاراضي المصرية فاحتلوا مدينة بلبيس واغمدوا السيوف في السكان بدون تفريق بين عمر وجنس ودين ، وأدت تلك الجريمة البشعة الى اصرار اهل القاهرة على المقاومة حتى الموت ، ويقول ابن الاثير : لو ان الفرنجة احسنوا السيرة في بلبيس ملكوا مصر[١٢] ... وقد عمد السعدي الى احراق الفسطاط لكيلا يستفيد منها العدو واستمرت فيها النار لاربعة وخمسين يوما ، ثم اضطر الخليفة العاضد الى توجيه صرخات النداء الى نور الدين بطريقة تبعث على الشفقة والرثاء ، حيث بعث مع الرسائل بخصلات من شعر سيدات البلاط الفاطمي ليثير حمية نور الدين من اجل الدفاع عن الحرمات التي باتت مهددة بالانتهاك[١٣] .

لهذا عهد نور الدين القيادة لشيركوه للمرة الثالثة واستجاب للامر كافة الامراء عدا صلاح الدين ، اذ رفض الاشتراك صراحة حينما اشار اليه عمه في مجلس نور الدين (ان تكون يا يوسف على استعداد للسير) فأجاب : والله لو وهبت لي سلطنة مصر لما ذهبت ان ما لاقيته في الاسكندرية من مشاق ماثلة حية الذكرى ، فالتفت شيركوه الى نور الدين قائلا له : ان الحاجة تدعوني الى اصطحابه ، فقال نور الدين لصلاح لا بد من مسيرك مع عمك ، وقال صلاح الدين فيما بعد عن تلك الحادثة عند استوائه على ملك مصر : اضطررت الى الذهاب وكأني انساق الى الموت .

لقد شرعت الحملة سيرها في ١٧ كانون الاول سنة ١١٦٨ في وقت كانت فيه جيوش مملكة القدس ماثلة امام القاهرة ، وقد فوجئوا بانحياز السعدي الى جانب شيركوه فعادوا ادراجهم الى القدس في بداية سنة ١١٦٩ .

عاد شاور سيرته الاولى في المراوغة والخداع عند زوال الخطر

---

(12) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ١٢٦

(13) نفس المصدر ، ثم ابو الفداء ، ص ٥ ، ص ٦٥

الصليبي • اذ حاول تدبير مكيدة للقبض على شيركوه وقادته • حيث فاتح ولده الكامل الذي كان في اتصالات ودية سرية مع نور الدين ، وقد اجاب الكامل والده :(١٤)

> والله لئن عزمت على هذا الامر لأعرفن شيركوه . فقال ابوه : والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعا . فقال الكامل : صدقت ، نقتل ونحن مسلمون والبلاد اسلامية خير من ان نقتل وقد ملكها الفرنج ...

اخذ قادة الجيش السوري ومن بينهم صلاح الدين يتوجسون خيفة من مماطلة السعدي بتنفيذ الوعود التي قطعها العاضد الى نور الدين الا وهي ثلث الاراضي المصرية ثم توزيع اقطاعات على قادة الجيش • لهذا قرر صلاح الدين اغتيال السعدي بالرغم من معارضة شيركوه • فوثب صلاح ورفاقه على السعدي حينما كان في طريقه لزيارة قبر الامام الشافعي فألقوا عليه القبض ثم امر الخليفة العاضد بقطع رأسه • ثم اصدر الاخير مرسوما يسند فيه الوزارة الى شيركوه وعينه قائدا عاما للجيوش وأنعم عليه بلقب الملك المنتصر في ١٨ كانون الثاني سنة ١١٦٩ • ولم يستمر شيركوه في الوزارة غير شهرين حيث توفي في شهر مارس •

رئاسة صلاح الدين للوزارة الفاطمية :

استوزر الخليفة الفاطمي صلاح الدين بعد ثلاثة ايام من وفاة شيركوه في مارس سنة ١١٦٩ ملقبا اياه بالملك الناصر • ولم يرتح بعض قادة الجيش السوري في مصر لاستيزار صلاح الدين لاعتبارهم ان الاخير دونهم سنا وأقلهم تجربة بالاضافة الى عدم ثقتهم بمقدرته العسكرية والادارية • اذ المعروف عن صلاح الدين في بداية امره عدم الطموح وفتور الهمة • وعليه فضل بعض اولئك القادة العودة الى سوريا تحاشيا الاشتغال تحت امرته •

وجد صلاح الدين نفسه عند تقلد الوزارة بين نقيضين • فهو تابع الى نور الدين بحكم منصبه العسكري من جهة بينما هو مسؤول من جهة اخرى نحو الخليفة الفاطمي الذي تسلم منه المنصب الوزاري • هـذا

---

(14) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ١٢٧

بالاضافة الى الفوارق المذهبية ودعوة نور الدين للخلافة العباسية • ومع ان نور الدين هنأه على منصبه الا انه لم يخاطبه بسوى لقب الأمير او قائد القوات السورية في مصر وكأنه اراد بذلك ان يؤكد لصلاح الدين بأنه لم يزل تحت امرته • لهذا عمد الاخير الى تقوية مركزه بطرق لا تثير عليه نور الدين ولا شكوك الشعب المصري(١٥) •

اعتمد صلاح الدين على افراد اسرته بالدرجة الاولى من اجل تثبيت اقدامه في مصر • فأظهر في بداية الامر زهده في المنصب باقتراحه على والده ان يتولاه بدله فاعتذر الوالد بقوله : لم يخترك الله لولا علمه باستحقاقك له ، ثم اسند الى والده منصب بيت المال وقسم على اخوانه الاقطاعات • ثم راح يعمل على اضعاف حزب الخليفة وكسب ود الشعب •

اخذت العلاقات في التدهور بين البلاط الفاطمي وصلاح الدين • اذ توضح للخليفة العاضد بعد فوات الاوان انه وجد في صلاح سيدا لا تابعا • وقد حاول رئيس حرس البلاط نجاح الملقب بمؤتمن الخلافة القيام بمؤامرة ضد صلاح وذلك بالاستعانة بالصليبيين والبيزنطيين واشعال نار الثورة في الداخل • الا ان صلاح الدين اكتشف خيوط المؤامرة فأوعز باغتيال المؤتمن في تموز سنة ١١٦٩ • وقد استثار الحادث فرقته السودانية فأعلنوا الثورة التي يشار لها بثورة السود • ونشب قتال عنيف في شوارع القاهرة • ومع ان صلاح الدين تمكن من اخماد الثورة في القاهرة الا ان الشغب قد انتقل الى جهات الصعيد واستمر حتى سنة ١١٧٦ •

الاعتداء البيزنطي ــ الصليبي :

لم يهمل أماليك الموضوع المصري بل تحالف مع الامبراطور البيزنطي مانويل الاول من اجل غزو البلاد المصرية وأملا في توريط الامبراطورية البيزنطية في حرب شاملة مع نور الدين لكي يخف عنه الضغط من الجهات السورية • وقد حاصر الحليفان دمياط سنة ١١٦٩ • الا ان القوات البيزنطية والصليبية اضطرت الى الانسحاب • ويعزا ذلك لقلة الطعام وانتشار الاوبئة وفيضان النيل وتساقط الامطار الغزيرة وهبوب

---

(15) Lane-Poole, op. cit., 99-100.

عواصف شديدة اغرقت الكثير من سفن الاسطول البيزنطي امام السواحل المصرية . هذا بالاضافة الى اختلاف القيادتين البيزنطية والصليبية حول الخطط الاستراتيجية . كما ان نور الدين اخذ يواصل غاراته على المراكز الصليبية في مملكة القدس مما اقلق القادة على مصير اسرهم واملاكهم فنادوا بضرورة العودة بعد حصار فاشل لدمياط دام خمسين يوما . ويعلق ابن الاثير على ذلك بقوله (فكانوا موضع المثل : خرجت النعامة تطلب قرنين ورجعت بلا اذنين)(١٦) .

ادى فشل الاعتداء على دمياط الى تحويل الفعاليات الصليبية لمملكة القدس من حالات هجومية الى دفاعية . اذ اخـذ صلاح الدين المبادرة فأغار على غزة ثم استسلمت له ايلات سنة ١١٧٠ .

الغاء الخلافة الفاطمية :

اخذ نور الدين يلح على صلاح بضرورة وضع حد للخلافة الفاطمية واعلان الدعوة للخليفة العباسي في المراسيم الدينية(١٧) . وقد تردد صلاح الفترة من الوقت في تنفيذ ذلك لعدة اعتبارات دينية وسياسية منهـا : رسوخ المذهب الفاطمي الذي رسخته القرون في الاذهان المصرية ولخوفه من ردود الفعل التي عساها قد تحدث من جراء الغاء الخلافة(١٨) . وراحت الشكوك تساوره من موقف نور الدين بالحاحه في ذلك الموضوع . اذ اعتقد صلاح بأن نور الدين وكأنه اراد به سوءا وليمشكله بأمور هو في غني عنها والا فما قيمة الغاء الخلافة الفاطمية طالما ان السلطة الفعلية في يده في مصر . وهل ان عدم شطب اسم العاضد من خطبة الجمعة يحتم على نور الدين ان يهدده بالمجيء بشخصه الى القاهرة ؟

لـم يحاول صلاح استباق الحوادث في موضوع استبدال الدعاء للخليفة الفاطمي بالخليفة العباسي وان القضية حسب رأيه تحتاج الى بعض الوقت والتمهيد الذي شرع به فعلا منذ توليه رئاسة الوزارة . فأخذ يطهر

---

(16) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ١٣٢
(17) ابو الفداء ، المصدر السابق ، ص ٦٩
(18) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ١٣٧

البلاط الفاطمي تدريجيا من العناصر المشكوك في نواياها تجاهه • فقد هيأت له الظروف اغتيال رئيس حرس القصر مؤتمن الخلافة واسند المنصب الى تابعه المخلص قرقوش الذي قام بدوره في تصفية العناصر المعادية في البلاط • ثم بدأ صلاح بعزل الخليفة روحيا عن الشعب بانشاء مؤسسات دينية تحبب للناس المذهب العباسي وتنفرهم بصورة غير مباشرة من المذهب الفاطمي • وقد نجح دعاة تلك المؤسسات في الترويض النفسي لقسم من الشعب المصري فمهدت لتقبلهم الزعامة الروحانية العباسية • وبعد استتمام صلاح لاجراءاته في هذا الصدد وافق على انهاء الخلافة الفاطمية في اليوم الاول من شهر رمضان سنة ١١٧١ فاستبدلت جملة الخليفة الفاطمي بالخليفة العباسي في خطب الجمعة •

اما العاضد فكان في مرضه الاخير ولم يعلمه احد بالخبر بناء على توصيات صلاح الدين • وقد توفي العاضد بعد ثلاثة ايام من الحادث وهو لا يدري ما قام به صلاح من اجراء • وكان عمره حوالي احدى وعشرين سنة • وقد وضع قرقوش حراسته المشددة على امراء واميرات الاسرة الفاطمية حيث فصل الرجال عن النساء وعاشوا حياة اشبه بالاعتقال •

لقد ورث صلاح الدين كنوز البلاط الفاطمي الا انه لم يحتجن لنفسه منها شيئا • اذ يقال بأنه وزعها هدايا على اتباعه بعد ان افرز حصة الاسد الى نور الدين وعثر في القصر على مائة وعشرين الف مخطوطة اهداها لمستشاره القاضي الفاضل • ووجدوا في القصر طبلا كبيرا يطبل عليه المصاب بمرض القولنج ليشفى ••• وقد هشم طبل القولنج فحصل ما حصل لمن طبله قبل تهشيمه ! ؟[19]

موقف صلاح الدين من نور الدين :

كان نور الدين على علم بتعاظم قوة تابعه وتعاليه الا انه لم يحرك ساكنا للمخاطر التي تهدده من جهات سلاجقة آسيا الصغرى وامراء العراق في جهات الجزيرة الفراتية والموصل والصليبيين • ولم يكن صلاح من ناحية اخرى ليطمأن الى نوايا الاول تجاهه • فقد تحاشا مقابلة نور الدين

---

(19) نفس المصدر ، ١٣٨

مرتين : الأولى عند حصار صلاح الدين لحصن الشوبك سنة ١١٧١ ، اذ اراد نور الدين الالتقاء به هناك الا ان صلاح قفل راجعا الى مصر معتذرا لنور الدين بأن الحالة في مصر استدعت ذلك ، ولم يقبل نور الدين بذلك العذر وعزم على مهاجمة مصر ، لهذا عقد صلاح مؤتمرا ضم افراد اسرته وقادة جيشه ليتدارس الامر معهم وقـد تحمس ابن اخي صلاح الدين المسمى بعمر لفكرة القتال بقوله : اذا جاء نور الدين فسوف نقاتله حتى نخرجه من البلاد ، فصاح به ايوب موبخا[٢٠] ، ثم وجه ايوب الكلام الى ابنه صلاح بقوله : انا والدك وهذا شهاب خالك ، فهل في مجلسك من يحبك ويتمنى خيرك اكثر منا ؟ فأجاب صلاح لا والله ، فقال ايوب اعلم اذن : اذ تقابلت انا وخالك مع نور الدين فلا شيء يمنعنا من تقبيل الارض بين قدميه ولو امرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا ، ولهذا عليك ان تفكر بما سيفعله الآخرون ، ان هذه البلاد له فان امرنا بعزلك فليس لدينا غير الطاعة ، اكتب حالا اليه : ان اخبارا وصلتنا بأنك تقود حملة على هذه البلاد ، اهناك حاجة لذلك ، فليرسل لي سيدي من يقودني اليه والطوق حول عنقي ... ثم قال ايوب لابنه حينما انفرد بهم المجلس بأنه قال الكلام السابق لعلمه بأن هناك في المجلس من يقوم بتوصيل الاخبار الى نور الدين ، وعلى كل حال فعند استلامه رسالتك يلين وتهدأ سورة غضبه ويعدل عن رأيه ، وان الله عز وجل كل يوم هو في شأن ، ثم قال : فوالله لو اراد نور الدين قصبة من قصب السكر لقاتلته انا عليها حتى امنعه او اقتـــل[٢١] .

اما المرة الثانية التي تحاشا فيها مقابلة نور الدين اثناء قيامه بحصار حصن الكرك سنة ١١٧٣ بناء على طلب نور الدين ، ولمـــا سمع صلاح بتوجه نور الدين اليه رفع الحصار وتراجع الى مصر معتذرا لنور الدين بمرض والده وخشيته ان يموت وهو بعيد عنه وقد تؤدي وفاته الى ثورة في القاهرة ، وقد قبل نور الدين ذلك الاعتذار على مضض منه .

ويذهب البعض الى ان الفتوحات التي قام بها صلاح الدين في فترة

المقريزي كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ ١ (القاهرة، ١٩٣٤) ٤٩.
(21) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ١٣٩

١١٧١ ـــ ١١٧٤ قصد من ورائها ايجاد امارة احتياطية في حالة استيلاء نور الدين على مصر[٢٢] • فهناك برقة في ليبيا التي فتحت ١١٧٢ ـــ ١١٧٣ الا انها لم تصلح له لصعوبة الدفاع عن سواحلها الطويلة • ثم السودان سنة ١١٧٣ ولم يجدها ملائمة للسكن او العيش لقلة غلاتها وحرارتها ولا فيها من شيء مهم سوى تجارة العبيد • ويقال انه فكر في اليمن التي حببها اليه الشاعر اليماني عمارة • لهذا ارسل جيشا اليها بقيادة اخيه طورانشاه سنة ١١٧٤ • ومهما يكن من امر هذه الفتوحات فقد كفته العوادي مما يخشاه ويحذره بوفاة نور الدين محمود في شهر مايس سنة ١١٧٤ •

قيام الدولة الايوبية :

تعتبر البداية الرسمية لقيام الدولة الايوبية في نيسان سنة ١١٧٥ من الناحية النظرية • وذلك على اثر تحرره من التبعية الزنكية واتخاذه لقب ملك مصر وسوريا واصدار النقود باسمه وحصوله على تأييد واعتراف الخليفة العباسي المستضيء بالله • وما كان بمقدور صلاح ان يرث ملك نور الدين الا بعد تغلبه على سلسلة من المشاكل في مصر وسوريا وجهات العراق الشمالية الغربية •

ولعل من اخطر المشاكل التي جابهته في مصر سنة ١١٧٤ هي مؤامرة العناصر الحاقدة عليه والتي مدت اذرعها لحكومتي صقلية والقدس والتي نفضل ان نورد رواية ابن الاثير لها :[٢٣]

> اراد جماعة الوثوب على صلاح الدين ومن بينهم عمارة بن ابي الحسن اليمني الشاعر ... وداعي الدعاة وغيرهم من جند المصريين ورجالاتهم السودان وحاشية القصر واتفق رأيهم على استدعاء الفرنج من صقلية ومن ساحل الشام الى ديار مصر على شيء يبذلونه لهم من المال والبلاد . فاذا قصدوا البلاد ، فان خرج صلاح الدين بنفسه اليهم ثاروا في القاهرة ومصر ... وان كان صلاح الدين يقيم ويرسل العساكر اليهم ثاروا به واخذوه اخذا باليد . وقال لهم عمارة وانا ابعدت اخاه الى اليمن خوفا من ان يسد مسده وتجتمع عليه الكلمة من بعده ...

---

(22) Lane-Poole, op. cit., 121-22.

(23) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ١٤٩ ـــ ١٥٠

لقد اكتشف صلاح الدين المؤامرة في الوقت المناسب ، وذلك لان احد المتآمرين الا وهو زين الدين الواعظ باح بالسر الى صلاح الذي امره ان يواصل اجتماعاته معهم وان يوافيه بالاخبار اولا بأول ، وكبسهم صلاح الدين قبل ساعة الصفر ، فاعترفوا بجرمهم وامر باعدامهم ، ثم عمد الى تقوية وسائل دفاعه البحرية بصورة خاصة لاتقاء الغزو الصقلي .

رست الاساطيل الصقلية امام الاسكندرية في ٢٨ تموز سنة ١١٧٤ ، وكان عددها في المصادر العربية ستمائة وعليها حوالي الثلاثين الف مقاتل ، اما المصادر الغربية فتشير الى انها ٢٨٢ سفينة ، حاصرت القوات الصقلية المدينة ليومين ثم انسحبوا في مساء اليوم الثالث طالبين النجاة في البحر بعد ان تكبدوا خسائر كبيرة ، ولم تشترك القدس في الهجوم نظرا لسماعهم بفشل المؤامرة الداخلية ولوفاة اماليرك في ١١ تموز .

مشكلة الوراثة الزنكية :

ترك نور الدين وريثا صغيرا في عمر الحادية عشر في عهدة امه الا وهو الصالح اسماعيل الذي كان مقيما آنذاك في دمشق ، وقد تنافس على الوصاية عليه امراء حلب ودمشق والموصل ، واخيرا اضطر امير دمشق ابن المقدم ان يفسح المجال للصالح وامه بالذهاب الى حلب حيث تولى حمايته كمشتكن ، فأصبح هذا وكأنه الوصي الشرعي على تركة نور الدين ، لهذا حاول اخضاع دمشق لسيطرته ، فاستعان ابن المقدم بسيف الدين غازي الثاني حفيد عماد الدين زنكي ، فلم ينجده ، فوجه ابن المقدم الدعوة الى صلاح الدين الذي سارع اليها سنة ١١٧٤ ثم عين اخاه طغتكين اميرا على دمشق ، وتوجه منها الى حلب بعد ان قدمت حماة له الولاء .

لقد اوصدت حلب دونه الابواب ففرض حولها الحصار في اواخر كانون الاول سنة ١١٧٤ ، وحاول في بداية امره ان يستميل الصالح وامه الى جانبه ، حيث اكد لهما بأن غايته من المجيء الى سوريا تخليص سيده

---

(24) Setton, Wolff and Hazard, A History of the Crusades, Vol. II (Phila., 1962) 35-6. See also; Lane-Poole, op. cit., 127. Runciman, op. cit., I, 403.

الصالح اسماعيل من الحاشية الشريرة • الا ان الصالح رفض الاستماع للنداء وخرج للجماهير والدموع تنهمر من عينيه متوسلا بهم ان لا يسلموه الى صلاح الدين مغتصب ملك والده • وكان لذلك المنظر مفعوله السحري بين السكان الذين قرروا الصمود والدفاع مهما كلفهم الامر[٢٥] • وقد اضطر صلاح الى رفع الحصار الذي دام لثلاثة اشهر سنة ١١٧٥ • وراحت حاشية الصالح تحشد القوى ضد صلاح الدين مستعينة بأمراء الزنكيين في جهات الموصل وبالاسماعيلية والصليبيين • لهذا أعلن صلاح تحرره من التبعية الزنكية •

لقد بقيت حلب خارج السيطرة المباشرة لصلاح الدين حتى سنة ١١٨٣ وقد لعبت امارة الموصل دورا هاما في ابقائها خارج السيطرة الايوبية • اذ ان امير الموصل غازي الثاني يعتبر نفسه مسؤولا عن حماية املاك ابن عمه الصالح • وقد خاض بالاشتراك مع جيوش حلب موقعتين خاسرتين ضد صلاح • كانت الاولى سنة ١١٧٥ دارت رحاها قرب حماة والثانية معركة تل السلطان قرب حلب سنة ١١٧٦ حيث عقدت هدنة بين الجانبين لمدة ست سنوات اعترف بها بلقب صلاح الدين وعلى ان يحتفظ الجانبان بمناطقهم التي كانت بأيديهم عند عقد الهدنة •

لقد استؤنفت العلاقات العدائية بين صلاح وامارة الموصل بعيد وفاة الصالح سنة ١١٨١ وانتهاء الهدنة سنة ١١٨٢ • اذ اوصى هذا قبيل وفاته بأن تكون امارة حلب من حصة عمه عز الدين امير الموصل الذي تولى امارة الموصل عند وفاة اخيه غازي الثاني • ولم يحاول هذا حكم حلب مباشرة بل فضل ان يسندها الى اخيه العادل امير سنجار سنة ١١٨٢ • وقد انتهز صلاح الدين فترة انتهاء الهدنة مع الزنكيين فتحالف مع الاراتقة في جهات الجزيرة الفراتية وفرض الحصار حول الموصل التي استعصى عليه فتحها ، فاتجه لاحتلال سنجار ثم قصد منها حلب • ولم يحاول علاء الدين المقاومة بل فضل الصلح مقابل تنازله عن حلب واعادة امارة سنجار اليه سنة ١١٨٣ •

---

(25) ابن الاثير ، المصدر السابق ، ١٥٧ ــ ١٥٨

اما بالنسبة لعز الدين امير الموصل فتوصل الى حل سلمي مع صلاح الدين سنة ١١٨٦ اعترف به بالتبعية له ٠

مشكلة الاسماعيلية :

سخر هؤلاء طاقاتهم لخدمة امارة حلب في المعارك التي دارت رحاها في فترة ١١٧٤ ــ ١١٧٦ ٠ في عهد شيخ الجبل سنان ٠ وهذا عراقي الاصل من عقر السودان قرب البصرة ٠ بدأ حياته كيماويا ومعلما ثم استهوته العقيدة الاسماعيلية فقصد قلعة الموت حيث الزعيم الاكبر كيا محمد ٠ ثم تقرر ارساله الى الجهات السورية ، وشرع اعماله فيها من سنة ١١٦٢ حتى سنة ١١٩٤ ٠ وقد شذ بتعاليمه عن قلعة الموت وسار بأهل جبل السماق بطريق منفصل حيث نصبوه الها سنة ١١٧٦[٢٦] ٠ حاول سنان اغتيال صلاح الدين ثلاث مرات ٠ كانت الاولى اثناء حصار صلاح الدين لحلب سنة ١١٧٥ ٠ اذ هجم عليه في مقره بضعة انفار من الفدائية الا ان حراسه كفوه شرهم ، والثانية سنة ١١٧٦ عندما كان يقوم بالعمليات العسكرية ضد حصن عزاز التابع الى حلب ٠ اذ هجم عليه فدائي وسدد اليه طعنات في رأسه ورقبته الا انــه سلم منها للدروع التي يلبسها تحت قلنسوته وثيابه ٠ اما الثالثة فكانت اثناء حملته على ديار الاسماعيلية سنة ١١٧٦ ومحاصرته المصياف ٠ اذ ان هناك رواية تزعم ان صلاح الدين افاق من حلم مزعج ليرى رسالة سمرت بخنجر اسماعيلي في داخل خيمته فوق رأسه مباشرة تحمل عبارات التهديد وتعلمه بأنه في قبضتهم وانهم يمكنهم قتله في اية لحظة ٠ وقد فزع من الحادث الاخير فزعا كبيرا ٠ وعلى حد تعبير الرواية هذه انــه ارسل مباشرة رسولا الــى شيخ الجبل يطلب منــه الصلح[٢٧] ٠ انه لمن المؤكد ان صلاح الدين رفع الحصار عن مصياف بعد تسوية الامر سلميا مع سنان سواء اكان ذلك مبعثه الخوف او انه اراد ان يجرد اعداءه الآخرين من سلاح الاسماعيلية الخطير ٠

---

(26) Incyclopeadia of Islam (Assassins).

(27) B. Lowis, «Saladin and the Assassins», Bulletin of the school of oriental and African Studies, XV (1935) 239-245.

تدهور الاوضاع العامة في القدس ١١٧٤ – ١١٨٧ :

لقد انتابت دولة القدس ازمات حادة منذ وفاة اماليك سنة ١١٧٤ . والمشكلة الاساسية التي اوغلت في تمزيق امرائها موضوع وراثة العرش ، اذ ترك اماليك ولدا قاصرا في عمر الثالثة عشر هو بلدوين الرابع ١١٧٤ – ١١٨٥ تحت وصاية امير طرابلس ريموند الثاني . وبدأت المشكلة تأخذ اشكالا حادة منذ تسلم بلدوين الرابع العرش سنة ١١٧٧ . وسبب ذلك اختلاف الزعماء حول ولاية العهد للملك بلدوين الرابع . اذ كان هذا يعاني من مرض الجذام ولا نسل له . فلا بد اذن من ايجاد زوج لاخته ليمكنه من وراثة العرش . لهذا طلب وساطة ملك فرنسا لويس السابع لاختيار الزوج اللائق . ورشح لويس اميرا من اسرة فردريك الاول امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة . الا ان الزوج قد توفي سنة ١١٧٧ فعادت مشكلة ولاية العهد مجددا حول ايجاد زوج آخر الى سبيلا . فوقع اختياره على كوي لوسينان Guy of Lusignan

وهذا من جملة الامراء المغامرين الفرنسيين . طرد من بلاده لجريمة اقترفها فوجد له مكانا في الاراضي المقدسة . لهذا رفض النبلاء اسناد ولاية العهد اليه . فاضطر بلدوين الرابع الى ايجاد حل آخر بدون ان يلغي الزواج . اذ ولدت سبيلا ولدا من زوجها السابق فاعتبر الوريث الشرعي. وعين بلدوين الرابع وصيا عليه امير طرابلس ريموند الثاني سنة ١١٨٢ . ولم تنته الامور عند هذا الحد ، اذ توفي بلدوين الرابع سنة ١١٨٥ وتلاه ابن سبيلا الذي سمي بلدوين الخامس سنة ١١٨٦ فكانت هناك عدة حروب اهلية اسفرت عن تثبيت لوسينان في العرش . الا ان ريموند الثاني رفض الاعتراف بلوسينان وأنف من تقديم الولاء له . وكيف لا الم يكن اخوه قد قال في حقه الجملة المشهورة التي ذهبت مثلا : ان الناس الذين نصبوا اخي ملكا عليهم لو عرفوني لجعلوني الها(٢٨) . لهذا فضل ريموند الثاني ان يعقد معاهدة مع صلاح الدين ضد لوسينان .

هذا بالاضافة الى عدم اتفاق الامراء حول سياسة موحدة تجاه

---

(28) S. Cox, The Crusades (London, 1910) 101.

المسلمين ، اذ انقسموا بين حزبين في هذا المضمار : الاول بقيادة فرسان المعبد والنبلاء الجدد الوافدين حديثا للاراضي المقدسة ، وكانت سياسته الشدة مع المسلمين وعدم المهادنة والاستهتار بالعهود ، والثاني بقيادة فرسان الاسبتارية والنبلاء القدماء ، وسياسته التفاهم مع المسلمين ومراعاة اصول الجوار ، وقد رجحت كفة الحزب الاول منــذ اعتلاء لوسينان العرش ، ومن اقطاب الحزب المتطرف رينو شاتيلون قائد حصن الكرك وجوسلين الثالث ابن امير الرَها السابق والذي اصبح يعرف بالامير بلا امــارة ،

لم يتمكن بلدوين الرابع ولا لوسينان من وضع حد لتصرفات رينو ضد المسلمين ، اذ دأب هــذا على الاغارة على قوافل التجارة القاصدة سوريا من مصر والحجاز ، فقد أسر سنة ١١٧٩ قافلة برمتها قدرت مبالغها ٢٠٠ الف دينار ، وعبثا حاول ملك القدس اقناعه بارجاع الغنائم ، ثـم كرر رينو اعماله اللصوصية سنة ١١٨١ بالرغم من وجود هدنة بين مملكة القدس والصليبيين عقدت سنة ١١٨٠ ، ثم هدد بالزحف على المدينة ومكة، اذ انزل سفنه فعلا في العقبة ونهبت قراصنته ميناء عيذاب على الساحل الافريقي من البحر الاحمر ثـم حاصر ايلات وسار في اتجـاه المدينة المنورة[٢٩] ، الا ان السلطات الايوبية في مصر ارسلت لتعقيبهم قائـد الاسطول لؤلؤ ، فلاذ القراصنة بالفرار برا تاركين سفنهم فلحقت بهـم قوات لؤلؤ فأبادت قسما منهم وأسر قسم آخر اما رينو فقد نجا بنفسه ، وقد نحر اثنان من الاسرى في منا في مكة والبقية في الاسكندرية[٣٠] ،

لقد كرر رينو الاعتداء على القوافل الاسلامية للمرة الثالثة في وقت جدد فيه صلاح الدين الهدنة مع مملكة القدس سنة ١١٨٥ لمـدة اربع سنوات ، اذ هاجم قافلة تجارية كبيرة سنة ١١٨٦ وتحدى اوامر ملـك القدس في عدم تسليمه الاسلاب واطلاق الاسرى ، لهذا رأى صلاح الدين ان الفرصة قد حانت للقيام بالعمل الحاسم بعـد ان اتاحت له الهدنة الاستعداد الكافي لمواجهة الصليبيين في عقر دارهم ،

---

(29) Runciman, op. cit., 431.

(30) المقريزي ، المصدر السابق ، ٧٩

معركة حطين واستعادة القدس :

توجه صلاح الدين بجيوشه من حوران ثم عبر الاردن سنة ١١٨٧ وعسكر نصف جيشه على بعد خمسة اميال من بحيرة طبرية وهاجم بالنصف الآخر مدينة طبرية نفسها التي سقطت بعد ساعة من المقاومة • وتقابلت مع جيوش ملك القدس واتباعه في ١٤ تموز سنة ١١٨٧ ومن بينهم رينو صاحب الكرك في حطين • وانتهت المعركة بابادة اكثرية الجيش الصليبي وتأسير الملك واتباعه • ويقول ابن الاثير (فكان من يرى القتلى لا يظن انهم اسروا واحدا ومن يرى الاسرى لا يظن انهم قتلوا احدا) • اما رينو صاحب الكرك فقتله صلاح الدين بيده ، اذ يشير ابن شداد :[31]

> فلما فرغ المسلمون منهم نزل صلاح الدين في خيمته واحضر ملك الفرنج عنده وبرنس صاحب الكرك واجلس الملك الى جانبه وقد اهلكه العطش فسقاه ماء مثلوجا . فشرب واعطى فضلته لصاحب الكرك فشرب . فقال صلاح الدين ان هذا ... لم يشرب الماء باذني فينال اماني . ثم كلمه وقرعه بذنوبه . وقام اليه بنفسه فضرب رقبته . وقال كنت نذرت دفعتين ان اقتله ان ظفرت به : احدهما لما اراد المسير الى مكة والمدينة والثانية لما اخذ القفل غدرا ...

لم يتقدم صلاح الدين بعد حطين نحو القدس مباشرة لانه فضل ان يعزلها عن الامدادات الساحلية اولا • لهذا استولى على عكا وصيدا وبيروت وعسقلان ، ثم توجه لفرض الحصار على القدس في ٢٠ ايلول سنة ١١٨٧ واستسلمت المدينة في اليوم الثاني من اكتوبر بعد مفاوضات بين الطرفين ، مثل الجانب الصليبي فيها الامير باليان امير منطقة الرملة • وقال صلاح الدين له مستفهما اهناك من مفاوضات حول مدينة باتت في حكم السقوط ؟ فأجاب باليان : ايها السلطان اننا محاربون بين سكان مدنيين يعلم الله عددهم • اننا نطلب وقف القتال املا في عدالتك • وان نعامل السكان كما عاملت المدن الاخرى • فانهم يحبون الحياة ويكرهون الموت • اما بالنسبة لنا ، فاذا لم يكن من الموت بد فسوف تنحر نساءنا

---

(31) ابن شداد، سيرة صلاح الدين، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (القاهرة ، ١٣١٧) ص ٦٣ . قارن ذلك مع ابن الاثير المصدر السابق ، ٢٠٣

واطفالنا ونحرق كل ما نملك ولا ندع للغنائم شيئا ٠٠٠ ثم نهدم قبة الصخرة وبقية الاماكن ٠ ونذبح المسلمين الاسرى لدينا وهم خمسة آلاف ٠ ثم نتوجه اليكم لنقاتل دفاعا ٠٠٠ فاما ان نموت بشرف او يستولي علينا كرجال ٠ واخيرا وافق صلاح الدين على استسلام المدينة صلحا حسب الشروط التالية :

يدفع كل رجل عشرة دنانير ثمنا لحريته وتفيد كل امرأتين او عشرة اطفال فدية رجل واحد ٠ ثم يطلق سبعة آلاف من الفقراء بعد ان تفديهم خزينة الملك بثلاثين الف دينار ٠ ثم حدد تسديد الفديات بأربعين يوما ٠ وقد وقعت الاتفاقية في ٢ اكتوبر المصادف ٢٧ رجب ليلة المعراج ٠ واندفعت جيوش المسلمين في المدينة تحت ضبط عسكري حفظا على ارواح الناس وكرامتهم(٣٢) ٠

لقد كانت شروط الاستسلام بسيطة نسبيا فيما لو قورنت بما ارتكبه الصليبيون عند احتلالهم القدس سنة ١٠٩٩ ٠ حيث تمثلت انسانية صلاح الدين بمظاهرها الجلية حين تنفيذ الشروط ٠ فهناك العديد من الفقراء لم يكن بامكانهم دفع الفدية عند انتهاء المدة ٠ لهذا التمس العادل من اخيه صلاح ان يهبه الفا من هؤلاء ليتصرف بهم حسبما يشاء ، فوافق صلاح ٠ وعندها امر العادل باطلاق سراحهم احرارا ٠ ثم تقدم كل من رئيس اساقفة القدس هرقليانوس وباليان بطلب مماثل فوهبهم الف اسير حيث تم اطلاق سراحهم ٠ ثم قال صلاح والآن جاء دوري : فأمر مناديه ان يعلن في الطرقات ان كافة العجزة الفقراء هم احرار يمكنهم الذهاب انى شاءوا ٠

وهناك مشهد آخر توضحت فيه سمو عواطف صلاح الدين حسب رواية باليان : قصدت ارامل الفرسان معسكر صلاح الدين طالبات الرحمة ٠ فسأل عمن يكن وما هو مطلبهن ؟ فقيل له يسألن العطف ٠ ولما رأى بكائهن دمعت عيناه ٠ وقال ان النساء اللواتي يعلمن بمكان ازواجهن الاسرى ليخبرنه لكي يتمكن من اطلاق سراحهم ٠ اما النساء اللواتي

---

(32) Lane-Poole, op. cit., 228.

فقدن بعولهن فيعوضن ماديا من خزينته ... ويعلق الاستاذ Lane-Poole على ذلك (فان لم يعلم عن صلاح الدين غير استيلائه على القدس ، فانها البرهان الكافي على انه اعظم فاتح ذي قلب رحيم في زمانه ولربما في كافة الازمان)[٣٣] . هذا وقد تلقى صلاح الدين رسالة تهنئة من الامبراطور البيزنطي اسحاق الثاني الجيلي بمناسبة ذلك الانتصار واقترح ايجاد تحالف بينهما ضد اللاتين[٣٤] .

لم يبق امام صلاح الدين من المعاقل الصليبية الهامة لدولة القدس غير الكرك وصفد وصور . اذ امر قواته بحصار صور في تشرين الاول سنة ١١٨٧ وكانت محكمة التحصين فلم يتمكنوا منها . فجمع صلاح قادته واستشارهم بالامر وكانت الاكثرية بجانب الاستراحة . لهذا امر في رأس السنة الجديدة سنة ١١٨٨ بانصراف القوات السورية والعراقية والمصرية التي لم تكن تحت قيادته المباشرة واحتفظ بفرقته الخاصة حيث توجه بها الى عكا .

يعتبر التراجع امام اسوار صور نقطة تحول في انتصارات صلاح وهي من الاخطاء العسكرية . حيث اصبحت تلك المدينة نقطة تجمع للفلول الصليبية ومركز انطلاقة صليبية استعادوا بها بعض المراكز على الساحل الفلسطيني ومن المشجعات على قيام الحملة الصليبية الثالثة . ومع ذلك فلم يكن صلاح مدركا آنذاك بتلك المخاطر التي تهدده من جانب صور . اذ قاد فرقته الى الجهات الشمالية فاستولى على الشقيف في ٥ كانون الثاني سنة ١١٨٩ وكانت بيد فرسان الاسبتارية . اما مناطق الجيوب الجنوبية فتولى امرها العادل حيث استولى على الكرك . ولم يتعرض صلاح لكل من امارتي طرابلس وانطاكيا لتجديد الهدنة بالنسبة لهما .

الفلول الصليبية تستجمع قواها :

بالرغم من الكارثة التي حلت بالصليبيين في معركة حطين وسقوط

(33) Ibid., 234.
(34) P. Newhall, The Crusades (N.Y., 1963) 64-65.

القدس وتهاوي اكثرية المعاقل الاخرى ، فان الفلول الصليبية كانت في نشاط مستمر لتجميع قواها • وشجعهم على ذلك صمود مدينة صور واستعادة لوسينان لمعنوياته وقيادة الفلول الصليبية حالما اطلق صلاح سراحه في تموز سنة ١١٨٨ بعدما كان محتجزا في دمشق نتيجة لتوسلات زوجته سبيلا • وقد اقسم لوسينان بأنه لا يحمل السلاح ضد صلاح الدين • وقد حنث بيمينه حالما وجد نفسه طليقا حسب القاعدة المتبعة في نكث العهود : بأن لا يمين يلزم الصليبي تجاه المسلمين[٣٥] • وقد التف حول راية سنان عدد من الفرسان والمتطوعين سار بهم نحو صور •

اعتقد لوسينان بصفته ملك القدس ان مدينة صور سوف تلقاه بالترحاب والذي حدث كان على النقيض من ذلك • اذ رفض حاكم المدينة كونراد فتح الابواب له معتبرا صور ملكا وهبه الله له[٣٦] • فاضطر لوسينان ان يبقى خارج الاسوار • وتهيأت له الفرصة حينما وصلت الاساطيل الصقلية الى هناك للاسهام في المعركة وانضم اليه البيزويين الذين كانوا في صور فأصبح لديه ٧٠٠ فارس و ٢٠٠ راجل • ثم وصلت نجدات من الدانمارك قدرت باثني عشر الف مقاتل ومن اماكن اوربية اخرى فبلغ مجموع ما لديه ٢١ الف مقاتل • وتعتبر تلك النجدات من طلائع الحملة الصليبية الثالثة • وقد سار لوسينان بتلك القوات نحو مدينة عكا •

حاول صلاح الدين الاجهاز على جيش لوسينان المحاصر لعكا والقضاء عليه نهائيا الا ان القادة طلبوا الاستراحة لخمسة عشر يوما بعد انتصارهم غير الحاسم على لوسينان • وهنا ارتكبت القيادة الاسلامية خطأ آخرا لا يقل عن خطأ رفع الحصار عن صور • اذ برهنت الاحداث على ان استراحة ٦ تشرين الاول سنة ١١٨٩ ادت الى مضاعفات خطيرة • اذ عملت التقلبات الجوية لفصل الشتاء على استطالة الراحة للجيش الاسلامي حتى الربيع مما مكن الصليبيين من تشديد الحصار على عكا •

---

(35) Cox, op. cit., 107.

الحملة الصليبية الثالثة :

ادى سقوط القدس الى قيام الحملة الصليبية الثالثة • وقد استجاب للدعوة كل من هنري الثاني ملك انكلترا ١١٥٤ — ١١٨٩ وفيليب اغسطس ملـك فرنسا ١١٨٠ — ١٢٢٣ وفردريك الاول امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة ١١٥٢ — ١١٠٠ الملقب فردريك بربروسا • وبالرغم من ان وليم ملك صقلية ساهم قبـل الكل في ارسال المساعدات العسكرية البحرية قبيل قيام الحملة ، وساهمت بالدفاع عن صور بقيادة الاميرال ماركريت الا ان وفاة وليم اسفرت عن تنافس حول العرش واضطرت القوات النورمندية الصقلية الى العودة لاوطانها • وعليه فقد تألفت الحملة الثالثة من ثلاث فرق رئيسية هي :

الفرقـة الالمانيـة :

قادها الامبراطور فردريك الاول عبر الطريق البري • وقد تأزمت الامور بين الالمان والبيزنطيين منـذ دخولهم الحدود • وذلـك لنفرة البيزنطيين من الحملات الصليبية المارة في بلادهم للذكريات المؤلمة التي خلفتها الحملتان الاولى والثانية • وكذلك لتحالف فردريك مع اعداء الامبراطورية من نورمنديين وصرب وبلغار • واعتقد الامبراطور اسحاق الثاني بأن هذه الاحلاف موجهة ضد الامبراطورية البيزنطية • لهـذا لجأ البيزنطيون لاتخاذ الاحتياطات اللازمة لدرىء المخاطر داخليا وتوثيق الروابط مع صلاح الدين •

اشتدت الخلافات بين اسحاق وفردريك عندما رفض الاخير تقديم الضمانات حول عدم قيام جيشه بالحاق الضرر في الامبراطورية طيلـة اقامته فيها • وهدد فردريك بالاستيلاء على القسطنطينية لما القت السلطات البيزنطية القبض على قسم من اتباعه • لهذا طلب فردريك من البابا كلمنت الثالث ١١٨٧ — ١١٩١ اعلان الحرب الصليبية ضد البيزنطيين • وقد شرع فردريك فعلا في احتلال مدينة ادريا نوبل • لذا استجاب البيزنطيون الى طلبه المتضمن تقديم المساعدات الغذائية والسفن الكافية لعبور جيشه

للجانب الآسيوي[٣٧] .

تعرض جيش الامبراطورية الرومانية المقدسة الى الدواهي الربد اثناء مسيرته في آسيا الصغرى . اذ مات الامبراطور فردريك الاول غرقا في نهر كاليكادنوس في جهات سلوقيا . ولا يعلم بالضبط كيف غرق الامبراطور[٣٨] . فلربما انه اراد الاستحمام فجرفه التيار او عثر به الجواد فانشمر في النهر . وعلى كل فقد ادركه جيشه فانتشل من النهر وهو جثة هامدة في ١٠ حزيران سنة ١١٩٠ . وكان للحادث تأثيرات معنوية سلبية في الجيش الالماني والاراضي المقدسة . فلم يكن بمقدر امير صوابيا فردريك بن الامبراطور ان يحل محل ابيه الراحل وبذلك فقدت القيادة المركزية لذلك الجيش . هذا بالاضافة الى ان اكثرية المحاربين اضطرت للتفرق نتيجة لوعورة الطريق وانتشار الاوبئة ، ولم يصل منه للاراضي المقدسة سوى عشر العدد الاصلي المقدر بعشرين الف تحت قيادة امير صوابيا . وقد خاب امل الصليبيين في استعادة القدس بواسطة الجيش الالماني الجبار الذي قلق منه المسلمون وقد اعتبر صلاح الدين موت الامبراطور وتمزق جيشه رحمة من الله .

كانت المراسلات مستمرة بين الامبراطور اسحاق الثاني وصلاح الدين حول تتبع اخبار مسيرة الحملة الالمانية . ففي احدى الرسائل التي استلمها صلاح الدين وهو في مرج عيون اشار الامبراطور :[٣٩]

> سافر الالمان في بلادي ... ولا عجب فان الاعداء يرجفون باشياء مكذوبة على قدر اغراضهم . ولو تشتهي ان تسمع الحق فانهم قد تأذوا وتعبوا كثيرا ... فلاحوا بلادك وقد خسروا كثيرا من المال والدواب والرجال ... وبالشدة قد تخلصوا من اجناد بلادي . وقد ضعفوا بحيث انهم لا يصلون الى بلادك . فان وصلوا كانوا ضعافا بعد شدة كبيرة . لا ينفعون جنسهم ولا يضرون نسبتك ... وبعد ذلك كيف نسيت ما بيني وبينك ؟ ... ما ربح ملكي من صحبتك الا عداوة الافرنج وجنسهم ...

(37) Setton, op. cit., 107-114.

(38) Runciman, op. cit., 11, 15.

(39) ابن شداد ، ١١٦ — ١١٧

الفرقة الفرنسية :

قادها فيليب اغسطس عبر الاراضي الايطالية حيث صقلية التي امضى فيها فصل الشتاء مع رشارد ملك انكلترا ، ثم غادرها رأسا الى عكا في ٣٠ مارث سنة ١١٩١ .

الفرقة الانكليزية :

بدأ الملك هنري الثاني بالاستعداد لهذه الحملة ماليا وعسكريا . اذ استحدث ضريبة خاصة لهذا الغرض اسماها ضريبة صلاح الدين تؤخذ من كافة المدخولات الشخصية بنسبة العشر . الا ان هنري لم يكتب له قيادة الحملة لوفاته سنة ١١٨٩ . فتولى القيادة ابنه رشارد الاول ١١٨٩ ــ ١١٩٩ . وكان هذا من شهيري فرسان اوربا عرف بجرأته ولقب بسببها بقلب الاسد . سار بحملته عند عبوره القنال الانكليزي في الاراضي الفرنسية حيث التقى مع فيليب اغسطس في مدينة Vezelay [٤٠] . وتم الاتفاق بينهما على اقتسام الغنائم مقدما بالتساوي . ثم واصل رشارد سيره نحو مرسيليه املا في وصول اسطوله . الا ان الاسطول الانكليزي اضطر للتأخر في جهات البرتغال لاشتراكه في قتال المسلمين هناك بالاتفاق مع ملك البرتغال . لهذا اتجه رشارد بفرقته نحو الاراضي الايطالية حيث جنوا ثم مسينا حيث استولى عليها نتيجة للمنازعات بين الجند الانكليزي والسكان فرفع عليها العلمان الانكليزي اولا ومن ثم الفرنسي لالحاح فيليب اغسطس وحسب اتفاق فيزلاي .

حدثت في صقلية حوادث هامة اثناء اقامة رشارد وفيليب فيها اثناء فصل الشتاء ، كانت لها تأثيرات بعيدة المدى في مصير العلاقات بين انكلترا من جهة وصقلية والامبراطورية الرومانية المقدسة وفرنسا من جهة اخرى . واساس المشكل وراثة العرش الصقلي . اذ تولى ذلك العرش تانكريد على اثر وفاة وليم الثاني ١١٦٦ ــ ١١٨٩ فلم يعترف له رشارد بذلك لانه اعتبر نفسه احق به منه لان اخت رشارد هي زوجة الملك وليم . واخيرا اضطر رشارد ان يتغاضى عن الموضوع بعد اشتراطه على تانكريد تأدية

---

(40) Setton, op. cit., 60.

اربعين الف مثقال من الذهب • وتعهد رشارد لقاء ذلك ان يحارب بجانب تانكريد ضد اي خطر يتعرض له [٤١] • وادى ذلك التحالف الى اثارة هنري السادس امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة الذي تولى العرش عند غرق والده في آسيا الصغرى ، اذ اعتبر هنري نفسه وريث العرش الصقلي لا سيما انه زوج بنت وليم الثاني •

اما علاقاته مع فيليب اغسطس فعلى العموم اتسمت بالطابع السلبي نظرا للعداوات المتوارثة حول الاملاك الانكليزية في فرنسا وكذلك لاعتراض رشارد على وجود احد خصومه في الحملة الا وهو وليم بار • وكان هذا من المقربين الى الملك الفرنسي • وقد اضطر رشارد الى سحب اعتراضه بعد مفاوضات طويلة • والخلاف الآخر مع فيليب كان حول موضوع زواج • اذ كان المفروض ان يتزوج رشارد خطيبته الس اخت الملك فيليب ، الا انه عدل عن ذلك وخطب بنت سانكو السادس ملك نافار الاسباني • كما اختلف الملكان ايضا على اثر ادعاء فيليب بنصف المبلغ الذي استلمه رشارد من تانكريد كثمن تنازله عن الادعاء بالعرش الصقلي• واستند فيليب لدعم حجته على اتفاقية فيزلاي السابقة • وبالرغم من استغراب رشارد لذلك الادعاء ومما نعته الا انه اضطر على اقتسام المبلغ مع ملك فرنسا •

قد اتخذت القيادتان الانكليزية والفرنسية اجراءات موحدة في صقلية تخص الحملة منها : اذا توفي صليبي اثناء الطريق فيحق له ان يوصي بنصف المبلغ الذي لديه للمؤسسات الدينية في الاراضي المقدسة ويستعمل النصف الآخر للاغراض العسكرية الصليبية • ثم حددت شروط لعب القمار بحيث لا يسمح بها لغير الفرسان والموظفين على شرط ان لا تتجاوز الخسارة في اليوم الواحد عن العشرين شلنا ، اما الملوك والامراء فيحق لهم المقامرة حسبما ارادوا ، ولكن لا يجوز للفقراء المقامرة بتاتا • ثم ثبتوا الارباح التي تؤخذ على المواد الغذائية وغيرها بنسبة لا تتجاوز العشرة بالمائة[٤٢] •

(41) Ibid , 59.
(42) Ibid., 60-61.

غادر رشارد صقلية في ٢٠ نيسان سنة ١١٩١ متوجها نحو الاراضي المقدسة • الا انه وثب علـى جزيرة قبرص في شهر مايس سنة ١١٩١ فاستولى عليها بحجة ان حاكمها قد اسر احدى سفنه التي جنحت الـى الشاطـىء بسبب العواصف وكـانت السفينة تحمـل خزينته وامـه وخطيبته(٤٣) • ومع ان جزيرة قبرص مستقلة من ناحية واقعية الا انها من ناحية نظرية تابعة للامبراطورية البيزنطية ، وقد اثار استيلاء رشارد عليها امتعاض الاوساط السياسية البيزنطية •

نتائج الحملة الصليبية الثالثة :

بالرغم من الكوارث التي تعرضت لها الفرقة الالمانية في آسيـا الصغرى فقد اسفرت الحملة الثالثة بمجموعها عن عدة نتائج هامة منها : سقوط عكا والتي كانت تحاصرها قوات لوسينان منذ مارت سنة ١١٨٩ • وقد اخذ الهجوم على عكا يزداد ضراوة عند وصول كـل مـن فيليب اغسطس في نيسان سنة ١١٩١ ورشارد في حزيران سنة ١١٩١ • ولم يتمكن صلاح الدين من انجاد المدينة المحاصرة التي اضطرت الى الاستسلام في تموز سنة ١١٩١ • وقد عمد رشارد الى ذبح ثلاثة آلاف مـن السكان الاسرى لتأخرهم عن دفع الفديات في الوقت المحدد لها •

وقد ادى سقوط عكا الى تجدد النزاع بين رشارد وفيليب خاصة عندما ايد الاول استمرار حكم لوسينان للمملكة الصليبية بينما ايد الثاني ادعاء كونراد امير امارة صور* • واخيرا تم الاتفاق بينهما على ان يحكم الملك السابق مدة حياته فقط وان ينتقل العرش فيما بعد الى امير صور • هذا ولم يجد ملك فرنسا فائدة من بقائه لمدة اطول في الاراضي المقدسة فقرر الرجوع لبلاده في نهاية تموز سنة ١١٩١ معتذرا بحالته الصحية •

لقد اوجد رشارد لنفسه عدوا اوربيا آخرا في الاراضي المقدسة • الا وهو امير النمسا ليوبولد التابع للامبراطور هنري السادس • والحقيقة ان العلاقات بين رشارد والامبراطورية الرومانية قد ساءت منذ وجوده في

(43) D. Alastos, Syprus in History (London, 1955) 142-50.

* اغتيل كونراد امير صور سنة ١١٩٢.

صقلية فاصبحت مواقفه سلبية تجاه الامراء التابعين لها . ومما عقد الامر بين الامير النمساوي ورشارد الاهانات التي ألحقها رشارد بأمير النمسا في مناسبتين في الاراضي المقدسة الاولى(٤٤) : كانت تحت اسوار عكا حينما شاهد الراية النمساوية مركزة في موقع يتقدم مواقعه ولم يكن لقائد مثل رشارد له جرأة قلب الاسد ان يتسامح مع راية تتقدم رايته فما كان منه الا ورفس العلم النمساوي وألقاه في الخندق وبذلك ألحق اهانة كبرى لشرف الامير ليوبولد وفرسانه . اما الثانية فكانت في محاولة رشارد اعادة بناء تحصينات مدينة عسقلان . اذ طلب من الامير النمساوي ان يشترك في البناء . فرفض الاخير بكل كبرياء وصاح في وجهه ماذا تحسبني انجار انا ام عامل بناء ؟ ! وقد كلفت الاهانتان رشارد غاليا فيما بعد .

لقد فتح رشارد صفحة جديدة في تاريخ قبرص بالنسبة لعلاقاتها مع الصليبيين والمسلمين . اذ تم الاتفاق بين رشارد ولوسينان ان يكون الاخير ملكا عليها مقابل تنازله عن عرش المملكة الصليبية الى هنري شامبان وهو ابن اخت رشارد ودفعه مبلغ من المال . هذا مع العلم ان الجزيرة لم تسلم الى لوسينان مباشرة . اذ سبق وان باعها رشارد في بادىء الامر الى فرسان المعبد بما يعادل مائة الف دينار ، دفعوا منها مقدما ستين الفا ثم تعهدوا بدفع الباقي . الا ان الفرسان رفضوا الصفقة التجارية بعد قيام ثورة ضدهم في الجزيرة سنة ١١٩٢ جعلتهم يفضلون البقاء في الاراضي المقدسة . وتغلب رشارد على الازمة باسناد الجزيرة الى لوسينان بعد ان يسدد للفرسان الستين الف دينار . واستمرت قبرص تلعب دورا هاما في المشرق الاسلامي منذ ذلك التاريخ حتى القرن الخامس عشر .

ومن جملة نتائج الحملة الثالثة وضع نواة لفرقة فرسان عسكرية جديدة في الاراضي المقدسة . اذ صير بعض اصحاب السفن الالمانية اثناء حصار عكا من اشرعة سفنهم خياما لمعالجة المرضى والجرحى فتوسعوا في عملياتهم ، ثم تحولت مؤسسة التمريض الى فرقة عسكرية دينية بعد ان اجيزت رسميا من قبل البابوية سنة ١١٩٩ تحت اسم فرقة الفرسان

---

(44) Cox, op. cit.

التيوتونية[٤٥] Knight of The Tuetonic Order التـــي أستمرت بمزاولة نشاطها في الاراضي المقدسة حتى سنة ١٢٩١ ، وقد خدمت الفرقة مصالح عصبة المدن الهانسية التجارية الالمانية ، ثم حولت نشاطها لخدمة الطبقات الارستقراطية الالمانية الاقطاعية فيما بعد بحملاتها الابادية على شعوب اوربـا الشمالية الشرقية وخاصة القبائل البروسية تحت ستـار تنصير الوثنيين[٤٦] ٠

صلـح الرملـة :

ولعل من اخطر نتائج الحملة الثالثة هو صلح الرملة الذي حققه رشارد بعد معارك ومفاوضات ، اذ اصبح رشارد الزعيم الاوحد عنـد رجوع فيليب اغسطس لبلاده ، وقد تمكن رشارد من استعادة حيفـا وقيصرية واحرز نصرا على القوات الاسلامية في معركة ارسوف ، واضطر صلاح الدين لاتخاذ خطة دفاعية اثر موقعة ارسوف هدفت الى اخـلاء السواحل بما فيها عسقلان وتركيز الدفاع عـن المدن الداخلية خاصة القدس ٠

لقد كان رشارد يواصل مفاوضاته مع الجانب الاسلامي في نفس الوقت الذي كانت فيه غاراته تترى على القرى والمراكز الاسلامية ، وكأنه اراد تحقيق الصلح عن طريق القوة ، وعلى كل فان صلح الرملة حصيلة سلسلة من المفاوضات المتقطعة بين رشارد والعادل نيابة عن اخيه صلاح اذ قـدم رشارد في البداية اقتراحا متطرفة اثـارت سخط العادل اذ (اقترح ان يترك صلاح البلاد وينسحب الى بلاده)[٤٧] اي اعادة الاوضاع الى ما كانت عليه قبـل سنة ١١٨٥ ، وحاول ان يحقق ذلك عـن طريق المصاهرة مع الاسرة الايوبية ، اذ اقترح تزويج العادل من الاميرة جوانا اخت رشارد ، وهدف بذلك لايجاد حل وسط بين المسلمين والصليبيين في الاراضي المقدسة بأن يكون الحكم مشاركة ، لقد دون العادل خلاصة

---

(45) F. Heer, The Medeival world, 1100-13500, trans. by Sandheimer (N.Y., 1963) 132.

(46) Ibid., 93-94.

(47) ابن شداد ، المصدر السابق ، ١٧٤

هذه المفاوضات برسالة حملها الى صلاح الدين المؤرخ ابن شداد ٠ وقد تظاهر صلاح بالموافقة ٠ وحسب رأي ابن شداد لاعتقاده باستحالة تحقيق التسوية بهذا الشكل وان ذلك مجرد مكر من رشارد وهزل ٠

ويستمر ابن شداد في روايتة بقوله : لقد صدق ظن صلاح الدين ٠ اذ عارض في الزواج رجال الدين الا بعد اعتناق العادل للمسيحية ، كما ان الاميرة جوانا احتجت على تصرفات اخيها بشدة حيث (انكرت عليه ذلك انكارا عظيما وحلفت بدينها ٠٠٠ انها لا تفعل ذلك ٠٠٠) لهذا كتب للعادل (ان معاشر النصرانية قد انكروا علي وضع اختي تحت مسلم بدون مشاورة البابا ٠٠٠ وها انا اسير له رسولا يعود في ستة اشهر ، فان اذن فيها ، ونعمت والا زوجتك ابنة اخي وما احتاج اذنه في ذلك)[٤٨] ٠

وبالرغم من ان مشروع رشارد في حل المشكلة الفلسطينية عن طريق المصاهرة لم يكتب له النجاح فان امر الزواج من هذا النوع لم يكن من استحداثات رشارد ولا بالامر المستغرب ٠ فسياسة المصاهرة بين الاسر الحاكمة والمتنفذة ظلت سياسة تقليدية للتغلب على المشاكل في مختلف ارجاء العالم حتى العصور الحديثة بصرف النظر عن الاختلافات الدينية والقومية ٠ وهناك العديد من الامثلة : فقد تزوج الملك كلوفس ٤٨١ ــ ٥١١ ملك الفرنجة قبل اعتناقه المسيحية اميرة برغندية مسيحية وكذلك تزوج الملك الانكليزي اثلبرت ملك (كنت) ٥٦٠ ــ ٦١٦ اميرة مسيحية قبل ان يتنصر ٠ ثم كانت الى هولاكو زوجته المفضلة دقوز خان وهي مسيحية نسطورية بالرغم من انه وثني ٠ ثم زوج ميخائيل الثامن الامبراطور البيزنطي ١٢٥٩ ــ ١٢٨٢ احد بناته الى ابقا بن هولاكو ٠ وزوج الامبراطور البيزنطي كنتاكوسين بنتــه الــى السلطان العثماني اورخان ١٣٢٦ ــ ١٣٦٠ ٠

وعلى كل فقد كان الصلح محببا للجانبين بصرف النظر عن بواعثه العاطفية والعسكرية وتطورات الاحوال في معسكري رشارد وصــلاح الدين والضرورات التي استدعت للاسراع به ٠ فقد اختتمت مفاوضات

---

(48) ابن شداد ، ١٨٩ ــ ١٩٥

رشارد وصلاح الدين برسالة رقيقة من قبل رشارد نالت استحسان صلاح الدين حسبما ذكرها ابن شداد : (احب صداقتك ومودتك ... ولا بد ان يكون لنا علقة بالقدس ... بحيث لا يكون عليك لوم من المسلمين ولا علي لوم من الافرنجية) . فأجاب في الحال بوعد جميل ... وتأثر بذلك تأثرا عظيما . واهم ما جاء في اتفاق الرملة في ٢ ايلول سنة ١١٩٢ : ان تكون المنطقة الساحلية الممتدة بين صور ويافا تابعة للمملكة الصليبية ، وان تبقى المناطق الداخلية بيد المسلمين على ان تكون الرملة واللد مناصفة بينهما ، ويحتفظ المسلمون بالقدس على ان يسمح للحجاج المسيحيين بدخولها بحرية ، ابقاء مدينة عسقلان حيادية ، ثم حددت الهدنة بثلاث سنوات وثلاثة اشهر وعشرة ايام . وقد رحب المسلمون والصليبيون على حد سواء بالصلح (فكان يوما مشهودا)[٤٩] .

عودة رشارد الى بلاده :

غادر رشارد عكا في ٩ تشرين الاول سنة ١١٩٢ ناويا العودة الى بلاده . الا انه تحطمت سفينته في جهات الادرياتيك بسبب العواصف فراح يشق طريقه برا في الجهات الايطالية والنمساوية متنكرا مع بضعة انفار . وقد وقع في جهات النمسا في قبضة الامير ليوبولد الذي سبق وان مرغ رايته تحت اسوار عكا بالاوحال . فسلمه بدوره الى الامبراطور هنري السادس الذي احاله الى المجلس الامبراطي الاعلى الدايت Diet ليحكم في امره بعد ان احتجزه لاربعة اشهر في احدى قلاع التيرول . وقررت المحكمة العليا الافراج عنه بعد ان يفتدي نفسه . وقد اضطر الامير جون وهو اخو رشارد وولي عهده ان يدفع للامبراطور هنري السادس ٢٠ الف جنيه عن كل شهر يمضيه رشارد في الاسر . وقد رأى هنري السادس في رشارد مصدرا مربحا فأراد اطالة المدة لولا تدخل الامراء الالمان الذين استفزتهم اطماع الامبراطور فأشاروا عليه باطلاق سراحه[٥٠] .

---

(49) ابن شداد ، ١٩٦.

(50) Cox, op. cit., 132-33.

وفاة صلاح وتقسيم دولته :

لقد امضى صلاح الدين السنة الاخيرة من حياته متفقدا المواقع الاسلامية ومراقبا تحركات الصليبيين من جهات انطاكية بصورة خاصة الى ان توفي في اليوم الرابع من شهر مارس سنة ١١٩٣ في دمشق وترك من الاولاد سبعة عشر ذكرا وبنتا واحدة صغيرة .

وانقسمت الدولة الايوبية عند وفاة المؤسس الى عدة اجزاء بين الورثاء هي : امارة دمشق التي اشتملت على حمص وبعلبك وبانياس والقدس حكمها الافضل وهو الابن الاكبر لصلاح الدين ١١٩٣ ــ ١١٩٦ ، ومصر كانت من نصيب العزيز عثمان ١١٩٣ ــ ١١٩٨ ، وعهد بامارة حلب الى الظاهر غازي ١١٠٣ ــ ١٢١٥ ، اما ديار بكر فحكمها العادل سيف الدين . ونشبت الحروب بين العزيز عثمان والافضل فاستنجد الاخير بعمه العادل . وقد لعب هذا دورا ملتويا بين الاخوين وتمكن بدهائه من عزل الافضل وضم امارة دمشق الى املاكه . كما تمكن بنفس الاساليب من الاستيلاء على مصر . وبذلك اصبح العادل يحتل مكانة اخيه صلاح الدين في حكم الدولة الايوبية ١٢٠٠ ــ ١٢١٨ .

الفصل السابع

القسم الاول

الحملات الصليبية في النصف الأول من القرن الثالث عشر

الاوضاع العامة في مملكة القدس ١١٩٢ ــ ١٢٢٥
الحملة الرابعة : البابا انوسنت الثالث ، تشكيل الحملة ، اشتراك البنادقة ودورهم ــ الاستيلاء على زارا ، الابحار نحو القسطنطينية ، اعادة الكسيوس الرابع ، الوثوب على القسطنطينية والاستيلاء على الامبراطورية البيزنطية ــ موقف البابوية .
الحملة الخامسة : الفرق الصبيانية والحملة النظامية .

المملكة الصليبية ١١٩٢ ــ ١٢٢٥ :

لعل من أهم الاحداث التي تمخضت عنها الحملة الصليبية الثالثة احتفاظ الصليبيين بالاجزاء الساحلية وجعلهم العاصمة الجديدة في مدينة عكا ، لهذا يفضل بعض المؤرخين تسمية هذه المملكة الصليبية التي تمركزت حول عكا بالمملكة الصليبية الثانية[1] .

واجه الملك هنري شامبان ١١٩٢ ــ ١١٩٧ مشكلتين هامتين همـا

(1) S. Runciman, A History of the crusades, the Kingdom of Acre (Cambridge, 1955).

اولا : محاولة لوسينان ملك قبرص استعادة عرشه الصليبي في الاراضي المقدسة ، وثانيا : مشكلة الفرقة الصليبية الالمانية • اما بالنسبة للنقطة الاولى : فقد حاول كوي لوسينان ان يستعيد العرش بالاستعانة بصلاح الدين ، ولم تسفر مفاوضاته عن نتائج ايجابية في هذا الشأن سنة ١١٩٣ • لهذا تحالف مع جمهورية بيزا الايطالية مقابل وعدها بامتيازات تجارية واسعة في الاراضي المقدسة عند انتهاء المهمة[٢] • وفعلا حاولت اساطيل جمهورية بيزا الاستيلاء على مدينة صور ولم تتمكن منها، ولم تسفر ايضا هجماته الاخرى على السواحل عن انتصارات هامة • لهذا اضطر هنري شامبان الى تجريد تجار بيزا من امتيازاتهم واجلائهم عن منطقة نفوذه • ولم تنته المشكلة بين قبرص وعكا الا بعد وفاة لوسينان سنة ١١٩٤ واعتلاء اخيه اماريك العرش القبرصي • اذ اتبع هذا سياسة معتدلة تجاه مملكة عكا استمالت الامراء هناك وخاصةعند وفاة هنري شامبان سنة ١١٩٧ التي تسببت عن سقوطه من اعلى القلعة في عكا تاركا البلاد في عهدة ارملته ايزابيلا • لهذا اقترح عليها الامراء ورئيس فرقة فرسان المعبد الزواج من اماريك فوافقت على ذلك فحكم اماريك الثاني عرشي عكا وقبرص[٣]• وبذلك امنت الاراضي المقدسة الغارات القبرصية •

اما بالنسبة للمشكلة الثانية : فقد وفد الصليبيون الالمان على الاراضي المقدسة منذ سنة ١١٩٦ كمقدمة للحملة الالمانية التي كان ينوي الامبراطور هنري السادس ١١٩٠ ـــ ١١٩٧ القيام بها • ولم تكن لهذه الجموع قيادة موحدة ، بل انها تألفت من زمر متفرقة دأبت على مهاجمة المدن الصليبية والاسلامية على حد سواء • وقد حاول الملك هنري عبثا وضع حد لتعدياتها التي كدرت علاقاتهم اثناء السلم مع المسلمين والتي كان يحرص الاحتفاظ بها • وادت استفزازاتهم الى استئناف العادل لحرب شاملة اسفرت عن استعادته يافا التي بقيت بيد المسلمين حتى سنة ١٢٠٤ • وقد تم زوال خطر الزمر الجرمانية عند مغادرتها الاراضي

(2) Ibid., 83-84.
(3) S. Cox, The Crusades (N.Y., 1910) 139.

المقدسة لسماعها بوفاة الامبراطور هنري السادس سنة ١١٩٧[٤] •

أماليك الثاني ١١٩٧ ـ ١٢٠٥ :

توحد في عهده عرشا قبرص والمملكة الصليبية لاول مرة وكان هذا يدين بالتبعية النظرية لامبراطور ـ الامبراطورية الرومانية المقدسة هنري السادس بناءا على رغبته الشخصية تلافيا لما قد يحمله الغد من تطورات فيما لو نجح هنري السادس في تحقيق مشروعه الرامي الى فرض نفسه امبراطورا على الشرق المسيحي ايضا •

وقد تمكن اماليك الثاني من استعادة بيروت من ايدي المسلمين اول سنة من حكمه • وقد سهلت بيروت عملية الاتصالات البحرية بين قبرص والسواحل السورية ، وادت الهيمنة عليه على تقوية السيطرة الصليبية على الساحل السوري • وقد اضطر العادل الى تجديد صلح الرملة مع اماليك الثاني سنة ١١٩٨ مع احتفاظ المسلمين والصليبيين بالمواقع التي احتلها كل منهم بعد سنة ١١٩٣ • ثم قسمت مدينة صيدا بين الطرفين وان تكون الهدنة لثلاث سنوات •

هذا وقد توفي اماليك الثاني تاركا بنته ماري كوريثة للعرش ١٢٠٥ ـ ١٢١٠ •

جون بريان ١٢١٠ ـ ١٢٢٥ :

وهو امير فرنسي اختاره فيليب اغسطس ملك فرنسا زوجا الى ماري بناءا على وساطة امراء المملكة الصليبية وجريا وراء تقاليد المملكة في هذا الشأن • واصبح جون بريان بحكم الزواج ملكا على الاراضي المقدسة• ولم يكن بمقدوره منازلة العادل لهذا كتب الى البابا انوسنت الثالث طالبا المساعدات العسكرية ومشبها المملكة الصليبية انها مجرد شبح هزيل[٥] •

---

(4) Setton, wolffe and Hazard, A History of The Crusades Vol. II (Phila., 1962) 529.

(5) Cox, op. cit., 178.

دور البابا انوسنت الثالث ١١٩٨ ـ ١٢١٦ :

يعتبر هذا من عظماء البابوات الذين اعتلوا الكرسي البابوي ، اذ حاول ان يجعل من نظرية التفوق الروحاني لكنيسة روما حقيقة واقعة في المجالين السياسي والديني ، حيث تمكن من فرض مهابته على ملوك اوربا واباطرتها باساليب عسكرية وسلمية ، ولعب دورا هاما في النزاع حول عرش الامبراطورية الرومانية المقدسة ، واصبح حاميا لعرش فردريك الثاني مقابل تأكيد حق البابوية في تبعية صقلية لها ، وتمكن من الانتصار على الامبراطور اوتو الرابع وحليفه جون ملك انكلترا باعتماده على قوات فيلب اغسطس ، اذ هدد هذا بغزو انكلترا حيث اضطر الملك الانكليزي ان يعلن ندمه وتبعيته الى البابا سنة ١٢١٤ ، كما اكد انوسنت الثالث حق البابوية في تبعية المملكة الصليبية لكنيسة روما ،

اما بالنسبة للمجال الديني فتوضحت سياسته في جملة امور منها : التأكيد على رسالة كنيسة روما العالمية ، فالح على الامبراطور الكسيوس الثالث بان يسارع بالموافقة على اتحاد الكنيستين ، ثم العمل على تنقية العقيدة المسيحية بمكافحة البدع ، وادت سياسته في هذا المضمار الى التوسع في معنى الحروب الصليبية ، فلم تعد في زمانه مقتصرة على محاربة المسلمين فقط ، وانما شملت كافة الحروب التي يأمر بها أكانت موجهة ضد البدع المسيحية او ضد غير المسيحيين ، ولعل من ابرز الامثلة على ذلك الحروب الصليبية التي اعلنها ضد الفرقة الدينية الالبجنسية في الاقسام الجنوبية من فرنسا[٦] ،

اراد انوسنت الثالث ان يمثل نفس الادوار التي قام بها البابا اوربان الثاني في الحرب الصليبية الاولى ، وقد اصدر اولى مراسيمه في هذا الشأن سنة ١١٩٨ موجها اياه الى كافة رؤساء الاساقفة وحكومات المدن وامراء الاقطاع ، وحث في ذلك المرسوم على ضرورة الامتناع عن الحروب الاهلية والاستعداد للمساهمة ماديا وعسكريا ثم حدد في ذلك

(6) That Cher and McNeal, source Book for Mediaval History (N.Y., 1905) 209.

المرسوم تاريخ الشروع بالسفر[٧] الا وهو شهر مارس سنة ١١٩٨ ٠

حاول البابا اقصى الجهد لاظهار مشروعه الى حيز التنفيذ ٠ اذ اوفد نائبين عنه للاراضي المقدسة لتقديم تقرير عن الحالة هناك وللقيام باتخاذ الترتيبات اللازمة لاستقبال الحملة ٠ ثم خطا خطوتين للتعجيل بالمشروع الاو ل: تهيئة الموارد المالية ٠ اذ فرض ضرائب جديدة على موارد رجال الدين الماليـ ة ٠وبدأ فعلا بموارده الخاصة وموارد الكرادلة فقرر ان يستقطع منها العشر ، اما بالنسبة للاساقفة والقساوسة فسيقتطع واحد من اربعين من مجموع المدخولات ، اما الفرق الديرية فيجب ان تساهم بواحد من خمسين من وارداتها ٠ والثانية : تحريك الجماهير عاطفيا عـن طريق الوعظ ٠ ولعـل من اشهر الدعـاة في هذا الشـأن همـا Fulk of Neuilly في الاراضي الفرنسيـة والراهب مـارتن في الجهات الالمـانية ٠

وبالرغم من الخطوات التي اتخذها انوسنت الثالث فلم يتمكن من تشكيل الحملة في وقتها المقرر لعدم استجابة رشارد ملك الانكليز وفيلب اغسطس ملك فرنسا ٠ فقد سخر الاول من فكرة الاسهام في الحملة عندما راح الواعظ فولك نويي يمطره بوابل وعظه ٠ اذ قال رشارد له : اني وهبت للملكة الصليبية اعز ما املك من بنات ثلاث الا وهن : الغرور الى الى الفرسان والطمع للرهبان والجشع لسائر رجال الدين ٠ ومع ذلك فقد اقترح رشارد ان توجه الضربة الى القاعدة الايوبية في مصر[٨] ٠ اما فيلب اغسطس فقال : انه شارك بما فيه الكفاية في الحملة الصليبية الثالثة ٠ اما الامبراطورية الرومانية المقدسة فكانت تعصف بها الحروب الاهلية انذاك وقد كان البابا فيها طرفـا من الاطراف ٠ ومع ذلك فقد استجاب قسم من الامراء في فرنسا للنداء البابوي وغايتهم بالدرجة الاولى الابتعاد عن سلطة فيلب التعسفية والحصول على مغانم في الشرق٠

---

(7) G. Villeharduin, La Conquête de Constantinople (ed. Faral) Vol. I (Paris, 1939) 2-6.

(8) G. Camhrensis, Itenerary Through wales and Discription of wales, Vol. I (Everyman Lib.) 3.

تشكيل الحملة ودور البنادقة :

ساهم عدة امراء في الحملة الرابعة ولعل ابرزهم تبالد اوف شامبان Tibald of Champagne الذي رشح في البداية لقيادة الحملة ومعه المؤرخان فيلهاردوين وجوانفيل ثم امير فلاندر بلدوين التاسع وبونيفس Boniface of Montferrat الامير الايطالي ووليم شامبليت William of Champelette

صادفت الحملة جملة عراقيل منذ البداية • فقد توفي الامير تيبالد قبل التجمع فاضطر القادة الى انتخاب بونيفس الذي لا يرتاح اليه البابا انوسنت الثالث نظرا لموالاته اتو الرابع المناهض للبابوية • ثم هناك موضوع الطريق الذي يجب ان يسلك للاراضي المقدسة • فقد رفض القادة مقدما فكرة اتباع الطريق البري لعدم اطمئنانهم للبيزنطيين • لهذا وافقوا على اقتراح الطريق البحري • وهنا ظهرت مشكلة كيفية ايجاد السفن وشروط توفيرها • لهذا راحوا يفاوضون البنادقة حول الموضوع • وقد توصلوا الى اتفاق مبدئي في شهر ابريل سنة ١٢٠١ مؤداه ان يستلم البنادقة ٩٤ الف مارك لقاءتعهدهم بنقل ٤٥ الف فارس و ٢٩ الف من المشاة بكامل معداتهم وتجهيزهم بالطعام والعلف لمدة ستة اشهر وان يكون للبنادقة نصف الغنائم المقبلة وان تجهيزهم بخمسين سفينة اضافية(٩) •

بدأ الصليبيون بالتجمع في جهات البندقية منذ اوائل صيف سنة ١٢٠٢ ومكثوا هناك لاربعة اشهر وهم في حيرة من امرهم • اذ ان القادة لم يتمكنوا من جمع نصف المبلغ المطلوب لاستئجار السفن من البنادقة • وهنا بدأت الحملة الرابعة تقع تدريجيا في شراك البنادقة • اذ انفق رئيس حكومة البندقية والقائد بونيفس على تأجيل استيفاء المبلغ المطلوب لقاء قيام الحملة بمساعدة البنادقة باحتلال مدينة زارا التي استولى عليها المجريون سنة ١١٨٦ • وكانت زارا من الموانىء الحيوية للتجارة الفينيسية • وهكذا تمكن الرئيس البندقي داندولو منذ البداية من ان

(9) Villeharduin, op. cit., 40-44.

يحرف الحملة عن هدفها الصليبي وان يسخر طاقاتها لخدمة المصالح الاقتصادية لجمهوريته • لهذا قررت حكومة البنادقة الاشتراك رسميا في الحملة في ايلول سنة ١٢٠٢ • وبالرغم من ان حكومة البندقية قد صادقت على ذلك الاتفاق الا انها لم تكن راغبة في اساءة العلاقات مع العادل الايوبي سلطان مصر وسورية • لهذا اوعزت الى ممثلها في القاهرة ان يؤكد للعادل بأن البندقية لا توافق على أي مشروع عدائي يوجه ضد دولته • وقد عقد اتفاق تجاري ايضا لقاء ذلك بين الطرفين[١٠] سنة ١٢٠٢ •

لقد سلمت قيادة الاساطيل الى داندولو بعد خطاب عام القاه في كنيسة القديس مارك في البندقية جاء فيه[١١] :

ايها القادة !... جئتم اليوم .. لمعالجة اخطر مهمة عرفها البشر ... ان امامكم رجل تقادم عمره وهزل جسمه واني اراني محتاجا للهدوء والراحة . الا ان الواجب يدعوني ان استمر لاني لم اجد احدا ينهض بالمسؤولية غيري • اني ذاهب الى الحياة او الموت معكم فيما اذا وافقتم على قيادتي وارشادي لكم . فرجاه الجميع ان يفعل .

لقد اظهر داندولو براعة عاطفية في ذلك الخطاب وبدا وكأنه الحمل الوديع • وتأثر الناس بلهجته وهيأته لتقادم عمره وركاكة بصره التي تسببت نتيجة لتعرضه لانتقام سياسي من قبل السلطات البيزنطية حينما كان ممثلا بلاده هناك في عهد الامبراطور مانويل ١١٤٣ ــ ١١٨٠ •

لقد استولت الحملة الرابعة على ميناء زارا في ٢٥ كانون اول سنة ١٢٠٢ بعد حصار خمسة ايام • فامضى فيها القادة فصل الشتاء وتدارسوا خلاله مخططهم المقبل • وقد اثار عملهم هذا احتجاج البابا انوسنت الثالث فاصدر قرار التحريم ضد المشتركين في الحملة كافة غير انه اقتنع ببراءة الاكثرية فاقتصر القرار على البنادقة • هذا مع العلم ان المبعوث البابوي الذي حمل القرار لم يعلنه للملأ عند وصوله زارا لهـذا راح

---

(10) Ibid., XVII.

(11) Ibid., II, 18-39.

داندولو يعد العدة لمغامرة في الامبراطورية البيزنطية[١٢].

الابحار نحو القسطنطينية :

لقد كان الاعتقاد السائد في الغرب ان السياسات السلبية التي انتهجتها الحكومة البيزنطية تجاه الصليبيين منذ البداية السبب الرئيسي في الكوارث التي اصابت الحملات الصليبية وفتت في عضد دولة القدس . هذا بالاضافة الى الاخلاف المذهبي بين الغرب اللاتيني والشرق الارثودوكسي الذي عمق الهوة بين الطرفين . وقد استفادت جمهورية البندقية من هذا الشعور العدائي المتبادل فراحت تحوله لخدمة مصالحها الخاصة على حساب الامبراطورية البيزنطية .

هذا وقد ادت الفوضى التي انتابت مؤسسة العرش الامبراطوري في القسطنطينية الى تقديم فرصة نادرة للبنادقة والصليبيين في الاجهاز على الامبراطورية تمت في مرحلتين : الاولى عن طريق مساعدتهم الكسيوس بن اسحاق الذي اطاح بعرش والده عمه المسمى الكسيوس الثالث ١١٩٥ ولم يكتف الاخير بذلك بل عمد الى تسميل عيني اسحاق واحتجازه . ففر ابنه الكسيوس الى اوربا حيث التجأ عند نسيبه الالماني امير صوابيا الذي فاوض عنه بصورة غير مباشرة قادة الحملة الصليبية في زارا في تقديم المساعدة العسكرية لالكسيوس لاستعادة عرش والده[١٣]. وقد رأى داندولو في ذلك المشروع فاتحة لتحقيق مخططه وراى فيه القادة مصلحة مادية ودينية . وقد وافق الصليبيون على تقديم مساعداتهم العسكرية لقاء اتفاق صادق عليه الكسيوس تضمن : ان يتعهد الكسيوس تقديم ٢٠٠ الف مارك تقسم بالتساوي بين البنادقة والصليبيين عند استعادة العرش ، وتزويد الحملة بالمواد الغذائية لمدة سنة ، والتعهد باتحاد الكنيستين ، واعداد حملة صليبية تتألف من عشرة الاف مقاتل من اجل الاسهام في استعادة القدس[١٤].

---

(12) Setton, op. cit., II, 175.

(13) A. Vasiliev, History of The Byzantine Empire, Vol. II (Madison, 1964) 455.

(14) Villeharduin, op. cit., I, 90-100.

هل كان البابا على علم بتلك المفاوضات ؟ نعم كان البابا على علم باستنجاد الكسيوس بالصليبيين وبالاتفاق ايضا • ولم يكن البابا كارها لذلك المشروع حيث رأى فيه مصلحة تحقق وحدة العالم المسيحي من ناحية روحانية وتخدم السبب الصليبي(١٥) • ومع ذلك فقد حذر الحملة من مهاجمة المسيحيين البيزنطيين الا اذا اسهموا فعليا في اعاقة الحرب المقدسة •

ابحرت الحملة من زارا سنة ١٢٠٣ نحو القسطنطينية تحمل معها الكسيوس • وبعد مناوشات عسكرية لبضعة اسابيع فضل الامبراطور الكسيوس الثالث الانهزام خلسة من اسوار القسطنطينية • ولهذا قرر قادة البيزنطيين اعادة اسحاق الى العرش واشراك ابنه معه في الحكم تحت اسم الكسيوس الرابع وذلك تحت ضغط البنادقة والصليبيين(١٦) • ومما تجدر الاشارة اليه ان داندولو وجه خطابا الى السلطات البيزنطية من على اسوار العاصمة وكان بجنبه الكسيوس بن اسحاق :(١٧)

انظروا الى سيدكم هذا ، واعلموا باننا لم نأت الى هنا لنلحق بكم الاذى • ان غايتنا حمايتكم والدفاع عنكم فيما اذا احسنتم التصرف • لان الشخص الذي قدمتم له الطاعة قادكم بتهور نحو الضلال وانتم ادرى بما فعله • فقد سمل عيني اخيه واستولى على امبراطوريته • ان من ترونه واقفا بجانبي هو الوريث الحقيقي للعرش • فان قبلتم به فبها ، والا سيحل الدمار بواديكم لا محالة •

اما المرحلة الثانية فكانت وثوب الصليبيين على القسطنطينية والاستيلاء عليها •

الاستيلاء على القسطنطينية :

وهناك عاملان مباشران اديا الى وثوب الصليبيين على العاصمة البيزنطية واقتسام الامبراطورية : الاول عدم رغبة الامبراطور الكسيوس

---

(15) Setton, op. cit., 176.
(16) Runciman, op. cit., 118.
(17) Villeharduin, op. cit., 154-84.

الرابع بتسديد تعهداته المالية اذ اشير عليه (بانك قدمت الكثير بسخاء اكثر من اللازم ٠٠٠ دعهم يرحلون عن البلاد) وحاول القادة عبثا التوصل الى اتفاق سلمي مع الامبراطور ٠ وقد اتخذ اولئك القادة الصليبيون اخر خطواتهم في هذا الشأن بارسال داندولو للتفاوض بنفسه مع الكسيوس وقد جرت محاورة بين الامبراطور ورئيس البنادقة في جهة الميناء وكان كل منهما على ظهره جواده ، اذ بادر داندولو الامبراطور :(١٨)

> ماذا جرى لك يا الكسيوس ؟! جئنا بك من المنفى بعد ان كنت متشردا وجاهدنا في سبيل تنصيبك امبراطورا . الا تعطنا حقنا ؟ فاجاب الكسيوس : باني دفعت اكثر مما يجب دفعه . عندها استشاط رئيس جمهورية البندقية غضبا فقال للامبراطور : ايها الوغد لقد انتشلناك من اليم وسنعيدك الى اعماقه .

اما العامل المباشر الاخر الذي ادى الى الوثوب على العاصمة : الثورة في العاصمة التي قادها دوكاس ضد الامبراطور الكسيوس في كانون الثاني سنة ١٢٠٤ ٠ حيث اسفرت عن خلع الكسيوس الرابع وتتويج دوكاس لنفسه باسم الكسيوس دوكاس الخامس فاعدم الكسيوس الرابع ولربما والده ايضا ٠ وينتمي دوكاس الى الاسرة الكومنينية وحامل لواء المعارضة ضد التدخل الصليبي في شئون الامبراطورية البيزنطية ٠ وقد صحبت الثورة مذابح كبرى انزلها البيزنطيون بالجاليات اللاتينية وهرع من سلم منهم الى المعسكر الصليبي خارج الاسوار حيث قدر عددهم بخمسين الفا، كما اندلعت النيران في الاحياء اللاتينية لثمانية ايام ٠

لهذا عقد القادة الصليبيون مؤتمرهم تحت اسوار العاصمة في مارت سنة ١٢٠٤ حيث قرروا فيه الاستيلاء على القسطنطينية واقتسام الامبراطورية وقد تمكنوا من ذلك في ١٣ نيسان سنة ١٢٠٤ واستمرت عمليات النهب لثلاثة ايام ٠ وقد كون هؤلاء امبراطورية لاتينية عاصمتها القسطنطينية استمرت حتى سنة ١٢٦١ ٠

يحمل المؤرخون البيزنطيون مسؤولية ذلك الحدث الى حد ما البابا

---

(18) Ibid., Vol. II, 34-36.

انوسنت الثالث الذي ينسب اليه خطاب قيل انه وجهه للاوساط الثقافية خاصة في فرنسا بمناسبة سقوط القسطنطينية[١٩] :

> لقد بعث الله فينا الحياة من بعد الرقاد ... واخذ بأيدينا من الواقع المزري الى المجد المؤمل . اليوم تغمر الفرحة قلوبنا . وكأني ارى ركب القديسين يشاركنا الفرح من عليائه . اذ فتح الله علينا فتحا مبينا . حيث عادت الكنيسة الشرقية او بالاحرى الامبراطورية اليونانية في يومنا هذا الى الطاعة بعد العصيان . فلنشرب كؤوس الفرح مترعة نخب دوام ذلك الصرح الذي شيده المسيحي الحق ولدنا بلدوين امبراطور القسطنطينية . الذي ناضل بكل قواه وسعى جاهدا لدعم الدين . لقد التمس منا ان نعمل على تشجيعكم بالذهاب الى هناك من اجل الاطلاع على الكتب التي هي كما تعلمون اصلها في اليونان . وعليه فاننا نصغي بانتباه الى طلب الامبراطور الصادر عن ايمان عميق واخلاص أكيد . عليكم تجشم الصعاب في طلب العلم ولكم اسوة باسلافكم اننا نشير عليكم بالذهاب الى هناك حيث الفضة والذهب والعيش الرغيد . انها بلاد تعمها الخيرات من شراب وزيت وسائر الطيبات . وبذلك فتكونوا قد جمعتم بين الغنى والخلود .

الحملة الصليبية الخامسة :

بالرغم من الفشل الذي منيت به الحملة الرابعة من ناحية انحرافها عن الهدف المقرر ، فان انوسنت الثالث استمر في حماسه موجها النداء تلو النداء لحمل الصليب ليس لاسترداد القدس فحسب بل ضد الفرق المسيحية المارقة في الاقسام الجنوبية من فرنسا في مقاطعة لانكودوك وضد الاندلس.

اما بالنسبة لحملة الاراضي المقدسة فبدأ التهيؤ لها طيلة فترة ١٢٠٨ ـ ١٢١٦ . ولم تجد الدعوة آذانا صاغية في الاوساط الحاكمة في المانيا وبريطانيا وذلك للحروب الاهلية في المانيا بين الكولف والغبلين او بمعنى آخر بين الانصار البابوية والامبراطورية في عهد المدعي بالعرش امير صوابيا فيليب اوتو الرابع . وقد اشترك في المعمعة كل من جون ملك انكلترا وفيليب اغسطس ملك فرنسا . بالاضافة الى تمشكل جون في

---

(19) R. Southern, The Making of The Middle Ages (London, 1965) 62.

صراع داخلي مع نبلائه استمر حتى وفاته سنة ١٢١٥ . وقد غضت البابوية الطرف عن عدم اشتراك فيليب اغسطس في قيادة حملة للاراضي المقدسة نظرا لنهوضه في شن حرب صليبية في الاراضي الفرنسية ضد الالبجنسيين.

ومع ذلك فان الدعاية الواسعة لحملة للمشرق وجدت طريقها الى قلوب الكثيرين من الناس على المستويين الشعبي[٢٠] والارستقراطي كما تمثل ذلك في الفرق للصبايا الفرنسيين والالمان ١٢١١ — ١٢١٢ وفي الحملة النظامية سنة ١٢١٧ .

الفرق الصبيانية :

وتقع هذه في مجموعتين كبيرتين هما الفرنسية والالمانية . اما الاولى فقد تجمع فيها الفتيان حول رفيقهم الراعي ستيفن الذي خيل اليــه ان الارادة الالهية كلفته بقيادة قرنائه للحرب المقدسة . اذ زعم انه استلم رسالة في ذلك الخصوص اثناء رعيه الاغنام . وتمكن هذا من مقابلة ملك فرنسا شارحا له الامر . فاشفق عليه فيليب اغسطس ونصحه بالعدول عن فكرته والذهاب الى اهله . ولم يأبه ستيفن لتلك النصيحة اذ استمر في اندفاعه فتجمع حوله ما يقارب الثلاثين الفا من الصبيان . ويعتقد بأن اكثرية هؤلاء من ابناء الاقنان الذين اضطرت الظروف آباءهم الى السماح لابنائهم بهذا السلوك . كما انضمت اليهم جماعات من الحجاج الفقراء وصغار القساوسة بدافع الدين والرغبة في الاموال التي اخذت تنهال من المحسنين على الصبيان . وشقت هذه الجموع طريقها الى مرسيليا وكم كانت الخيبة مؤلمة عندما انتظروا على الساحل بدون جدوى لتبتلع الارض ماءها ليواصلوا السير نحو الاراضي المقدسة[٢١] . وقد تفرقت غالبيتهم عدا خمسة آلاف صبي حيث تصدى لهم بعض تجار الرقيق فأغروهم في الركوب في سفنهم وابحروا بهم الى حيث اسواق النخاسة[٢٢] .

اما الصبيان الالمان فلم يكونوا بأقل حماسا من اخوانهم في فرنسا .

---

(20) W. Stevenson, The Crusades in the East (Beirut, 1968) 301.

(21) Runciman, op. cit., 139-41.

(22) Cox, op. cit., 215.

اذ وجدوا في زميلهم نيقولا ضالتهم المنشودة الذي التف حوله في جهات كولون نحو من عشرين الف من الفتيان ساروا عبر الاراضي الايطالية ٠ وقد وصل ربعهم تقريبا الى مدينة جنوا اما البقية ففضلت اكثريتها الرجوع الى الاوطان وشخص قسم منهم الى ميناء برنديزي وكان مصيرهم اشبه بمصير رفاقهم الفرنسيين(٢٣) ٠

الحملة النظامية :

اعلنت هذه بصورة رسمية على اثر اجتماع مجلس اللاتيران البابوي الرابع سنة ١٢١٥ وحدد موعد شروعها بالسفر في حزيران سنة ١٢١٧ ٠ ولم يكتب للبابا انوسنت الثالث قيادتها لوفاته سنة ١٢١٦ ٠ لهذا نهض البابا انوريوس الثالث بالمشروع ١٢١٦ ــ ١٢٢٧ ٠ ولم يشترك فيهـا الامبراطور فردريك الثاني لمشاغله في المانيا وحداثة سنه بالرغم من تصريحه بقيادة حملة للاراضي المقدسة عندما توج في مدينة اخن سنة ١٢١٥ ٠ لهذا فكانت الحملة الخامسة تحت عدة قيادات وتم تشكيل فرقها في تواريخ متفاوتة ٠

ومن اهم فرق الحملة الخامسة هي : المجرية بقيادة الملك اندرو في آب سنة ١٢١٧ ، والنمساوية تحت لواء الامير ليوبولد في آب سنة ١٢١٧، ثم فرقة الكردينال بيلاجيوس الذي اناب عن البابا وكان برفقته فرانسس اوف اسيسي مؤسس فرقة الفرنسسكان ٠ وضمت فرقة بيلاجيوس ايضا فرسانا من انكلترا وفرنسا وقطعا من الاساطيل الجنوية والبيزوية سنة ١٢١٨ ، وكانت هناك فرقة بلغارية بقيادة الامير لويس سنة ١٢٢٠ ، واخيرا الفرقة المالطية برئاسة الامير هنري سنة ١٢٢١ ٠

نزلت القوات المجرية والنمساوية في عكا في اواخر خريف سنـة ١٢١٧ ٠ ولم تحدث اشتباكات هامة بينهم وبين القوات الاسلامية في جهات فلسطين والتي كانت بقيادة العادل ٠ اذ فضل هذا مشاغلتهم املا في كسب الوقت لتسعير الخلافات بين القادة الصليبيين ٠ وقد فرض هؤلاء الحصار

(23) Munro, «The Children's Crusade», in The American Hist. R. Vol. XIX, N.Y. 1944.

على قلعة الطور الجبلية قرب عكا ولم يتمكنوا منها[٢٤] . وهنا فضل ملك المجر الانسحاب من الحملة والعودة الى بلاده في كانون الثاني سنة ١٢١٨ ، لعدم تمكنه من توفير المواد الغذائية لجيشه لردائة المحاصيل الزراعية في الاراضي الفلسطينية ولانتشار المجاعة في الجهات السورية عامة في تلك السنة[٢٥] .

قرر الصليبيون في نيسان سنة ١٢١٨ مهاجمة مصر بقيادة ملـك القدس جون بريان . فحاصروا دمياط . وقد حدث ان توفي العادل في اواخر آب فخلفه ولداه : المعظم في سوريا والكامل في مصر . وقد حاول الصليبيون الاستفادة من ارتباك اوضاع الكامل لمؤامرة دبرت ضده في جيشه فراحوا يشددون الهجوم على دمياط وخاصة بعد ان وصلتهم فرقة بيلاجيوس . ووصل اليأس في الايوبيين حدا جعل المعظم في سوريا ان يأمر بتهديم بعض القلاع والاسوار لكيلا تقع بأيدي اعدائه بما في ذلك اسوار القدس في ١٩ مارث سنة ١٢١٩ . كما وجه النداء الى كافة الجهات الاسلامية في المشرق لتقديم المساعدات العسكرية بما فيها قاعدة الخلافة العباسية في عهد الخليفة الناصر ١١٨٠ ــ ١٢٢٥ . ولم يتمكن هذا من انجاده لانشغاله في مكافحة اخطار الدولة الخوارزمية من الجهات الايرانية ، فاكتفى بتوجيه الرسائل لامراء المسلمين لانجاد الكامل[٢٦] .

لقد ضيق الصليبيون الخناق على القوات المصرية مما ادى بالكامل ان يساومهم على شروط الصلح . اذ عرض عليهم القدس مقابل الانسحاب من الاراضي المصرية . واستجاب لذلك العرض ملك القدس جون بريان ، غير ان بيلاجيوس الذي توهم ان النصر وشيكا عارض ذلك وسانده تجار جنوا وبيزا املا في الاستيلاء على كافة البلاد المصرية . ثم كرر الكامل عروضا اخرى في تشرين الاول سنة ١٢١٩ ضائفا على تنازله السابق الاجزاء الوسطى من فلسطين فأصر بيلاجيوس على الرفض ايضا . وقد تمكنت الجيوش اللاتينية من الاستيلاء على دمياط في تشرين الثاني سنة ١٢١٩ .

---

(24) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٢ ، ١٢٣ ــ ١٢٤

(25) Runciman, op. cit., 14.

(26) المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، جـ ١ (القاهرة ، ١٩٣٤) ٢٠٤

وشرعوا منها في الاستعداد للزحف نحو القاهرة خاصة بعد وصول الفرقة البلغارية في ربيع سنة ١٢٢٠ . لهذا جدد الكامل طلب الصلح . حيث عرض عليهم التنازل عن كافة فلسطين وتأديته ضريبة سنوية لهم . فرفض بيلاجيوس للمرة الثالثة . الا انه اضطر لقبول الصلح بلا مقابل في ٢٨ آب سنة ١٢٢١ وذلك على اثر الكارثة التي حلت بهم من جراء ارتفاع مناسيب النيل وكسر السدود فأغرقت المياه معسكرهم ولم يجدهم نفعا وصول الفرقة المالطية المتأخر . وقد تضمنت شروط الصلح : الانسحاب من دمياط وعقد هدنة لثماني سنوات وتبادل الاسرى ، وغادر الصليبيون في ٨ ايلول سنة ١٢٢١[٢٧] .

اما بالنسبة للقديس فرانسس فقد اعتقد بأن رسالته السلمية قد تحقق النصر عن طريق السلم . لهذا طلب مقابلة الكامل فأخذ اليه في فارسكور حيث المعسكر الاسلامي محاولا اقناعه باعتناق المسيحية . فاستقبله الكامل بالترحاب وامر بتقديم الهدايا له فامتنع عن اخذها . فاقترح عليه الكامل توزيعها على الفقراء المسيحيين فأجاب فرانسس بأن الفقراء اغنياء بحمد الله . ثم اخذ يناقش احد علماء المسلمين في حضرة السلطان حول الامور الدينية فاختلفا . فاقترح فرانسس ان يلجأ هو وذلك العالم الى تحكيم النار بينهما . فتدخل الكامل قائلا : ايها الاخ لا اعتقد بأن العالم يدخل النار بسبب دينه[٢٨] .

تكمن عوامل فشل الحملة الخامسة في عدة نقاط : فبالاضافة الى العوارض الطبيعية والمقاومة الاسلامية فان تردد الامبراطور فردريك الثاني في اسعاف الصليبيين فت في عضد الحملة عسكريا ومعنويا . هذا ولم تكن

---

(27) وهنا انشد الشاعر شرف الدين بن عنين قصيدة طويلة منها :

منحناهم منا حياة جديدة
فعاشوا بأعناق مقلدة منا
ولو ملكونا لاستباحوا دمائنا
ولوغا ولكنا ملكنا فأسجحنا

نفس المصدر ، ص ٣١١

(28) Quoted in R. Pernoud, The Crusades, trans. by McLeod (London, 1962) 223-24.

هناك قيادة عامة موحدة • فقد اصر بيلاجيوس على ان يكون هو القائد بصفته ممثلا للبابوية وايدته في ذلك جنوا وبيزا • بينما اعتبر ملك القدس نفسه انه له الاسبقية في ذلك ، وسانده فرسان المعبد والاسبتارية • مضافا الى ذلك عدم موافقة امبراطور الحبشة على تقديم المساعدات العسكرية لهم بالرغم من الجهود التي بذلها البابا انوريوس في هذا الشأن •

الامبراطور فردريك الثاني والسبب الصليبي :

اخذ البابا انوريوس بالالحاح على فردريك الثاني في قيادة حملة للاراضي المقدسة منذ سنة ١٢١٨ • الا ان الامبراطور انتحل الاعذار منذ ذلك التاريخ حتى سنة ١٢٢٨ • اذ وعد البابا ان ينهض بالامر في ٢٩ ايلول سنة ١٢١٩ لان التجهيزات تحتاج ذلك التأجيل • ثم ارجأ الموضوع الى ٢١ مارس سنة ١٢٢١ بحجة تتويج ابنه هنري قبل ان يغادر للاراضي المقدسة خشية ان يحصل له مكروه هناك • فوافق البابا الا انه حذره بأن اي تأخير آخر قد يعرضه لعقوبة التحريم • ومع ذلك طلب فردريك مهلة اخرى اقصاها واحد مايس سنة ١٢٢١ ، فاضطر البابا للتسليم بالامر الواقع •

اضطر البابا الى زيادة ضغطه على فردريك لاجل تنفيذ الوعد خاصة بعد ان هرع اليه ملك القدس جون بريان طالبا المساعدة العسكرية • لهذا وافق الامبراطور على عقد مؤتمر في مدينة فيرونا في مارت سنة ١٢٢٣ برئاسة البابا وعضوية ملك القدس ورئيس اساقفتها ورؤساء الفرسان حددوا فيه الشروع بالحملة في ٢٤ حزيران سنة ١٢٢٥ • ثم رتب فردريك امر زواجه من وريثة المملكة الصليبية الا وهي ايزابيلا والمسماة ايضا يولاندا • ومع ذلك فلم ينهض فردريك في المشروع لمشاكله في صقلية ثم طلب من البابا ان يبحث الموضوع بشكل نهائي في مؤتمر يعقد في ٢٥ تموز سنة ١٢٢٥ في سان جرمانو • وقد توصل المؤتمر الى جملة قرارات منها : ان يشرع فردريك في الحملة في ١٥ آب سنة ١٢٢٧ وان يبقى في الاراضي المقدسة لسنتين ، اعداد اسطول يتألف من ١٥٠ سفينة ، تسليم مائة الف دينار ذهب الى لجنة متألفة من ملك القدس ورئيس اساقفتها ورئيس فرقة فرسان التيوتون ، على ان تدفع لـه عند وصوله هناك لتنفق على الشؤون العسكرية وان يتصرف بها لدعم مركز المملكة الصليبية فيما اذا

اعيق فردريك عن الوصول الى هناك • ثم اقسم فردريك على تنفيذ تلك الشروط[٢٩] •

تصرف فردريك الثاني وكأنه الملك الفعلي للاراضي المقدسة قبل شروعه في الحملة • اذ اضاف الى لقبه لقب ملك القدس حال زواجه من ايزابيلا • واتخذ موقفا سلبيا من جون بريان الذي فر الى البابا مستجيرا به من معاملة فردريك •

هذا ولم يعد بامكان الامبراطور ان يماطل في قيادة الحملة في وقتها المقرر خاصة عندما تبوأ البابوية كريكوري التاسع ١٢٢٧ ــ ١٢٤١ • اذ اشار هــذا الى فردريك بضرورة تنفيذ اتفاقية سان جرمانو • وتجمعت الجيوش فعلا في موعدها المقرر في ميناء برنديزي حيث ابحرت للاراضي المقدسة • الا ان فردريك نفسه اضطر للتأخير مع بعض حاشيته الى اليوم الثامن من ايلول سنة ١٢٢٧ وما كاد يبتعد كثيرا عن الساحل الايطالي حتى ألم به مرض قاده للرجوع • ولم تقبل البابوية منه العذر فأصدرت في حقه عقوبة التحريم[٣٠] • ومع ذلك فلم يكترث فردريك لتلك العقوبة اذ غادر ايطاليا قاصدا الاراضي المقدسة في سنة ١٢٢٨ وهو في حالة التحريم • وقد امضى في طريقه خمسة اسابيع في قبرص لتصفية الحساب مع سلطاتها[٣١] •

فردريك الثاني في قبرص :

اشرنا سابقا بأن اماليك الثاني بصفته ملك قبرص قد قدم الولاء سنة ١١٩٧ للامبراطور هنري السادس وبذلك اصبح من ناحية نظرية تابعا للامبراطورية الرومانية المقدسة • لهذا اراد الامبراطور فردريك الثاني ان يجعل من تبعية قبرص له امرا واقعا • وكان على عرش قبرص آنذاك هنري الصغير الذي تولى الوصاية عليه امير بيروت فيليب ابلين • وقد وجه فردريك الدعوة الى ابلين حال وصوله الى هناك ليحضر هو والملك والحاشية لمأدبة يقيمها في ميناء ليماسول • وما كانت المأدبة الا ستار يخفي

---

(29) Runciman, op. cit., 171-77.
(30) Setton, op. cit., 446.
(31) Ibid., 451.

ورائها فردريك خطة لفرض سلطته على قبرص توضحت في الرواية التالية :

عندما اوشك الحفل على التفرق دخلت ثلة عسكرية الى المكان واصطفت وراء الضيوف بشكل يبعث على الريبة . ثم طلب فردريك من ابلين ان يسلمه مدينة بيروت والعائدات المالية القبرصية منذ وفاة هيو الاول ١٢٠٥ — ١٢١٨ . وقد ذهل ابلين معتقدا بأنه يمزح معه . الا ان فردريك هدد ابلين وكافة من معه بالسجن ان لم يمتثلوا للامر . فنهض ابلين مخاطبا الامبراطور بأعلى صوته : ان بيروت عبارة عن اقطاع شرعي وهبتني اياه الملكة ايزابيلا وزوجها امالريك . واني على استعداد لاثبات حقي في محكمة القدس العليا . اما العوائد القبرصية فما كانت لي وانما هي للاسرة المالكة ويمكن اثبات ذلك في المحكمة العليا القبرصية . وكن على يقين ايها الامبراطور بأنـي لست اخشى الموت او السجن ولا شيء يقنعني غير القضاء العادل . فأجاب الامبراطور : لقد سمعت الكثير عن ذلاقة لسانك ودهائك . وسوف ترى ما قيمة ذلك امام قوتي . فأجاب ابلين ... لقد سمعت بدوري من زمان عن بطولاتك . فقد حذرني النبلاء حقا من مغبة دعوتك هذه . غير اني ما كنت لاصدق ما تراه عيناي . لقد لبيت الدعوة مصمما ملاقاة الموت او الاسر حتى لا يقال عـن اهل بيتي والقبارصة بصورة عامة بأنهم وقفوا حجر عثرة في طريق استرداد القدس برفضهم طاعة الامبراطور .

ولم يكن موقف ابلين هذا قد صدر عن كبرياء او انه مجرد مناظرة بين فارس فرنسي وآخر الماني انما الموقف يمثل وجهة نظر النبلاء الذين ارادوا الدفاع عن مصالحهم الاقطاعية في قبرص ضد استبدادية فردريك الثاني . وعلى كل فقد تغلبت القوة على الحق حيث وافق الامراء علـى تبعيتهم للامبراطور . كما وافق ابلين ان يسير مع الامبراطور للاراضي المقدسة املا في عرض قضية بيروت على المحكمة العليا في الاراضي المقدسة. ومع ذلك فلم يسمح له الامبراطور بمغادرة المعسكر الا بعد ان استودع عنده عشرين رهينة . ثم عين الامبراطور نائبا عنه في الجزيرة باريليس عند مغادرته اياها في ايلول سنة ١٢٢٨ متوجها للاراضي المقدسة ومعه ابلين وزعماء المعارضة وهم في حالة اشبه بالاسر[٣٢] .

---

(32) Quoted in Pernoud, op. cit., 227-29.

القسم الثاني

الحملات الصليبيّة في النصف الأول من القرن الثالث عشر

المشرق الاسلامي منذ الحملة الخامسة : الخلافة العباسية ، الدولة الخوارزمية ، الدولة الايوبية .

فردريك في الاراضي المقدسة ، علاقاته مع الكامل ـ استرداد القدس . الاوضاع الايوبية والفعاليات الصليبية في مملكة القدس منذ حملة فردريك .

الحملة السادسة : دور البابا انوسنت الرابع ـ حملة لويس التاسع وتطوراتها .

المشرق الاسلامي منذ الحملة الخامسة :

حدثت خلال الفترة تطورات خطيرة في المجتمعات الاسلامية الشرقية من ناحية سياسية وعسكرية. تمثلت في نشاط الخليفة العباسي الناصر في اعادة مجد الخلافة ، وكذلك في تعاظم الدولة الخوارزمية وأفولها وفي نهاية الدولة الايوبية . كما ظهرت في الافق الشرقي البعيد قوة عالمية جديدة الا وهي القوة المغولية التي حاولت الاوساط اللاتينية الاستفادة منها في الصراع بين الشرق والغرب .

الخلافة العباسية :

لقد حاول خلفاء بني العباس منذ القرن الثاني عشر نفض غبار الخنوع

للسلطات السلجوقية • ولعل اعظمهم شأنا في هذا المضمار هو الخليفة الناصر ١١٨٠ ـ ١٢٢٥ • اذ استفـاد هذا من الضعف الذي طرأ على السلاجقة في ايران والعراق فراح يستعيد هيمنة الخلافة علـى قاعدتها مجددا النشاط العباسي في الزعامة الروحية علـى العالم الاسلامي • فقد اخضع امراء التركمان في العراق الى السلطة المركزية ، ثم جرد حملاته على ايران في عهـد آخر سلاطين السلاجقة طغـرل الثالث وكذلك ضـد الخوارزميين • ثم انصرف لتوحيد الصفوف الاسلامية في تلك الجهات بمحاولته ازالة النعرات المذهبية في العراق خاصة الا انه لم يوفق في ذلك • وقد توصل الى اتفاق مع زعماء الاسماعيلية في الموت في ايران حيث اعترف به رئيس الاسماعيلية الاكبر جلال الدين حسن •

ولعل من اهم اعماله الهادفة الى تقوية الكيان الاسلامي هو اعادة تنظيم مسلك الفتوة[1] • وهذه من جملة المؤسسات الاخوية او الرفاقية انتشرت بين العمال في المدن وكانت لها تنظيمات شبه عسكرية • وحظيت الفتوة بنفوذ كبير في بغداد • لذا اراد الناصر ان يخضع منظمات الفتيان لرئاسته وان يوحد بين انظمتها ويعمل على تحويلها من قوى فوضوية الى اخرى نافعة للدولة • وعليه قد صير من الفتوة مؤسسة اشبه بمؤسسة الفروسية على النمط الغربي يتميز الاعضاء فيها بشارات ورتب • ثم عمل على نشر ذلك النظام في جهات الاناضول • كما حاول الناصر ان يجعل التعليم خاضعا لاشراف الدولة واعتمد في ذلك على شهاب الدين عمـر السهروردي •

ان اعادة بناء المجتمع الاسلامي في العراق وايران والاناضول بالاضافة الى حروبه مع الخوارزميين اعاقته عن مشروع الجهاد ضد الصليبيين في عهد صلاح الدين واثناء الحملة الخامسة على دمياط • الا انه ساهم بذلك معنويا عـن طريق حث زعماء المسلمين في مختلف الاقطار على ضرورة المشاركة في واجب الجهاد[2] • غير انه من ناحية ثانية عمل على النقيض من ذلك اذ ينسب اليه الاتصال بجنكيز خان لتحريضه ضـد الدولـة الخوارزمية سنة ١٢١٦ •

---

(1) Phil. Hitti, History of The Arabs (London, 1960) 481.

(2) المقريزي ، السلوك ، جـ ٣ ، ٣٥٥

الدولة الخوارزمية ١١٣٨ ــ ١٢٣١ :

لقد شهد النصف الاول من القرن الثالث عشر سطوع شمس الامبراطورية الخوارزمية وافولها . وسميت هذه الدولة بذلك الاسم نسبة الى منطقة خوارزم في ايران . ومؤسس الدولة مملوك من غزنه تابع الى سلجوق ملكشاه انعم عليه بحاكمية المنطقة . وقد واتتهم فرصة التحرر من التبعية السلجوقية على اثر الاندحارات التي حلت بجيوش السلطان السلجوقي سنجر على يد قبائل الصين السوداء قره كيتايي سنة ١١٥٣ ، ولم يستمر حكم هذه القبائل غير مدة يسيرة . اذ داهمتهم جموع مغولية فتمزق شملهم في اواخر القرن الثاني عشر مما مهد لقيام الدولة الخوارزمية(٣) .

لقد مر تاريخ الدولة الخوارزمية بتاريخ حافل بالمفاجآت والمآسي منذ انتصارهم على آخر سلاطين السلاجقة في ايران طغرل الثالث ١١٧٧ ــ ١١٩٤ في عهد تنش Tutush ١١٧٢ ــ ١٢٠٠ ، وقد لعب الخليفة العباسي الناصر دورا فعالا في استعداء الخوارزميين ضد طغرل الذي كانت لـه السيادة النظرية على العراق . وقد اعتقد تيتش بأنه ورث في ذلك الانتصار سنة ١١٩٤ سلطان السلاجقة في العراق ايضا . لهذا طلب من الخليفة الناصر الاعتراف بتبعيته له . ولم يشأ الخليفة العباسي ان يستبدل سيدا بآخر فرفض الطلب معتمدا على قوة جيشه .

تعقدت العلاقات بين الناصر والخوارزميين بشكل اكبر عندما تولى عرش الدولة الخوارزمية علاء الدين محمد شاه الثاني ١٢٠٠ ــ ١٢٢٠ واسفرت عن حروب بين الطرفين . لهذا اعلن محمد شاه عـدم اعترافه بالخليفة الناصر من ناحية دينية نظرا لانه اخذ يفاوض المغول في عهـد جنكيز خان على غزو الخوارزميين . وعليه فقد حول علاء الدين محمد ولاءه للبيت العلوي . ولم يجن محمد من ذلك العمل فائدة تذكر . اذ اثار بعمله اتباع البيت العباسي في ايران والى انشقاق في داخل اسرته .

---

(3) C. Cahen, The Turks in Iran and Anatolia before the Mongol Invasions, in Setton, wolff and Hazard, A History of The Crusades Vol. II (Penns., 1962) 669-71.

كما انه لم يرض العلويين لانه اختار شخصا على هواه وبدون علمهم •

ان المخاطر التي احاقت بالخورزميين كانت من الجانب العباسي والمغولي • اذ حاول الناصر في البداية اقناع جنكيز خان بالهجوم على الخوارزميين الا ان الاخير رفض الاقتراح نظرا للعلاقات التجارية بين المغول والخوارزميين • حيث اراد هذا ان يعيش في بداية الامر بسلام مع جيرانه • اذ حمل وفده رسالة الى محمد شاه جاء فيها : (ارسل اليك بالتحيات وانا على علم بقوتك وسعة بلادك • اني انظر اليك وكأنك من ابنائي الاعزاء • واحيطك علما بأني قد استوليت على الصين وعلى مدن كثيرة ••• وتزخر بلادي بمناجم الذهب والفضة ، لهذا فليست بنا حاجة الى بلدان اخر • وان العلاقات بيننا مستندة على مصلحة تجارية متبادلة)• وقد تساءل محمد شاه بكبرياء عمن يكون جنكيز خان ؟ وهل استولى حقا على بلاد الصين وان جيوشه اقوى من جيوشي ؟ وقد اجاب رئيس الوفد المغولي بالايجاب على سؤاله الاول اما عن الثاني فقال لا توجد مقارنة بين قواتك وقواته[٤] •

تدهورت العلاقات بين الطرفين على اثر اعتداء تعرضت له قافلة مغولية من قبل احد الحكام التابعين الى محمد شاه في جهات الافغان • اذ امر ذلك الحكام باعدام افرادها على اعتبارهم جواسيس مغول • ثم حاول جنكيز خان تسوية الامر سلميا فأرسل اليه وفدا ليفاوضه حول المشكلة • فما كان من محمد شاه الا وأمر باعدام رئيس الوفد ونتف لحيات الآخرين • فقرر جنكيز خان الانتقام • اذ اشار بأنه لا مجال لشمسين على هذه الارض[٥] • حيث اصدر اوامره بالهجوم على الخوارزميين سنة ١٢١٠ فاحتل هرات فأبادت جيوشه ستين الفا من السكان ، ثم سمرقند وبخارى• وقد اضطرت قوات محمد شاه الى التراجع غير المنتظم فهجرته قواته ومات مشردا •

استمر الخوارزميون يلعبون دورا خطيرا في تاريخ المشرق الاسلامي

---

(4) H. Lamb, Genghis Khan (N.Y., 1965) 100.

(5) Ibid., 104.

طيلة النصف الاول من القرن الثالث عشر تقريبا حتى بعد تبديد دولتهم في ايران وتشريدهم اذ اصبحوا اشبه بالفرق الاجيرة تقدم خدماتها الى امراء الشرق الاوسط فقد تجمعت الفلول الخوارزمية حول راية جلال الدين منكوبرتي ١٢٢٠ — ١٢٣١ بن محمد شاه • وقد طاردته الجيوش المغولية في فارس واذربيجان • فاضطر للفرار مع جموعه الى الجهات الشمالية الغربية بعيدا عن الخطر المغولي وقادهم ذلك الى الاصطدام بالامراء الايوبيين في جهات الموصل في اول الامر • ثم اسهموا في الحروب الاهلية الايوبية •

الدولة الايوبية :

لقد توترت العلاقات ما بين الكامل ١٢١٨ — ١٢٣٨ ملك مصر واخويه المعظم ملك سوريا والاشرف ملك الجزيرة الفراتية حال انسحاب الجيوش الصليبية من مصر سنة ١٢٢١ • اذ لجأ المعظم الى طلب مساعدة الخوارزميين ضد اخويه الاشرف والكامل • واستنجد الاخير بالامبراطور فردريك الثاني سنة ١٢٢٦ • فقد ارسل الكامل وفدا مفاوضا برئاسة فخر الدين بن الشيخ الى صقلية حيث مقر الامبراطور • واخبره برغبة الكامل في تسليم القدس للصليبيين مقابل مساعدة الامبراطور العسكرية(٦) • ولم تسفر المفاوضات عن نتائج ايجابية في حينها لانشغال فردريك الثاني في مشاكل العصبة اللمباردية للمدن الايطالية ولتعهده بقيادة حملة ضد المسلمين •

ازداد موقف الايوبيين حراجة على اثر وفاة المعظم سنة ١٢٢٧ ونشوب الحرب الاهلية بين الاشرف ملك الجزيرة الفراتية والكامل حول سوريا • اذ ورث ذلك القطر الناصر عن ابيه المعظم الا انه كان في العشرين من عمره تنقصه التجارب وليست له المقدرة الكافية على الحكم • فانتهز الكامل ذلك الظرف فاستولى على القدس ونابلس سنة ١٢٢٨ • لهذا استغاث الناصر بعمه الاشرف • وعلى مقربة من مدينة غزة اتفق الكامل والاشرف على اقتسام حصة ابن اخيهما : ولم ينه ذلك الاتفاق الحرب الاهلية اذ استمر الناصر واعوانه في المقاومة في دمشق التي فرض عليها

---

(6) Runciman, op. cit., 185.

الكامل الحصار ، الا انه اضطر الى الانسحاب عند سماعه بوصول فردريك الاراضي المقدسة .

الامبراطور فردريك الثاني في الاراضي المقدسة :

وصل فردريك من قبرص الى عكا في ايلول سنة ١٢٢٨ . ولم تقع حوادث عسكرية تستحق الذكر بين فردريك والجيوش الاسلامية طيلة بقائه في الاراضي المقدسة ، اذ لم يكن هذا الامبراطور راغبا حقا في الحرب ، بالاضافة الى انه لم يكن على وئام مع فرقتي فرسان المعبد والاسبتارية ولا مع الامراء لخشيتهم من سياسته المركزية ولكونه في حالة التحريم ولا يصح التعاون معه ، ولم يكن بجانب الامبراطور من قوى المملكة الصليبية سوى فرقة الفرسان التيوتونية الالمانية ، لهذا استجاب الامبراطور للتنازلات التي ابداها الكامل ، حيث تم الاتفاق في عكا بين فخر الدين بن الشيخ والوفد الامبراطوري المتألف من رئيس فرقة فرسان التيوتون وبعض القساوسة في سنة ١٢٢٩ الذي تضمن : اعادة القدس للصليبيين على ان يحتفظ المسلمون بقبة الصخرة والمسجد الاقصى ، ثم عدم اعادة بناء اسوار مدينة القدس ، وارجاع بيت لحم للصليبيين ، والاعتراف بالممتلكات الصليبية الممتدة بين القدس وعكا ، ثم تبادل اطلاق سراح الاسرى ، وان يبقى الصلح نافذ المفعول لعشر سنوات وخمسة اشهر و ٤٠ يوما على ان لا يشمل الصلح امارة انطاكيا .

ويقال بأن الامبراطور فردريك قد اعتذر للكامل حول اخذه القدس بقوله (لولا انه يخاف انكسار جاهه ما كلف السلطان شيئا من ذلك وانه ما له غرض في القدس ولا غيره ، وانما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج)[٧] .

كانت اصداء الصلح سلبية في الاوساط الاسلامية والصليبية على حد سواء ، فقد اعلن الناصر في دمشق بأن الصلح يمثل خيانة كبرى للاسلام وامر باقامة الحداد العام وايده في ذلك رجال الدين في دمشق ، وكان استياء الصليبيين شديدا وخاصة بين فرسان المعبد الذين احتجوا على ابقاء قاعدتهم الاولى الا وهي معبد سليمان في الايدي الاسلامية .

---

(7) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ٢٠٤ .

وقد دبر هؤلاء الفرسان مؤامرة فاشلة على حياته . كما لم يوافق الامراء الصليبيون القدماء على ابقاء مدينة القدس مكشوفة عسكريا حيث حرم بعمله هذا الصليبيين من موقع استراتيجي هام . وتدهورت علاقات الامبراطور مع الامراء بشكل اشد حينما توج نفسه ملكا على المملكة الصليبية في كنيسة القيامة وهو في حالة التحريم . بالاضافة الى ان فردريك لا يمكنه ان يكون ملكا للقدس نظرا لوفاة زوجته يولاندا منذ سنة ١٢٢٧ الوارثة لذلك العرش[8] . هذا وقد غادر فردريك عكا وزعقات الاستهجان تودعه في الميناء في اوائل مارت سنة ١٢٢٩ حيث قصد قبرص ثانية[9] .

حقق فردريك انتصارا دبلوماسيا رائعا باستعادة القدس التي عجزت الحملات السابقة عنها . ومع ذلك فلم يعترف البابا بأهمية ذلك الحدث وراح مستمرا في مجاهرة فردريك العداء . الا ان فردريك من ناحية اخرى خلف وراءه في كل من قبرص والاراضي المقدسة الصراع بين الجانبين الامبراطوري والبابوي او الصراع بين الكولف والغبلين . كما اصبح عرش القدس وراثيا في اسرة هوهنشتاوفن التي ينتمي اليها فردريك منذ ذلك التاريخ حتى مقتل كونرادين سنة ١٢٦٨ آخر ورثاء الاسرة .

الاوضاع الايوبية منذ حملة فردريك الثاني :

استؤنفت الحروب الاهلية بين الامراء الايوبيين في اعقاب حملة فردريك الثاني . اذ حاول الاشرف وضع حد لمقاومة ابن اخيه الناصر اسماعيل . وتمكن فعلا من الاستيلاء على دمشق سنة ١٢٢٩ ، وعوض الناصر باقطاعه املاكا في جهات الاردن على ان يكون تابعا لعمه الكامل في مصر . وكادت وراثة امارة حلب ان تذكي نار الحرب بين الكامل والاشرف سنة ١٢٣٦ لولا وفاة الاخير سنة ١٢٣٧ .

اشتبك الامراء الايوبيون في صراع متداخل منذ وفاة الكامل سنة ١٢٣٨ . اذ خلفه في البداية ابنه العادل الثاني ١٢٣٨ ـ ١٢٤٠ الذي نافسه على الملك اخوه الصالح ايوب . وبعد سلسلة من الحروب والمؤامرات

---

(8) Runciman, op. cit., 187-88.

(9) Setton, op. cit., 460.

بين مصر وامراء سوريا والجزيرة الفراتية اسفرت عن استعادة الصالح اسماعيل لدمشق وعن خلع العادل الثاني وتنصيب الصالح ايوب ملكا على مصر ١٢٤٠ ــ ١٢٤٩ • وقد استمر الصراع بين الصالح ايوب والامراء الآخرين من بني ايوب حول السلطة في سوريا • والذي تسابقت فيه الفئات المتناحرة على الاستعانة بالصليبيين والخوارزميين ضد بعضها البعض • اذ تمكن الصالح ايوب بمساعدة الخوارزميين من انزال خسائر بالمعسكر الصليبي واستعادة القدس سنة ١٢٤٤ • كما استولى الصالح ايوب على عسقلان ايضا سنة ١٢٤٧ •

ومما زاد الاوضاع ارتباكا في سوريا هو النزاع بين حلب وحمص سنة ١٢٤٨ • اذ وثب امير حلب على امارة حمص التي استغاثت بملك مصر الصالح ايوب • واتفق الاخير مع فرسان المعبد على اعطائهم بعض المناطق الساحلية مقابل مساعداتهم العسكرية •

الاوضاع العامة في مملكة القدس :

تعرضت الدولة الصليبية في هــذه الفترة لصراع حاد بـين اتباع الامبراطور فردريك ومناوئيه ساهمت فيه قبرص بشكل فعال • اذ تمثلت المعارضة للنفوذ الامبراطوري في كل من قبرص والاراضي المقدسة في قيادة جون ابلين امير بيروت والوصي السابق على العرش القبرصي • وتمكن هذا من استعادة حقوقه بعد حروب دامية استمرت حتى سنة ١٢٣٣ • وقد تزعم ابلين حركة المقاومة في الاراضي المقدسة للسلطة الامبراطورية بناء على طلب اعضاء كومونة عكـا (المجلس البلدي) الذي تشكل سنة ١٢٣١ مــن بورجوازية المدينة وقسم من الامراء • وبذلك انقسمت القوى في الاراضي المقدسة انقساما حادا اسفر عن صراعات دموية بين اتباع الكومونة برئاسة ابلين والاتباع الامبراطورية بقيادة نائب الامبراطور فيلانجياري Filangieri وفرسان التيوتون وساهمت قوات بيزا مع الامبراطوريين بينما قدمت جنوا مساعداتها الى ابلين • اما الاسباب المباشرة لهذا الصراع فهــو استيلاء فيلانجياري على بيروت العائدة الى ابلين ومصادرة اراضيه بصورة مخالفة لدستور دولة القدس مما حدى ببورجوازية المملكة الصليبية والامراء ان يقفوا صفا واحدا في حماية الثروات المنقولة وغير المنقولة حسبما كفلها

الدستور وقد هدأ النزاع نسبيا عند وفاة ابلين سنة ١٢٣٣[١٠] .

لقد خف الضغط الاسلامي على المملكة الصليبية في هـذه الفترة للنزاع بين الامراء الايوبيين ولوصول امدادات عسكرية غربية الى عكا . حيث وجه البابا كريكوري التاسع الدعوة لاسعاف الاراضي المقدسة بالرغم من مشاكله مع الامبراطور فردريك الثاني . وتمخضت الجهود البابوية عن فرقتين رئيسيتين : كانت الاولى فرنسية بقيادة الامير الفرنسي ثيوبالد اما الثانية فهي انكليزية بقيادة امير كورنوول .

وصلت الفرقة الفرنسية عكا في ايلول سنة ١٢٣٩ فبادر ثيوبالد الى عقد مؤتمر مع امراء الدولة الصليبية للاتفاق على خطة عسكرية . الا ان المؤتمرين انقسموا بين فرقتين : نادى الاول بضرورة الهجوم على مصر بينما ايد الثاني فكرة الهجوم على دمشق . واخيرا توصلوا الى حل وسط هو الشروع بتحصين عسقلان باعتبارها قاعدة خلفية تحمي المملكة مـن جهات مصر ومن ثم التوجه الى دمشق. الا ان القوات المصرية والخوارزمية انزلت في الجيش الصليبي هزيمة كبيرة قرب غزة .

حاول ثيوبالد الاستفادة من النزاع بين سوريا ومصر . فتحالف اول الامر مع اسماعيل الصالح امير دمشق لمساعدته ضد مصر ، وقد قـدم الامير الدمشقي تنازلات ازاء ذلك منها : التخلي عن سهول صيدا وقلعة الشقيف وطبريا وصفد ومناطق اخـرى في الجهات الاردنية ، السماح للجيوش الصليبية بشراء المواد الغذائية وغيرها من اسواق دمشق ، عدم الصلح مـع الصالح ايوب الا بعد موافقة الامير الدمشقي ، ثـم تعهد الصليبيين بالدفاع عـن امارة دمشق في حالة تعرضها لهجوم مصري ـــ خوارزمي .

قوبلت هذه الاتفاقية باحتجاج المعسكرين الاسلامي والصليبي . اذ اعتبرها الفريق الاول لا تنسجم مع الخط الاسلامي . اما المعارضة للفريق الثاني فقد جاءت من مصدرين : تمثل الاول في فرقة الاسبتارية على اعتبار ان الاتفاقية خدمت مصالح غرمائهم فرسان المعبد . وتمثل الثاني في فئة

(10) Runciman, op. cit., 196-98.

من الامراء ورجال الدين حيث اعتقدوا بأن الاتفاقية مع دمشق من شأنها اطالة مدة اسرى غزة لدى المصريين • ومع ذلك توجه ثيوبالد نحو يافا بمساعدة حليفه اسماعيل • ولم تكن الجيوش الدمشقية براغبة في مقاتلة الجيوش الاسلامية المصرية والخوارزمية لهذا تفرقت اكثريتهم اثناء الطريق تاركين اسماعيل مع حلفائه • وقد اضطر ثيوبالد الى الاحتماء بأسوار عسقلان • وهنا تبين الى الامير الفرنسي بأن لا فائدة ترتجى من حلفه مع امارة دمشق[11] • وعليه فتح باب المفاوضات مع الصالح ايوب ملك مصر من اجل الصلح مقابل اعتراف الصالح بالاراضي التي حصل عليها ثيوبالد نتيجة لاتفاقه مع امير دمشق واطلاق سراح الاسرى خلال اربعين يوما • ثم غادر ثيوبالد الاراضي المقدسة سنة ١٢٤١ قبل انتهاء المدة السابقة •

اما الفرقة الانكليزية فقادها رشارد امير كورنوول الذي نهض بالامر منذ سنة ١٢٣٦ • الا انه لم يشرع بالتحرك آنذاك لاحتياجه للاموال • وقد استحصل له اخوه الملك هنري الثالث ثلاثة آلاف مارك من اليهود • ولعل من جملة الاسباب التي ادت الى تأخره ايضا عدم رغبة اخيه في اشتراكه في حرب صليبية لا يعلم مصيره فيها وخاصة انه ولي العهد للعرش الانكليزي • كما ان لتردد البابوية حول الجهة التي تسير اليها الحملة كانت من عوامل التأخير ايضا • اذ ساورت البابوية فكرتان في ذلك الشأن : اتوجه الحملة الى القسطنطينية لمساعدة الامبراطورية اللاتينية ام للاراضي المقدسة ؟ واخيرا تقرر ارسال الفرقة الى الجهة الثانية عن طريق البحر حيث وصلت عكا في تشرين الاول سنة ١٢٤٠ •

لم يقم الامير رشارد في الجهات الفلسطينية بفعاليات عسكرية تستحق الذكر • وذلك للنزاع الحاد بين الاسبتارية وفرسان المعبد الذي بات يهدد بالانفجار • فقد اعتصم الاسبتارية في عكا وكانوا من انصار التحالف مع مصر، بينما اعتصم فرسان المعبد في يافا وهم من دعاة الاتفاق مع دمشق • وعلى كل فقد توجه رشارد الى يافا ومن هناك تفاوض مع

---

(11) Setton, op. cit., 477-79.

السلطات المصرية حول سريان مفعول اتفاق الصالح ايوب مع الامير الفرنسي ثيوبالد . ثم اشرف على استكمال بناء اسوار عسقلان التي سلمها الى احد اتباع الامبراطور فردريك . ثم انتظر حتى تمت عملية تسليم الاسرى في ١٣ نيسان سنة ١٢٤١ فأبحر الى بلاده في مايس(١٢) .

الحملة السابعة ـ القديس لويس :

ان الداعي لهذه الحملة هو البابا انوسنت الرابع ١٢٤٣ ـ ١٢٥٤ الذي تميزت مساعيه في هذا الشأن عمن سبقه من البابوات باتباعه دبلوماسية جديدة بالنسبة لمعالجة مشكلة الدولة الصليبية اذ فتح باب المفاوضات مع المغول لتكوين حلف عسكري للاطباق على المسلمين من جهتي الشرق والغرب . فقد ارسل وفدين الى منغوليا(١٣) . كان الاول برئاسة الراهب الفرنسسكاني كاربيني John Gran de Carpini الذي غادر مدينة ليون في نيسان متوجها الى البلاط المغولي عن طريق روسيا سنة ١٢٤٥ . فوصل المعسكر الامبراطوري المغولي في سيرا اوردو قرب قراقورم في آب سنة ١٢٤٦ عند اعتلاء كويوك Guyuk عرش المغول . ولم تسفر جهود هذا الوفد عن نتائج ايجابية حيث ان كيويوك سلم كاربيني رسالة الى البابا يدعوه فيها وكافة امراء اوربا تقديم ولائهم له . ومع ذلك فقد حاول انوسنت الرابع استمالة المغول ثانية بواسطة وفده الثاني الذي كان برئاسة الراهب الدومنيكاني اسلين اللمباردي الذي غادر ايطاليا سنة ١٢٤٧ في الوقت الذي شرع فيه المغول زحفهم على الجهات الاسلامية . وسار اسلين عبر الاراضي السورية ومنها الى العراق ثم ايران حيث التقى في مدينة تبريز بالقائد المغولي بيجو في مايس سنة ١٢٤٧ . وقد رأى اسلين (ان القائد المغولي الشرس) يميل الى تحالف مع الغرب لمهاجمة العباسيين والايوبيين . وارسل بيجو وفدا عنه الى البابوية بصحبة اسلين يتألف من عضوين هما ايبك وسركيس حيث مكثا لمدة سنة في روما . اما بالنسبة لدور انوسنت الرابع في اوربا في المجال الصليبي فلم تجد

(12) Ibid., 483-85.
(13) Lamb, op. cit., 2.

دعوته استجابة في الامبراطورية الرومانية المقدسة لخلافه مع الامبراطور فردريك الثاني ولاشتعال الحرب الاهلية بين الكولف والغبلين في الجهات الايطالية خاصة مما اضطر البابوية ان تنتقل موقتا الى مدينة ليون • كما لم يكن هنري الثالث ملك انكلترا في وضع يمكنه من الاسهام لتمشكله مع نبلائه • كما رفضت حكومة البندقية الاسهام في المشروع محافظة على مصالحها التجارية مع مصر • اما بيزا وجنوا فتعهدتا بتقديم المساعدات • وقد وجدت الدعوة استجابة قوية من ملك فرنسا لويس التاسع الملقب بالقديس ١٢٢٦ ــ ١٢٧٠ •

حملة القديس لويس :

نهض لويس التاسع بذلك الامر برغبة صادقة وايمان مكين وكرس طاقاته في ذلك الشأن منذ سنة ١٢٤٤ حتى وفاته • والسبب الرئيسي للحملة استعادة المسلمين القدس في صيف سنة ١٢٤٤ نتيجة للتحالف المصري الخوارزمي كما اشرنا • لهذا اعلن لويس رسميا تشكيل الحملة في كانون الاول سنة ١٢٤٤ •

غادر لويس في ٢٥ آب ١٢٤٨ مصطحبا زوجته معه حيث وصل قبرص في ١٧ ايلول التي اصبحت مكان التجمع والانطلاق • ومكث فيها حتى ربيع سنة ١٢٤٩ • وقد كلف هذا المكوث الطويل نسبيا الكثير من المصاعب للحملة • اذ توفي خلاله بعض القادة البارزين ثم صرف الكثير من النبلاء ما لديهم من مال واضاعوا ايضا فرصة الهجوم على الاراضي الاسلامية في وقت كانت الحروب الاهلية مستعرة بين الصالح والناصر •

لقد اجرى لويس من قبرص اولى اتصالاته بالمغول • اذ وفد عليه اثنان من النساطرة هما مارك وداود سنة ١٢٤٨ بالنيابة عن الجنرال المغولي الجيغيادي Aljighidai الذي كان في جهات الموصل • وقد اخبرا لويس برغبة ذلك الجنرال في التعاون مع الصليبيين • لهذا ارسل لويس وفدا برئاسة الراهب الدومنيكاني اندرو محملا اياه الهدايا للامبراطور المغولي ومن جملتها خيمة كبيرة صممت على هيئة بناء كنسي • وقد غادر الوفد قبرص في كانون الثاني سنة ١٢٤٩ الى الموصل ومنها ارسلهم الجنرال

المغولي الى منغوليا ٠ وقد علم الوفد عند الوصول الى العاصمة المغولية قراقورم بوفاة الامبراطور كويوك وان ارملته Qaimish هي التي تحكم بصفتها وصية على العرش ٠ وقد رحبت قيمش بالوفد الفرنسي الا انها اعتبرت الهدايا كرمز لولاء الملك لويس للعرش المغولي ٠ وقد اعتذرت الوصية للوفد بأن مشاغل النزاع حول العرش تحول دون ارسالها قوة عسكرية كبيرة ضد المسلمين ٠ ورجع اندرو بعد ثلاث سنين محملا برسالة من المغول يطلبون فيها المزيد من الهدايا التي يجب ان يقدمها لويس سنويا لهم(١٤) ٠

قدرت الجيوش التي تجمعت في قبرص بتقديرات متفاوتة حدها الاعلى بخمسين الفا والادنى بخمس وعشرين الفا ٠ وقد ابحرت الى دمياط في اواخر مارت فوصلت في اليوم الرابع من حزيران سنة ١٢٤٩ ٠

كان الصالح آنذاك في الجهات السورية منشغلا في حرية ضد امارة حلب ٠ وقد اوقف عملياته العسكرية هناك حال سماعه بقدوم الحملة فأعاد جيشه الى مصر بقيادة فخر الدين وزير دولته وقد تأخر الصالح قليلا في سوريا لمرضه ٠ ولم يتمكن فخر الدين ولا امراء قبيلة كنانة من الدفاع عن دمياط اذ فضلوا تخلية المدينة فاحتلها قوات لويس في ٣ حزيران سنة ١٢٤٩ ٠

لقد استقر رأي الملك لويس على ان يزحف من دمياط على القاهرة تبعا لاقتراح اخيه روبرت امير ارتوا ٠ فشرعوا بالتحرك في ٢٠ تشرين الثاني حيث المنصورة ذات الاحداث الجسام بالنسبة للمصريين والصليبيين٠ اذ توفي الصالح ايوب فيها وكادت ان تؤدي وفاته لكارثة كبرى لولا ذكاء زوجته شجرة الدر التي اعتمدت على فخر الدين ورئيس حرس البلاط جمال الدين محسن في كتم امر وفاة الصالح خشية على تفرق الجند لا سيما ان ولي العهد طورنشاه كان في جهات الجزيرة الفراتية ٠ اذ ابرزت وصية زورتها عن زوجها تفيد باسناد العرش الى طورانشاه وان يكون فخر الدين قائدا عاما ونائبا عنه طيلة مرضه ٠ وقد حدث في ذلك الاثناء

---

(14) Runciman, op. cit., 259-60.

ان قام الصليبيون بهجوم على المعسكر الاسلامي في المنصورة اسفر عن مقتل فخر الدين كما قتل فيها اخو الملك الفرنسي روبرت امير ارتوا وتمكن المسلمون من صد المهاجمين وتكبيد فرسان المعبد بصورة خاصة خسائر جسيمة في ذلك الهجوم الخاطف ٠ وقد انقلبت مواقف الصليبيين الهجومية الى دفاعية منذ ذلك الوقت المصادف ١١ شباط سنة ١٢٥٠ ٠ وقد ازدادت المقاومة الاسلامية عنفا عند وصول طورانشاه ٠ اذ اخـذ لويس يفكر بالانسحاب الى دمياط في نيسان ٠ ولم يكن التراجع بالامر اليسير ٠ لهذا فاتح لويس طورانشاه بأن يعيد القدس مقابل الانسحاب مـن دمياط فرفض الطلب ٠ لهذا قرروا التراجع نحو دمياط مهما كانت المجازفة ٠ وقد اضطر الجيش الصليبي الى الاستسلام برمته قرب فارسكور بما فيهم الملك لويس الذي اقتيد اسيرا الى المنصورة ٠ ويذكر المقريزي[١٥] : طلب الملك وعدد من حاشيته اثناء القبض عليهم في (المنية) الامان ٠ فأمنهم الطواشي جمال الدين محسن الصالحين ٠٠٠ واخذوا الى المنصورة فقيد الملك بقيد من حديد واعتقل في دار القاضي فخر الدين بن لقمان ٠٠٠ وكلف بحفظة الطواشي صبيح المعظمي ٠

شرعت المفاوضات بين الجانبين في المنصورة حول اطلاق سراح الملك وجيشه ٠ اذ طلب الوفد المفاوض المصري في اول الامر التخلي عن دمياط وكافة الاراضي الفلسطينية فأجاب لويس بأن فلسطين عائدة الى كونراد بن الامبراطور فردريك الثاني ٠ لهذا عدل طورانشاه عن ذلك للعلاقات التقليدية الحسنة مع الالمان ٠ واكتفى الجانب المصري بالانسحاب من دمياط ودفع فدية قدرها خمسمائة الف جنيه فوافق لويس على ذلك ٠ وسفر الملك نهرا الى فارسكور حيث مقر طورانشاه ٠

وما كان بمقدور لويس ان يفي بتعهداته لولا جهود زوجته ماركريت التي كانت في دمياط ٠ اذ تمكنت من اقناع البيزويين والجنويين بعـدم سحب قواتهم من المدينة لان الاحتفاظ بدمياط العامل الرئيسي في مساومة المصريين على اطلاق سراح زوجها[١٦] ٠ ثـم فوضت ماركريت رئيس

---

(15) المقريزي ، المصدر السابق ، ٢٣٠ ٠

(16) R. Pernoud, The Crusades (London, 1962) 247-8.

الاساقفة روبرت بالتصرف المالي لافتداء زوجها ، وقد غادرت دمياط الى عكا بعد ان ولدت طفلا اسمته وليد الاحزان ،

وقد خيف على الاتفاقية بين طورانشاه والملك لويس من الالغاء على اثـر اغتيال المماليك في معسكر فارسكو طورانشاه ، اذ اعتقد لويس وحاشيته بأنهم مهددون مع الاسرى الى خطر الابادة ، فقد انقسم قادة المماليك بين مؤيد لاطلاق سراح لويس ومعارض خشية مـن خطره في المستقبل الا ان الاكثرية لم ترغب في خرق الاتفاق وخفضوا له المبلغ السابق فكان عليه ان يدفع اربعمائة الف دينار نصفها مقدما قبل مغادرته مصر والباقي عند وصوله عكا ، وقد غادر مصر الى الاراضي المقدسة في مايس سنة ١٢٥٠ ، وقال الشاعر جمال الدين بن مطروح في هذه المناسبة ابياتا منها(١٧) :

فساقـك الحـين الـى ادهـم
ضاق بـه عن ناظريك الفسيح
وكـــل اصحابـك اودعتهـم
بحسـن تدبيرك بطـن الضريح
وقـل لهـم ان ازمعوا عـودة
لاخـذ ثـأر او لفعـل قبيـح
دار ابـن لقمان علـى حالهـا
والقيد بـاق والطواشي صبيح

لقد امضى لويس في عكا قرابة الأربع سنوات منتظرا عبثا وصول امدادات عسكرية غربية ، وقام اثناء المدة بجملة فعاليات : حيث عقـد اتفاقا دفاعيا مع فرقة الاسماعيلية سنة ١٢٥٢ ، ثم حاول الاستفادة من الخلاف بين امير حلب الايوبي والمماليك لقتلهم طورانشاه وخطفهم العرش الايوبي ، وقد تقرب اليه الطرفان طلبا للمساعدة ضد الطرف الآخر ، الا انه اضطر الى تفضيل التعاون مع المماليك لتهديدهم اياه بابادة الاسرى لديهم ، لهذا عقد اتفاقية معهم تضمنت تقديم مساعداته للجيش المصري

---

(17) نفس المصدر ، ٣٥٥

عند غزوه سورية مقابل التنازل عن القدس وبيت لحم ومعظم الاراضي غرب الاردن • وقد خابت آماله بالاتفاق نتيجة للتسوية التي تمت بين المصريين والسوريين بوساطة الخليفة العباسي المستعصم سنة ١٢٥٣[١٨] • كما جدد لويس مفاوضاته مع المغول • حيث ارسل سنة ١٢٥٣ وفدا من بعض رهبان الدومنيكان الى جهات منغوليا حاثا اياهم على القيام بحملة مشتركة ضد الديار الاسلامية من جهتي الغرب والشرق • كما انه اشرف على حـل مشكلة الوراثة للعرش الصليبي خاصة وان الامبراطور كونراد وريث فردريك الثاني لم يكن في وضع يمكنه من فرض سيادته علـى ممتلكات والده • لهذا سهل لويس مهمة زواج باليان بن جون ابلين من وارثة العرش الصقلي والصليبي الا وهي بليسانس سنة ١٢٥٢ • وقد غادر لويس الاراضي المقدسة في نيسان سنة ١٢٥٤ بدون ان يستلم جـواب المغول[١٩] •

(18) Strayer, The Crusades of Louis X, in Setton, op. cit., 506.
(19) Runciman, op. cit., 279-80.

الفصل التاسع

المغول وتطورات الأحداث في المشرق

المغول : اصلهم ، جنكيز خان ، اسرته ، كفاحه للزعامة . اعلان الامبراطورية ، دستور جنكيز خان ـ الاندفاع الاول . وفاته . اكوادي وكيويوك ، الاندفاع الثاني ، قرقوروم قبلة العالم ، الاتفاق المغولي الارمني ، هولاكو وفتوحاته . قيام دولة الخانات المغولية في ايران .

المماليك : اصلهم ، الانقلاب ضد الايوبيين ، شجرة الدر وايبك . قطز والمغول ، بيبرس البندقداري .

الدولة الصليبية واحداثها .

المغـــول :

لقد امتدت الامبراطورية المغولية في النصف الثاني من القرن الثالث عشر من كوريا شرقا حتى بولندا غربا ومن جنوب الصين الى السواحل الآسيوية المطلة على البحر المتوسط . وقد ولد ظهور المغول كقوة عالمية انقلابا خطيرا في توازن القوى وفي العلاقات بين الشرق والغرب .

والمغول في بدايتهم قبائل قاطنة حول سهول نهر امور في الاقسام الشمالية الشرقية من آسيا تدين بالولاء الى امبراطورية الصين الشمالية . والمؤسس للامبراطورية المغولية هو تيموجين Timujin اي الفولاذ النقي والذي اصبح يلقب فيما بعـد جنكيز خان امبراطور كافة الرجال اي امبراطور العالم . ولد هذا سنة ١١٦٧ وكان ابوه يسوكاي Yeesugai زعيما على احدى القبائل المغولية اشتهر بين قومه بانتصاراته على قبائل

التتر المجاورة ، فالتف حول رايته عدد لا يستهان به من زعماء القبائل المغولية .

اما والدة تيموجين فهي هولون Houlun التي تزوجها يسوكاي اغتصابا . اذ اختطفها في ليلة زفافها في احدى غاراته على المكريين . ومع انها كيفت حياتها لوسطها الجديد واصبحت اما لتيموجين الا انها كانت على يقين بأن قبيلتها لا بـد وان تهب لاخذ الثأر في يوم من الايام مهما طال الزمن .

حبت الطبيعة تيموجين سيئاتها وحسناتها : فوهبته قوة جسمانية وتعطشا للدماء وذكاءا فطريا منذ نعومة اظافره . اذ كان المصارع الاول بين اقرانه . وذبح احد اخوانه من اجل سمكة سرقها منـه اخوه اثناء الصيد . واحب الفتاة بوتاي Boutai وهو في الثالثة عشر من عمره والتي كانت تصغره بثلاث سنوات . فكلم والده بأمرها وحينما قال الوالد بأنها ما زالت صغيرة اجاب تيموجين لا بـد وان تكبر ويعلمها الزمن الخبـر[١] .

لقد توفي يسوكاي بعيد اتمام الخطبة لابنه ، ويقال انه مات مسموما ، تاركا مسؤوليات جسيمة ملقاة على عاتق تيموجين . اذ طوت اكثرية القبائل خيامها وراحت تضرب في الآفاق حـال علمها بوفاة يسوكاي . اذ ماذا تفيدهم قيادة صبي تحت وصاية ارملة ؟ وكما يقول مثلهم : لقد غيض الماء وانهار الجبل . وفضلت القبائل الانضواء تحت راية زعيم قبائل غوبي الشمالية تركوتي Targouti . ولم يشعر هذا بالراحة طالما بقي هناك من يطالب بحقه الشرعي في وراثة زعامة يسوكاي . لهذا اخـذ يطارد تيموجين وتمكن فعلا من القاء القبض عليه الا انه تمكن من الفرار بمساعدة احد حراس اعدائه الذي رق قلبه عليه .

كان بامكان تيموجين الاستفادة من جهتين عند افلاته من الاسر هما عشيرة والد خطيبته ثم دولة الكريات . فقد كان والد بوتاي من الزعماء الاقوياء اما دولة الكريات ذات الثراء والقوة فبامكانها تقديم العون الى

(1) H. Lamb, Genghis Khan (N.Y., 1965) 9-16.

تيموجين لاستعادة ملك والده . لا سيما وان ملكها طغرل المعروف عند الغرب بالقسيس جون Prester John يعتبر نفسه بمقام الوالد الـى تيموجين لانه شرب مع يسوكاي نخب الصداقة الابدية التي تحتم على اي منهما مساعدة اولاد الثاني فيما اذ دعت الحاجة(٢) . الا ان تيموجين تردد في الاستعانة في اي منهما في باديء الامر . وذلك حسب قوله بأن زيارة المفلس لاصدقائه لا تجلب غير الاحتقار والعار . وصمم ان لا يزور طغرل كلاجيء وانما كحليف .

تمكن تيموجين بشجاعته من المحافظة على مراعي اسرته فتحسنت حالته المالية ثم بدأت تتوافد عليه بعض القبائل لما توسمته فيه من زعامة مقبلة بعد ان بلغ عمره السابعة عشر . لهذا قرر تيموجين الزواج من خطيبته بوتاي ذات العينين الشهلاوتين . ثم خف لزيارة طغرل وهو موفور الكرامة طالبا منه التحالف ضد القبائل المكرية التي اغارت على مضاربه واختطفت في احدى غاراتها زوجته بوتاي اخذا لثأر هولون الذي مضت عليه ثمانية عشر عاما . وقد تمكن من الانتصار على المكريين واستعاد منهم زوجته .

واصل تيموجين خطة والده في الزعامة والتوسع على حساب المناطق المجاورة متحالفا مع دولة الكريات وامبراطورية الصين الشمالية . اذ احرز نصرا حاسما على عدوه تركوتاي في معركة الثلاثين الفا ، ونودي به سنة ١١٩٤ جنكيز خان اي امبراطور العالم من قبل زعماء التتر والمغول فحمل صولجان القيادة العاجي واعترف له بذلك امبراطور الصين الشمالية .

هذا ولم يستمر تحالفه مع الكريات طويلا . اذ نشبت الخلافات بينهما حال وفاة طغرل على الغنائم والخطط التوسعية لكل منهما . فانقلب التحالف الى عداء سافر ادى الى معركة انتهت بفوز جنكيز خان سنة ١٢٠٣ . وتمكن هذا في فترة ١٢٠٣ ـ ١٢٠٦ من السيطرة على كافـة المناطق الكائنة بـين نهري امور في الشمال الشرقي وتاريم Tarim في الجنوب الغربي اي كافة المناطق الواقعة خارج السور الصيني الاعظم .

لقد تقرر في مؤتمر عام عقده جنكيز خان سنة ١٢٠٦ ان تعمم كلمة

(2) R. Grosset, L'Empire Mongol, VIII (Paris, 1945) 48-54.

المغول على كافة القبائل الخاضعة لحكمه ، لذا يعتبر ذلك التاريخ البداية الرسمية للامبراطورية المغولية تحت قيادة جنكيز خان واسرته المسماة بالاسرة الذهبية ،

شرع جنكيز خان دستورا لامبراطوريته يشار له الياسا Yasa ليحل محل الاعراف القبلية ، وتناول الدستور امورا متعددة ، وقد استهل بتوحيد المعتقد اذ اشار الى الاعتقاد بفاطر السموات والارض يهب الملك لمن يشاء ويسلبه ممن يشاء وهو القوي الجبار ، حسب معتقدهم الوثني وقد اشتمل على المواد التالية :(٣)

١ ـ يتحرر من المسؤوليات الحكومية كل من الوعاظ والرهبان الذين كرسوا انفسهم للخدمات الدينية وكذلك للمؤذنين والاطباء وغسالي الموتى ،

٢ ـ يعاقب بالاعدام كل من يعلن نفسه امبراطورا خلافا لارادة المؤتمر المغولي العام ،

٣ ـ يمنع كافة الزعماء من غير المغول والعشائر الخاضعة للمغول من حمل الالقاب الفخرية ،

٤ ـ لا يجوز عقد السلم مع اي ملك او امير او امة من الامم مهما كانت الا بعد تقديم الخضوع للمغول ،

٥ ـ مراعاة القاعدة العسكرية في تعبئة الرجال الى عشرات ومئات وألوف وعشرات الالوف ،

٦ ـ يستلم الجندي السلاح من آمره حال ابتداء المعركة ، وعلى الضباط الاحتفاظ بالاسلحة سليمة والتأكد من صلاحيتها قبل المعركة ،

٧ ـ يعاقب بالاعدام من يحاول القيام بنهب اموال الاعداء قبل صدور الاوامر بذلك ، وللجندي من الغنائم ما للضباط بعد ان تؤخذ منها حصة الامبراطور ،

٨ ـ القيام بصيد عام في كل شتاء لاستمرار التدريب الحربي

---

(3) Lamb, op. cit., 189-91.

ولتجهيز الارزاق • وعلى كافة الافراد الامتناع عن الصيد من بداية مارت الى تشرين الاول •

٩ ــ لا يجوز ذبح الحيوانات المصطادة • بل يجب ربطها وشق الصدر واخراج القلب منها •

١٠ــ يسمح بأكل اطراف الحيوانات واحشائها ولعق الدم ولو ان ذلك كان من المحرمات سابقا •

١١ــ ان الشخص الذي لا يساهم في الحرب عليه ان يؤدي خدمة اخرى للامبراطور مجانا لمدة من الزمن •

١٢ــ يعاقب بالاعدام من يسرق جوادا او ما يساويه وذلك بقطع جسمه الى شطرين • اما عقوبات المسروقات الاخرى فتتوقف على نوعية المسروق وثمنه وتتراوح العقوبة لهذه الاشياء من سبع جلدات الى سبعمائة • ويمكن تحويل الجلد الى غرامة بمقدار تسعة امثال الشيء المسروق •

١٣ــ لا يجوز للافراد الخاضعين للمغول تشغيل اي مغولي في اي عمل كان •

١٤ــ لا يجوز ايواء العبد الابق • ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للاعدام • وان الشخص الذي يعرف مكان العبد الابق ولم يخبر السلطات عنه يعرض نفسه لنفس العقوبة •

١٥ــ لا يجوز الزواج من اقارب الدرجتين الاولى والثانية ويجوز الزواج بأختين ، ويحق للزوج اقتناء الجواري • ويسمح للنساء بتعاطي الاعمال التجارية حسب رغباتهن •

١٦ــ الاولاد الذين يولدون من اصل عبودي لهم نفس حقوق الاولاد الشرعيين • على ان نسل الزوجة الاولى لهم الشرف الاول ولهم حق وراثة كل شيء •

١٧ــ يعاقب الزنا بالموت •

١٨ــ لا يجوز غسل الملابس او الاستحمام في المياه الجارية اثناء الرعد والصواعق •

١٩ــ يعاقب بالاعدام كافة الجواسيس وشهود الزور والمشعوذين

وذوي السمعات الرديئة •

٢٠ـ يعاقب بالموت اي ضابط او زعيم لا يقوم بتأدية واجباته او عند رفضه الحضور امام الامبراطور •

ولقد حتم جنكيز خان على كافة الافراد الذين تتراوح اعمارهم بين الرابعة عشر والستين الالتحاق بالجيش عند النفير • وعليه فبتلك القوة الهائلة تمكن من السيطرة على معظم البلاد الصينية والكورية والمناطق المحاددة لبلاد المسلمين من جهات الافغان في فترة ١٢١٩ ـ ١٢٢١ •

الاندفاع المغولي الاول :

ادى توسع جنكيز خان غربا على حساب الاقطار الاسلامية الى الاصطدام بالدولة الخوارزمية المتسلطة على ايران وشمال الهندو افغانستان • وتمكن في فترة ١٢٢١ ـ ١٢٢٧ من انزال هزائم كبرى بجيوش الدولة الخوارزمية(٤) • ووصلت غاراته القفقاس ومنها الى الاقسام الجنوبية من روسيا والجهات الوسطى من الفولكا ١٢٢٠ ـ ١٢٢٣ • وقد اضطرت الجيوش المغولية الى التراجع الى منغوليا على اثر وفاة جنكيز خان سنة ١٢٢٧ وذلك من اجل التشاور في موضوع الامبراطور الجديد •

الاندفاع المغولي الثاني :

لقد قسم جنكيز خان الامبراطورية قبل وفاته بين اربعة من اولاده عاهدا باللقب الامبراطوري الى ابنه الاكبر اوكوداي • وقد وافق المؤتمر المغولي العام المنعقد سنة ١٢٢٩ على وصية جنكيز خان بصورة رسمية(٥) • وتقرر في ذلك المؤتمر استئناف التوسع في ثلاث جبهات : هي الصين الشمالية وتولاها الامبراطور اكوداي • والجبهة الاوربية بقيادة باطو بن جوجي بن جنكيز خان • اما الثالثة فهي الجبهة الايرانية التي عهد بها الى جرمقان •

احرزت الجيوش الثلاثة انتصارات حاسمة في جميع الجبهات

---

(4) S. P. Sykes, A History of Persia, Vol. II (London, 1951) 80.
(5) Grosset, op. cit., 284-91.

١٢٣٠ – ١٢٥٨ ، فقد اكمل الامبراطور اوكوداي فتح الصين الشمالية سنة ١٢٣٤ ، واكتسح باطو روسيا الجنوبية واستمرت غاراته لسنتين على المناطق الكائنة بين موسكو والبحر الاسود ، ثم واصل الغارات على الجهات الشمالية الغربية فدمر كييف سنة ١٢٤٠ وعبر الفستولا سنة ١٢٤١ وانزل هزيمة في الجيش المجري في موقعة موهاي جنوب شرق بودابست ، وتقدم نحو سواحل الادرياتيك وعرجوا نحو بلغاريا وباتوا يهددون كافة اوربا ، الا ان باطو فضل الانسحاب من اوربا الوسطى وتركيز دولته في المناطق الجنوبية من روسيا سنة ١٢٤٢ عند وفاة الامبراطور[٦] اكوداي ،

لقد تمت تصفية الدولة الخوارزمية واكثرية مناطق الجبهة الايرانية في فترة ١٢٣٠ – ١٢٤٢ ، اذ تمكن جرمقان من فرض سيطرته على اذربيجان وارمينيا والاغارة على العراق في جهات سامراء سنة ١٢٣٧ ، فخاض الخليفة المستنصر ١٢٢٦ – ١٢٤٢ معركتين ضدهم كسب الاولى قرب جبل حمرين وخسر الثانية في معركة خانقين سنة ١٢٣٨ ، واحرزت جيوش جرمقان انتصارات على سلاجقة آسيا الصغرى في عهد السلطان غيات كيخسرو الثاني سنة ١٢٤٢ حيث دخل في تبعية المغول ، كما فرض جرمقان اتاوت على حلب وانطاكيا ، واصبح هيثوم ملك ارمينيا الصغرى تابعا للمغول[٧] ،

توقفت الفتوحات المغولية عند وفاة اكوداي موقتا سنة ١٢٤٢ ، اذ غادر القادة جبهاتهم عائدين للعاصمة المغولية قرقوروم للاشتراك في المؤتمر العام للنظر في امر الامبراطور الجديد كما جرت العادة ، ولم يتوصل المؤتمر المنعقد سنة ١٢٤٢ الى نتائج حاسمة للخلافات بين ورثة اوكوداي ، واخيرا توصلت الاطراف المتنازعة الى اتفاق حول انتخاب كويوك بن اوكوداي ١٢٤٦ – ١٢٤٨ ،

الامبراطور كويوك :

بالرغم من قصر الفترة التي حكمها كويوك فقد اصبحت قرقوروم

---

(6) S. Glubb, The Lost Centuries (London, 1967) 245.

(7) Ibid., 47.

في عهده قبلة الانظار ، اذ تقاطرت عليها الوفود من شتى الأنحاء لتقديم الولاء او للتحالف او التبشير بالمسيحية[8] ، اذ قصدها ركن الدين قليج ارسلان الرابع عن سلاجقة آسيا الصغرى ثم امير ايوبي عن حلب ، وامبراطور دولة طربزون البيزنطية في آسيا الصغرى ، كما حضر وفد من بغداد عن الخليفة المستعصم ، وكانت هناك عدة وفود اخرى من الموصل وفارس وارمينيا الصغرى ، وشخص امير امراء روسيا ياروسلاف بنفسه ليقدم ولاء التبعية الى كويوك ، وكان هناك الموفد البابوي كاربيني Carpini يحمل رسالة من البابا انوسنت الرابع ، وقد حمل كويوك وفدي الخليفة والاسماعيلية الايرانية رسائل تهديد ، حيث امر فيها كلا من الخليفة وشيخ الجبل في ايران تقديم الخضوع حالا ، ثم كتب كويوك رسالة للبابوية سلمها الى كاربيني جاء فيها : (لقد امر الله اسلافي وامرني ايضا بابادة الامم الضالة ، وها انت تسأل فيما اذا كنت مسيحي المعتقد ، فان الله يعلم وان شاء البابا ان يعلم فمن الاولى به ان يشخص بنفسه الينا ...)[9] .

لم يستمر كويوك في الحكم غير سنتين اذ توفي سنة ١٢٤٨ نتيجة لادمانه الخمر ، تاركا زوجته قيامش وصية يساعدها اثنان من النساطرة في ادارة الامبراطورية ، وقد سادت الفوضى فترة الوصاية ١٢٤٨ ــ ١٢٥١ نظرا للحروب الاهلية بين اسرة كويوك من جهة واسرتي باطو وتولوي Tului من جهة اخرى ، واخيرا اتفقت الاسرتان الاخيرتان على مبايعة مانكو Mangu بن تولوي حيث توج امبراطورا سنة ١٢٥١ .

مانكو ١٢٥١ ــ ١٢٦٠ :

استهل مانكو الحكم بتصفية زعماء المعارضة من اقاربه وخاصة اسرة اوكوداي ، حيث امر بوضعهم في اكياس مغلقة ورميهم تحت حوافر الخيول المغيرة فهشمت عظامهم ، وامر باعدام اتباعهم رميا بالحجارة ، ومع ذلك

---

(8) E. Browne, A Literary History of Persia, Vol. II (Cambridge,. 1956) 451.

(9) Lamb, op. cit., 204.

فيقال عنه بأنه اقل حكام المغول تعطشا للدماء وخاصة فيما لو قورن بجده جنكيز خان ، اذ انتقم هذا في احدى انتصاراته من سبعين زعيما من اعدائه بتغطيس كل واحد منهم في قزان خاص يغلي بالمياه دفعة واحدة(١٠) .

والى مانكو هذا قصد وفد لويس التاسع الذي ارسله اثناء اقامته في عكا ، وكان الوفد برئاسة الراهب الفرنسسكاني روبروك ، ومما يذكره الاخير بأن مانكو يرغب في ايجاد سبب مشترك مع ملك فرنسا لمهاجمة المشرق ، وقد دارت محاورات طريفة بين روبروك والامبراطور المغولي تنبأ فيها الاول بأن مانكو سوف يحكم العالم ويسبغ عليه العدل والسلام ، وعلى كل فلم ترتفع المفاوضات بين لويس ومانكو الى مستوى الاتفاق نظرا لغطرسة المغول وعدم قبولهم التحالف مع اية جهة تعتبر نفسها على قدم المساواة في السيادة والسلطة مع الامبراطور المغولي ، اذ طلب مانكو من لويس ان يكون تابعا له(١١) .

لقد تحالف مانكو مع هيتوم ملك ارمينيا الصغرى بعد ان اصبح الاخير تابعا للمغول وذلك من اجل بسط النفوذ المغولي في جهات المشرق حسب الاتفاق المعقود بين الجانبين في ايلول سنة ١٢٥٤ والذي تضمن :(١٢)

١ ـ تبعية هيتوم لامبراطور المغول .

٢ ـ التعاون مع كافة الدول المسيحية لاسترجاع القدس .

٣ ـ يعين ملك ارمينيا مستشارا لامبراطور المغول في شئون المشرق .

٤ ـ اعفاء الكنائس في الامبراطورية المغولية من الضرائب وقد بدا هيتوم في ذلك الاتفاق وكأنه يتكلم عن كافة اوربا اللاتينية والدولة الصليبية .

---

(10) E. Gibbon, The Decline and Fall of The Roman Empire, Vol. 6 (London, 1962) 274.

(11) Lamb, op. cit., 211.

(12) S. Runciman, A History of the Crusades, Vol. II (Cambridge, 1955) 247.

الاندفاع المغولي الثالث :

لقد استحصل مانكو منذ سنة ١٢٥١ موافقة المؤتمر القبلي العام على استئناف الفتوحات في جهات الصين الجنوبية والهند والمشرق الاسلامي ٠ وقد عهد بقيادة جبهة المشرق الى اخيه هولاكو ٠

تمكن هولاكو من احراز انتصارات حاسمة على المسلمين في فتـرة ١٢٥٤ ــ ١٢٦٠ اذ تحركت جيوشه غربـا في شباط سنة ١٢٥٤ وامضى الصيف في جهات سمرقند سنة ١٢٥٥ ووصلت جيوشه دوماند في ايران في صيف سنة ١٢٥٦ وراح يهاجم المعاقل الاسماعيلية ٠ فاضطر شيخ الجبل ركن الدين خرمشاه الى الاستسلام بنفسه مقابل اعفائه من عقوبة الاعدام٠ ومع ذلك فقد استمرت حاميات القلاع الاسماعيلية في المقاومة في القاعدة الكبرى الموت وكردكوه ٠٠٠ الا ان هولاكو اجبر الموت على الاستسلام في كانون الاول سنة ١٢٥٦ ٠

لقد سمح هولاكو الى ركن الدين بأن يذهب الى قرقوروم لمواجهة مانكو عساه ان ينعم عليه بفرمان يعيد اليه بعض ممتلكاته وان يتشفع لبقية الاسماعيلية ٠ وقد رفض مانكو مقابلة ركن الدين واشار بامتعاض : انه من المؤسف حقا ان تنهك قوى خيول مغولية على مهمة تافهة كهذه ٠ لهذا امره بالرجوع وفتك به الجند المغولي المرافقين له اثناء الطريق بأمر من الامبراطور مانكو ٠ كما امر بابادة كافة الاسماعيلية وآثارهم في ايران ٠

نفذ هولاكو اوامر مانكو بكل دقة في شأن الاسماعيلية في ايران ٠ اذ تظاهر بالعفو عنهم لكي يخرجهم من مكامنهم بحجة انه يود عمل احصاء عام للنفوس ٠ وعندما تم اكتشاف هؤلاء امر باعدامهم جميعا ٠ كما عفا هولاكو على التراث الادبي والفكري للاسماعيلية ٠ فقـد كانت مكتبة قلعة الموت من كبريات المكتبات في العالم الاسلامي ٠ حيث كلف هولاكو مستشاره المسلم عطاء الملك الجويني بحرق المكتبة بعد ان اخرج منهـا الكتب العلمية والنسخ القرآنية[١٣] ٠

---

(13) Browne, op. cit., 458-59.

سقوط بغداد :

اخذ هولاكو يستعد للهجوم على بغداد بعد قضائه على الاسماعيلية ٠ فحاول في بداية الامر اتباع المفاوضات اذ ارسل برسالة من همدان الى المستعصم في مارت سنة ١٢٥٧ يطلب منه الاستسلام ويخبره فيها (ان كافة الدول خضعت للمغول ويجب عليه تهديم اسوار بغداد والمجيء بنفسه الى هولاكو لتقديم الخضوع) ٠ ثم اخبره برسالة اخرى بأنه سوف يبقيه في منصبه بعد اعترافه بالتبعية المغولية وتقديم الاتاوات السنوية ٠ فاعتذر بعدم جواز ذلك شرعا الا انه على استعداد لدفع الاموال ٠ ومما زاد في غضب هولاكو وثوب الناس في بغداد على اعضاء وفده المفاوض والفتك بهم ٠ فشرع بالزحف نحو العراق وظهر امام اسوار بغداد(١٤) في ١٨ كانون الثاني سنة ١٢٥٨ ٠

لم تكن بغداد آنذاك كما كانت عليه ايام الرشيد من ثراء وجاه الا انها لم تزل من المراكز الثقافية والروحانية الهامة ٠ ولم تكن كذلك مؤهلة من ناحية عسكرية للصمود امام المغول ٠ وذلك لنعرات الطائفية التي فرقت السكان ولعدم مقدرة الخليفة ٠ لهذا فقد كان امر الدفاع عن قاعدة الخلافة امرا ميؤسا منه سلفا ٠

احتوت اسوار بغداد على اربعة ابواب هي : باب السلطان ـ باب المعظم حاليا ، ثم خراسان الذي اطلق عليه مؤخرا الباب الوسطاني ، وباب الحلبة وباب كلواذي (الباب الشرقي) ٠ واتخذ هولاكو معسكره في الجبهة الشرقية الممتدة بين بابي السلطان وكلواذي بعد ان استسلمت له الكرخ والكاظمية ٠

اشتد القصف المغولي على المدينة في ٣٠ كانون الثاني سنة ١٢٥٨ ٠ حيث استخدم المغول لمنجنيقاتهم صخورا جيء بها من جبل حمرين ٠ وتمكنوا في اليوم الخامس من شباط من اعتلاء الاسوار في جهة برج الفرس وفي صباح ٦ منه سيطروا على السور الممتد من باب الحلبة الى ما وراء البرج الفارسي فأصبحت المدينة تحت رحمتهم ٠

---

(14) Glubb, op. cit., 252.

اما المستعصم البائس فكان يرسل الوفود تلو الوفود الى معسكر هولاكو بدون جدوى • اذ طلب الاخير انسحاب الجيش من بغداد بحجة ان المغول سمحوا لهم بالنجاة بأنفسهم والتوجه الى سوريا وقد اباد المغول الجيش العباسي حالما تجمع خارج الاسوار • ثم حاول المستعصم مقابلة هولاكو شخصيا مع وجهاء بغداد • وقد استقبلهم الاخير بشيء من اللياقة في اول الامر الا انه امــر فيما بعد باعتقال الخليفة واسرته في المعسكر المغولي •

وبالرغم من ان الجيش المغولي اعتلى الاسوار في اليوم السادس من شباط الا انهم لم يبدأوا بنهب المدينة الا في اليوم الثالث عشر منه • بعد ان اوعز للمسيحيين الاحتماء بكنائسهم بناء لتأثيرات زوجته النسطورية دقوز خان ولاتفاق هيتوم مع مانكو في سنة ١٢٥٤[١٥] • وقد استمرت عمليات النهب والقتل في بغداد لاربعين يوما وقدرت الضحايا بثمانين الفا وملئت الجثث الشوارع والازقة • وقد اضطر هولاكو للانسحاب من المدينة لروائح الجثث ولخوفه من انتشار الوباء في جيشه وترك نائبا عنه في حكم بغداد مؤيد الدين بن العلقمي احد وزراء المستعصم • اما مصير المستعصم فكان الاعدام اما كيفية ذلك فمن الامور غير المتفق عليها •

الموصل تقــدم الولاء :

كانت امارة الموصل تحت تحكم بــدر الدين لؤلؤ الذي استدعاه هولاكو اثر سقوط بغداد • وكان بدر الدين في الثمانين من عمره ويوصف بالدهاء • اذ قرر تلبية دعوة هولاكو بالرغم من تحذيرات حاشيته • حيث قال لعلني اتمكن من ترويضه ولربما اقوده من اذنيه •

تمكن لؤلؤ حقا من مسك هولاكو من اذنيه ولكن بأية مناسبة ؟ قصد لؤلؤ هولاكو محملا بهدايا قيمة نثرت بين يديه • فاستخرج لؤلؤ قرطين ثمينين قائلا بأنه يرغب من السلطان ان يسمح له بتعليقهما في اذنيه لان ذلك شرف كبير له من شأنه ان يزيد في اعتباره بين اتباعه • فسمح له هولاكو بذلك • وهنا لحظ لؤلؤ ارتسام علامات على وجوه اتباعه بأنه

---

(15) R. Levy, A Baghdad Chronicle (Cambridge, 1929) 259-60.

حقق فعلا ما وعدهم به بأنه اخذ القائد المغولي من اذنيه[16] .

وقع انتصارات هولاكو على الامارات المجاورة :

لقد ملأ الرعب قلوب اكثرية امراء سوريا وآسيا الصغرى من جراء الكوارث التي انزلها في العراق . فهرعوا اليه مقدمين الولاء . ومن جملة هؤلاء سلطان سلاجقة آسيا الصغرى كيخسرو الثاني الذي سمح لهولاكو ان يضع قدمه على رأسه . اما بالنسبة للناصر الايوبي امير دمشق ١٢٥٠ — ١٢٦٠ فقد ارسل عدة هدايا الى هولاكو بواسطة ولده الذي قابل القائد المغولي في تبريز في الجهات الايرانية . وبالرغم من توسلات ابن الناصر عند هولاكو فقد اجاب الاخير بأن التوسلات لا تجد الى قلوبنا سبيلا ، اذ استل الله الشفقة منها . وذلك برسالة وجهها الى الناصر يطلب فيها ايضا خضوعه المباشر وينذره بالحرب .

اهاجت الرسالة عواطف الناصر فأجاب هولاكو بلهجة شديدة حيث كتب له ما معناه ان طباع المغول كطباع الشياطين وان مقاومتهم هي اطاعة الله بالنسبة للمسلمين . ولم يألف المغول امثال تلك اللهجة ولا يتسامحون معها . لهذا توجه هولاكو للاراضي السورية مع حلفائه من امراء جورجيا وارمينيا ، فاستولى على مايفرقين عاصمة ديار بكر ثم نصيبين وحران والرها وفتح حلب في الشهر الاول سنة ١٢٦٠ . ويقال بأنه حمل من الاسرى مائة الف من النساء والشباب وامر بقتل بقية السكان وتدمير حلب . وكان الناصر آنذاك بدمشق ثم انسحب منها الى غزة . ولم يتمكن هولاكو من مواصلة تدميراته في سوريا ومطاردة الناصر لانه اضطر للرجوع بقصد التوجه الى منغوليا عند سماعه بوفاة الامبراطور مانكو . الا انه ترك جيشا مغوليا في سوريا بقيادة كتبغا Kitbugha الذي تمكن من احتلال دمشق في واحد مارت سنة ١٢٦٠ بدون مقاومة . كما القى كتبغا القبض على الناصر الايوبي في جهات الاردن فأرسله الى هولاكو في تبريز حيث قتله بنفسه .

---

(16) Glubb, op. cit., 256-57.

دولة الخانات المغولية في فارس :

انقسمت امبراطورية المغول الى اربع دول على اثـر وفاة مانكو سنة ١٢٦٠ الا وهي : دولة القبيلة الذهبية في الجهات الجنوبية من روسيا ، ودولة تركستان ثم منغوليا وملحقاتها التي اصبحت تحت الحكم المباشر للامبراطور قوبليا ١٢٦٠ ــ ١٢٩٤ ، ودولة فارس التي عهد بهـا قوبليا رسميا الى هولاكو وذريته • ويلقب رؤساء الدول الفرعية بالخانات اي الملوك او السلاطين وهم تحت التبعية للامبراطور المغولي الذي يدعـى بالخاقان (سلطان السلاطين) •

لقد شملت دولة هولاكو ايران والعراق والمناطق الاسلامية في آسيا الصغرى واصبحت تسمى بدولة الخانات الفارسية منذ وفاة هولاكو ١٢٦٥ وتعاقب احفاده عليها حتى سنة ١٣٣٤ • وقد اتخذت مدينة تبريز ١٢٦٠ ــ ١٣١٦ عاصمة لهذه الدولة ثم استبدلت بمدينة السلطانية (كنكورلان) ١٣١٦ ــ ١٣٣٤ •

ان للسياسات الدينية والدبلوماسية والاقتصادية التي اتبعتها دولة الخانات المغولية في فارس تأثيرات شديدة في المشرق الاسلامي وفي العلاقات بين الشرق والغرب بصورة عامة • كانت دياناتهم الوثنية بالرغم مـن ان المسيحية النسطورية منتشرة بينهم • فزوجة هولاكو المسماة دقوز خان نسطورية اما هولاكو نفسه فقد فضل البوذية • هذا وقد تأرجح حكام المغول في فارس في اواخر القرن الثالث عشر بين المسيحية والسلام ورجحت في النهاية كفة الدين الاسلامي • واول من اعتنق الاسلام مـن سلاطين فارس هو تيكودور ١٢٨٢ ــ ١٢٨٤[17] • اذ قصد بذلك على ما يبدو ان يضع حدا للحروب بين مغول فارس والمماليك • الا ان اعتناقه الاسلام يعتبر نشازا بالنسبة لتراث جنكيز خان وخلافا للتقاليد المغولية وقد دفع تيكودور حياته ثمنا لذلك الانقلاب الديني • وعلى كل فقد اصبحت دولة الخانات اسلامية بشكل نهائي منذ عهد الخان غازان ١٢٩٥ ــ ١٣٠٤ • غير ان الاسلام لم ينه المشكلة بين خانات مغول فارس الذي تعاقبوا على الحكم

---

(17) S. Sykes, op. cit., 100-110.

والمماليك • اذ ان الخانات فضلوا اتباع المذهب الشيعي خلافا لما يتبعه مماليك مصر • لذا استمرت العلاقات عدائية تحت الستار المذهبي بين الطرفين • ولعل الاختلافات الدينية اولا والمذهبية ثانيا بين المماليك وخانات المغول في فارس من جملة الاسباب الهامة التي ادت الى استئناف المفاوضات الدبلوماسية بين حكام اوربا ودولة الخانات على الاخص من اجل مكافحة العدو المشترك المتمثل في المماليك •

ان تسلط المغول على اهم طرق المواصلات الآسيوية ادى الى تقوية الروابط الاقتصادية بين الشرق والغرب والى زيادة التنافس الاقتصادي بين جنوا حليفة المغول والامبراطورية البيزنطية من جهة وبين البنادقة حلفاء المماليك من جهة اخرى • اذ لم تعد القوافل البرية تتعرض لما كانت تتعرض اليه سابقا من مضايقات الامراء المحليين عند مرورها بمناطقهم واخطار قطاع الطرق او فرض الرسوم العالية • فقد اصبحت تلك الطرق تحت الرعاية المغولية وحمايتها • كما اهتم حكام المغول باصلاح الطرق التي تربط شرق آسيا بغربها حيث شواطىء آسيا الصغرى مراكز الاحتكارات لتجار مدينة جنوا • وقد استفادت تلك المدينة فائدة كبرى من الامتيازات التي منحها المغول لها في الميادين الاقتصادية لقاء تعهد الجنويين بالدفاع البحري عن الموانىء التابعة للمغول في جهات فارس وملحقاتها خاصة ضد خطر اساطيل البنادقة والمماليك •

المماليك :

ورث المماليك الامبراطورية الايوبية المشتملة على مصر وسوريا وبعض الانحاء الشمالية من بلاد الرافدين والجهات الجنوبية الشرقية من الاناضول وساحل تهامة وشمال السودان وبرقه ، على اثر انقلابهم ضد الايوبيين سنة ١٢٥٠ • وقدر لهم قهر المغول في عنفوان اندفاعهم الثالث مبددين خرافة الجيش المغولي القهار كما تم على ايديهم اجلاء الصليبيين عن الاراضي المقدسة • واصبحت القاهرة في عهدهم مركزا ثقافيا هاما ، وحافظوا على تراث الخلافة العباسية الروحاني بجعل مركزها القاهرة • ثم قاموا بدور نشيط في التجارة الدولية حتى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح •

تفيد كلمة مملوك لغويا العبد ولكن ليس كل عبد بمملوك ، اذ تطلق على البيض فقط • واستعملت اولا للعبيد الاتراك من آسيا الوسطى ثم عممت على كافة الذين يحصل عليهم من الجهات الآسيوية او الاوربية • اعتمدت عليهم الدولة العباسية منــذ خلافة المتوكل في القضايا الدفاعية وللقضاء على الاتجاهات اللامركزية للامراء الاقطاعيين فكانوا اشبه بالجنود المرتزقة التي اعتمدت عليها بعض الدول الاوربية في اواخر العصر الوسيط من ناحية تأدية الواجبات العسكرية • وقد اكثرت الدولة السلجوقية منهم ثم مارست الدولة الايوبية ذلك • اذ كان نصف الجيش الايوبي يتألف من المماليك • وقد احتفظ صلاح الدين بنخبة منهم حوله دائما(١٨) •

تسمى الفرق العسكرية المملوكية عادة بحسب اسماء من يملكونها من الامراء او بالنسبة لمرابضهم • فهناك مثلا الاسدية نسبة الى اسد الله شيركوه والصالحية نسبة الى صلاح الدين والقيمرية نسبة الى قيمر في جهات الجزيرة الفراتية • وقد احاط الصالح ايوب نفسه بجيش جديد من المماليك كونه لنفسه وشيد لهــم قلعة في جزيرة الروضة مشرفة علــى (بحر النيل) حيث جاءت منها تسمية المماليك البحرية الذين لعبوا ادوارا هامة في الاحداث المصرية الداخلية والخارجية منذ سنة ١٢٥٠ حتى سنة ١٣٨٢ تقريبا ويعتقد ايضا بأن سبب التسمية بالاضافة الى ما تقدم قد تعزا لكونهم يستوردون من وراء البحار او لان مهمتهم الاولى مقاتلة فرسان البحر الصليبيين • وقد احرز المماليك البحرية الانتصار الحاسم على لويس التاسع سنة ١٢٥٠ •

الانقلاب المملوكي :

توفي الملك الصالح والقتال على اشده في المنصورة في الوقت الذي كانت فيه شجرة الدر تدبر الامور اثر وفاة الصالح وغياب ولي العهد طورانشاه بالكيفية التي اشرنا اليها سابقا •

بدأ النزاع بين المماليك وطورانشاه حال الانتصار على لويس التاسع

---

(18) A. Poliak, Feudalism in The Middle East (London, 1939) 18-22.

في فارسكور • اذ ان السلطان الجديد لا يطمأن لشجرة الدر ولا الـى المماليك البحرية • وكان خلافه اول الامر مع ارملة ابيه بعد شهرين من تسلمه الحكم اذ اتهمها باحتجان خزائن والده • ثم استفز المماليك باسناده المناصب الهامة لفرقته العراقية الكردية • واخذ يجاهر بعزمه على تصفية المماليك البحرية في حالة صحوه وسكره اذ نسب اليه : بأنه يضرب رؤوس الشمع المضاء حوله بالسيف فيقطعها عندما تأخذ الخمرة مأخذها منـه متوعدا المماليك البحرية بأنه سوف يفعل بهم كذا[١٩] • وادت تصرفاته الـى تدبير المماليك لمؤامرة اسهمت فيها شجرة الدر انتهت باغتياله في فارسكور في مايس سنة ١٢٥٠ •

ان قصة اغتيال طورانشاه من القصص الفريدة من نوعها • اذ عقد هذا اجتماعا في سرادقه للتشاور مع القادة وحال انتهاء الاجتماع وانصراف الاعضاء توجه اليه المملوك بيبرس فهوى عليه بالسيف الذي حاول اتقاءه بيده فنال من اصابعه • الا ان القاتل خارت عزيمته فلم يجهز عليه فلاذ بالفرار • وعند ذاك هرع طورانشاه فزعا الى خارج السرادق يستغيث • وعندما سأله مضمد جرحه عمن فعل هذا فأجاب المماليك البحرية والويل لهم من العقاب • لهذا خشي القادة البحريون من المصير الاسود الذي ينتظرهم فيما لو بقي طورانشاه حيا (فطاردوه في المعسكر فاحتمى بأعلى البرج الخشبي فأشعلوا النار فيه • فخرج طورانشاه من البرج هاربا يطلب البحر ليركب في حراقته ، فحالوا بينه وبينها بالنشاب فألقى بنفسه في النيل فأدركوه واتموا قتله)[٢٠] •

لقد انتهى حكم الايوبيين في مصر على اثر مقتل طورانشاه • الا ان الطريق لم يكن ممهدا امام المماليك • فهناك امـراء الايوبيين في سوريا واتباعهم في الداخل بالاضافة الى المخاوف التي تراودهم من قدوم قوات صليبية جديدة لانقاذ لويس التاسع • لهذا فكان عليهم معالجة الموقف بحكمة • فشرعوا اولا بمبايعة شجرة الدر حيث سلطنوها على البلاد باسم ام الخليل بالرغم من ان خليلها قد مات وهو في المهد•ومع ذلك فان خطوتهم

---

(19) تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ٣٧١ – ٣٧٢
(20) ابو الفداء ، المختصر في اخبار البشر ، جـ ٦ ، ٨٥ •

تلك قد تشير الى استمرار الوراثة الايوبية والى قطع الطريق على ادعاءات الايوبيين • كما عين المماليك احد زعمائهم الا وهو ايبك قائدا عاما للقوات المسلحة واسرعوا في اطلاق سراح لويس التاسع •

سلطنة شجرة الدر :

اثار اعتلاء الارملة اعتراضات من عدة جهات • فلم تقسم الفرقة القيمرية يمين الولاء حيث وجه هؤلاء الدعوة لامير حلب الايوبي الناصر بن يوسف لاستعادة الملك الايوبي في مصر • كما وجه الخليفة العباسي المستعصم برسالة من بغداد مستغربا فيها سلطنة المرأة ومستفهما فيما اذا خلت مصر من رجالها ، فان كان الامر كذلك فلديه من يحكمهم من امراءه • هذا بالاضافة الى ان شجرة الدر كانت في بداية امرها من جواري البلاط العباسي اهديت الى الصالح فعاشت معه محظية ولم يكن اصلها المجهول بالامر المستور ويقال انها كانت في البداية ارمنية الجنسية والدين[٢١] • هذا بالاضافة الى عدم ارتياح رجال الدين في القاهرة من الانصياع لقيادة امرأة • وعليه قرر المماليك ان تقترن شجرة الدر بالقائد ايبك وتتنازل له عن السلطنة في تموز سنة ١٢٥٠ بعد ان حكمت بمفردها لمدة ثمانين يوما •

حكم ايبك وشجرة الدر :

لقد اثارت سلطنة ايبك احفاد الزعيم المملوكي اقطاي واعتراضات الايوبيين • لهذا رأى زعماء المماليك التظاهر باستمرار الوراثة الايوبية فأسندوا العرش الى صبي من السلالة الايوبية يسمى بالاشرف موسى • الا ان السلطة الفعلية بقيت في يد كل من ايبك وشجرة الدر • ومع ذلك فقد اعلن الناصر في دمشق ترشيح امير الكرك الايوبي المغيث عمر ملكا على مصر في ايلول سنة ١٢٥٠ • ونشبت الحرب بين الجانبين وتمكن المماليك من صد الجيش الايوبي في موقعتي غزة والصالحية سنة ١٢٥١ • وحدثت تلك الاصطدامات المصرية السورية في ظرف كان فيه الخطر المغولي

---

(21) تغري بردي ، المصدر السابق ، ٣٧٣ ـ ٣٧٧

يقرع ابواب الحدود الاسلامية ، لذا تدخل الخليفة العباسي المستعصم بين الطرفين واسفرت مجهوداته عن صلح في نيسان سنة ١٢٥٣ اصبحت بموجبه مصر وبعض الاقسام في الاراضي الفلسطينية بما فيها القدس من حصة المماليك واعترف هؤلاء بدورهم بامارات الايوبيين في سوريا[٢٢] .

تفرغ ايبك بعد الصلح لمعالجة الوضع الداخلي في مصر ، اذ ازاح السلطان الاشرف موسى ، وتوجه لتصفية الحساب مع الزعيم العربي طالب الذي انف من الحكم المملوكي برفعه الشعار المشهور ان الاحرار لا يحكمهم العبيد ، ومع ذلك تمكنت جيوش ايبك بقيادة اقطاي من ابادة قوات الزعيم العربي في حزيران سنة ١٢٥٣ في معركة بلبيس .

ان موقعة بلبيس ادت الى تعاظم قوة اقطاي الذي كان معارضا منذ البداية لسلطنة ايبك ، واخذت مخاوف الاخير بالازدياد خاصة حينما هم الاول بالزواج من اميرة ايوبية ليجعل منها حقا شرعيا في ادعائه بالسلطنة . لهذا دبر ايبك اغتيال اقطاي وتشتيت مؤيديه من فرقة المماليك البحرية في ايلول سنة ١٢٥٤ ، وقد التجأ قسم منهم الى الناصر وراحوا يحرضونه للحرب ضد ايبك ، وعليه اضطر الاخير للتحالف مع لؤلؤ امير الموصل للضغط على القوات الايوبية في سوريا في حالة هجومهم على مصر ، كما قوى هذا التحالف باقتراحه الزواج من بنت لؤلؤ ، ذلك الاقتراح الذي اثار حفيظة شجرة الدر حيث دبرت امر اغتيال زوجها سنة ١٢٥٧ ، والتي هي بدورها لقيت مصرعها انتقاما على يد حريم ايبك ضربا بالقباقيب[٢٣] ، فكانت اول كليوبطرا بالاسلام وآخرها .

سلطنة قطز :

تظاهر المماليك بمبايعة ابن ايبك المسمى علي والبالغ من العمر خمس عشر سنة ولم يستمر حكمه غير سنتين ، اذ قرر المماليك اسناد الحكم الى قائد يمكنه من مواجهة الخطر المغولي الذي راح يهددهم لهذا اسندوا العرش الى قطز في تشرين الثاني سنة ١٢٥٩ .

---

(22) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ٣٦١ ، ٣٦٨ .
(23) المقريزي ، ٤٠٤ .

لقد عزم قطز على مقاتلة المغول في سوريا والذين كانوا تحت قيادة كتبغا • وذلك على اثر رسالة تهديد تلقاها من هولاكو قبل مغادرته سوريا الى الجهات الايرانية واليك اقتباسا منها :(٢٤)

من ملك الملوك شرقا وغربا القان الاعظم ••• يعلم ••• قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا الى هذا الاقليم ••• انا نحن جند الله في ارضه ، خلقنا من سخطه وسلطنا على من حل به غضبه ••• واسلموا الينا امركم قبل ان ينكشف الغطاء ••• فنحن لا نرحم من بكى ، ولا نرق لمن شكى ••• فأبشروا بالمذلة والهوان ••• فقد حذر من انذر••• وقد ثبت عندكم ان نحن الكفرة ، وقد ثبت عندنا انكم الفجرة •••

وقد حمل تلك الرسالة وفد مغولي ومعهم صبي فأمر قطز بقطع رؤوسهم وتعليقها في القاهرة ما عدا الصبي حيث استبقاه في خدمته • ويعني ذلك بمثابة اعلان الحرب • ولم يكن قادته في الابتداء يشاركونه منازلة المغول • وقد اظهر قطز امتعاضه من المتخاذلين في مؤتمر عقده لتلك الغاية • اذ غادر القاعة صائحا بأعلى صوته سأقاتل بمفردي ••• وقد اضطر القادة الى الاسهام في الحرب •

تحركت طلائع الجيوش المصرية نحو فلسطين في ٢٦ تموز سنة ١٢٦٠ بقيادة بيبرس البندقداري الذي وجه اول ضربة بالسيف الى طورانشاه كما قدمنا • لقد مرت الجيوش المصرية عبر الاراضي الصليبية بعد ان استوثق قطز من حرية المرور • فقد رحب زعماء مملكة عكا بحرب المماليك ضد المغول نظرا لما لحقهم من تدميرات المغول الذي نهبوا صور وبيروت • والتقى الجيشان المصري والمغولي في عين جالوت قرب الناصرة في ٣ ايلول سنة ١٢٦٠ • وحمل قطز بنفسه على المغول الذين كانوا تحت قيادة كتبغا وهو يصرخ النصر او الموت وقد تمكنت الجيوش المصرية من تشتيت المغول في تلك الموقعة • وكاد ان يفقد فيها قطز حياته غدرا • اذ سدد اليه ذلك الصبي المغولي الذي استبقاه في خدمته سهما من الخلف فقتل جواده ووقع الى الارض فأسعفه الفرسان وقضوا على الصبي • اما

---

(24) المقريزي ، ج ٤ ، ٤٢٧ ـ ٤٢٨

كتبغا فقد وقع اسيرا واقتيد الى قطز . وقد جرت محاورة قصيرة بين الطرفين . اذ قال قطز مخاطبا كتبغا : اترى كيف اصبحت مأسورا بعد ان كنت اسرا ؟ فأجاب المغولي ان امرت بقتلي فهي ارادة الله وليست ارادتك ، والويل لكم ان سمع هولاكو بقتلي ، يا سفاكي دماء اسيادكم . فأمر قطز بقطع رأسه .

تعتبر معركة عين جالوت من المعارك الحاسمة بالنسبة لمصر . اذ انقذت البلاد المصرية من خطر دمار محتم ولم يجرؤ المغول بعد ذلك من التقدم نحو مصر . وقد عملت على رفع المعنويات الاسلامية وتبديد خرافة الجيش المغولي القهار . الا ان قطز لم يجن ثمرة الانتصار . اذ اختلف مع بيبرس البندقداري حول رفض الاول اسناد امارة حلب للثاني فدبر بيبرس امر اغتياله اثناء العودة لمصر في ٢٤ تشرين الاول سنة ١٢٦٠ ثم اسندت اليه السلطنة باعتباره اول المتجرئين من القتلة على سيدهم قطز وآخر من اجهز عليه .

سلطنة بيبرس ١٢٦٠ – ١٢٧٧ :

يعتبر بيبرس المؤسس الحقيقي لدولة المماليك البحرية . سار بسياسة استهدفت توحيد الصفوف الاسلامية في مصر وسوريا والقضاء على ادعاءات اصحاب الحقوق الشرعية من امراء الايوبيين ومؤيديهم من العرب في مصر وسوريا . وقد اتخذ بيبرس خطوة هامة في هذا المضمار الا وهي احياؤه الخلافة العباسية جاعلا مقرها مصر ليكسب تأييد المسلمين المعنوي وليضفي على حكمة هالة الشرعية وليسكت المعارضة الايوبية . فعند سماعه بأن احد افراد الاسرة في بغداد قد اخطأته مذبحة المغول وانه وصل الى دمشق بحماية قبيلة خفاجة ، استحضره الى مصر واحتفى به رسميا وبايعه بالخلافة واصدر النقد باسمه سنة ١٢٦١ ولقب ذلك العباسي بالمستنصر بالله . وقد جهزه بيبرس بجيش لمحاربة المغول في الجهات العراقية لاسترجاع ملكه غير ان بيبرس خشي من استعادة الخلافة العباسية قوتها فانسحب من الجيش تاركا المستنصر بقوة هزيلة تلاشت عند اول اصطدام لها مع المغول في الحدود العراقية ولم تعرف اخبار المستنصر

بعدها ، ومع ذلك فقد وجد بيبرس سليلا عباسيا آخرا اسمه الحاكم بايعه بالخلافة في مصر سنة ١٢٦٣ ، وبذلك اصبحت البلاد المصرية منذ ذلك الوقت حتى سنة ١٥١٧ مقرا للخليفة العباسي ، وما الخلافة العباسية في مصر سوى رمز ديني فقط مجردة من كافة السلطات المدنية(٢٥) ،

لقد اتبع بيبرس في المجال الخارجي سياسة مكنته من تحقيق الانتصارات في سوريا ضد المغول والصليبيين والاسماعيلية ، اذ عقد حلفا دفاعيا مع الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن موجها ضد مغول فارس في جهات آسيا الصغرى وضد المشاريع الغربية الاعتدائية التي تمركزت حول قيادة شارل الانجوي ملك صقلية الرامية الى اعادة الكرة على مصر والامبراطورية البيزنطية من اجل اعادة الامبراطورية اللاتينية التي ازالها ميخائيل الثامن سنة ١٢٦١ باستعادته القسطنطينية ، كما تمكن بيبرس من عقد حلف دفاعي ايضا مع دولة المغول الذهبية لاعتناق سلطانها برقة خان الاسلام والذي كان في نزاع مستمر مع دولة الخانات في فارس ، وحقق بيبرس اولى انتصاراته على الحلف المكون من مغول فارس وارمينيا الصغرى وامارة انطاكيا سنة ١٢٦٦ كما استولى على امارة انطاكيا نفسها سنة ١٢٦٨ ، اما بالنسبة لطائفة الاسماعيلية في سوريا فقد تمكن من القضاء على كيانهم السياسي سنة ١٢٧٣ بترحيل زعمائهم الى مصر ،

الدولة الصليبية :

لم يستفد الصليبيون من اضطراب الاوضاع في العالم الاسلامي في المشرق من جراء الحروب بين المماليك والايوبيين ومن الحروب بين المماليك والمغول ، اذ تعرضت هي بدورها لموجات الاضطراب على اثر المنافسات الاقتصادية بين البندقية وجنوا وبيزا في الاراضي المقدسة ، والتي ادت الى حروب اهلية انقسم فيها الصليبيون بين الاطراف المتنازعة ،

بدأت المشكلة في عكا سنة ١٢٥٦ بين البنادقة والجنويين ، اذ احتل الجنويون بعض المناطق في مدينة عكا وضواحيها والتي كانت خاضعة لنفوذ البنادقة الاقتصادي ، وساند تجار بيزا القوات الجنوية ، وبالرغم من

---

(25) Hitti, History of The Arabs (London, 1960) 674.

انتصار البنادقة في معارك عكا الا انهم خسروا مناطق نفوذهم في صور على اثر توسع الحرب واشتراك امارة صور ضدهم . واخيرا تمكن البنادقة من تكوين حلف من حكومة عكا وامير يافا وغيرهم من امراء الاقطاع الصليبيين ورؤساء فرقتي المعبد والتيوتون . بينما انضمت فرقة فرسان الاسبتارية الى المعسكر الجنوي . اما انطاكيا فلزمت جانب الحياد ، غير ان قسما من الامراء هناك انحازوا للبنادقة . وبعد معارك استمرت لاربع سنوات تمكنت الاطراف المتنازعة من التوصل الى اتفاق سنة ١٢٦١ . وذلك على اثر وساطة البابا الاسكندر الرابع وملكة قبرص . ونص الاتفاق على ان تكون عكا منطقة نفوذ اقتصادي بين البنادقة وتجار بيزا وان يكون للجنويين حق الاحتكار الاقتصادي في صور . ومع ذلك فلم يعتبر الايطاليون ذلك الاتفاق نهائيا[٢٦] . اذ استؤنفت المناوشات بين البنادقة والجنويين من اجل السيطرة على ميناء عكا . حيث اغار قائد الاسطول الجنوي Luccheto في آب سنة ١٢٦٧ على عكا بقوة بحرية تألفت من ٢٨ سفينة . وقد اضطرت القوات الجنوية على الانسحاب لمقاومة البنادقة العنيفة[٢٧] .

اما بالنسبة لمواقف الصليبيين من المغول فلم تكن موحدة . اذ دخلت امارة انطاكيا في تحالف مع المغول عن طريق ملك ارمينيا التابع للمغول . وساهمت كل من ارمينيا وانطاكيا مع المغول اثناء هجومهم على حلب ودمشق سنة ١٢٦٠ . بينما اعتبرت عكا تحالف انطاكيا مع المغول يمثل خطرا على الصليبيين لعدة اسباب منها : ان انطاكيا رضخت لضغط ارمينيا والمغول مستبدلة الطقوس الكاثوليكية بالارمنية . هذا بالاضافة الى ان تجار البنادقة في جهات عكا لا يرتاحون الى التقارب الصليبي المغولي نظرا لان المغول حلفاء غريمتهم جنوا . كما وقد تأكد لمملكة عكا بأن المغول لا يعترفون بتحالف متكافيء ولا يتسامحون بوجود دولة مستقلة مجاورة الا بعد ان تقدم التبعية لهم ، لهذا لم يرغب امراء عكا في خسران استقلالهم.

---

(27) Ibid., 323-24.

(26) Runciman, op. cit., 284.

ولم ينظر حكام عكا بعين الرضا لسياسة هولاكو وابنه ابقا تجاه المسيحيين ، لان امتداد النفوذ المغولي الى الاراضي المقدسة معناه امتداد نفوذ الكنيستين النسطورية والشرقية ، اذ وجدت الكنيسة الاولى حمـا في ظـل زوجة هولاكو دقوز خان بينما رعت زوجة ابقا بنت الامبراطور ميخائيل الثامن الكنيسة الثانية .

وبالرغم من مواقف امراء مملكة عكا السلبية تجاه المغول ، فـان السلطات المغولية في فارس كانت اكثر وعيا في ادراك خطر المماليك على الجانبين منذ موقعة عين جالوت ، اذ فكر ابقا بن هولاكو ١٢٦٥ ــ ١٢٨٢ جديا في ايجاد حلف اوربي مغولي ضد العدو المشترك .

المواقف الأوروبية والمغولية من تهاوي المملكة الصليبية

١٢٦٨ — ١٢٩١

كليمنت الرابع والدعوة الصليبية ، الحملة الثامنة ، جميس الاول الاركوني ، القديس لويس التاسع ، الامير ادوارد ، كريكوري العاشر يتحرى اسباب برودة الاستجابة للجهاد في الاراضي المقدسة : كلبرت ــ برونو ــ وليم الطرابلسي ــ همبرت ــ مؤتمر ليون .

قبرص تحاول الانقاذ .

المفاوضات المغولية الاوربية .

مغول فارس والمماليك .

سقوط عكا وموقف الغرب .

البابا كليمنت الرابع والدعوة الصليبية ١٢٦٥ ــ ١٢٧١ :

لقد اثار سقوط انطاكيا سنة ١٢٦٨ المشاعر البابوية وادركت الخطر المحدق بكل من طرابلس وعكا ، لهذا راح البابا كليمنت الرابع يناشد حكام اوربا تقديم المساعدات العسكرية ، فاستجاب له ملك الاراكون جيمس الاول وهنري الثالث ملك انكلترا ، اما لويس التاسع فلا يحتاج الى من يذكره بالنهوض بالامر ، اذ ان السبب الصليبي لم يكن ليفارق مخيلته منذ فشل حملته في دمياط ويقال بأنه اسر الى البابوية قبيل سقوط

انطاكيا برغبته في حمل الصليب مجددا[1] .

هناك جملة اسباب حالت دون الاسعافات الاوربية العسكرية لدولة القدس قبل سقوط انطاكيا منهـا : تمشكل البابوية في الازمة الصقلية المزمنة . اذ اضطرت الى التحالف مع شارل الانجوي وهو اخو الملك لويس التاسع للقضاء على حكم اسرة هوهنشتاوفن في صقلية في عهد مانفريد . وقد تمكن الانجوي من احتلال الصقليتين بعد دحره جيوش مانفريد ومقتله سنة ١٢٦٦[2] . ومع ذلك فلم ينته الصراع الدموي الا بعد مقتل آخر وريث من اسرة هوهنشتاوفن سنة ١٢٦٨ الا وهو كونرادين . اما بالنسبة لانكلترا فلم تستطع التفكير بالامر الا بعـد ان وضعت الحرب الاهلية اوزارها سنة ١٢٦٥ على اثر مقتل زعيم الثوار سيمون دمنتفرد في موقعة افرشام . كما ان سقوط الامبراطورية اللاتينية سنة ١٢٦١ كان كارثة بالنسبة للبابوية وفرنسا . وقد اخذ شارل الانجوي على عاتقه المهمـة الفاشلة في اعادة بناء تلك الامبراطورية . لهـذا اشغل نفسه والبابوية والرأي العام الاوربي في اعداد المخططات والمؤامرات ضد الامبراطورية البيزنطية في عهد ميخائيل الثامن . وكانت للفعاليات الانجوية هذه تأثيراتها السلبية في تحويل الاهتمام مـن الاراضي المقدسة الـى الامبراطورية البيزنطية . كما لم يكن ليؤمل في مدن ايطاليا التجارية مساعدة في الموضوع لانغمارها في منافسات ومعارك ضارية في كافة الجهات وخاصة الاراضي المقدسة . لهذا فقد اعتمدت البابوية في مشروعها على اسبانيا وفرنسا وانكلترا فكانت هناك ثلاثة فرق هي :

الفرقة الاسبانية :

لقد تأهب ملك الاركون جيمس الاول لقيادة فرقة بحرية للاراضي المقدسة وابحر فعلا من برشلونة في اليوم الاول من ايلول سنة ١٢٦٩ . وما كاد يبتعد عن السواحل الاسبانية حتى دهمهم اعصار ادى بالملك وقسم كبير من اسطوله الى الرجوع الى قواعده . بينما واصل ولداه

---

(1) Setton, Wolff and Hazard, A History of The Crusades, Vol. II (Phila., 1962) 509.

(2) راجع : للمؤلف ، العصور الوسطى الاوربية (بيروت ، ١٩٦٨) ١٦١ .

غير الشرعيين Sanchez and Pedro سفرهما نحو الاراضي المقدسة ، وقد نزلا في عكا في نهاية كانون الاول والشوق يحدوهما للقتال ، ومع ذلك فلم يقم الاخوان بأية بطولة تستحق الذكر ، وقد فضلا الرجوع الى اسبانيا متفادين الاصطدام مع قوات بيبرس ،

الفرقة الفرنسية :

كانت هذه بقيادة القديس لويس والتي يشار لها بحملة لويس الثانية والتي استعد لها منذ سنة ١٢٦٧ ، فاعتمد في تمويلها على موارد الكنيسة في بلاده بالدرجة الاولى ، ونهض لويس بهذا الامر بالرغم من احتجاجات قسم من نبلائه الذين لا يعتقدون بجدوى تلك الحروب ، ومع ذلك فقد ابحر لويس الى صقلية سنة ١٢٧٠ وكان هدفه الاساسي مهاجمة مصر ، الا انه فرض الحصار على تونس ،

يختلف المؤرخون في اسباب انحراف حملة لويس هذه عن الهدف الاصلي ، فمنهم مـن يعتقد بأن بطل التدبير في ذلك هـو اخوه شارل الانجوي لعدة عوامل منها : ان تونس قد اصبحت وكرا للمؤامرات ضد صقلية بتشجيع من الامير التونسي محمد الحفصي الاول الذي كان حليفا لاسرة هوهنشتاوفن ، ثم امتناع تونس عن دفع الاموال التي تضمنتها اتفاقات لقاء استخدامها الموانىء الصقلية ، كذلك لاحتياج لويس للاساطيل الصقلية في مشروعه ضد المماليك مما اضطره للموافقة على اقتراح اخيه الرامي مهاجمة تونس[٣] ، غير ان هناك من يعتقد بأن لويس التاسع لم يكن له الالمام الكافي بجغرافية شمال افريقيا ولربما اعتقد بأن تونس هي اقرب مما تصوره الى حدود المماليك ، هذا بالاضافة الى ان الانباء التي وصلته بأن امير تونس كان يمد المماليك بفرق عسكرية ، وعلى كل فقد اقتنع لويس بضرورة اخضاع تونس اولا ومن ثم التوجه الى مصر[٤] ، ومهما يكن من امر تلك الآراء فانها قد تناست بأن هناك مفاوضات بين

---

(3) S. Runciman, A History of The Crusades, Kingdom of Acre, Vol. II (Cambridge, 1955) 291-92.

(4) Setton, op. cit., 514.

مغول فارس وحكام اوربا عن طريق البابوية من اجل الاطباق على المماليك من الشرق والغرب . اذ ارسل البابا كليمنت الرابع وفدا الى ابقا بن هولاكو خان مغول فارس ليزف اليه نبأ قرب تشكيل حملة صليبية حاثا اياه على عقد حلف عسكري بين الطرفين فوعدهم بذلك حال انتهاء مشاكله في جهات الافغان سنة ١٢٧٠[٥] .

لقد ابحرت جيوش لويس من صقلية الى تونس في اوائل صيف سنة ١٢٧٠ . وبتلك المناسبة تذكر الشاعر التونسي احمد بن اسماعيل الزيات ما جرى الى لويس في دمياط وما قيل في حقه من شعر فأنشد بدوره[٦] :

يا فرانسيس هذه اخت مصر
فتأهب لما اليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان
وطواشيك منكر ونكير

حاول لويس عبثا الاستيلاء على المدينة وقد توفي في آب وهلك الكثير من جيشه نتيجة لانتشار الأمراض . واخيرا توصل الفرنسيون والتونسيون الى صلح في تشرين الثاني عن طريق شارل الانجوي الذي حقق فيه ما يصبوا اليه من امتيازات تجارية في تونس واتاوات واخراج كافة العناصر الصقلية المناوئة لحكمه[٧] .

الفرقة الانكليزية :

قادها الامير ادوارد نيابة عن والده سنة ١٢٧٠ . وكان المفروض ان يلتقي مع لويس في تونس ومنها يمران سوية الى مصر . ونظرا لسماعه بما حل للملك لويس وجيشه فقد توجه بفرقته البالغة الف فارس تقريبا الى صقلية حيث امضى الشتاء هناك ، ثم غادرها الى عكا سنة ١٢٧١ .

كان ادوارد على علم بمقدار قوة المماليك وضآلة جيشه . لهذا اتجهت

---

(5) راجع في هذا الفصل ص ٢٢٢

(6) المقريزي ، السلوك ، ج ٣ ، ٣٦٥ .

(7) Setton, op. cit., 516-17.

فعالياته لتوحيد الصفوف الصليبية المحلية ، والسعي لايجاد حلف عسكري مع كل من مغول فارس وارمينيا الصغرى • اما بالنسبة للنقطة الاولى فلم يكن موفقا وذلك لانقسام الصليبيين بين المعسكرين البندقي والجنوي ولتسابق كل منهما لتوثيق العلاقات مع مصر • اما مفاوضاته مع المغول وارمينيا فقد اثمرت عسكريا • اذ رحب ابقا بالاقتراح وهاجمت جيوشه المتألفة من عشرة آلاف فارس الجهات السورية فاستولت على حلب سنة ١٢٧١ • كما اتفق مع ملك ارمينيا الصغرى على مهاجمة مصر(٨) • وسرعان ما تحولت الانتصارات المغولية الارمنية الى هزائم فاضطر الامير ادوارد الى عقد هدنة مع السلطان بيبرس سنة ١٢٧٢ لمدة عشرة سنوات وعشرة اشهر ، وتضمنت المحافظة على ما تبقى من مملكة عكا وهي الجهات الساحلية الممتدة من عكا الى صيدا • اما طرابلس فكانت في هدنة مع المصريين منذ سنة ١٢٧١ •

كريكوري العاشر يتحرى برودة الاستجابة الصليبية :

لقد ادرك البابا كريكوري العاشر ١٢٧١ ــ ١٢٧٦ حراجة مملكة عكا ولكن ما العمل بعد ان ذهبت الجهود ادراج الرياح في استنهاض الهمم الاوربية • لهذا طلب من مسؤولي الوحدات الادارية الدينية ابداء الآراء في الاسباب التي جعلت الاوربيين لا يستجيبون الاستجابة المطلوبة لذلك الغرض • وعليه تقدم عدد من رجال الدين بتقارير مفصلة عن آرائهم في تلك الحروب وعن الاسباب التي ادت الى فقدان الحماس •

وبالرغم من كثرة التقارير التي قدمت للبابوية فانها لم تتطرق الى الاسباب الحقيقية التي دفعت بالمجتمع الاوربي الى الابتعاد عن الحرب في الاراضي المقدسة • ولعل من اهم هذه الاسباب التي غفلتها التقارير ازدياد الاتجاهات العلمانية وتعارض السياسة البابوية العالمية مع السياسات المركزية للممالك الاقطاعية في كل من انكلترا وفرنسا بصورة خاصة • هذا بالاضافة الى التباس المفهوم الصليبي في ذهن الفرد الاوربي وذلك

(8) F. Powicke, King Henry III and The Lord Edward, Vol. II (Oxford, 1947) 601-602.

للتوسع في مضامينها واهدافها ، اذ لم تعد مقتصرة ضد المسلمين بل انها اصبحت تفيد منذ بداية القرن الثالث عشر كل حرب يأمر بها البابوات ضد الفرق الدينية المناوئة لكنيسة روما وضد الامبراطورية البيزنطية وضد الامبراطورية الرومانية المقدسة ، لهذا فقد اخذ قسم من الناس يرى في تلك الحروب سلاحا بابويا مسلطا على الرقاب من اجل اغراض سياسية(٩) ، بينما رأى قسم آخر ان الاشتراك في الحملات الصليبية داخل اوربا اجدى نفعا من الحروب اليائسة في سوريا ،

ومهما يكن من امر ، فهناك اربعة تقارير هامة حاولت اعطاء التعليلات للبرود الصليبي في اوربا وكيفية تلافي الامر وهي ما قدمه الاتون :

الاسقف برونو Bruno :ـ وهذا مجري تطرق الى عدة نقاط لانقاذ الاراضي المقدسة منها : منع الحروب الاوربية الداخلية واصلاح الاوضاع الاجتماعية والدينية ، ولا يتم ذلك حسب رأيه الا بوجود امبراطور مسيحي قوي يتولى شؤون الامبراطورية الرومانية المقدسة ، في وقت كان فيه العرش شاغرا ، وقد رأى في شخصية ملك بوهيميا اوتوكار الامبراطور الامثل ، ثم اشار الى ان الحروب الصليبية اصبحت عديمة الجدوى لذا فيجب توجيه الطاقات العسكرية لتنصير الشعوب الوثنية في الاقسام الشمالية الشرقية من الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وبذلك يتحقق النفع من الناحيتين الروحانية والمادية ،

وليم الطرابلسي :ـ وهو راهب دومنيكاني عاش في عكا ، واشار هذا الراهب الشرقي الى انه لا يرى املا في الغرب في شأن انقاذ المملكة من الخطر ، وانما يرى املا في زوال المخاطر التي تهدد الصليبيين على يد المغول ، ثم قال بأنه لا يمكن الاحتفاظ بالاراضي المقدسة بحد السيف وانما عن طريق التبشير في جهات المشرق ،

ان الاحتفاظ بالاراضي المقدسة عن طريق التبشير بدلا عن الحرب صادف تأييدا حارا من قبل الفيلسوف الانكليزي المعاصر آنذاك روجر بيكون ، الذي وجه اللوم الى الاوربيين بصورة عامة لعدم اجهاد انفسهم

(9) J. R. Strayer, The Political Crusades of The Thirteenth Century, in Setton, op. cit., 343-377.

في تعلم اللغات الاجنبية وخاصة العربية من اجل الغايات التبشيرية ٠

همبرت : ــ وهذا راهب دومنيكاني ايضا ٠ اطلق على تقريره التقرير الثلاثي Tripartitum اذ عالج فيه ثلاثة امور هي : المشكلة الصليبية واتحاد الكنيستين الشرقية والغربية واصلاح الكنيسة الغربية ٠ اذ اعتقد بعدم امكانية تغيير المسلم لمعتقده الديني عن طريق التبشير ٠ لهذا فان انقـاذ الاراضي المقدسة لا يتأتى الا عـن طريق مواصلة الحرب ٠ وان الاسباب التي فتت في عضد الاوربيين وتبطت هممهم عن تلك الحرب كانت نتيجة للطمع والتقاعس والجبن ٠ اذ لـم يعد الكثير مـن الناس يؤمنون بالثواب المنتظر عن طريق الاشتراك في الحرب الصليبية ٠ ثـم نادى باتحاد العالم المسيحي ورأب الصدع بين الكنيستين الارثوذوكسية والرومانية ٠ واعتقد همبرت ان الفساد الذي طرأ على اجهزة الكنيسة اضعف الوازع الديني ٠ لهذا فمـن الضروري اذن اعداد مناهج دينية صارمة لاعداد الفرد اعدادا روحيا وتهيئته نفسيا لاطاعة اوامر الكنيسة السلمية منها والعسكرية ٠ فاقترح تكوين جيش دائم تشرف عليه قيادة ذات خبرة واسعة واضعة نصب عينيها مخافة الله ٠ ويجب على الكنيسة ان تتعهد ذلك الجيش ماديا ٠ ثم اقترح ان تبيع الكنيسة بعض ما تملكه من اجل تلك الغاية ٠ وان عمليةالبيع هذه لها تأثيرات عاطفية على الناس وسوف تجود ايديهم بسخاء من اجل الجيش الكنسي ٠ ثم اشار الـى ضرورة التعاون الوثيق بين السلطات السياسية والدينية في سبيل الحرب المقدسة ٠

وعلى ذلك الاساس امر البابا كريكوري العاشر عقد مؤتمر عام في مدينة ليون بفرنسا في شهر مايس سنة ١٢٧٤ ٠ وحضر المؤتمر وفدان من مملكة عكا : الاول برئاسة اسقف مدينة طرابلس بولص Paul of Segni والآخر برئاسة قائد فرسان المعبد وليمWilliam of Beaujen ٠ وقد اعتذر عن الحضور كل من فيليب الثالث ملك فرنسا وادوارد الاول ملك انكلترا ٠ وجاء الى المؤتمر جيمس الاول ملك الاراكون ٠ كما ارسل الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن وفـدا للتباحث في الموضوع الصليبي واتحاد الكنيستين املا في تحييد البابوية في صراعه مع شارل الانجوي ٠ وعلى

كل فلم تسفر جهود المؤتمر عن نتائج واقعية ملموسة بالرغم من القرار النهائي الذي اقرت فيه ضرورة مواصلة الحرب في الاراضي المقدسة(١٠) .

لقد واصل البابا كريكوري العاشر مساعيه الخاصة في الاوساط السياسية الاوربية لحمل اولي الامر على انقاذ الاراضي المقدسة عسكريا حسب قرار مؤتمر ليون وقد استجاب له ملك فرنسا فيليب الثالث سنة ١٢٧٥ وكذلك رودولف هبسبورك امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة . واصدر البابا اوامره الى مملكة عكا لاتخاذ الاستعدادات اللازمة لمساعدة الحملة المنتظرة . ومع ذلك فلم يكتب التنفيذ للمشروع لوفاة كريكوري العاشر سنة ١٢٧٦ .

قبرص ومملكة عكا :

كانت قبرص ومملكة عكا تحكمان من قبل هيو Hugh الثالث ١٢٦٧ — ١٢٨٤ . وقد اتخذ هذا موقفا واقعيا في المحافظة على ما تبقى من المملكة وخاصة بعد انسحاب الامير ادوارد منها سنة ١٢٧٢ . اذ لم يعد هيو يعتقد بامكانية قيام الغرب بحملة عسكرية كما انه لم يكن راغبا في الحرب ضد المصريين لهذا فضل مهادنة السلطان بيبرس .

اما بالنسبة لسياسته الداخلية في المملكة العكاوية فلم يكتب له التوفيق(١١) . اذ جوبه بمصاعب احبطت مساعيه الهادفة لتوحيد الصفوف . فقد طلب مثلا زعماء بيروت حماية المماليك سنة ١٢٧٣ وبقي ذلك الميناء خارج سيطرته حتى سنة ١٢٨٢ . اما امارة طرابلس فكانت محط نزاع بين هيو ودولة ارمينيا الصغرى . وتمكن فرسان المعبد من الاستئثار بحكم تلك الامارة منذ سنة ١٢٧٧ . كما انه لم يتمكن من الاحتفاظ باللاذقية الا بعد تعهده بدفع مبلغ عشرين الف دينار سنويا للمماليك . وقد عجز هيو عن التوفيق بين مصالح الفئات المتنازعة في عكا نفسها . اذ اتخذ فرسان المعبد والبنادقة مواقف عدائية من سياسته . واخيرا قرر الانسحاب الى قبرص بعد ان ناب عنه Balian of Ibelin سنة ١٢٧٦ .

---

(10) Runciman, op. cit., 339-41.

(11) D. Alastos, Cyprus in History (London, 1955) 178.

هذا ولـم يتمكن باليان من السيطرة علـى الاوضاع السياسية المضطربة ٠ اذ انقسم الفرسان كالعادة بين المعسكرين البندقي والجنوي مما ادى الى معارك عنيفة بين فرسان المعبد والاسبتارية ٠ كما خرجت اللاذقية عن نفوذه اثر تنازل اميرتها عن حقها الى ملك الصقليتين شارل الانجوي(١٢) ٠ ولم يكتف الانجوي بذلك بـل اعلن نفسه ملكا علـى الاراضي المقدسة سنة ١٢٧٧ ٠

لقد تعرضت مملكة عكا في فترة ١٢٧٧ ـ ١٢٨٤ الى نزاع حاد بين اتباع هيو وشارل الانجوي ٠ اذ حاول الاول استعادة عرشه في الاراضي المقدسة مرتين بالهجوم على صور بدون جدوى : كانت الاولى سنة ١٢٧٧ حيث صدته قوات الانجوي والاسبتارية ٠ اما الثانية فكانت سنة ١٢٨٣ اذ احتل فيها صور فعلا الا انه لم يتقدم للجهات الاخرى لمرضه ووفاته سنة ١٢٨٤ ٠

عاد اتحاد العرشين القبرصي والصليبي على اثر وفاة شارل الانجوي سنة ١٢٨٥ ولانسحاب القوات الصقلية سنة ١٢٨٦ للاحتياج لها في حرب الانجويين ضد ملك الاركون بطرس الثالث الذي اختطف صقلية على اثر (ثورة اجراس المساء)(١٣) سنة ١٢٨٢ الصقلية التي مهدت لها سياسة بطرس الثالث واموال ميخائيل الثامن الامبراطور البيزنطي واذكتها سوء تصرفات الجند الفرنسي(١٤) ٠ وقد بقي عرشا قبرص وعكا متحدين منذ سنة ١٢٨٦ حتى سقوط عكا سنة ١٢٩١ ٠

المفاوضات المغولية الاوربية :

استمرت دولة المغول في فارس في عهدها الوثني في اتصالات مـع الغرب من اجل الاطباق على الحكومات الاسلامية من الشرق والغرب ٠ حيث سار ابقا Abaga ١٢٦٥ ـ ١٢٨٢ على خطة والده هولاكو في التسامح مع المسيحيين وتقريبهم ثم محاولة ايجاد تضامن مغولي ـ اوربي

---

(12) Runciman, op. cit., 345.

(13) S. Runciman, The Sicilian vespers (Middlesex, 1960) 236-38.

(14) S. Vryonis, Byzantum and Europe (London, 1967) 167.

عسكري • وقد تعزا هذه السياسة التي اتبعها ابقا الى حد ما لتأثيرات زوجته الاميرة البيزنطية ماريا بنت الامبراطور ميخائيل الثامن • وقد ارسل له كل من البابا كليمنت الرابع وملك الاراكون جيمس الاول وفدا برئاسة James Alaric سنة ١٢٦٧ • ليسر لـه نبأ قرب وصول حملة صليبية بقيادة كل من لويس التاسع ملك فرنسا وجيمس الاول، مقترحا عقد حلف عسكري بين الطرفين[١٥] • الا ان ابقا كـان في حرب في جهـات تركستان فلم يشأ ان يلزم نفسه بحلف في ذلك الوقت الحرج • الا انه بادر بارسال رسالة الى لويس التاسع حال انتصاره على اعدائه في معركة هرات سنة ١٢٧٠ واعدا فيها اياه العمل العسكري المشترك حال قدومهم الى فلسطين • ولم يتحقق ذلك الوعد لوفاة لويس التاسع تحت اسوار تونس•

لقد تعاون ادوارد عسكريا مع المغول اثناء حملته سنة ١٢٧١ • اذ ارسل ذلك الامير حال نزوله في عكا وفدا ثلاثيا الى ابقا طالبا منه القيام بعمل موحد ضد المماليك • وتألف الوفد من كل Reginald Russell و Godfrey welles, و John Parker • وقد ارسل ابقا فعلا عشرة آلاف فارس استولوا على حلب ومعرة النعمان وأفاميا سنة ١٢٧١ كما اشرنا آنفا •

لم تمنع الاوضاع المتردية في مملكة عكا مـن استمرار المغول في المفاوضات مع حكام اوربا والبابوية من اجل القيام بعمل عسكري موحد • اذ ارسل ابقا رسالة الى ادوارد سنة ١٢٧٣ عن طريق عكا حملها من هناك الى انكلترا الراهب الدومنيكاني داود • وقد استفسر ابقا في رسالته عن الوقت الذي يعيد فيه ادوارد الكرة على الشرق • واجاب ادوارد بخطاب ودي الا انه تأسف لعدم امكانه تحديد الوقت لتشكيل حملة صليبية ولم يكن ذلك الامر ممكنا بالنسبة للبابوية ايضا • كما ارسل ابقا وفدا للبابوية سنة ١٢٧٤ حضر اجتماعات مؤتمر ليون السابق وقد اخبرهم كليمنت الرابع بقرب تشكيل حملة للاراضي المقدسة[١٦] •

---

(15) H. Howorth, History of The Mangols, Vol. III (London, 1888) 78-80.

(16) Powicke, op. cit., Vol. II, 601-2.

أخذ ابقا يسرف في الالحاح على الغرب في تكوين تحالف عسكري مغولي اوربي • حيث بعث في خريف سنة ١٢٧٦ وفدا ثنائيا الى اوربا تألف من الاخويين الجورجيين جون وجيمس فازلي • وقابل الوفد كلا من البابا انوسنت الخامس وفيليب الثالث وادوارد الاول ملك انكلترا[١٧] •
ولم تأت تلك المفاوضات بنتائج عملية • وذلك لعدم رغبة حكام اوربا في الاشتراك بمشروع خاسر • هـذا بالاضافة الى ان البابوية كانت تحت تأثيرات شارل الانجوي الذي لم ترق لـه فكرة التحالف مـع المغول لاعتبارات منها : ان مغول فارس في حلف مع الامبراطورية البيزنطية في الوقت الذي كان فيـه الانجوي يعد العدة لمحاربة البيزنطيين • كما ان الانجوي في حلف مع البنادقة الذين لا يرتاحون الى تحالف الانجوي مع المغول لان هؤلاء حلفاء غريمتهم جنوا • لهـذا فضل شارل الانجوي الاحتفاظ بعلاقات ايجابية مع مصر وخاصة بعد ان اعتبر نفسه وارثا لعرش المملكة الصليبية بعد قتله آخر وريث لاسرة الامبراطور فردريك الثاني الا وهو كونرادين • هذا بالاضافة الى ان نزاعه مع ملك قبرص حـول عرش الاراضي المقدسة يحتم عليه اتباع سياسة سلمية تجاه مصر •

كادت العلاقات بـين مصر ودولة مغول فارس ان تتجه اتجاهات ايجابية في عهد الخان تقودر Tequdor ١٢٨٢ ــ ١٢٨٤ • اذ حاول هذا وضع حد للحروب ضد المماليك والعدول عن سياسة التحالف مع المعسكر الغربي • لهذا اعلن اسلامه وتسمى باسم احمد • وارسل رسالة الى سلطان مصر الناصر قلاوون يخبره بذلك ويطلب منه التحالف • ولم يوفق هذا في مسعاه للمعارضة التي تزعمها ابن اخيه ارغون بن ابقا والتي اسفرت عن اغتياله[١٨] •

استأنف مغول فارس علاقاتهم الايجابية مع الغرب في عهد الخان ارغون ١٢٨٤ ــ ١٢٩١ الذي كان متحمسا للتحالف مع الغرب[١٩] • اذ

---

(17) Howorth, op. cit., 280-1.
(18) S. J. Glubb, The Lost Centuries (London, 1967) 308.
(19) E. Budge, The Monks of Kublai Khans, Imperor of China (London, 1928) 72-75.

استهل حكمه برسالة الى البابا انوريوس الرابع سنة ١٢٨٥ لم يتلق عليها الجواب • ومع ذلك فقد ارسل ثلاثة وفود الى اوربا • تمثل الوفد الاول بشخصية رابان سوما سنة ١٢٨٧ • اذ اجرى هذا مفاوضات مع الامبراطور البيزنطي اندرونيكوس في القسطنطينية واعرب الامبراطور عن استعداده لتقديم المساعدات بالرغم من مرافقه المالية الهزيلة • وحاول رابان عبثا اجراء مفاوضات مع الانجويين اثناء اقامته في نابولي للحرب الدائرة هناك بين الانجويين والاراكونيين • فقصد روما في الوقت الذي توفي فيه البابا انوريوس • ولم تسفر اتصالاته الاولى في روما مع مجلس الكرادلة عن نتائج ايجابية وذلك لانشغال المجلس في الانتخابات البابوية • كما وجد رابان مجلس الكرادلة مخيبا لآماله وذلك لجهل اعضائه بمدى انتشار المسيحية بين المغول • كما انهم اخذوا يتشككون في ايمانه لانه في خدمة امبراطور وثني • وقد اضطر رابان الى التصريح بأنه جاء اليهم للمفاوضة في امور دبلوماسية لا دينية • اما في مدينة جنوا فقد صادف رابان ترحيبا حارا اذ ابدت السلطات هناك الاستعداد للقيام بعمل عسكري مشترك ضد المسلمين • كما اجرى رابان اتصالات مع كل من فيليب الرابع ملك فرنسا وادوارد الاول ملك انكلترا • وقد ابدى كل منهما استعداده للتعاون الحربي مع المغول ولكنه لم يستحصل منهما على وعد قاطع • وقد عاد من فرنسا الى روما ثانية سنة ١٢٨٨ حيث قابل البابا نيقولا الرابع الذي ابدى تجاوبا مع وجهة نظره ولكنه لم يجد البابا متمكنا من تحديد الوقت للتعاون العسكري الفعلي[٢٠] •

اعتقد رابان حين تجواله في اوربا واتصالاته بحكامها بـأن هناك مشاكل اوربية تحول دون التعاون الاوربي المغولي المنشود • ولعل مـن اهم تلك المشاكل التي صرفت الاذهان الاوربية عن الامر مشكلة مملكة الصقليتين التي تعقدت منذ سنة ١٢٨٢ وتطورت الـى ازمة دولية • اذ ساندت البابوية الجانب الانجوي ، واضطرت فرنسا الى ان تدخل الحرب ضد الاراكون وحلفائها من الجنويين • كما ان ادوارد الاول قد انهمك

(20) Ibid., 164-97.

في حرب توسعية على حساب ويلز وسكوتلاند .

لم يتطرق اليأس الى قلب اراغون بالرغم من فشل مهمة مبعوثه رابان . حيث لم يعتقد بأن عدم الاكتراث الاوربي لموضوع الاراضي المقدسة بلغ الحد الذي يتغاضون فيه عن ابتلاعها من قبل المسلمين . لهذا ارسل وفدا ثانيا سنة ١٢٨٩ متمثلا في شخص احد الجنويين المقيمين في بلاده الا وهو بوسكاريل جيزولف Buscarel Gisolf ، زوده برسالة الى كل من ملكي فرنسا وانكلترا والبابوية . وقد وضح المغول اهدافهم بدقة في الرسالة المعنونة الى ملك فرنسا فيليب الرابع . اذ جاء فيها : ان الخاقان قوبليا قد فوض خان مغول فارس اراغون ان يقوم بحملة عسكرية في كانون الثاني على سوريا وانه سوف يكون في دمشق في شهر شباط ، ومنها يشرع المغول باحتلال القدس التي سوف تقدم الى الملك الفرنسي شريطة ان ترسل فرنسا فرقا عسكرية وانه على استعداد لتجهيز الجيش الاوربي بعشرين الف حصان . وفي حالة تعذر التعاون العسكري مع الفرنجة فان المغول لا يرون فائدة من القيام بحملتهم . كما اكد السفير جيزولوف الى ملك فرنسا بأن امراء جورجيا وارمينيا سيشتركون في المشروع . ثم احتوت الرسالة الموجهة الى ادوارد على نفس النقاط المذكورة اعلاه . كما اكدت الرسالتان على ان البابوية لا يمكنها القيام بخطوة مجدية ما لم تتأكد من تأييد فرنسا وانكلترا وسائر حكام اوربا مقدما . وعلى كل فلم يتلق المغول جوابا قاطعا عن الموضوع .

لقد ارسل اراغون وفده الاخير سنة ١٢٩٠ الى اوربا . وهو وفد ثلاثي ، تألف من رئاسة بوسكاريل وعضوية كل من زاكان Zagan وسهادين Sahadin المغوليين . فقصد الوفد اولا البابا نيقولا الرابع حيث زودهم برسالة الى ادوارد الاول . الا ان الاخير كان منشغلا بمشاكل سكوتلاند . فاضطر الوفد الى الرجوع الى روما ممضيا فيها فصل الصيف . وقد اصبح متعذرا على الوفد الاستمرار في المفاوضات نظرا لاستيلاء المماليك على عكا ووفاة السلطان اراغون سنة ١٢٩١ .

مغول فارس والمماليك :

لم تقتصر فعاليات مغول فارس على المفاوضات الدبلوماسية مع

الغرب بل انهم اتخذوا في ذات الوقت عدة اجراءات عسكرية يائسة ضد المماليك بالاشتراك مع سلاجقة آسيا الصغرى ودولتي ارمينيا وجورجيا • فقد انتهز المغول وحلفاؤهم فترة الفوضى التي سادت صفوف المماليك على اثر اختلاف قادتهم حول السلطنة عند وفاة بيبرس سنة ١٢٧٧ وتمرد والي دمشق سنقر الاشقر سنة ١٢٨٠ • فأغاروا من جهات الفرات العليا على عدة مدن سورية الا انه سرعان ما تحول الهجوم الى هزيمة بعد ان وحد المماليك كلمتهم باتفاقهم على سلطنة قلاوون ١٢٧٩ — ١٢٩٠ • وقد اضطر المغول الى التراجع للجزيرة الفراتية ، الا انهم اعادوا الكرة سنة ١٢٨١ بجيشين كبيرين : الاول بقيادة الخان ابقـا حيث هاجم الجهات السورية الشرقية ، والثاني بقيادة اخيه تيمور حيث ساهمت معه الجيوش الارمنية والجورجية وفرق فرسان الاسبتارية • وقد هاجم الجيش الثاني الاجزاء الشمالية والغربية من سوريا • واشتبكت الجيوش الاسلامية مع الغزاة في معركة حاسمة قرب حمص انتهت باندحار المغول وحلفائهم • واضطر المغول الى الانسحاب الى ما وراء الفرات(٢١) • وقد ارسل نائب الملك الصقلي في الاراضي المقدسة التهاني والهدايا بهذه المناسبة الـى قلاوون •

انتصارات الناصر قلاوون :

لقد شرع قلاوون باسترداد المناطق الصليبية معتمدا على الدبلوماسية والحرب • اذ اسهم في اثارة الاختلافات بين القادة الصليبيين انفسهم وبين الاراكونيين والانجويين ايضا • وقد انقسم الصليبيون الى فريقين حيال المماليك • تكون الفريق الاول من امارة عكا وفرسان المعبد حيث فضلوا التعاون مع المماليك • وتألف الفريق الآخر من امارة طرابلس وفرسان الاسبتارية حيث آثروا التعاون مع المغول •

لقد حول قلاوون الاختلافات الصليبية الـى صالحه وعمل علـى تعميقها • فقد طلب من حكومة عكا تجديد الهدنة التي عقدها ادوارد والتي انتهت سنة ١٢٨٣ حيث شملت المنطقة الساحلية عدا بيروت وطرابلس •

---

(21) Glubb, op. cit., 305-8.

واستهدف قلاوون من هذا الاجراء القضاء على المناطق الاستراتيجية التي يحتلها الاسبتارية حلفاء المغول فاستولى على المرقب سنة ١٢٨٥ واللاذقية سنة ١٢٨٧ في الوقت الذي كانت فيه اساطيل البنادقة تهاجم الجنويين وحلفائهم في عكا . ثم اخذ قلاوون يستعد للاجهاز على طرابلس حيث وافته الفرصة على اثر وفاة الامير بوهيمند السابع سنة ١٢٨٧ . اذ اعلن السكان هناك حكومة جمهورية وطلبوا المساعدة العسكرية من جنوا . الا ان قسما من المعارضين اتصلوا بقلاوون محذرين اياه من الخطر الجنوي البحري على مصر فيما اذا تمركز هؤلاء في طرابلس . ولم يكن قلاوون محتاجا الى مثل ذلك التحذير الا انه رأى في تذبذب الرأي لامراء طرابلس الفرصة للقضاء على تلك الامارة حيث استولى عليها في نيسان سنة ١٢٨٩ .

لم يحدث رد فعل سلبي هام في الغرب من جراء سقوط طرابلس . وذلك لانشغال ادوارد في مشاريعه التوسعية في بريطانيا وللحرب القائمة بين المعسكرين الانجوي والاراكوني حول صقلية . وقد راحت الوفود تترى على القاهرة من قبل الامبراطورية الرومانية المقدسة والبيزنطيين وجنوا طلبا للامتيازات الاقتصادية[٢٢] . وعقد قلاوون اتفاقية خاصة مع جنوا منحها امتيازات تجارية في الاسكندرية . وقد اغضبت هذه الاتفاقية حكومة البنادقة فدعت الى حملة صليبية بموافقة البابا نيقولا الرابع . اما بالنسبة الى هنري الثاني ملك قبرص وعكا فقد ابحر للاراضي المقدسة حال سماعه بسقوط طرابلس ثم ارسل وفدا يطلب فيها تجديد الهدنة بالنسبة الى عكا لعشر سنوات ونيف .

سقوط عكا وموقف الغرب :

ان السبب المباشر الذي ادى بقلاوون الى الغاء الهدنة السابقة مع حكومة عكا هو عجز السلطات العكاوية عن ردع الاعمال الفوضوية التي قامت بها الفرقة الايطالية . والفرقة الاخيرة هي التي دعت اليها جمهورية البنادقة والتي ضمت جموعا من الفقراء اللمبارديين وساهم فيها ملك الاراكون ايضا بارسال خمس سفن . وما ان نزلت الفرقة في عكا في

(22) Setton, op. cit., 593.

اغسطس سنة ١٢٩٠ حتى شرعت في مهاجمة القرى الأسلامية في ضواحي عكا بالرغم من معارضة السلطات العكاوية • ولـم تقف اعمال الشغب لهؤلاء الايطاليين عند ذلك الحد ، بل افتعلوا حادثة في المدينة راحوا على اثرها يهاجمون المسلمين هناك فأبادوا الكثيرين منهم • لهذا اعلن قلاوون الغاء الهدنة بعد ان رفضت حكومة عكـا تسليم زعماء الفتنة • وتقدم قلاوون للاستيلاء على المدينة الا ان المنية عاجلته سنة ١٢٩٠ وقرر ابنه الاشرف خليل ١٢٩٠ ــ ١٢٩٣ تأجيل المشروع للسنة القادمة •

حاولت حكومة عكا عبثا الاعتذار عن تلك الاعمال التي قامت بها الفرقة الايطالية والتفاوض لاعادة الهدنة • حيث امـر الاشرف خليـل باعتقال الوفد الصليبي الذي ام القاهرة للتباحث في الامر(٢٣) • وقد سار الاشرف بقوة قدرت بمائة وسبعين الف مقاتل نحو عكا حيث حصرها في اليوم الخامس من نيسان سنة ١٢٩١ • وقد حاول الملك هنري الثاني ملك قبرص الذي وصل عكا بعد شهر من حصرها للتفاوض مع الاشرف من اجل الصلح • الا ان الاخير طلب استسلام المدينة قبل كل شيء • لهذا انسحب هنري الى جزيرته • وتمكن الاشرف من اقتحام المدينة في ١٨ مايس الا ان القتال استمر في داخلها لعشرة ايام حيث تم الاستيلاء على القلعة • وقد سيطر المسلمون على كافة المراكز الصليبية في الاراضي المقدسة في الفترة الممتدة من ٢٨ مايس الى ١٥ آب سنة ١٢٩١ •

احدث سقوط عكا موجة حزن شديدة في الاوساط الاوربية الدينية والسياسية والثقافية الا انها لم تثمر عسكريا • اذ لم تكن البابوية ولا حكام اوربا في وضع يمكنهم من استعادة الاراضي المقدسة عـن طريق الحرب • ومع ذلك فقد جادت قرائح قسم من الكتاب ورجال الكنيسة بمقترحات متعددة حول الموضوع ومن اشهر هؤلاء هم :(٢٤)

فدنزيو البادوي Fidenzio of Padua : ــ وهو راهب من فرقة الفرنسسكان اعتمدت عليه البابوية كثيرا في شؤون الشرق لما له من خبرة

---

(23) Ibid., 395.
(24) A. Atiya, Crusade, Commerce and Culture (London, 1962) 95.

واسعة على احوال الشعوب الاسلامية • اذ اصدر سنة ١٢٩١ كراسا بعنوان تحرير الاراضي المقدسة اهداه الى البابا نيقولا الرابع • اشار فيه الى ضرورة فرض الحصار الاقتصادي على المماليك واتخاذ قواعد استراتيجية في الجهات الساحلية الارمنية •

كما نشر احد الايطاليين والمسمى ثاديوس Thaddeus سنة ١٢٩٢ كتابا تاريخيا عن سقوط عكا ، وكان هذا حاضرا المعركة الاخيرة • دعا في كتابه الى تكوين حلف عسكري من امراء اوربا برئاسة البابوية • وعزا سقوط المملكة الصليبية الى جبن القيادات هناك • وانهى كتابه بتوجيه النداءات الحارة للبابوية وحكام اوربا وكافة المؤمنين لعمل شيء من اجل الاراضي المقدسة •

ولعل ابرز الذين عالجوا الموضوع ريموند لول Raymond Lull المبشر الاسباني ١٢٣٢ ـ ١٣١٥ • حيث جمع بين الحرب والتبشير لاستعادة الاراضي المقدسة في كتاب اصدره سنة ١٣٠٥ Liber de Fine اما بالنسبة لمشروعه الحربي فقد اشار الى ضرورة توجيه الجهود لطرد المسلمين من اسبانيا اولا ثم العبور منها الى الشمال الافريقي والزحف من هناك على مصر • واقترح ايضا جعل كل من جزيرة رودس ومالطة وقبرص مراكز الانطلاق الرئيسية في الهجوم • كما اشار الى وجوب الاستيلاء على القسطنطينية من اجل تلك الغاية • اما من ناحية استعادة الاراضي المقدسة عن طريق التبشير • فقد دعا الى دراسة اللغة العربية والعلوم الاسلامية الدينية وغير الدينية من اجل عملية التنصير • وحاول تجربة مشروعه التبشيري بنفسه • اذ قصد الشمال الافريقي ثلاث مرات • قابل في المرة الاولى قاضي قضاة تونس ابن عمار • وسجل ريموند مناقشاته مع ذلك القاضي في كراس نشر بعد مماته بعنوان (المساجلة الدينية بين ريموند وابن عمار) • اما في زيارته الثانية فقد امرت السلطات التونسية باخراجه من البلاد • الا انه توجه في المرة الثالثة الى الجزائر حيث استشهد في سبيل عقيدته رميا بالحجارة[٢٥] •

(25) Runciman, op. cit., 431-32.

وتقدم احد رجال القانون في فرنسا الا وهو بطرس دبوا P. Dubois بكتيب صغير الى فيليب الرابع ملك فرنسا بحث فيه الطرق التي يجب اتباعها لاستعادة الاراضي المقدسة وكيفية تلافي نفقات المشروع ● حيث اقترح الاستفادة من ثروات فرسان المعبد ثم اشار الى ضرورة السيطرة على الموارد المالية للكنيسة لاستخدامها في الحرب ● ثم وجه نداءه الى فرسان اوربا للانضواء تحت الراية الفرنسية لتحرير القبر المقدس ●

كما طلبت البابوية من هيثوم الامير الارمني الذي اعتزل الدنيا واقام في احد الاديرة الفرنسية ان يبين رأيه في كيفية استعادة المملكة الصليبية ● وضمن هيثوم آراءه في كتابه المعنون (تاريخ الاراضي الشرقية) حيث نشر سنة ١٣٠٧ ● اقترح فيــه القيام بحملتين : الاولى برية عــن طريق القسطنطينية وارمينيا ، والثانية بحرية عن طريق قبرص ● ثـم دعا الى التحالف مع المغول ● واشار الى ضرورة احتفاظ الدول الاوربية بأساطيل قوية في المحيط الهندي لقطع دابر التجارة المصرية ● ثم قال بضرورة احتلال القسطنطينية كاجراء اولي لتأمين الطريق البري ●

كما تقدم المؤرخ الايطالي ماريانو سانودو Marino Sanudo الاب ، باقتراحات الى البابا كليمنت الخامس سنة ١٣٠٩ وذلك على اثر دراسة احصائية لاحوال المشرق وخاصة البلاد المصرية وعلاقاتها الاقتصادية مع مدن ايطاليا والشرق الاقصى ● وموجز اقتراحاته تدور حول منــع المتاجرة مع الاقطار الاسلامية وفرض الحصار الاقتصادي على مصر لمدة ثلاث سنوات ● ثم اقترح فرض عقوبة التحريم على المخالفين من التجار الاوربيين ● وقد ايــد البابا ذلك المشروع بحماس الا ان التجارة بقيت مستمرة بازدهار بين مصر والبندقية وجنوا(٢٦) ●

---

(26) Atiya. op. cit., 97-99.

تصارع القوى في العالم الاسلامي في القرنين الرابع عشر والخامس عشر

الجبهة الشرقية : ارمينيا ـ قبرص ـ مغول فارس ـ رودس ـ المد العثماني الاول والبابوية ـ نيقوبولس .
تيمورلنك وفتوحاته .
المد العثماني الثاني ـ فارنا ، موقف البابوية .
الجبهة الغربية : الشمال الافريقي والاندلس ، كفاح دولة غرناطة وزوالها ، المد البرتغالي .

تميزت الفترة بصراعات حادة في الجبهة الشرقية بين المماليك من جهة والارمن والقبارصة ومغول فارس واسبتارية رودس من جهة ثانية . كما برزت قوة اسلامية جديدة للوجود الا وهي الدولة العثمانية التي افزعت توسعاتها في البلقان دول اوربا والبابوية وقد لاح الصراع الاوربي العثماني وكأنه استمرارية صليبية . وطفق في اثناء ذلك اعصار آسيوي جديد على الشرق تمثل في تيمورلنك كاد ان يقبر الدولة العثمانية . وتميزت الاحداث في الجبهة الغربية الا وهي جهات المغرب والاندلس بصراعات حادة ايضا خاصة في الاندلس انتهت بانحسار السيادة الاسلامية وتصاعد المد البرتغالي الذي طغى على مناطق اسلامية في المغرب والمشرق .

دولة ارمينيا الصغرى :

قامت دولة ارمينيا الصغرى بأدوار خطيرة في شؤون المشرق منذ

تأسيسها سنة ١١٩٨ حتى نهايتها سنة ١٣٧٤ . فقد دخل الملك هيثوم الاول ١٢٢٦ ــ ١٢٦٩ في محالفات مع المغول منذ سنة ١٢٥٤ ، واشترك مع جيوش هولاكو في الغارات على العراق وسورية . وسار ملوك الارمن على سياسة هيثوم في تبعيتهم لمغول فارس وفي طلب المساعدات الاوربية في عهدي كل من ليو الثالث ١٢٦٩ ــ ١٢٨٩ وهيثوم الثاني ١٢٨٩ ــ ١٣٠٥ .

لقد اخذت المصائب تترى على دولة ارمينيا منذ سقوط عكا سنة ١٢٩١ . اذ فقدوا ركيزة كبرى ضد الخطط التوسعية للمماليك . هذا بالاضافة الى الحروب الاهلية في عهد هيثوم الثاني وغارات القراصنة ودفع الاتاوات المرهقة الى مغول فارس مما ادت الى تدهور الاوضاع فيها . وقد وصف المؤرخ المعاصر آنذاك مارينو سانودو الاحوال الحرجة في ارمينيا بقوله :[1]

> لقد وجد ملك ارمينيا نفسه بين اربعة وحوش كاسرة : الاسد المغولي الذي افترس اقتصاد البلاد . والذئب التركي حيث عاث فسادا في الارض . ثم اللبوة المملوكية وعراتها المتكررة على الحدود واخيرا افعوان القرصنة الذي نخر عظام الارمن .

لقد خاب امل هيثوم الثاني في امكانية الدفاع عن بلاده خاصة بعد ان انقلبت مواقف دولة خانات فارس تجاههم رأسا على عقب عند اعتناق غازان الاسلام . فبالرغم من عداوة هذا للمماليك الا انه اتبع في اوائل سني حكمه سياسة اضطهادية ضد المسيحيين . وقرر هيثوم الثاني التنازل عن العرش سنة ١٣٠٥ والانخراط في الحياة الديرية . ولم يوفق الملك ليون الرابع ١٣٠٥ ــ ١٣٠٨ في سياسته مع المغول اذ راح ضحية مؤامرة دبرها الامير المغولي بيلارغو[2] .

---

(1) Quoted in : Howorth, History of The Mongol, III (London, 1888) 579.

(2) S. Nersessian, The Kingdom of Cicilian Armenia, in setton, wolff and Hazard, A History of The Crusades, Vol. II (Phila., 1962) 658.

وبالرغم مما تقدم فقد بقيت ارمينيا الصغرى نقطة الانطلاق العسكرية لكل من القبارصة وفرسان الاسبتارية ورحب حكامها بالمشاريع البابوية الرامية الى فرض الحصار الاقتصادي على المماليك في سورية ومصر • فقدمت للتجار الاوربيين تسهيلات خاصة مادية ومعنوية من اجل تشجيع الاوربيين على المتاجرة معها بدل الموانىء المصرية • لهذا صمم المماليك على تدمير مدن ارمينيا الساحلية • وتمكنوا فعلا من السيطرة على الساحل في غارتي ١٣٢٢ و١٣٣٧ • واضطر ملك ارمينيا ليو الخامس ١٣٢٠—١٣٤١ على تهديم اسوار ميناء اياس • وتعتبر الغارة المصرية الثانية من الكوارث الكبرى في تاريخ ذلك البلد اذ اقتيد ما يقارب الاثني عشر الف اسير الى الاراضي السورية •

لقد دافعت ارمينيا دفاعا يائسا في جبهتين : هما الجبهة العثمانية من الشمال وجبهة المماليك السورية من الجنوب التي لاقوا منها الامرين • اذ اغار المماليك على ميناء اياس سنة ١٣٤٧ وألحقوه بمناطق نفوذهم كما استولوا على اطنه وطرسوس سنة ١٣٥٩ • لهذا فلم يبق من المملكة الارمنية سوى العاصمة سيس وانزرب في المناطق الجبلية •

زالت مملكة ارمينيا الصغرى نهائيا على ايدي المماليك سنة ١٣٧٥ • وذلك على اثر استيلائهم على العاصمة بالرغم من المقاومة التي ابداها الملك ليو السادس • اذ وقع هذا اسيرا فاقتيد مكبلا مع حاشيته الى القاهرة حيث امضى في سجنها سبع سنوات • وقد اطلق سراحه سنة ١٣٨٢ نتيجة لتوسطات حكومة البنادقة ودفعه الفدية وتعهده بأن لا يطأ ثانية ارض بلاده • وامضى ليو السادس بقية عمره مترهبنا حائرا ومترددا على الاوساط البابوية وبلاطات حكام اوربا الى ان وافاه الاجل سنة ١٣٩٣[٣] • وبذلك اصبحت ارمينيا مستعمرة مصرية حتى وقوعها بيد العثمانيين سنة ١٥١٦ •

قبـــرص :

لقد استمر حكام قبرص يعتبرون انفسهم ورثاء العرش المضاع في

(3) A. Atiya, Crusade, Commerce and Culture (London, 1962) 138-39.

الاراضي المقدسة ، لهذا بقيت قبرص حاملة لواء الحرب منذ سقوط عكا حتى سنة ١٤٢٦ ، اذ اتخذ ملوكها العديد من الخطوات العسكرية والدبلوماسية ضد مصر املا في تحطيم المماليك واستعادة عرش القدس ، فقد ارسل الملك القبرصي هنري الثاني ١٢٨٥ – ١٣٢٤ حملة بحرية لمهاجمة الاسكندرية سنة ١٢٩٢ متألفة من خمس وعشرين سفينة ، الا ان قوات الاشرف خليل تمكنت من صدها ، وأثارت تلك الغارة الخاطفة غضب ذلك السلطان حيث امر ببناء مائة سفينة استعدادا لغزو جزيرة قبرص الا انه اغتيل سنة ١٢٩٣ ، كما اغار القبارصة ثانية على الاسكندرية سنة ١٣٠٠ كجزء من مخطط قبرصي – مغولي ضد المماليك في سوريا ومصر .

واجهت القبارصة جملة مشاكل صرفتهم موقتا عن مهاجمة السواحل السورية والمصرية منذ ذلك التاريخ حتى اعتلاء بطرس الاول العرش سنة ١٣٥٩ ، وذلك للنزاع حول العرش بين هنري الثاني واخيه اماليك الذي اغتصب العرش ١٣٠٦ – ١٣١٠ ، وكذلك للنزاع بين الجنويين والبنادقة في قبرص ، ولم يتمكن الملك هيو الرابع ١٣٢٤ – ١٣٥٩ من استئناف العلاقات العدائية العسكرية ضد مصر نظرا لاستمرار المناوشات بين البنادقة والجنويين وللفيضانات غير الاعتيادية التي اغرقت الالوف سنة ١٣٣٠ ولانضمام قبرص (للحلف المقدس) المتألف من البابوية والبنادقة وفرسان الاسبتارية في رودس سنة ١٣٤٤ الموجهة ضد العثمانيين الذين بدأوا بقرع الابواب الاوربية اللاتينية من جهاتها الجنوبية الشرقية ، هذا بالاضافة الى موجة الطاعون سنة ١٣٤٨ التي اجتاحت الجزيرة(٤) .

بطرس الاول وحماسه الصليبي ١٣٥٩ – ١٣٦٩ :

امتاز بطرس الاول بميزتين هامتين هما الحماس الصليبي وغرابة الاطوار ، اذ اعتقد بأن العناية الربانية قد اختارته لتحرير الاراضي المقدسة على اثر طيف بدا له في المنام ، لهذا اخذ يهيىء نفسه للمشروع الصليبي قبل أن يتقلد العرش ، اذ كون فرقة فرسان خاصة اطلق عليها اسم فرسان السيف ، ثم غادر اليونان سرا لاوربا لمناشدة حكامها تقديم العون له

(4) D. Alastos, Cyprus in History (London, 1955) 188-89.

بدون ان يخبر والده بالامر • واضطر الاخير الى ارسال من يفتش له عن ولده في الجهات الاوربية لاعادته • وقد امر الوالد بسجن بطرس عندما تم العثور عليه ولم يطلق سراحه الا بعد توسطات البابوية(٥) •

شمر بطرس عن ساعد الجد لتحقيق مشروعه حال توليه العرش • فقام باصلاحات داخلية في القطاع الزراعي ببيع الارض الى ملتزميها وتحرير الاقنان لقاء مبالغ معينة وذلك من اجل توفير الاموال لحملته الصليبية • ثم ارسل رسله الى الجهات الاوربية للتفتيش له عن فرسان مأجورين • ووجه اولى حملاته ضد سواحل آسيا الصغرى التابعة للعثمانيين • اذ قاد حملة بنفسه ضد مدينة اطنة وامر بقتل جميع سكانها •

غادر بطرس الى الجهات الاوربية سنة ١٣٦٢ على اثر دعوة تلقاها من البابوية في افينون لكي تحسم الخلاف بينه وبين ملك فرنسا جون الصالح الذي كان يساند احد المدعين بالعرش القبرصي • فانتهز بطرس المناسبة فأخذ يطوف في اوربا مناشدا حكامها الاسهام عسكريا لانقاذ الاراضي المقدسة • فزار فلاندر والمانيا وانكلترا سنة ١٣٦٣ •

لقد استقبل بطرس في لندن بحفاوة كبيرة ، مع ذلك فقد صادفته مواقف حرجة هناك • اذ خسر قسما كبيرا من امواله اثناء مقامرته اثناء احدى الحفلات الملكية • ثم تدهورت العلاقات بينه وبين ادوارد الثالث • ولم يكتف الاخير برفضه الاشتراك في الحرب الصليبية بل اخذ يطالب بطرس باعادة جزيرة قبرص الى انكلترا على اعتبار ان رشارد اعطاها لاجداده ، وذلك في حالة استعادته عرش القدس • وقد استمر سوء الطالع يلاحق بطرس في الاراضي الانكليزية • حيث هجم عليه في خاتمة المطاف قطاع طرق سلبوه ماله اثناء طريقه من لندن الى الميناء ، فاضطر ادوارد الى تعويضه •

عرج بطرس اثناء العودة من بريطانيا على براغ حيث واجه الامبراطور شارل الرابع • وبالرغم من الاخير وعده خيرا الا انه جعل موافقته على المشروع الصليبي منوطة بارادة امرائه الذين رفضوا الاسهام • ثم قصد

(5) Ibid., 192.

بطرس البندقية عارضا عليها خدماته لاخماد ثورة ضدها في جزيرة كريت ٠

لم تأت زيارة الملك القبرصي للاقطار الاوربية التي استغرقت ثلاث سنوات بفائدة تذكر ٠ حيث لم تكن هناك رغبة في الاشتراك بالاضافة الى تمشكل بريطانيا وفرنسا في مشاكل حروب المائة العام ٠ ومع ذلك فقد تمكن من تجميع عدد كبير من المغامرين المأجورين حول رايته بمساعدة البنادقة التي وضع فيها مخططه العسكري ٠

لقد اتفق بطرس مع قادة الفرق المغامرين على ان تكون جزيرة رودس محل الالتقاء ٠ وفعلا تجمع في تلك الجزيرة عشرة آلاف راجل والف فارس ومائة واربعين سفينة ٠ وقد اندفعت تلك القوة من رودس الى مصر حيث داهمت الاسكندرية في تشرين الاول سنة ١٣٦٥ وعاثت فيها لمدة ثلاثة ايام ٠ الا ان بطرس اضطر الى ان يخضع لرغبة القادة بالتعجيل بالانسحاب خوفا من الاصطدام بالجيش المصري الذي كان في طريقه للاسكندرية وكسب الصليبيون غنائم كثيرة واقتادوا معهم خمسة آلاف اسير بعد ان قتلوا الالوف من السكان ٠

اما موقف السلطات المصرية من تلك الغارة الخاطفة فيتمثل في قطعها العلاقات التجارية مع الاوربيين ٠ وكان الوقع للمقاطعة الاقتصادية شديد على مدن ايطاليا التي اخذت تساورها المخاوف من مشاريع بطرس المقبلة ٠ وعلى كل فقد تمكنت البندقية من اعادة المياه الى مجاريها مع الحكومة المصرية بعد مفاوضات قام بهـا سفيراها Bembo و Sorauzo سنـة ١٣٦٦[٦] ٠

حاول بطرس ثانية الاستغاثة بأوربا عند زيارته الثانية لها سنة ١٣٦٧ ٠ ويقال بأن السبب المباشر لتلك الزيارة ليبارز الفارس Lesparre ٠ وكان هذا في جملة المشتركين في الحملة على الاسكندرية والتي لحقته اثنائها اهانة من قبل الملك القبرصي ٠ لهذا طلب لسبر مبارزة ملك قبرص اما في حضرة البابوية او باشراف ملك فرنسا ٠ وقبل الملك القبرصي ذلك التحدي حيث وعد الفارس الالتقاء به في البلاط الفرنسي حال انتهائه مـن الحرب في

---

(6) G. Hill, History of Cyprus, Vol. II (Cambridge, 1948) 324-34.

الجهات الشرقية • وعلى كل فلم تتم المبارزة لوساطة البابوية • اما بالنسبة لسببه الصليبي فلم يجد الاستجابة له لا في المدن الايطالية ولا في مملكة الاراكون فعاد خائبا الى قبرص سنة ١٣٦٨ •

وقد تخلصت السواحل الاسلامية من مخاطر قرصنة بطرس على اثر اغتياله • وذلك نتيجة لفضيحة عائلية في داخل البلاط القبرصي تمركزت حول الملكة وانقسم فيها النبلاء • حيث قاد اخو بطرس المعارضة وتمكن من اغتيال اخيه في طريقة دراماتيكية[٧] •

قبر مشروع القبارصة الصليبي مع بطرس ومع ذلك فقد استمرت المناوشات البحرية تأخذ طابع القرصنة بالنسبة للقبارصة والمماليك بالرغم من محاولتي التسوية في ١٣٧٠ و ١٤١٤ • لهذا قرر السلطان برسباي ١٤٢٢ ــ ١٤٣٨ وضع حد للاعمال القبرصية الاستفزازية • حيث ارسل حملة تأديبية سنة ١٤٢٤ ضد ليماسول خاصة والسواحل الجنوبية عامة • ثم بعث بحملة اخرى سنة ٤٢٦ ١استولى بها على الجزيرة القبرصية في موقعة خيروكيتيا Khirokitia • واقتيد الملك جانوس Janus اسيرا للقاهرة كزميله ملك ارمينيا سابقا حيث طافوا به في شوارع القاهرة مع حاشيته ونخبة من افراد جيشه • واضطر ان يقبل الارض بين قدمي السلطان • وقد اطلق سراحه على اثر وساطة البابوية والبنادقة والجنويين وبعد افتداء نفسه وتعهده بأن تكون قبرص تابعة للمماليك وان تدفع مبالغ سنوية للخزينة المصرية[٨] • واستمرت تبعيته قبرص الى مصر حتى سنة ١٥١٧ •

الصراع بين مغول فارس والمماليك :

استمرت الحروب السجال بين الطرفين بالرغم من اعتناق المغول الدين الاسلامي كما اشرنا في عهد غازان سنة ١٢٩٥ متخذة في هذا الدور الاسلامي لبوسا طائفيا بين سنية المماليك وشيعية المغول • اذ حقق الاشرف خليل سنة ١٢٩٢ انتصارا على مغول فارس وانتزع منهم قلعة

---

(7) Alastos, op. cit., 196-97.

(8) Atiya, op. cit., 140-42.

الروم في جهات الفرات الاعلى وهدد قبيل اغتياله بالزحف على العراق لامتلاك بغداد • وقد ورث كل من سلطان مصر لاجين ١٢٩٦ — ١٢٩٩ والناصر في فترتي حكمه الثانية والثالثة ١٢٩٩ — ١٣٠٩ ، ١٣١٠ — ١٣٤١ وقد احرزت الجيوش المغولية نصرا كبيرا على المماليك في موقعة الخازندار في جهات حمص ١٢٩٩ وذلك باستعمال المغول لاقواس المشاة الكبيرة • وكانت هذه طريقة مبتكرة اذ جرت العادة سابقا باستعمال الاقواس الصغيرة من قبل كتائب الفرسان •

لقد استسلمت مدينة دمشق للمغول على اثر الموقعة السابقة حيث دخلها غازان بدون قتال حيث اجتمع بوجوه دمشق في مجلس عام ثم وجه اليهم السؤال التالي : هل تعرفون من انا ؟ فأجاب الحضور انت الشاه غازان بن ارغون بن تولوي بن جنكيز خان • ثم تساءل ومن هو سلطانكم ؟ فأجابوا : انه الملك الناصر بن قلاوون • فقال غازان : ابن قلاوون فقط ؟ وابن من قلاوون هذا ! ؟ ولم يحر الحضور جوابا لان قلاوون من جملة المماليك الذين لا يعرف لهم فصل او نسب[٩] • وقد غادر غازان دمشق سنة ١٣٠٠ الى الجهات الفارسية للدفاع عنها ضد هجمات مغول الشرق الاقصى •

احرز المماليك في عهد الناصر نصرا حاسما على المغول في الجهات السورية في نيسان سنة ١٣٠٣ في موقعة مرج الصوفر والتي دامت لثلاثة ايام قاسى فيها المغول الشدائد من العطش فكان ذلك من جملة اسباب اندحارهم • اذ ان النهر كان في المعسكر المصري وقد تظاهر المماليك على حين غرة بالانسحاب من الموقع فاسحين المجال الى المغول الذين هرعوا للارتواء • وانتهز المماليك تلك الفرصة فانقضوا على جيش المغول حيث ابادوا اكثريته واستعاد الناصر بذلك دمشق •

قاد الناصر قلاوون موكب اسرى المغول الى القاهرة بشكل مثير • اذ تقدمت فرقة من جيش المماليك عددها الف مقاتل يحمل كل واحد منهم رمحا فوقه رأس مغولي • ثم تلتهم جموع من اسرى المغول عددهم

---

(9) J. Glubb, The Lost Centuries (London, 1967) 333.

ستمائة رجل علق في رقبة كل شخص منهم رأس من الرؤوس المغولية وسحلت خلفهم طبولهم وراياتهم معفرة بالتراب[١٠] .

حاول غازان اتباع سياسة اسلافه في ايجاد علاقات عسكرية مع الدول الاوربية ضد المماليك . فقد اجرى اتصالات مع الامبراطور البيزنطي اندرونكيوس الثاني وفيليب الرابع ملك فرنسا وادوارد الاول ملك انكلترا . ولم تأت تلك الجهود بنتائج ايجابية لانشغال الدول الاوربية في مشاكلها الخاصة ولوفاة غازان سنة ١٣٠٥ . ولم يعد المغول بعد ذلك التاريخ يمثلون خطرا على الجهات السورية لتمزق دولتهم خاصة عند وفاة الخان ابي سعيد ١٣٣٤ وعلى اثر الحروب الاهلية .

رودس والمماليك :

لقد التجأ فرسان القديس جون الاسبتارية عند سقوط عكا الى جزيرة قبرص . وهناك اتفقوا مع الجنويين من اجل الاستيلاء على الجزر التابعة للامبراطورية البيزنطية . ثم تمكنوا من تثبيت اقدامهم في جزيرة رودس بعد بضعة معارك مع السلطات هناك سنة ١٣٠٦ ـ سنة ١٣٠٨ . واستمروا يحكمون الجزيرة حتى سنة ١٥٢٢ . اي الى الوقت الذي وقعت فيه الجزيرة بأيدي العثمانيين في عهد السلطان سليمان القانوني .

اصبحت رودس هدف المماليك الثاني بعد الاستيلاء على قبرص ومع ذلك فقد كانت هذه الجزيرة اسعد حظا من قبرص لجملة اسباب منها : الاحتفاظ بقواهم المعنوية والعسكرية . فلم يتطرق الوهن الى حماسهم الديني كما حصل لاخوانهم فرسان المعبد الذين راحوا ضحية انانيتهم وجشع ملك فرنسا فيليب الرابع . هذا بالاضافة الى امتلاكهم لاسطول عسكري قوي كفل الحماية للجزيرة من غارات المماليك . ناهيك عن جهازهم التجسسي الكبير والذي هو اشبه بشبكة تجسس عالمية يطلعون بواسطته على اخبار اعدائهم ويرصدون تحركاتهم ضد الجزيرة . لهذا فكان الفرسان على استعداد دائم لمواجهة الاخطار في حينها[١١] .

---

(10) Ibid., 366.

(11) Atiya, op. cit., 122-23.

حاول المماليك ثلاث مرات للاستيلاء على الجزيرة بدون جدوى في عهد السلطان جقماق ١٤٣٨ ــ ١٤٥٣ . كانت الاولى في صيف ١٤٤٠ . حيث قصدت الجزيرة خمس عشرة سفينة حربية وانضمت اليها سفينتان ارسلها احد امراء الاتراك في آسيا الصغرى . الا ان الحملة اضطرت للتراجع بعد مناوشات طفيفة حيث وجدوا ان الفرسان على علم بهم وانهم على استعداد لمواجهتهم . وارسل جقماق حملته الثانية سنة ١٤٤٢ فاستولت على قلعة جزيرة كاستلوكريزو Castellokrizzo التابعة لفرسان الاسبتارية سنة ١٤٤٣ الا ان قائد الاسطول المصري اينال فضل الرجوع الى مصر لحلول فصل الشتاء . اما الحملة الثالثة فكانت سنة ١٤٤٤ . ولم تسفر هذه عن نتائج ايجابية بالرغم من نزولها في رودس وحصرها قلعة القديس نيقولا . وقد اجبر المماليك على الانسحاب بعد خسرانهم ثلثمائة قتيل وخمسمائة اسير .

المد العثماني الاول والبابوية :

اثار التوسع العثماني في البلقان في النصف الثاني من القرن الرابع عشر مخاوف البابوية اذ اصبحت المخاطر تهدد الدولة المجرية الكاثوليكية خاصة بعد انهيار مقاومة صربيا وحلفائها سنة ١٣٨٩ في موقعة كوسوفو . لهذا هرع الملك المجري سكسموند الى الغرب مستغيثا بحكامه . واحدثت استغاثاته الاصداء المطلوبة في الاوساط البابوية والعلمانية . حيث اعلن البابا بونيفس التاسع الدعوة لحملة صليبية لباها امير برغندي فيليب الجسور واناب عنه ابنه جون الشجاع في قيادة الحملة نظرا لكبر سنه . وقد تطوع في الحملة عدد من امراء فرنسا وفرسان القديس جون من رودس والبنادقة ، وقدر عدد افرادها بمائة الف مقاتل . وكان التفاؤل يغمر قلوب المحاربين حتى خيل اليهم بانهم سوف يستولون على الدولة العثمانية وبلاد فارس وسوريا وتخليص الاراضي المقدسة(١٢) .

دشنت الحملة عملياتها العسكرية ضد الصرب وذلك لعدم موافقة ملكها ستيفن على التعاون عسكريا معهم ضد العثمانيين نظرا لتبعيته الى

---

(12) Newhall, The Crusades (N.Y., 1963) 92.

بايزيد الاول منذ معاهدة سنة ١٣٨٩ التي عقدت على اثر معركة كوسوفو ولكونه ايضا يمت بصلة مصاهرة مع بايزيد الذي تزوج اخته • وقد اتخذت الحملة معسكرها تحت اسوار مدينة نيقوبولس بعد استيلائها على بضعة مدن تابعة للعثمانيين في جهات الدانوب •

لقد ثمل القادة في بداية الامر بالانتصارات التي احرزوها حتى توهموا انهم باستطاعتهم تقويم السماء برماحهم لو تهاوت الى الارض•ولم يهتموا لنداء التحذيرات من الخطر العثماني العسكري الذي بات قريبا منهم • بل انهم ضحكوا من فرسان الاستطلاع الذين اخبروهم بان بايزيد يلدرم ــ الصاعقة ــ اصبح على مسيرة ست ساعات من نيقوبولس • والانكى من ذلك هو اتهام الجنرال الفرنسي بوسيكولت حاملي الانباء بتلفيق الاخبار وهدد بيتر اذان مروجيها •

اسفرت موقعة نيقوبولس سنة ١٣٩٦ عن ابادة الحملة بكاملها تقريبا ولم يسلم من فرسان رودس غير رئيس الفرقة • اما سكسموند فنجا بحياته لهروبه حيث مرسى الاساطيل البندقية التي نقلته الى بلاده[١٣] •

ويستبق الاستاذ ماريوت الحوادث التاريخية بقوله : ان حملة نيقوبولس الصليبية كانت مبتسرة او قبل اوانها • اذ لو جاءت بعد سنوات ست من ذلك التاريخ لجنت اوربا الكاثوليكية الثمار[١٤] • ولكن ماذا حدث عند انتهاء السنوات الست ؟ انه اعصار تيمورلنك الذي استل من (الصاعقة) شحناتها القاتلة •

تيمورلنك ـ تيمور الاعرج :

تعرض الشرق الاسلامي الى تدميرات مغولية جديدة من جموع اسلامية هذه المرة بقيادة تيمورلنك في اواخر القرن الرابع عشر ومطلع القرن الخامس عشر • الذي اشاد امبراطورية على حساب دولة الخانات المغولية الفارسية التي فرقتها الحروب الاهلية خاصة منذ وفاة ابي سعيد سنة ١٣٣٤ حتى سنة ١٣٨٠ •

---

(13) S. Lane-Poole, Turkey (Beirut, 1966) 51-57.
(14) J. Mariotta, The Eastern Question (Oxford, 1958) 66-67.

ولد تيمور في بلاد ما وراء النهر في مدينة كيش في نيسان سنة ١٣٣٦ . ورث عن ابيه زعامة قبيلة تركية اسمهــا بارلاس Barlas وقد انضوى تيمور في بادىء الامر سنة ١٣٥٩ تحت لواء امير افغانستان جلال الدين محمود . الا انه تمرد عليه وحالف خصمه الامير حسين . وقد اصيب تيمور في احدى المعارك هناك بسهم في رجله جعله اعرجــا طول حياته[١٥]. ومن الطريف حقا ان يروى المؤرخ عرب شاه صاحب كتاب تاريخ حياة تيمورلنك (عجائب المقدور في اخبار تيمور) بان تيمور هذا هو ابن صانع احذية عاش في بداية حياته قاطع طريق ، اما لقبــه الاعرج فجاء على اثر اصابته بجرح اثناء محاولته سرقة بعض الاغنام[١٦]. ومهما يكن من امر ، فلم يدم التعاون بين تيمور والامير حسين طويــلا اذ دبر انقلابا ضده اسفر عن مقتل الاخير وتولى تيمور السلطة سنــة ١٣٧٠ جاعلا عاصمته سمرقند منطلقا لغزواته التي شملت جهات الشرق الاوسط وروسيا .

يعتبر تيمورلنك من الشخصيات التاريخية الكبرى التي تميزت بتعطشها للدماء والغطرسة والانتقام وتناقض التصرفات والتظاهر بالتدين ورعاية ارباب القلم . اذ اشاد من جماجم البشر اهرامات ودفن الناس احياء ولا يفرق في فتكه بين المدنيين والمحاربين . والامثلة على ذلك متعددة اثناء غزواته . اذ انزل الدمار بمنطقة خوارزم سنة ١٣٧٥ وامــر باقامة هرم من جماجم سكان مدينة هرات سنة ١٣٨٣ ثم امر بدفن الفين من سكان سلزفار وهم احياء . وامر بذبح كافة السكان في مدينة زرانجي في سجستان واقام من الجثث روابيا ومن الجماجم اهراما . وفعل مثل ذلك في قندهار ومزندران سنة ١٣٨٤ وبلغت ضحاياه في مدينة اصفهان سبعين الفا وسبي نساء مدينة شيراز . واقام في المدينة الاخيرة احتفالا استحضر فيه اجمل نسائها ليسقين تيمور وقادته خمرا بكؤوس من ذهب[١٧]. وعلى بعض الروايات ان حادثة شيراز هذه الهبت مخيلة

---

(15) Glubb, op. cit., 431.

(16) Quoted in: Hitti, History of the Arabs (London, 1960) 699.

(17) Glubb, op. cit., 435.

الشاعر الايراني حافظ الشيرازي حيث نسب اليه ما معناه :

عذراء شيراز في وسط الندامى
الخطب جل وكان الامر ما كانـا
ماذا حظيت من الدنيـا لاسعدها
سمرقند والارواح تفديهـا
وهذا الخال يدفعني لزاما
لاكرمه بما ملكت بخـارى

وحدث ان استدعاه تيمورلنك بمناسبة تأخره عن دفع الفدية لضيق ذات يده[١٨]. فقال له تيمور : كدست كنوز الدنيا في سمرقند وبخارى وانت تهديهما من اجل خال اسود في خد فتاة ؟ ! فلا بد انك في حـالة يسر ورخاء . فاجاب الشيرازي : عفوا يا امير الامراء ، ان اسرافي هذا اوصلني الى الحال التي تراني فيها[١٩].

توجه تيمور بعد اخضاعه البلاد الايرانية نحو العـراق . فدخل بغداد للمرة الاولى سنة ١٣٩٣ بعد ان فر اميرها ابن اويس الى المماليك . ثم عاثت جموعه سلبا في جهات العراق الوسطى ثم حاصر تكريت ودمر قلعتها مهد صلاح الدين الايوبي . ثم توجه شمالا حيث ماردين . وغادر الى الجهات الروسية لمنازلة دولة المغول الذهبية وتوابعها من امارات الروس بما فيها موسكو .

اصبحت امبراطورية تيمورلنك محاددة في جهاتها الشرقية للمماليك والعثمانيين مما ادى الى اصطدامه مع هاتين القوتين. وقد فضل تيمورلنك تصفية الامر اولا مع المماليك لتأمين قاعدته الجنوبية في الجهات السورية عند قيامه بالهجوم على العثمانيين . ولقد انتهز تيمورلنك مناسبة فرار ابن اويس للمماليك فراح يطالب السلطان فرج بأن يكون تابعا له وعليه دفع اتاوات سنوية وان تصدر النقود باسمه ويذكر في المساجد . وقد

---

(18) ارثر اربري ، شيراز مدينة الاولياء والشعراء ، ترجمة الدكتور سامي مكارم (بيروت ، ١٩٦٧) ٢٣٩ — ٢٤٠

(19) E. Browne, Literary History of Persia, Vol. III (Cambridge, 1956) 183-8, see also, Sykes, A History of Persia, Vol. II (London, 1956) 125-26.

اجاب السلطان فرج باعدام وفد تيمور الذي حمل تلك المطاليب • لهذا بدأ غاراته على المناطق التابعة للماليك في جهات اسيا الصغرى ثم اوقع هزيمة كبرى في جيش المماليك في موقعة قرب حلب في ٣ تشرين اول سنة ١٤٠٠ فسقطت حلب في يده وارتكب فيها كافة انواع جرائم الحروب •

لقد استحضر تيمورلنك علماء حلب ليأنس بارائهم • اذ يشير المؤرخ المعاصر انذاك محمد بن الشحنة[٢٠] : عندما فتح تيمورلنك حلب احضر علمائها عنده وامرهم بالجلوس بعدما وقفوا بين يديه ساعة • ثم قال : اني اسألكم عن مسألة سألت عنها علماء سمرقند وبخارى وهراة وسائر البلاد التي افتتحتها ولم يوضحوا الجواب • فلا تكونوا مثلهم • ولا يجاوبني الا اعلمكم وافضلكم • فقال القاضي شرف الدين موسى الانصاري عني : هذا شيخنا ومدرس هذه البلاد ومفتيها • سلوه والله المستعان ••• فقال تيمورلنك : بالامس قتل منا ومنكم • فمن الشهيد ؟ قتيلنا ؟ ام قتيلكم ؟••• فقلت هذا سؤال سئل عنه رسول الله (ص) ••• وانا مجيب بما اجاب الرسول ••• جاء اعرابي الى الرسول وقال : يا رسول الله ان الرجل يقاتل حمية ويقاتل ليعرف مكانه فاينا في سبيل الله ؟ فقال الرسول : من قاتل لتكن كلمة الله هي العليا وفي سبيل الله• ومن قاتل منا ومنكم لاعلاء كلمة الله فهو الشهيد • فقال تيمور لنك خوب (جيد) •

وهناك بضعة حوادث بين علماء حلب وتيمورلنك نذكر منها ما حصل لهم فيها قبيل مغادرته المدينة اذ يقول ابن الشحنة : قيل لنا ان تيمور لنك يطلب رؤساء المسلمين في وقت كانت فيه المذبحة مستمرة • فلما وصلنا اليه ، ارسلنا رسولا يقول له : اننا قد حضرنا • وهو قد حلف ان لا يقتل منا احدا•••؟! فجاءنا امير من الامراء ليعتذر عنه ويقول : ان سلطاننا لم يأمر باحضار رؤوس المسلمين وانما امر بقطع رؤوس القتلى وان يجعل منها قبة اقامة على جاري عادته • ففهموا منه

---

(20) ابو الوليد محمد بن الشحنة ، روضة المناظر في اخبار الاوائل والاواخر ، هامش كتاب الكامل لابن الاثير ، ج ١٢ ، ١٩٠ – ١٩٦

غير ما اراد ، وانه قد اطلقكم فامضوا حيث شئتم ،

توجه تيمورلنك نحو دمشق حيث استسلمت له صلحا سنة ١٤٠١ ، ومع ذلك فلم يراع شروط الصلح فتكررت المأساة واستمرت عمليات النهب والقتل ١٩ يوما وحمل الاف الاسرى الى سمرقند ثم امر باحراق المدينة في ١٩ مارت سنة ١٤٠١ ،

قصد تيمورلنك بغداد للمرة الثانية في تموز سنة ١٤٠١ وذلك لسماعه بعودة احمد بن اويس الى بغداد ، وقد سقطت المدينة بعد دفاع دام لاسابيع ستة ، فحلت بالمدينة كارثة اعظم من كارثتها على يد هولاكو حيث بلغ عدد القتلى تسعين الفا ، واشاد من الجماجم ١٢٠ هرما ، اما احمد بن اويس فتمكن من الفرار واللجوء الى بايزيد الاول ،

هناك جملة اسباب مباشرة ادت الى اصطدام تيمور لنك بالعثمانيين، اذ لعب الامراء اللاجئون الى كل من تيمورلنك وبايزيد الاول ادوارا هامة في استعداء الواحد ضد الاخر ، هذا بالاضافة الى ان تيمورلنك امر باعدام طغرل الابن الاكبر لبايزيد عند احتلاله مدينة سيواس سنة ١٤٠٠ ، ناهيك عن الحزازات الطائفية بين المعسكرين ،

تقابلت الجيوش المغولية والعثمانية في سهل انقره سنة ١٤٠٢ وكان للحرب النفسانية التي اثارها تيمورلنك في صفوف الجيش العثماني تأثيرات هامة في اضعاف المعنويات العثمانية حتى ان قسما منهم امتنع عن القتال وانضم الى صفوف تيمورلنك لاعتقادهم بان الاخير اكثر رحمة من بايزيد ، وقد جاء الاخير لملاقاة خصمه والغرور يغمر قلبه معتقدا ان منازلته لتيمورلنك نزهة من النزهات ، وفعلا قد تشاغل عنه قبيل المعركة في اقامته حفل صيد كبير ترك فيه الموقع الاستراتيجي والمياه ان تسقط بايدي اعدائه[٢١]، وقد اسفرت معركة انقره سنة ١٤٠٢ عن اندحار الجيش العثماني ووقوع بايزيد في الاسر الذي توفي فيه في ٣ مارت سنة ١٤٠٣ ،

اما بالنسبة للسلطان فرج سلطان المماليك ١٣٠٩ — ١٤١٢ فقد

---

(21) Lane-Poole, op. cit., 66.

سارع الى الاعتذار عما سلف وقبوله بشروط تيمورلنك في تقديمه الاتاوات وكتابة اسمه على النقود والدعاء له في المساجد • واكتفى تيمور لنك من المماليك بذلك القدر حيث عاد الى سمرقند سنة ١٤٠٤ •

لقد تنفست اوربا والدولة البيزنطية الصعداء على اثر موقعة انقره • اذ اطالت هذه في عمر العاصمة البيزنطية لنصف قرن اخر • وقد اضاعت حقا اوربا والامبراطورية البيزنطية فرصة الاجهاز على العثمانيين اثناء معركة انقره • وقد يكون الحق مع الاستاذ ماريوت حينما قال لو تأخرت معركة نيقوبولس ١٣٩٦ لمدة سنوات ست لاعطت ثمارها المرجو •

حاول بعض حكام اوربا تكوين علاقات مع تيمور لنك لا تتعدى حدود المنافع الاقتصادية والمجاملات • اذ ارسل هنري الرابع ملك انكلترا برسالة الى تيمورلنك يطلب فيها حرية التجارة للانكليز في بلاده • ثم بعث له برسالة اخرى وكانت بمناسبة انتصاره على العثمانيين • واجريت المراسلات بين الانكليز وتيمورلنك عن طريق المبشر الانكليزي John Greenlaw المقيم في مدينة تبريز • كما ارسل ملك الكاستيل هنري الثالث بضعة وفود الى تيمورلنك ناشده في الوفد الاول التحالف مع الاسبان ضد العثمانيين • وقصد وفدان اسبانيان الى تيمورلنك اثناء استعداده لخوض المعركة الفاصلة ضد العثمانيين • وشاهد الوفدان المعركة فعلا • ثم امر تيمورلنك بصرفهما بعد ان حملهما بالهدايا • وبذلك اصبحت علاقات ودية بين هنري الثالث وتيمور لنك وهذا ما يتوضح من الوفد الاسباني الثالث الذي كان برئاسة Ruy Ganzalez **الذي** قصد سمرقند سنة ١٤٠٣ • اذ عبر تيمرلنك عن سروره بوصول الوفد الاسباني باستفساره عن (ولده) ملك الاسبان • اذ اشار مخاطبا حاشيته (انظروا الى هؤلاء السفراء انهم مرسلون من قبل ولدي ••• الذي يعيش في الطرف الاخر من العالم •••)[٢٢] هذا مع العلم ان كلمة ولدي عند المغول تحمل معنى التبعية والاعتزاز بنفس الوقت •

---

(22) Sykes, op. cit., 130-33.

لقد توفي تيمورلنك في شباط سنة ١٤٠٥ وهو على راس حملة كبيرة في طريقه لمحاربة الصين • مما فسح المجال للامراء المغلوبين على امرهم ان يثوبوا الى صوابهم بعد الصدمة ويلموا شعث بلدانهم وخاصة الدولة العثمانية •

المد العثماني الثاني :

لم تتمكن الدول الاوربية عامة من الاستفادة من الفوضى التي انتابت الدولة العثمانية على اثر موقعة انقره ووفاة تيمورلنك • اذ كانت فرنسا انذاك منهكة القوى في حربها المريرة حرب المائة مع انكلترا ومضاعفاتها الداخلية في كل من البلدين • ولم تتعد مجهودات الانكليز والاسبان عن تقوية الروابط الودية والتجارية مع تيمورلنك التي انتهت بوفاة الاخير • هذا بالاضافة الى ان البابوية كانت في فترة حرجة من تاريخها الا وهي فترة الفتنة البابوية الكبرى التي ادت الى ظهور ثلاث بابوات في وقت واحد • الامر الذي كاد ان يعصف بوحدة الصف الكنسي الغربي • واشغلت هذه المشكلة اذهان الاوربيين دينيا وسياسيا وشعبيا في النصف الاول من القرن الخامس عشر • كما توضح ذلك في حركة اللولارد في بريطانيا وحركة هس في بوهيميا وما نتج عن اعدامه حرقا من فوضى في تلك الجهات من الامبراطورية الرومانية المقدسة • وتوضحت كذلك في انشغال الامبراطور سكسموند ١٤١٠ — ١٤٣٨ بمعالجة تلك المشكلة ومشكلة الفتنة البابوية الكبرى عن طريق حركة المؤتمرات الدينية التي هي الاخرى اشغلت المؤسسة البابوية لفترة من الزمن •

ان انشغال الدول الغربية في مشاكلها وعدم استعداد الدول البلقانية لاتخاذ عمل موحد وانفراط عقد الامبراطورية التترية على اثر وفاة تيمور لنك مما مكن السلطان محمد بن بايزيد الاول ١٤٠٢ — ١٤٢١ من اعادة بناء الامبراطورية بعد القضاء على منافسة اخوانه[٢٣] • وقد تهيأ الجو للسلطان مراد الثاني ان يستأنف الخطط التوسعية على الجهات الاوربية ١٤٢١ — ١٤٥١ •

(23) Marriotte, op. cit., 69.

لهذا هرع الامبراطور البيزنطي جون الثامن ١٤٢٥ ــ ١٤٤٨ للغرب طالبا المساعدات العسكرية عن طريق البابوية . وكان البابا انذاك يوجينوس الرابع الذي راى الفرصة مناسبة لمساومة الامبراطور على اتحاد الكنيستين لقاء المساعدات العسكرية . وقد اضطر الامبراطور على كره منه ان يوافق على ذلك في مؤتمر فلورنس سنة ١٤٣٩ واعتبرت الكنيسة الارثودوكسية خطوة الامبراطور تلك خيانة عظمى بالنسبة لمذاهبها(٢٤). وعلى كل ، فقد اعلن البابا دعوة لتشكيل حملة صليبية وارسل نائبه الكردينال جوليان بفرقة عسكرية فرنسية للمجر للاسهام في المعركة ضد العثمانيين مع كل من الصرب في عهد جورج برنكوفيخ Georges Brankovich وملك المجر لادسلاوس الخامس والقائد المجري هنيادي والاسقف البولندي Peter Warden وتمكنت هذه الحملة من الانتصار على مراد الثاني في بداية الامر سنة ١٤٤٣ واجباره على توقيع هدنة لعشرة سنوات في مدينة Szegedin والتي استعادت بموجبها الاستقلال . واقسم الطرفان على احترام السلم . الا ان الهدنة لم تكن من الامور المرغوب فيها من قبل الاوساط الدينية . لهذا اقنع ملك المجر بان يحنث باليمين وخاصة ان القسم الذي يؤخذ لغير المسيحيين لم يكن ملزما . وهذه قاعدة سار عليها الصليبيون سابقا في الاراضي المقدسة والتي كلفتهم غاليا . لهذا اعلن لادسلاوس الغاء الاتفاقية وتقدم بجيوشه نحو العثمانيين . الا انه اصيب بهزيمة في موقعة فارنا سنة ١٤٤٤ اسفرت عن مقتله ومقتل المندوب البابوي جوليان(٢٥). ولم تعد هناك عقبات امام العثمانيين بعد موقعة فارنا في الجهات البلقانية . لهذا فكان الجو مهيأ لاستيلاء السلطان محمد الثاني على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ .

موقف البابوية من المد العثماني الثاني :

اسفرت انتخابات الكرادلة سنة ١٤٥٥ عن اعتلاء الكرسي البابوي

---

(24) T. Ware, The Orthodox Church (Middleses, 1964) 80.

(25) Lane-Poole, op. cit., 90-6.

كالكستوس الثالث الذي تميز بحماسه الشديد لحرب مقدسة ضد العثمانيين • وحاول فعلا استنهاض همم حكام اوربا وجمع الموارد اللازمة استعدادا لذلك المشروع • واعتمد في الدعاية للحرب على الراهب John of Capistrano (٢٦) • ووجدت الدعوة استجابة من المجر وصربيا حيث سبق لهاتين الدولتين استئناف الحرب ضد العثمانيين منذ سنة ١٤٥٤ وبالرغم من ان هذه الحملة تمكنت من تحقيق انتصار على العثمانيين في معركة بلغراد سنة ١٤٥٦ في فكهم الحصار العثماني عنها • الا ان الحملة جاءت الى نهايتها عند وفاة هنيادي وملك صربيا والكردينال كابسترانو في نفس السنة(٢٧) • وبذلك تمهد الطريق امام العثمانيين من اجل القضاء على المقاومة السلافية الجنوبية بشكل حاسم حيث جعلت صربيا ولاية عثمانية سنة ١٤٥٩ وكذلك بوسنيا سنة ١٤٦٣ وهرزيكوفينا سنة ١٤٦٥ •

كما حاول البابا بايوس الثاني الاستمرار في خطة سلفه الراحل حيث وجهت دعوة عامة لحكام اوربا من اجل الحضور لمؤتمر يعقد في مدينة مانتوا الايطالية لهذا الغرض • وحدد موعد الانعقاد في الاول من شهر حزيران سنة ١٤٥٩ • ولم تجد الدعوة استجابة ، اذ لم يحضر اي امير اوربي الى مانتوا في الموعد المضروب • وقد جاءت الى البابوية بضعة انفار من صغار الامراء في شهر ايلول كانت غايتهم بعيدة عن اهداف الحرب المقدسة • ومع ذلك فقد افتتح البابا المؤتمر في ايلول وجاء في خطابه الافتتاحي :(٢٨)

> أين القادة الاوائل الذين نتمناهم ان يكونوا معنا اليوم . ولاغنانا حضورهم عن الكلام الطويل . أولئك الابطال الاولى كودفري ـ بلدوين ـ بوهيمند . . . أهنا بيننا مثلهم لنهضوا توا من مقاعدهم وعلت عقائرهم بالصيحة المعهودة : انها مشيئة الله . . . انها مشيئة الله . . .

(26) Newhall, op. cit., 94.
(27) Marriotte, op. cit., 80.
(28) Newhall, op. cit., 95-96.

لم يكن بين الحضور من يرغب في تمثيل ادوار ابطال الاولى ، ومع ذلك فقد وافق المؤتمرون على الحرب وابدى البابا بايوس رغبته في قيادة الحملة شخصيا • ثم وجه رسالة الى السلطان محمد الثاني يطلب منه اعتناق المسيحية • واعلن بايوس الحملة رسميا في تشرين الاول سنة ١٤٦٣ وراح دعاتها من الفرنسسكان والدومينيكان يكرسون الجهود لتحريك الجماهير عاطفيا • ولبت النداء زمر من الفرسان تقاطرت على الموانيء الايطاليـة الا انها لم تجد وسائل النقل البحري • اما البابا فقد التحق فعلا بالجموع في انكونا الا انه توفي بعد شهرين من وصوله اليها سنة ١٤٦٤ فتفرقت الحشود • ويعتبر بايوس الثاني اخر البابوات الصليبيين •

الجبهة الغربية ـ المغرب والاندلس :

لقد انفرط عقد الدولة الموحدية على اثر استيلاء القبائل المرينية على مراكش سنة ١٢٦٩ (٢٩) • حيث انقسمت الى اربع دويلات هي غرناطة ودولة بني مرين في المغرب ، وتلمسان في الجهات الغربية من الجزائر • اما الرابعة فتألفت من الجزائر الشرقية وتونس •

لقد شملت توسعات المرينيين الجهات الاسبانية في عهد ابي يوسف يعقوب حيث اغار على ذلك القطر اربع مرات : الاول سنة ١٢٧٥ لانجـاد محمد الثاني ملك غرناطة ضد الكاستيل واحرز نصرا هاما على الجيـوش الاسبانية لا يقل في اهميته عن معركة الزلاقة ، وقدرت خسائر الاسبـان بثمانية عشر الفا وقتل فيها القائد الاسباني الدون دي لارا (٣٠) • والثانية سنة ١٢٧٧ حيث قصد منها تأديب بعض المدن والقرى الاسبانية ومن اجل الغنائم ايضا • اما الثالثة فكانت سنة ١٢٨٢ وذلك بناء على استنجاد ملك الكاستيل الفونسو العاشر ١٢٥٢ ــ ١٢٨٤ الملقب بالعليم ضد ثورة ولده سانكو برافو • وقدم الفونسو الى ابي يوسف تاجه الذهبي كرهينة لقاء مساعداته العسكرية • وقد عاد ابو يوسف الى بلاده قبل ان يستتب الامر الى الفونسو يحمل معه التاج الكاستيلي • هذا وقد توفي الفونسو سنة

---

(29) عن اصل المرينيين : ابن خلدون ، ج ١٧ ، ص ١٦٦ ــ ١٨٠ ؛
(30) نفس المصدر ، ١٩١

١٢٨٤ فصفا الجو لابنه المتمرد الذي تولى العرش منذ ذلك التاريخ حتى ١٢٩٥ والذي قاد ابو يوسف حملته الرابعة ضده سنة ١٢٨٥ ٠ واضطر سانكو ان يعقد صلحا مع ابو يوسف تضمن : امتناعه عن الاعتداءات على الاراضي الاسلامية ، والغاء الرسوم على التجارة الاسلامية ، وان لا يلجأ الى الدس والوقيعة بين امراء المسلمين ٠ ثم زار سانكو ابا يوسف في معسكره مقدما له الهدايا[٣١] ٠

لقد واصل المرينيون غاراتهم على اسبانيا في عهد يوسف بن يعقوب ١٢٨٦ ــ ١٣٠٧ اذ عبر هذا الى اسبانيا سنة ١٢٩١ وادى سوء تفاهمه مع محمد الثاني الى ان يتحالف الاخير مع سانكو الرابع ضد المرينيين ٠ لذلك اضطر يوسف الى الانسحاب الى افريقيا موجها طاقاته العسكرية ضد بني عبد الواد في تلمسان والحفصيين في تونس ٠ ولم تسفر حروبه في افريقيا عن نتائج حاسمة وخاصة ضد بني عبد الواد التي دامت لاثنتي عشر سنة٠ وقد انتهت حياته اغتيالا سنة ١٣٠٧ ٠

تعاقب على العرش المريني حفيداه عامر وسليمان ١٣٠٧ ــ ١٣٠٨ الا انهما توفيا خلال تلك الفترة بالتعاقب فعهد بالحكم الى عمهما ابو سعيد عثمان الثاني ١٣١٠ ــ ١٣٣١ الذي فضل الحياة السلمية على الحروب ٠ وقد استأنف المرينيون الحرب في عهد سلطنة ابي الحسن علي ١٣٣١ ــ ١٣٤٨ ٠ اذ مد يد العون الى محمد الرابع ملك غرناطه ضد الكاستيل التي احتلت جبل طارق سنة ١٣١٠ ٠ الا ان محمد الرابع تمكن من استعادته سنة ١٣٣٣ وقد اغتيل هذا بعد انتهاء المعركة كما انتصر ابو الحسن على الاساطيل الاسبانية سنة ١٣٤٠ وقصد الاندلس ثانية حيث فرض الحصار على قلعة طريف ٠ وهنا تالبت عليه القوى الاسبانية والجنوية والبابوية فانزلوا به هزيمة كبيرة سنة ١٣٤٠ في معركة Rio Salada [٣١] ٠

لقد اتجه ابو الحسن بعد المعركة السابقة لتوسيع مناطق نفوذه على حساب تونس وتلمسان الا ان قبائل بني هلال اوقعت به خسائر كبيرة

---

(31) ابن خلدون ، جـ ٧ ، ٢٦١ ــ ٢٦٢

في معركة قرب القيروان سنة ١٣٤٨ • وقد انهى ابو الحسن علي حياته مشردا وذلك لثورة ولده عليه فارس ابي عنان سنة ١٣٥١ •

لم يعش ابو عنان طويلا اذ توفي سنة ١٣٥٨ بعد تأديبه قبائل بني هلال • وقد تعرضت البلاد المرينية الى فوضى الحروب الاهلية لمدة خمس سنوات اسفرت عن تسلط اخيه عبد العزيز سنة ١٣٦٦ وتمكن هذا من استعادة تلمسان سنة ١٣٧٠ وتوفي بعد ذلك بسنتين سنة ١٣٧٢ • ويعتبر حكم عبد العزيز نهاية سؤدد المرينيين ومع ذلك استمرت الاسرة في الحكم في جهات المغرب حتى سنة ١٤٦٥ •

اما تونس التي شملت الاجزاء الشرقية من الجزائر فحكمت من قبل الحفصيين وسميت بالدولة الحفصية نسبة الى عبد الواحد بن عمر ابو حفص ١٢٠٧ ــ ١٢٢٨ • وقد عين هذا على ولاية تونس من قبل الناصر الموحدي ١٢٠٧ واعلن ابو زكريا يحي الاول استقلاله سنة ١٢٣٦ بعد ان دانت له قسطنطينة والجزائر سنة ١٢٣٥ • وقد اتبع ابو زكريا سياسة خارجية نشطة • اذ عقد اتفاقات اقتصادية مع البنادقة سنة ١٢٣١ وبيزا سنة ١٢٣٤ وجنوا سنة ١٢٣٦ • ثم فتحت قنصلية الى الامبراطور فردريك الثاني في تونس وكون علاقات دبلوماسية مع الاراكون •

اما في عهد محمد المستنصر الاول ١٢٤٩ ــ ١٢٧٧ الذي لقب نفسه بالخليفة سنة ١٢٥٣ فقد بلغت الاسرة الحفصية قمة مجدها اذ اعترفت معظم المناطق الافريقية بالتبعية له • واعترف بخلافته شريف مكة سنة ١٢٥٩ وكذلك سلطان مصر بيبرس البندقداري سنة ١٢٦٠ قبل ان يبايع خليفته العباسي • كما حدثت في عهد المستنصر حملة القديس لويس وتمكن من التخلص من الخطر الفرنسي باتفاقه مع شارل الانجوي على سحب القوات الغازية مقابل شروط معينة اوجزناها انفا • ولم تؤثر الحملة الفرنسية على هيبة تونس بين الدول انذاك • الا ان تونس تعرضت الى فوضى داخلية منذ وفاة المستنصر استمرت لاربعين سنة حكم فيها احدى عشر سلطانا • وقد تمكن ابو بكر الثاني ١٣١٨ ــ ١٣٤٦ من اعادة الهدوء وتوحيد الاجزاء التونسنة • وبالرغم من المشاكل مع المرينيين فقد استعادت تونس نشاطها في اواخر القرن الرابع عشر وذلك في عهد ابي العباس احمد

الثاني ١٣٧٠ ـ ١٣٩٤ وولده عبد العزيز ١٣٩٤ ـ ١٤٣٤ حيث وسع هذا حدود تونس فشملت طرابلس وقفصا وبسكرة والجزائر • وتوافدت عليه الوفود من غرناطة ومصر ومكة والدول الاوربية ثم اعترف بنومرين في فاس بالتبعية له سنة ١٤٢٤ • وقد بلغت الاسرة الحفصية نهاية مجدها بعد عهد ابي عمر عثمان ١٤٣٥ ـ ١٤٨٨ ولم تتمكن تونس من المحافظة على مركزها الدولي بعد وفاته اذ تعرضت الى صراع عنيف منذ نهاية القرن الخامس عشر نتيجة الى المطامع الاسبانية ثم الصراع بين الاسبان والعثمانيين الذي استمر يعصف بكيان تونس بصورة خاصة منذ ١٥٣٤ حتى ١٥٧٦ حيث ضمت تونس الى الدولة العثمانية •

اما بالنسبة لدولة تلمسان ، فكانت هذه من نصيب بني عبد الواد وهم من قبيلة زناتة البربرية اخلصوا للموحدين فمنحوهم حكم تلمسان• وقد اشرفت هذه المدينة على ملتقى طريقين تجاريين هامين تكمن فيهما اهمية تلمسان ، وهما الطريق الممتد من غانا خلال الصحراء الى تلمسان ومنها الى مينائي هنيان ووهران اما الثاني فهو الذي يقطعهما من الشرق الى الغرب خلال تونس ـ الجزائر ـ فاس • لهذا كانت تلمسان تمور بالتجار الاوربيين والافريقيين• وبالرغم من قوة مركزها التجاري الا انها كانت في موقع ستراتيجي ضعيف اذ تقابل المرينيون والحفصيون عليها لقرنين تقريبا كانت تلمسان اثنائها ميادين القتال• وكثيرا ما اضطر حكام بني عبد الواد اما الى الخضوع للجهة المنتصرة او الفرار الى الصحراء او الموت دفاعا عن بلادهم • ومع ذلك فقد استمر حكمهم متقطعا في تلمسان حتى قضى عليه العثمانيون نهائيا سنة ١٥٥٤ •

مملكة غرناطة :

اصبحت غرناطة تدين بالتبعية الى مملكة الكاستيل منذ سنة ١٢٤٦ ومع ذلك فهي تبعية قلقة وكثيرا ما حاولت الانعتاق ، وحافظت تلك المملكة على كيانها من الانصهار لاكثر من قرنين باساليب متنوعة كالاستنجاد بالمرينيين والتامر مع اعداء الكاستيل من الاسبان •

حاول محمد الثاني ١٢٧٣ ـ ١٣٠٢ التخلص من التبعية للاسبان

التي فرضها والده على غرناطة سنة ١٢٤٦ وذلك بالاستعانة بالمرينيين كما اشرنا •

لقد فقدت غرناطة المساعدات المرينية نتيجة لاندحار المرينيين في موقعة Rio Salada سنة ١٣٤٠ والتي شجعت الاسبان على فرض الحصار ثانية على جبل طارق بعد استيلائها على مدينتي الجزيرة وطريف• وقد ساهمت في العمليات العسكرية فرق صليبية • ولم يتمكن هؤلاء من فتح جبل طارق لانتشار وباء الطاعون ووفاة الفونسو السادس من جرائه سنة ١٣٤٩[٣٢] •

لعل من اهم الاسباب التي ادت الى زيادة التدهور في غرناطة هو النزاع بين امراء الاسرة الحاكمة مما فسح المجال لتدخلات ملوك الكاستيل ومناصرة فريق على اخر والعمل على اضعاف الطرفين • فقد استعان في اوائل القرن الرابع عشر الملك الناصر بالاسبان ضد منافسه اسماعيل بن فرج الذي تمكن من خلعه • بينما استعان فرج بالمرينيين واسفرت عن اندحار الناصر وحلفائه • وقد استفاد ايضا هنري الثالث من الانشقاق العائلي في غرناطه اخر القرن الرابع عشر فحاول الاستيلاء عليها الا انه توفي سنة ١٤٠٦ • وقد نعمت غرناطة بشيء من الهدوء النسبي ١٤٠٦ ــ ١٤٥٤ على اثر الحروب الاهلية في الكاستيل •

كما ان الصراع حول السلطة بين امراء بني الامر كان من الاسباب المباشرة في سقوط تلك الدولة • فقد ثار محمد ابي عبدالله ضد والده بتحريض من والدته[٣٣] في وقت كانت فيه جيوش فرديناند تهاجم المعاقل الاسلامية سنة ١٤٨٢ • وحاول محمد مقاومة الزحف الاسباني الا انه وقع اسيرا بيدهم • وبذلك استعاد والده علي ابي الحسن عرشه الا انه تنازل لاخيه محمد الثاني عشر سنة ١٤٨٥ الملقب بالزغل •

اتخذت الملكة ايزابيلا خطوة هامة في اضعاف المقاومة لدولة غرناطه في عهد محمد الزغل•وذلك باطلاق سراح ابي عبدالله محمد وتجهيزه بجيش

---

(32) ابن خلدون ، ج ٤ ، ١٣٢

(33) Hitti, op. cit., 553.

لاستعادة العرش • وشهدت غرناطة معارك ضارية بين أبي عبدالله ومحمد الثاني عشر • وقد انتهزت الجيوش الكاستيلية ـ الاراكونية ذلك الظرف فاستولت على مناطق تابعة لغرناطة سنة ١٤٩٠ • وبالرغم من محاولة محمد الزغل مقاومة الجيش الاسباني الا ان قوات ابي عبدالله انزلت بـه خسائر فادحة • لهذا اضطر محمد الى مغادرة اسبانيا الى تلسمان •

عمد فرديناند الى اتخاذ الخطوة النهائية في تصفية غرناطة سنة ١٤٩١ اذ اغار على الضواحي ثم فرض الحصار علـى المدينـة حيـث اضطرت للاستسلام في كانون ثاني سنة ١٤٩٢ • اما شروط الاستسلام فكانـت معتدلة نسبيا • اذ كفلت حرية العبادة وتعاطي الاعمال واقطع بموجبهـا ابو عبدالله منطقة صغيرة ليعيش منها في سيرانيفادا[٣٤] وقد اجهش ابو عبدالله بالبكاء عند مغادرته الى منفاه حيث تغنت والدته بالبيت المعروف:

ابك مثل النســاء ملكا مضاعــا

لم تحافظ عليــه مثل الرجــال

ثم اضطر ابو عبدالله الى مغادرة اسبانيا الى افريقيا فيما بعد •

وما كادت غرناطة ان تسقط بيد الزوجين فرديناند وايزابيلا حتى بدأت موجة الاضطهادات العنيفة ضد السكان • فقد اصدرت السلطات الاسبانية اولى قراراتها في هذا الشأن في مارت سنة ١٤٩٢ والذي يقضي بان يغادر اليهود الذين لم يتنصروا اراضي الكاستيل خلال اربعة اشهر • ويعـاقب المخالفون بالموت ولم ينج من ذلك حتى اليهود الذين اعلنوا تنصرهم • ولقي المسلمون في جهات قشتاله والاراغون نفس المصير منذ سنة ١٤٨٠ • وقد جاء دور سكان غرناطه الاضطهادي سنة ١٤٩٩ • حيث اكره السكان على تغيير معتقدهم وانيطت مهمة من يتهم بالزيغ والمروق الى محاكـــم التفتيش الدينية التي ملأت بهم السجون حيث التعذيب الوحشي والتي تقذف بهم جموعا اثر جموع في محارق النيران • وبذلك ارتكبت ايزابيلا وزوجها ومن جاء بعدهما اعظم جرائم القتل والابادة في الغرب لا تقل عما ارتكبه كل من هولاكو وتيمورلنك في الشرق •

(34) Ibid., 454-56.

ولكن ما هو موقف العثمانيين والمماليك من الاحداث في الاندلس ؟ تشير بعض المصادر الى ان تهاوي المعاقل الاندلسية الواحدة تلو الاخرى بيد الاسبان كان له صداه في الدولتين العثمانية والمصرية • اذ تهادن كل من بايزيد الثاني والاشرف قايتباي لتوحيد الجهود من اجل مساعدة دولة غرناطة • ووضعا خطة مشتركة موجزها : ان تشارك الدولة العثمانية بارسال اساطيلها لغزو صقلية التابعة للاسبان ليشاغل بها فرديناند وايزابيلا وان تقوم الجيوش البرية المصرية بعبور البحر من جبل طارق الى اسبانيا • ولم يخرج هذا المشروع الى حيز التنفيذ[٣٥] •

كما ارسل محمد الزغل ملك غرناطة وفدا الى مصر سنة ١٤٨٧ يطلب المساعدات العسكرية ويشرح للسلطات الاوضاع الاندلسية • اذ جاء في رواية ابن اياس فلما سمع السلطان ذلك اقتضى رايه ان يبعث الى القسوس الذين بالقمامة في القدس ان يرسلوا كتابا ••• الى ملك الافرنج صاحب نابل ، بان يكاتب صاحب اشبيليه بان يحل عن اهل مدينة غرناطة ويرحل عنهم • والا يشوش السلطان على اهل القمامة ويقبض على اعيانهم •••[٣٦] •

لقد حمل رسائل الاشرف قايتباي الى اوربا رئيس فرقة الفرنسسكان في القدس المسمى انطونيون ميلان مع زميل له • وهي موجهة الى البابوية في عهد انوسنت الثامن والى فرديناند وايزابيلا • وناهيك عن القول بان السياسة الاسبانية سارت في طريقها المرسوم ولم تمنعها رسالة الاشرف قايتباي ولا التحذيرات البابوية • واكتفى كل من فرديناند وايزابيلا باجابة السلطان الاشرف ، بانهما لا يستطيعان صبرا على ترك ارض الاجداد في يد الاجانب ومع ذلك فانهما لا يفرقان بين رعاياهم في النواحي الدينية[٣٧] •

المد البرتغالي :

لم يبق في النصف الاول من القرن الخامس عشر من المعاقل الاسلامية

---

(35) W. Irving, A Chronicle of the Conquest of Granade (Evryman's Libe) 172.

(36) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٢ ، ص ٢٤٦

(37) Irving, op. cit., 258.

في شبه جزيرة ابريا غير مملكة غرناطة التي كانت تدين بالتبعية القلقة كما اسلفنا لدولة الكاستيل ، لهذا توجهت الجهود البرتغالية انذاك لمواصلة الحرب المقدسة بالاغارة على السواحل الافريقية ، اذ قاد الامير هنري حملة سنة ١٤١٥ احتل فيها مدينة سبتة ، واعتبر هنري هذا النجاح عبارة عن مرحلة اولى في جهاده من اجل الاستيلاء على مراكش ، الا انه مني بفشل ذريع حينما حاول سنة ١٤٣٧ الاستيلاء على طنجة ، حيث وقع اسيرا بيد القوات الاسلامية ولم يطلق سراحه الا بعد تعهده بالانسحاب من سبتة وتركه احد اخوانه رهينة لدى السلطات المغربية ، غير انه نكث عهده حالما راى نفسه طليقا ولم يهتم لمصير اخيه الذي مات في احد سجــون مراكش ،

لقد داعبت خيال هنري مشاريع خطرة ، اذ حاول الاطباق على العالم الاسلامي ، لهذا فتح المفاوضات مع الحبشة املا في تحالف عسكري يهدف الى قيام الاحباش بهجوم من الجنوب في الوقت الذي تزحف فيه قــواته من الشمال ، وقد بقي اقتراحه في عداد الامنيــات ،

ان عزم الامير هنري الملاح في مواصلة كفاحه الديني قاده الى الامر باستطلاع الساحل الغربي للقارة الافريقية املا في الوصول من هنــاك الى الشرق لغزوه روحيا وماديا ، وقد التبس الجانب الديني بالمــادي وانغمر فيه عندما اكتشف البرتغاليون اثناء استطلاعهم الساحل الافريقي الغربي مناهل جديدة للمتاجرة في الرقيق الاسود سنة ١٤٤١[٣٧]

واستمرت السلطات البرتغالية في السير على النهج الذي رسمه هنري الملاح في ذلك المجال بعد وفاته سنة ١٤٦٠ ، اذ تمكن الرحالة بارتلميو دياز من الوصول الى راس الرجاء الصالح سنة ١٤٨٨ ، وتكللت المحاولة بالنجاح بالوصول من هناك الى الجهات الشرقية ، وذلك اثر محاولات فاسكو ديكاما ١٤٣٧ ــ ١٤٩٩ الذي استعان بالجغرافي العربي احمد بن ماجد حيث ارشده الطريق البحري عند وصوله جزيرة مدغشقر[٣٨] ،

ان اكتشاف طريق راس الرجاء الصالح ادى الى نتائج خطيرة في

---

(37) Newhall, op. cit., 96-97.
(38) Hitti, op. cit., 689.

علاقات الشرق والغرب في اوائل القرن السادس عشر ٠ فبالاضافة الى اهميته الاقتصادية فانه فتح فصلا جديدا في تاريخ الصراع في الشرق الاوسط في حكم السلطان قانصوه الغوري ١٥٠٠ ـ ١٥١٦ اذ تمكن البرتغاليون من انزال خسائر جسيمة في الاسطول المصري ٠ ولعل من اهم حوادث الصراع بين البرتغال ومصر في مطلع القرن السادس عشر هو ما حدث في سنتي ١٥٠٨ و ١٥١٠ ٠ اذ سجلت القوات المصرية انتصارا على البحرية البرتغالية حيث قتل فيها قائد الاسطول البرتغالي لورنزو الميدا ، اما في السنة الثانية فقد دمر الاسطول المصري عن اخره من قبل فرانسسكو الميدا[٣٩] ٠ وقد تمكن البرتغاليون من الاستيلاء على الساحل العربي الجنوبي الشرقي وبعض المراكز في الساحل الجنوبي ٠ ثم ورث العثمانيون بعد اسقاطهم المماليك سنة ١٥١٧ ذلك الصراع الذي استطال حتى اوائل القرن السابع عشر ٠

(39) Atiya, op. cit., 203.

العلاقات الإقتصادية والثقافية بين الشرق والغرب

العلاقات الاقتصادية : البيزنطيون والفرس ، طرق التجارة الرئيسية مع الشرق الاقصى . جستنيان والحرير ـ العرب وتأثيراتهم ـ المواد التجارية الرئيسية ـ تأثيرات الحروب الصليبية في العمليات التجارية .

العلاقات الثقافية : تسرب الثقافة الشرقية للغرب ـ الاراضي المقدسة . الاندلس . دور طليطلة . صقلية . بيزنطة .

العلاقات الاقتصادية :

لقد سيطر البيزنطيون والفرس على التجارة وطرقها الرئيسية بين الشرق والغرب حتى اواسط القرن السابع الميلادي ، وقد مثل الفرس وسطا هاما بين التجارتين البيزنطية والصينية وذلك لاشرافها على طريقين تجاريين هامين هما : الطريق البري الذي يبتدىء من حدود الصين الغربية، حيث يتعهد الصينيون بنقل البضائع من بلادهم مارين ببخارى الى الحدود الايرانية وعندها تسلم الى التجار الفرس الذين يقومون بنقلها خلال بلاد الرافدين الى مستودعات البضائع البيزنطية الكائنة على الحدود المشتركة بين الفرس والبيزنطيين ، اما الطريق الثاني فكان عبر البحار ، ويبدأ هذا من سواحل الصين الجنوبية حيث ينقل التجار الصينيون البضاعة الى جزيرة سيلان ومنها تحمل بسفن ايرانية خلال المحيط الهندي الى خليج

البصرة حيث شط العرب ومنه تأخذ طريقها خلال الفرات ودجلة وتسلم البضاعة الى المخازن البيزنطية الكائنة على الفرات في الجهات السورية . لهذا فان استمرار المتاجرة بين الشرق الاقصى والامبراطورية البيزنطية كان منوطا بنوع العلاقات السياسية بين الفرس والبيزنطيين . اذ كثيرا ما تعرضت التجارة للانقطاع بسبب قيام الحرب بين الامبراطوريتين[1] .

دأبت السلطات البيزنطية على التفكير في تجنب المخاطر الفارسية على تجارتهم من جهات الشرق الاوسط . وذلك بمحاولة ايجاد طريق بحري آخر يجنبهم المتاعب الفارسية ويؤمن لهم سد احتياجاتهم المستوردة من الصين وخاصة الحرير ، الذي كانت صناعته سرا من الاسرار في البلاد الصينية . لذا حاول الامبراطور جستنيان الاول الاستفادة من البحر الاحمر للاتجار مع الصين عن طريق الهند . حيث تنقل البضائع المستوردة من الشرق الاقصى الى الجهات البيزنطية من ايلات برا ومن القلزم الى القسطنطينية بحرا . وامر جستنيان بانشاء مستودعات لخزن البضائع في جزيرة تيران . كما حاول جستنيان في هذا الصدد خطب ود الاحباش تأمينا للمواصلات في البحر الاحمر واملا ان يستفيد منهم كوسطاء تجاريين في نقل البضائع في البحر الاحمر نظرا لقلة السفن البيزنطية العاملة في تلك الجهات . الا ان الاحباش لم يتمكنوا من منافسة تجار الفرس الذين ظلت لهم القيادة التجارية في جهات الهند والصين .

تمكن جستنيان من الاستغناء عن تجارة الحرير الصينية على اثر اهتدائه الى سر صنعتها . اذ حدث ان هربت بويضات من دود القز من مدينة سرندا في الصين وسلمت للسلطات البيزنطية . وقد اصبحت تلك الشرانق اساسا لصناعة الحرير في الامبراطورية البيزنطية التي انتشرت بسرعة مذهلة تحت الاشراف الحكومي . حيث عمم جستنيان زراعة اشجار التوت الذي تعتاش عليه ديدان الحرير . وامر ايضا بتأسيس المصانع لتخليص الحرير من شرانقه ونسجه . وقد شيدت المصانع في امهات المدن البيزنطية تحت السيطرة الرسمية في القسطنطينية وبيروت وصور وانطاكيا

---

(1) A. Vasiliev, History of The Byzantine Empire, Vol. I (Madison, 1964) 163.

والاسكندرية وبعض الجهات اليونانية ، وجنت الحكومة البيزنطية من ارباح هذه الصناعة اموالا طائلة اذ اصبحت المحتكرة ايضا لتجارتها في الاسواق الاوربية(٢) .

لقد هيمن العرب والمسلمون بصورة عامة علـى طرق المواصلات الرئيسية بين الشرق والغرب منذ الفتوحات الاسلامية الكبرى حتى اوائل القرن الحادي عشر ، اذ سهلت السيطرة الاسلامية الممتدة من بلاد ما وراء النهر الى المحيط الاطلسي التبادل التجاري الدولي على نطاق واسع ، ومع ذلك فان السيادة الاسلامية على البحر المتوسط الشريان التجاري الهام لاوربا الغربية خاصة قد عزلت تلك الانحاء تجاريا عزلا تاما ، وانها حسب رأي الاستاذ هنري بيرين H. Pirenne من الضربات القاصمة التي وجهت للامبراطورية الكارولنجية بحرمانها من المنافذ للبحر المتوسط ، وساعدت على تخبط اوربا اللاتينية في دياجير الظلمة واستشراء الاقطاع ، ولم يكتب لاوربا النهوض من الكارثة الاقتصادية الا في اوائل القرن الحادي عشر على اثر انحسار السيادة الاسلامية من البحر المتوسط(٣) .

ومهما يكن من رأي الاستاذ هنري بيرين ، فان الفعاليات التجارية الاسلامية قد شملت ارجاء واسعة من العالم الاوربي في نفس الفترة التي يتحدث عنها الاستاذ السابق ، وهذا ما تشير اليه النقود الاثرية التي عثر عليها مؤخرا في بريطانيا وروسيا والدول الاسكندنافية وايسلاند ، ولعل من ابرز الامثلة التي توضح مدى انتشار العملة الاسلامية وقوتها الشرائية ، هي العملة الذهبية التي اصدرها ملك مرسيا اوفا الثاني ٧٥٧ ـــ ٧٩٦ في بريطانيا ، اذ اراد بعملته تلك محاكاة الدينار الاسلامي حيث كتب ذلك الملك اسمه على العملة الذهبية بالطريقة العربية من اليمين الى اليسار كما حمل الوجه الآخر لعملته كتابة عربية(٤) .

---

(2) Ibid., 167-68.

(3) H. Pirenne, Medieval Cities, trans. by Halsey (N.Y., 1956) 14-16.

(4) A. Atiya, Crusade, Commerce and Culture (London, 1962) 163.

ولعل من اهم المواد التجارية التي كانت تلقى اقبالا في الاسواق الاسلامية والاوربية هي تجارة الرقيق ، اذ بلغت قيمة العبد المغولي من ٦٥ ــ ٧٠ دينارا والقوقاسي من ٥٥ ــ ٦٠ واليوناني ٤٥ ، وتراوحت اثمان ارقاء الالبان والصرب والسلوفين بين ٣٥ ــ ٤٠ ، اما المادة الثانية الهامة فهي التوابل ، وقد كانت مصر من الاسواق الرئيسية لهذه المادة حيث تستورد من الهند ثم توزع على الاسواق الاوربية بأسعار عالية ، وقد خصص شارع رئيسي من شوارع القاهرة للتوابل اطلق عليه اسم شارع الفلافل(٥) .

اخذت الفعاليات التجارية للعرب في التدهور في البحر المتوسط على اثر ظهور النورمنديين في الجهات الايطالية الجنوبية في اوائل القرن الحادي عشر ، اذ سيطر هؤلاء على الاقسام الجنوبية من ايطاليا وصقلية ايضا في اواخر ذلك القرن ، وبذلك فقد ساعد النورمنديون على انفتاح البحر المتوسط ثانية امام اوربا اللاتينية .

اسرعت الحروب الصليبية منـذ بدايتها في التطورات الاقتصادية الاوربية مما ادت بمدن ايطاليا التجارية بصورة خاصة ان تتزعم القيادة التجارية ، اذ ان الدولة الصليبية منذ ولادتها اعتمدت على اوربا لامدادها بالخيل والسلاح وما اشبه عن طريق التجار الايطاليين ، وقد رأت المدن الايطالية التجارية في الفترة الصليبية فرصة ذهبية للتعامل الاقتصادي مع الاقطار الاسلامية ايضا وخاصة مصر ، اذ راحت تلك المدن تجهز السلطات المصرية بما تحتاج اليه من مواد كالاخشاب ومن بشر كالمماليك بالرغم من الاحتجاجات البابوية المتكررة ، باعتبار ان الاخشاب والعبيد من مصادر القوة العسكرية للاسلام لذا فهي من المواد الحربية الممنوعة ، ولم تلتفت الفئات التجارية لتلك التحذيرات والموانع اذ طغت الارباح لهذه المدن على السبب الديني وكثيرا ما تذمر دعاة الصليبية بأن دعوتهم لا تجد صداها في المدن بعكس ما هو عليه بين افراد الاقطاع وعامة الناس في الارياف(٦) .

(5) Ibid., 183-84.

(6) R. Newhall, The Crusades (N.Y., 1963) 101.

حقا ان هدف التاجر بالدرجة الاولى تكوين علاقات اقتصادية مربحة، أكان ذلك مع الصليبيين او البابوية او امراء الاسلام • وقد استمرت المدن الايطالية وخاصة جنوا غير مكترثة لنداءات التحذير البابوي في قطع المتاجرة مع مصر بشكل سافر في اواخر الفترة الصليبية • اذ اصدر البابا مارتن الخامس ١٤١٧ ــ ١٤٣١ قرارا يحرم فيه سنة ١٤٢٥ كل من يتعاطى تجارة العبيد مع المسلمين • ومع ذلك فقد استمرت تلك التجارة رائجة بعد الاحتيال على ذلك القرار • كما لم يهتم الامبراطور فردريك الثالث ١٤٣٨ ــ ١٤٤٠ للقرار حيث منح تجاره الحرية التامة للاتجار بالرقيق من الذكور والاناث •

ادى اتساع التبادل التجاري في داخل اوربا من جهة وبينها وبين الاقطار الشرقية من جهة ثانية الى ازدياد ظاهرة التعامل النقدي في اوربا بدل التعامل النوعي الاقطاعي والى التفتيش عن مناجم الذهب والفضة لتهيئة النقود • فكان الرائد الاول في الفترة الصليبية هو روجر الثاني ملك صقلية ١١٣٠ ــ ١١٥٤ • حيث اصدر عملته الذهبية(٧) سنة ١١٤٠ • ثم اصدر الامبراطور فردريك الثاني عملة على غرار عملتي قسطنطين الكبير وثيودوسيوس ، ثم سكت مدينة فلورنس عملتها المسماة فلورين سنة ١٢٥٢ وكذلك اصدر البنادقة اول عملاتهم الذهبية سنة ١٢٨٣ في عهد رئاسة داندولو • كما اصدر ملك فرنسا لويس التاسع الليرة الذهبية سنة ١٢٦٦ •

ساعدت الحروب الصليبية ايضا على ظهور نظام صيرفي دولي • اذ كان من الافضل للامراء القاصدين الى الاراضي المقدسة توديع اموالهم في احدى المؤسسات الصيرفية الاوربية لاستلامها في الاراضي المقدسة من قبل من يمثل تلك المؤسسة هناك • وذلك تفاديا لثقل حملها وللمخاطر في الطريق • ومن اشهر المؤسسات الصيرفية الدولية آنذاك هي التي كانت تحت اشراف فرسان المعبد • ثم سار على منوالهم التجار الغربيون ، اذ ان التاجر الذي يتعامل مع الشرق يكفيه ان يودع مبلغا في مؤسسة مالية لفرسان المعبد في اوربا مساويا لثمن البضاعة التي ينوي شراءها في الشرق

---

(7) Atiya, op. cit., 188.

ثم يقوم مصرف الفرسان في الدولة الصليبية بتسديد المبلغ • ويعتقد بأن المدن الايطالية التجارية قد اقتبست عمليات التحويل الخارجي عن طريق فرسان المعبد[8] •

فتح سقوط القسطنطينية سنة ١٢٠٤ مجالات جديدة امام الغرب وخاصة البنادقة للمتاجرة مع الشرق الاقصى • اذ اندفعوا من القسطنطينية للبحر الاسود والى جهات القفقاس حيث اواسط آسيا • كما بسط البنادقة عن طريق القسطنطينية نفوذهم التجاري على بعض الانحاء الروسية[9] •

وعمل التقارب الاوربي المغولي الذي بدأ منذ سنة ١٢٤٥ على ايجاد صلات تجارية ايضا بين الشرق الاقصى واوربا اذ جرت المفاوضات البابوية ـ المغولية سنة ١٢٦٢ عن طريق اسرة بولو التجارية • كما حظيت مدينة جنوا بمركز مرموق في الامبراطورية المغولية ضاعفت فيه ثرواتها التي بلغت ارقاما خيالية آنذاك وخاصة في القرن الرابع عشر •

ان ظهور المماليك كقوة جديدة متحكمة في جهات الشرق الاوسط في اواخر القرن الثالث عشر ادت بالاوربيين الى التفكير بايجاد طرق جديدة للاتجار مع الشرق الاقصى • ويعتقد بأن الجنويين هم اول من فكر بالموضوع • اذ ينسب لهم اكتشاف جزر الكناري في المحيط الاطلسي سنة ١٢٧٠ • كما حاولت سفينتان جنويتان الابحار بمحاذاة السواحل الافريقية الغربية متجهة نحو الجنوب سنة ١٢٩١ لايجاد طريق للهند الا ان اخبارهما طمست في طيات المحيط[10] •

وقد يعتبر البعض ان حركات الاستكشاف الجغرافية التي تميزت بها كل من البرتغال واسبانيا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر نتيجة للحماس الصليبي وكذلك للتفتيش عن طرق تجارية جديدة مع الشرق الاقصى تحاشيا لمضايقات العثمانيين والمماليك • خاصة وان مصر سارت بسياسة احتكارية عنيفة منذ سنة ١٤٣٢ شلت المتاجرة تقريبا بين الشرق والغرب •

---

(8) Newhall, op. cit., 104.
(9) W. Durant, The Age of Faith, 325-1300 (N.Y., 1950) 993.
(10) Newhall, op. cit., 106.

العلاقات الثقافية :

مثلت المناطق البيزنطية والفارسية المراكز الثقافية الكبرى في العالم منذ بداية العصور الوسطى وحتى استعلاء كلمة المسلمين . اذ كانت سورية ومصر من المراكز الهامة التي اهتمت بالتراث الهلنستي الذي تمركزت العناية به في الرها وانطاكيا وبيروت والاسكندرية ومن ثم القسطنطينية ذاتها . كما حافظت البلاد الايرانية على تراثها الفني بالاضافة الى مـــا اقتبسته من الصين والهند . وقد ورث العرب التراث البيزنطي في الاماكن التي استولوا عليها وكذلك التراث الفارسي بعد هضم وتمثيل التراثين وطبعهما بالطابع العربي الاسلامي والاضافة عليه . واسفر ذلك عن اتجاهات ابداعية . واصبحت كل من بغداد والقاهرة وقرطبة مراكز ثقافية عالمية طيلة العصر الوسيط .

عكف العرب على تلقي علوم الاولين عن طريق الترجمة عن اللغات الفارسية والسريانية واليونانية . واول من ترجم عن اللغة الاولى هو ابو محمد بن المقفع . وهذا مسلم ايراني تضلع في اللغتين العربية والفهلوية الكلاسيكية فترجم عنها كتاب كليلة ودمنة والسير لملوك العجم(١١) . الا انه تورط في المنزلق السياسي الذي قاده للاعدام سنة ٧٥٨ في عهد ابي جعفر المنصور .

ونهل هارون الرشيد من مناهل التراث الفارسي والهندي والهلنستي واولى الفلك اهتماما خاصا . اذ امر بترجمة المجسطي لبطليموس وكتاب اقليدس . وذلك لتزويد الفلكيين بالمعلومات الرياضية الضرورية . كما اهتم الرشيد بفلسفة اليونان واعتمد مترجموه في هـــذا الشأن علـــى المخطوطات السريانية على الاغلب ومن اشهر المترجمين في عهده هما البطريق يوحنا وعبد المسيح الحمصي .

سارت حركة الترجمة بخطوات واسعة في عهدي الامين ٨٠٩ ــ ٨١٣ والمأمون ٨١٣ ــ ٨٣٣ . وذلك على اثر شيوع استعمال الورق الـــذي عرفت بغداد صناعته منذ سنة ٧٩٤ ، ولتأسيس المأمون دار الحكمة وهذه

---

(11) Phil. Hitti, History of The Arabs (London, 1960) 308.

اشبه بكلية ضمت نخبة من الاساتذة والمخطوطات النادرة ٠ ثم لتوافر مترجمين اكفاء امثال يوحنا بن ماسوية ٧٧٧ ــ ٨٥٧ الذي اشتهر بطب العيون ايضا ، وجبريل بن بختيشوع المتوفي عام ٨٣٠ وحنين بن اسحاق ٨٠٩ ــ ٨٧٣ ٠ ويعتبر الاخير مفخرة عصر الترجمة العباسية ٠ تحدر هذا من اسرة نسطورية في مدينة الحيرة في العراق ٠ تتلمذ في البداية على يد ماسويه الا ان الاخير ضن عليه مواصلة الدراسة على يده وذلك لالحاح اسحاق بالاسئلة المحرجة فقصد اليونان حيث تعلم فيها اللغة ٠ وقفل راجعا للعراق مقيما في البصرة لمدة من الزمن فغادرها الى بغداد سنة ٨٢٦ واصبح هناك في معينه جبريل طبيب البلاط الرسمي ٠ وترجم اثناء ذلك كتاب الطب لكالن ، ثم اصبح استاذا للطب في دار الحكمة ٠ وقد ترجم اسحاق مائتي كتاب واستمرت الترجمة وراثية في اسرته لوقت طويل[١٢] ٠ ولعل من اشهر مترجمي العراق وعلمائه في القرن التاسع هو ثابت بن قره ٨٢٥ ــ ٩٠١ ٠ وهذا صابئي المعتقد برع في مختلف العلوم وخاصة الفلك واجاد اليونانية والسريانية وكتب مائـة وخمسين كتابـا في المنطق والفلـك والرياضيات والطب ٠ لهذا انطلقت الثقافة العربية الاسلامية من قاعدة محكمة استندت على صفوة الحضارات الفارسية والهندية والهلنستية فأجادت وابدعت فيها ويلاحظ ذلك من جمهرة العلماء الفلاسفة بين القرنين التاسع والثاني عشر ٠ ومن هؤلاء : يعقوب بن اسحاق الكندي المتوفي عام ٨٧٣ ٠ والذي اشتهر بفلسفة ارسطو وعينـه المأمون مربيا لولده المعتصم ٨٣٣ ــ ٨٤٢ ٠ ويعتبر الكندي من مؤسسي المدرسة الفكرية الحرة الاسلامية ٠

ومن مشاهير علماء الفلاسفة هو ابو النصر محمد الفارابي المتوفي عام ٩٥٠ ٠ ولد هذا في بلاد ما وراء النهر وتثقف في بغداد وعاش كعالم صوفي في بلاط سيف الدولة الحمداني في حلب ٠ جمع بـين فلسفات افلاطون وارسطو والصوفية وقد لقب بالمعلم الثاني بعـد ارسطو ٠ وبقيت شروحه على افلاطون وارسطو المرجع الهام لازمان عدة ٠ استقر به

(12) Ibid., 312-14.

الايمان بعد فترة من التشكك ومن تأليفه احياء علوم الدين وهو اشبه بموسوعة علمية ، ثم المدينة الفاضلة ، والسياسة المدنية وبحث في الكتاب الاخير في مواضيع الاقتصاد السياسي ، ومن كتبه الاخرى كتاب الموسيقى الكبير ، وتنسب اليه الاجادة التامة في العزف على الناي بحيث يمكنه بألحانه الشجية ان يضحك المستمعين ويبكيهم ويدخلهم في سبات عميق[13] .

وهناك اعلام آخرون في تلك الفترة امثال ابن سينا ٨٩٠ ـ ١٠٣٧ وهو احد تلامذة الفارابي برع في الفلسفة والطب ونالت بحوثه اقبالاً في المؤسسات الاوربية العلمية ، ثم ابو حامد الغزالي ١٠٥٨ ـ ١١٠٩ ، الذي تلقى علومه في نيسابور وبغداد ، قادته فلسفة ارسطو للتشكك فمال الى العزلة وتلونت آراؤه بالرمزية ، ألف في المنطق والطبيعة وما وراء الطبيعة. ومن اشهر كتبه الفلسفية تهافت الفلاسفة الذي درس باهتمام في مدينة طليطلة ، وقد تأثرت فلسفته بآراء جمعية اخوان الصفا وخلان الوفا العلمية السياسية ، ثم ابو الوليد بن رشد ١١١٢ ـ ١١٩٨ وهو قرطبي ، امضى حياته الاولى في اسبانيا ثم اقام في مراكش ، واحدثت فلسفته انطباعات عميقة في الغرب بالرغم من رفضها في الشرق ، اذ اعتبره الغربيون اعظم شارح عرفه التاريخ لفلسفة ارسطو ، وكانت لآرائه تأثيرات في فلسفة توما الاكويني فيما بعد ، وهناك عالمان فارسيان اشتهرا بالعلوم التطبيقية الا وهما البيروني ٩٧٣ ـ ١٠٤٨ وعمر الخيام ١٠٣٨ ـ ١١٢٣ ، اذ اشتهر الاول بعدة فروع من المعرفة كالفلك والطبيعيات والجغرافيا وكذلك التاريخ ، واجاد السنسكريتية وترجم عنها للعربية ، كما اشتهر بهندسة المياه ، اما الثاني فبالاضافة الى شهرته الشعرية والتي عرفها الغرب عن طريق رباعياته الا ان له تأثيرات هامة في المجالات الرياضية ، اذ نقح التقويم الفارسي القديم وكذلك الحسابات الجبرية للخوارزمي ، وهناك عالم عراقي الا وهو ابن الهيثم ٩٦٥ ـ ١٠٣٩ ، وهو من مدينة البصرة ، غادرها الى مصر فنال حظوة عند الحاكم بأمر الله الفاطمي ، ويعد ابن الهيثم من

---

(13) Ibid., 565-6.

اعظم علماء الطبيعة بين العرب[14] .

تسرب الثقافة الشرقية للغرب :

وجدت الثقافة الشرقية سبيلها الى الغرب عن مراكز اربعة في العصر الوسيط هي : الاراضي المقدسة والاندلس وصقلية وبيزنطة . الا انه من الصعب حقا تحديد مدى تأثيرات كل من هذه المراكز في الحضارة الاوربية. هذا مع العلم بأن اوربا اللاتينية قد اخذت منذ بداية الحروب الصليبية تخطو نحو التقدم في مختلف الميادين حتى اصبح يشار الى ذلك التقدم بالنهضة الاوربية في القر الثاني عشر . وهذه نتيجة لتطورات داخلية في المجتمع الاوربي في الاعم الاغلب . ومع ذلك فان الاحتكاك بين المجتمع الاوربي اللاتيني والمجتمع العربي الاسلامي والبيزنطي عـن طريق تلك المراكز قد اسرع في عملية التطورات الاوربية .

الاراضي المقدسة :

لقد اقام الصليبيون في الاراضي المقدسة زهاء ثلاثة قرون كانوا فيها طيلة تاريخهم في معركة تنازع بقاء كبرى . لهـذا فالدولة الصليبية في حقيقتها دولة عسكرية دينية ليست لها رغبة مباشرة في التزود بالقيـم الروحية العربية الاسلامية . ولم يظهر في تاريخ المملكة سوى كتابين علميين هما كامل الصنعة الطبية او كتاب المالكي لعلي بن عباس المجوسي حيث ترجمه ستيفن البيزوي في انطاكيا سنة ١١٢٧ الى اللغة اللاتينية . والكتاب الآخر هو سر الاسرار الباحث في طب العيون والمنسوب لارسطو حيث ترجم من العربية الى اللاتينية في انطاكيا ايضا سنة ١٢٤٧ .

لقد بقي اطباء مملكة القدس لازمان طويلة تخيم على عقولهم اوهام ماضيهم بتعصباته الدينية حتى في المجالات الطبية لازمان طويلة . وجاء في كتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ نتفا من ذلك معتمدا في قسم منها على رواية احد الاطباء المسلمين في بلاط امارة شيزر الذي ارسل لمداواة بعض المرضى الصليبيين في المنيطرة في الجهات اللبنانية بناء على طلب حاكم تلك

(14) Atiya, op. cit., 223.

المنطقة ، اذ سأل امير شيزر الطبيب عند عودته عن نتائج تطبيبه في المنيطرة فأجاب :(١٥)

جاءوا الي بفارس في ساقه ورم مستشري وامرأة عصابية ، استعملت لمعالجة الفارس مرهما تفتحت الدملة وتحسنت صحته ، وحاولت معالجة المرأة بملاطفتها ووضع نظام تغذية لها ليتحسن مزاجها ، وهنا جاء طبيب فرنجي وقال للحضور ان هذا الرجل لا يفقــه شيئا في العلاج ، فسأل الفرنجي الرجل المريض هل تريد ان تعيش برجل واحدة او تموت برجلين ؟ فأجاب الاخير اود ان اعيش برجل واحدة ، فقال الطبيب الفرنجي : هاتوا لي بفارس قوي وبفأس حادة فحضر الفارس والفأس ، وكنت واقفا على جنب ، ثم مدد ساق المريض على قرمة خشب وامر الفارس ان يبتر الساق بضربة واحدة ، ولم تنقطع الساق للمرة الاولى فهوى عليها ثانية فمات المريض في الحال ،

اما المرأة فقال عنها الطبيب الفرنجي : ان جنا قد سكنها ، احلقوا رأسها حالا ! ثم امر ان تطعم المرأة ثوما وخردلا ، فتدهورت اعصابها بشكل اسوأ ، فقال الطبيب الفرنجي : ان الجن قــد نفذ الى دماغها ، فتناول موسا وشق في رأسها جروحا عميقة على شكل صليب لامست الجمجمة ثم ضرها بالملح ، وقد توفيت المرأة توا ، وعندها سألتهم فيما اذا كانوا بحاجة الى خدماتي ؟ وعند اجابتهم بالنفي اخذت ادراجي وعدت بعد ان علمت من طبهم ما لم اكن اعلمه ،

ثم سمع اسامة بن منقذ قصة من امير طبريا وليم بورس حيث قال:(١٦)

كان في بلدتنا فارس مشهور محترم كاد ان يودي به المرض الــى الموت ، لهذا قصدنا احد كبار القساوسة عندنا والتمسناه الكشف عن المريض ، وكلنا امل بلمسات يــده المباركة بأنها سوف تشفي المريض ، وحينما رأى القس ذلك الفارس المريض قال : هاتوا الي بقطعة من الشمع ، فأحضرناها له وسخنها ثم كور منها كرتين صغيرتين دسهما في منخاري

---

(15) Usamah Ibn Munqidh, Kitab Al-Itibar, trans. Hitti (Beirut, 1964) 162.

(16) Ibid., 166-67.

المريض ففارق الحياة . فقلنا له : مات الرجل ! ؟ فأجاب : نعم . انه كان يقاسي آلام شديدة فأرحته من الحياة بسد منخاريه .

اما في المجال الادبي فقد ترجمت بعض الاقاصيص عن العربية الى اللاتينية مثل الف ليلة وليلة التي كانت لها بعض التأثيرات في ادبي بوكاشيو الايطالي في كتابه De Cameron وشوسر الشاعر الانكليزي .

وهناك بعض التأثيرات الاجتماعية المادية التي تعرض لها الصليبيون اثنـــاء اقامتهم الطويلة في الاراضي المقدسة ، كاقتباس الازياء واساليب الحياة المنزلية والاطعمة وعادات النظافة والتي يروي عنها اسامة بن منقذ الشيء الغريب والمستغرب حسب رأيه .

اما في المجالات الاقتصادية الزراعية منها والتجارية فقد اخذ الغرب عن طريق الصليبيين زراعة السكر واستعمالاته حيث كانت الاراضي المقدسة مركزا هاما لزراعة قصب السكر واستخراج مادته والمتاجرة بها . ويعتقد بأن الغرب قد تعلم استخراج المياه من الآبار للارواء بواسطة الطواحين الهوائية والنواعير التي كانت منتشرة في الجهات السورية[١٧] . كما ان الحركة التجارية المستمرة بين مدن ايطاليا والاقطار الآسيوية عن طريق المملكة الصليبية ساعدت على ازدياد نشاط العمليات الصيرفية واستحداث اساليب مالية جديدة مأخوذة عن العرب .

الانــدلس :

تمثل الاندلس الجسر الاهم الذي انتقلت عليه الثقافة العربية الى اوربا في العصر الوسيط . وقامت الفئة المسماة بفئة المضربين ، خليطة الدم من العرب والاسبان ، بدور الوسيط في نقل التراث للاوربيين عن طريق الترجمة من العربية الى الاسبانية واللاتينية . ويمكن ملاحظة التأثيرات الاندلسية على المجتمع الاوربي في المجالات التالية :

الشعر والموسيقى : اثــرت الاشعار العربية المسمـــاة بالموشحات والازجال الاندلسية في شعراء الغرب الشعبيين حيث عكستها قصائد الانشاد التروبادورية خاصة في الاقسام الجنوبية من فرنسا حيث انتشرت

---

(17) M. Soobornheim, art. «Hama», Encyclopedia of Islam.

منها لسائر الارجاء الاوربية تحت اسماء مختلفة[١٨] . كما اصبحت الاراجيز مثالا لقصائد الانشاد الدينية في الكنائس وذلك في مملكة الكاستيل . وولع قسم من حكام اوربا بالآداب العربية الشعرية . ومن امثلة ذلك الينور اميرة اكويتين مطلقة لويس السابع ملك فرنسا وزوجة هنري الثاني فيما بعد ملك انكلترا . وتعتبر الينور من اديبات العصر التي اقتفت اثر امراء الاندلس في تشجيع الشعراء فكانت (ولادة) زمانها . وقد ورث ابنها الملك رشارد الانكليزي ذلك الميل نحو ادب الفروسية الاندلسي . وهناك الامبراطور فردريك الثاني الـذي استهوته القصائد الاندلسية الغنائية .

اما في المجالات الموسيقية فتأثير العرب في الغرب اكثر شمولا من الشعر . اذ تعلم الاوربيون في هذا الشأن النواحي النظرية والتطبيقية . ولم تزل اسماء الموسيقاريين العرب محفوظة في بلاطي الاركون والكاستيل . اما الالحان والتوقيعات العربية فلحد الآن بارزة في الموسيقى الاسبانية . وكذلك آلات العزف كالعود **Guitar** والرباب **Ribible** والقيثارة **Lute** وقد ترجم الاسبان ابحاث الفارابي والكندي في القضايا الموسيقية[١٩] .

الجغرافيا والفلك :

انتجت الاندلس عددا من الجغرافيين امثال ابي عبيد البكري المتوفي عام ١٠٩٤ في قرطبة وهو صاحب كتاب الممالك والمسالك . ثم الرحالة بن جبير المتوفي عام ١٢١٧ . وكذلك ابي حميد محمد المازني المتوفي عام ١١٧٠ . وقد تجول هذا في مناطق الفولغا سنة ١١٣٦ وهو مـن جملة الجغرافيين الذي تركوا آثارهم في اوربا وكان هذا من المؤمنين بنظرية كروية الارض .

واخذ الاوربيون عن العرب التنجيم والفلك . اذ ازدهرت تلـك الدراسات منذ منتصف القرن العاشر في الاندلس . وسار علماء الاندلس

---

(18) G. Crumpand Jacob, The Legacy of the Middle Ages (Oxford, 1962) 190.

(19) ادوارد عطية ، العرب ، ترجمة محمد قنديل (القاهرة ، ١٩٦١) ٦٣

في هذا المضمار على الاسس الرئيسية التي وضعها ابـو معشر الفلكي البغدادي • ومن اشهر علماء الفلك الاندلسيين هو ابو القاسم بن مسلمة المجريطي المتوفي عام ١٠٠٧ • وصلح هذا ابحاث الخوارزمي في خطوط الطول والعرض • اذ جعل خط الطول الدولي مارا بمدينة قرطبة بعد ان كان حسب نظرية الخوارزمي يمر في Arin في الهند • وترجمت هـذه البحوث الى اللاتينية من قبل العالم الانكليزي Adierard of Bath سنة ١١٢٦ • ثم ترجم جيرارد الكريموني في القرن الثاني عشر ما كتبه الزرقلي المتوفي عام ١٠٨٧ حيث اعتمد على ارائه فيما بعد كوبرنيكوس • كما وضع الزرقلي (زيج طليطلة Tables of Toledo) ودون ملاحظاته الخاصة عن تحركات الاجرام السماوية وعمل اصطرلابا جديدا للملك الفونسو الحكيم لتعيين خطوط الطول •

هذا وقد تركت الدراسات الفلكية العربية الاسلامية آثار مصطلحاتها في اللغات الاوربية الى هذا الوقت • فالابراج الفلكية العربية ترجمت الى ما يقابلها بتلك اللغات فبرج العقرب مثلا scorpion والجدي Kid والطائـر Flyer ••• الخ •

الرياضيـات :

يتوضح اسهام الاندلس في اغناء الحضارة العربية في المجـالات الرياضية وخاصة الجبر • فقـد استعملت الكلمة كما هـي في اللغات الاوربية • وترجمت كافة المصطلحات العربية في هذا الشأن الى ما يقابلها في تلك اللغات كجيب وجيب تمام • واقتبس الاوربيون الصفر الرياضي والارقام العربية • وتأثر البابا سلفستر الثاني بالطرق الرياضية العربية اثناء دراسته في اسبانيا كما ظهر ذلك في مؤلفاته • ومن اوائل الاوربيين الذين ترجموا الرياضيات العربية هو ليونارد اوف بيزا[٢٠] •

الطـب :

اولت السلطات الاسلامية الطب اهمية خاصة في الشرق والغرب •

(20) Hitti, op. cit., 574.

فوفروا المكتبات والمدارس واقاموا المستشفيات للجنسين • ويقال بأنه اذا اريد فتح مستشفى جديد يقوم المختصون بتعليق قطع اللحم في امكنـة مختلفة من جهات المدينة ثم تجمع القطع وتفحص وعندها يقرر الاطباء موقع المستشفى تتيجة لاقل قطع اللحوم تفسخا(٢١) •

اعتمد اطباء العرب على العلم والواقع في معالجة المرضى • اذ لم يأخذوا بالرأي القائل ان الامراض تسببها الارواح الشريرة وانما اعتبروها ظواهر طبيعية • لهذا برعوا في الفحص والتشخيص واهتموا بنظام التغذية والعمليات الجراحية • وزاولوا تشريح الحيوانات لمعرفة اجهزة الانسان الداخلية نظرا لتعذر تشريح الجثث الانسانية دينيا • كما اتبع اطباء العرب الاساليب النفسية في معالجة مرض الاعصاب •

لقد اقتبس اطباء الاندلس معلوماتهم الاساسية عن المشرق ونبغوا فيها • ومن مشاهير الاطباء الاندلسيين ابو القاسم الزهراوي من مدينة قرطبة والمتوفي عام ١٠١٣ • ويعد هذا مـن امهر اطباء الجراحة هناك • واشتهر بكتابة المعنون (التصريف لمن عجز عن التأليف) واحتوى الكتاب على آراء جديدة في معالجة الجروح والنزف الدموي(٢٢) • وترجم جيرارد الكريموني هذا الكتاب الى اللغة اللاتينية وطبع عدة طبعات باللغات الاوربية • اذ اعيد طبعـه في البندقية سنة ١٤٩٧ وفي بازل سنة ١٥٤١ واكسفورد سنة ١٧٧٨ • ودرست ابحاثـه الطبية في جامعات سالرنو ونابولي ومونبلييه • وقد ترجم جيرارد الكريموني ايضا كتاب (القانون) في الطب لابن سينا وابحاث الرازي •

الكيميـــاء :

اعتمد العرب في بادىء الامر على الابحاث اليونانية في هذا المجال ايضا ثم اضافوا عليها • وانتقلت الى الغرب عن الاندلس بكل ما تفيده معرفة السيمياء من تشعبات •

حذا العرب حذو علماء اليونان في الفرضية القائلة : ان كافة المعادن

---

(21) Newhall, op. cit., 119-19.
(22) Hitti, op. cit., 576-77.

متكونة حسب رأي دمقريطس من عناصر اساسية واحدة يشار لها بالاسطقس الا وهي التراب والهواء والماء والنار • وما الاختلاف بين المعادن الا في نسبة الامتزاج وعلى هذا الاساس فان تحليل المعادن الى عناصرها الاساسية ومزجها ثانية بالنسب المطلوبة يمكن الحصول مختبريا على اي معدن يختاره العالم الكيمياوي • ومن تلك الفرضية انطلق كيمياويو العرب فراحوا يحاولون تحويل المعادن البخسة الى ذهب وفضة محاولين الاهتداء الى الجوهر الذي يعمل على تحويل المعادن ويشفي من كافة الامراض وهو الذي اطلق عليه بالاكسير او حجر الفلاسفة •

لم يكتشف العرب الاكسير وانما كونت تجاربهم في هذا الشأن رصيدا علميا • والتي اصبحت اساسا للكيمياء في العصور الحديثة في الغرب • اذ اهتدى الغربيون عن طريق العرب الى معرفة الاوزان النوعية والملغمة واستعمالات الامونيا والنترات والكالي والكحول •

الفلسفة :

نبغ في اسبانيا في عصرها العربي عدة فلاسفة كانت لآرائهم تأثيرات لا يستهان بها في الفكر الاوربي في العصر الوسيط وما تلاه • ومن بين هؤلاء هم : سليمان بن جبرول ١٠٢١ ـ ١٠٥٨ الذي اعتبر المعلم للافلاطونية الحديثة في اوربا • ومن اهم كتبه ينبوع الحياة المترجم الى اللاتينية سنة ١١٥٠ • ثم عبد الملك بن طفيل الذي اكتسب ثقافته الاولى في الاندلس فانتقل الى مراكش حيث توفي سنة ١١٨٥ • اشتهر هذا بعدة فروع في المعرفة كالطب والفلسفة • ومن كتبه الفلسفية هو (حي بن يقظان) • بحث فيه اسرار الوجود ومعرفة الله • وترجم الكتاب الى عدة لغات اوربية سنة ١٦٧١[٢٣] •

وهناك محمد بن رشد ١١٢٦ ـ ١١٩٨ المولود في قرطبة • وتقلد رئاسة القضاء في كل من قرطبة واشبيلية ثم انتقل الى مراكش • اشتهر بالطب والفلسفة • الا ان شهرته في المجال الثاني فاقت صنعته الطبية • تأثر ابن رشد في ارسطو واشتهر في الغرب عن طريق شروحه على فلسفة ارسطو

(23) Ibid., 582-83.

وتألقت ابحاثه في هذا الشأن من الجامع والملحق والتفسير • وقد اثرت هذه الشروح تأثيرات عميقة في الفلسفة الدينية الاوربية • اذ احتدم الجدل حول (الرشدية) منذ نهاية القرن الثاني عشر حتى اواخر القرن السادس عشر • وقد اهتمت جامعة باريس بصورة خاصة بفلسفة ابن رشد •

لقد آمن ابن رشد في مقدرة العقل على ادراك خفايا الكون واخضع كل مظاهر الطبيعة الى التحليل المنطقي عدا الدين • واشتهر ابن رشد في المشرق في كتابه تهافت التهافت وهو عبارة عن رد على كتاب الغزالي تهافت الفلاسفة •

ومن مشاهير الاندلس في هذا الشأن : ابن ميمون ١١٣٥ ــ ١٢٠٤ • ولد في قرطبة وتوفي في القاهرة • اشتغل كطبيب لصلاح الدين الايوبي • ولا يقل موسى بن ميمون شهرة عن صنوه ابن رشد • ويعد موسى اشهر يهودي ظهر للوجود طيلة تاريخهم لهذا قيل (انه لم يظهر في تاريخ اليهود منذ موسى الى عهد موسى مثل موسى) • ومن الصدف ان يولد ابن ميمون في نفس المدينة التي ولد فيها ابن رشد وفارق العمر بينهما تسع سنوات • ومع ذلك فلم يلتق اي منهما بالآخر •

مر موسى بن ميمون بحياة مليئة بالمفاجآت الصاخبة • فقد اضطر على مغادرة الاندلس الى فاس وهناك تظاهر بالاسلام • ومع ذلك فلم يأمن جانب السلطات فغادرها الى الاسكندرية سنة ١١٦٥ ثم اقام في القاهرة حيث دخل فيما بعد في خدمة الاسرة الايوبية • ثم عينه صلاح الدين رئيسا للطائفة اليهودية في مصر سنة ١١٧٧ • وكاد ابن ميمون ان يتعرض لخطر الاعدام في مصر • وذلك لاتهامه بالارتداد عن الدين الاسلامي • الا ان قاضي القضاة هناك برأ ساحته نظرا لان ابن ميمون كان قد اعتنق الاسلام تحت ظروف قاهرة لذا فان من يجبر على الاسلام لا يعتبر مسلما[٢٤] •

سطع نجم ابن ميمون في مصر تحت الرعاية الايوبية وتسامحها • اذ اصدر عشرة كتب في اللغة العربية اخذت طريقها الى التراث الاوربي بعد

---

(24) Durant, op. cit., 708.

ترجمتها الى اللاتينية ، ثم اصدر كتبا اخرى تبحث في العقيدة اليهودية منها (السراج) و (مشناطره) اي اعادة الشريعة دون فيه شريعة موسى غير المدونة .

وبالرغم من سعة افق ابن ميمون فقد كان عنيفا في تطبيق قوانين الشريعة اليهودية ، اذ اشار ان اليهودي الذي يرتد عن دينه ليس له من عقاب الا الموت ، ونادى بتطبيق تلك العقوبة على حالات متعددة منها مخالفة التعاليم الخاصة بأيام السبت ، واكد ابن ميمون على اهمية الفرد اليهودي في مجتمعه وان على ذلك المجتمع ان يضحي بنفسه ان دعت الحاجة لحماية الفرد (اذا طلب منكم تسليم احد اليهود للاعداء من اجل اعدامه فالاحرى بكافة الهيئة الاجتماعية اليهودية في ذلك المكان الموت دفاعا عن ذلك الانسان)[٢٥] .

ولعل من اهم كتبه الفلسفية (دلالة الحائرين) ، اذ اراد به التوفيق بين اليهودية والاسلام ، فاغضب اليهود ورفضه المسلمون ، واطلق اليهود على كتابه ضلال المهتدين ، ومع ذلك فقد اصبح لدلالة الحائرين اهمية خاصة في الدراسات الدينية المسيحية واليهودية .

احدثت آراء ابن ميمون ضجة في الشرق والغرب ، اذ قال عنها احد المعاصرين آنذاك بأنها تهدد دعائم الدين الاساسية ، في وقت كان فيه صلاح الدين بأحوج ما يكون لوحدة الكلمة في جهاده ، ومن الغريب حقا ان يتسامح صلاح الدين مع ابن ميمون في آرائه الحرة بينما يضيق ذرعا بالسهروردي ١١٥٥ — ١١٩١ العالم الاسلامي المتصوف صاحب كتاب الاستشراق فيأمر باعدامه في حلب .

ومن المحتمل ان يكون موقف صلاح الدين التسامحي ازاء آراء ابن ميمون منبعثا من اعتقاده بعدم خطورة آرائه بالاضافة الى انه من اهل الذمة ، ثم هناك عامل اخلاصه في مهنته الطبية التي قدرت حق التقدير .

لقد احدثت آراء ابن ميمون صراعا عنيفا بين اليهود في كل من فرنسا

---

(25) Ibid., 410-414.

واسبانيا بعد وفاته • ففي مدينة مونبلييه اضطر رئيس الطائفة اليهودية سلمان ان يرفع امر الاتباع الميمونيين الى السلطات في محاكم التفتيش الدينية المسيحية باعتبارهم يمثلون خطرا على الديانتين ثم احرقت كتب ميمون في كافة فرنسا سنة ١٢٤٢ • وقد انتقم الميمونيون مـن سلمان وانصاره بشكل عنيف اذ قطعوا ألسنة البعض منهم ثم قتلوا سلمان نفسه • امـا في اسبانيا وبرشلونة بصورة خاصـة فقـد تقـرر تحريم الآراء الميمونيـة[26] •

لقد اثرت آراء ميمون في اقطاب فرقة الدومنيكان امثال البرتوس ماكنوس وتوماس اكويناس • وبقيت تأثيراتها حتى اواخر القرن الثامن عشر • اذ تأثر بها كل من الفيلسوفين سبينوزا الهولندي وكانت الالماني •

ومن اعلام الفلسفة الاندلسيين هو محمد بن الاعرابي ١١٦٥ـ١٢٤٠م الفيلسوف الرمزي المتصوف • غادر الاندلس الـى المشرق سنة ١٢٠٢ وعاش في دمشق الى نهاية حياته • وكون مدرسة صوفية وصار علما من اعلام التصوف الاسلامي واطلق عليه لقب الشيخ الاكبر • الف عـدة كتب في الفلسفة منها : الفتوحات المكية بحث فيها المعراج ويعتقد البعض ان دانتي الشاعر الايطالي قد تأثر الى حد ما في كوميدياه الالهية بأوصاف ابن الاعرابي للاسراء • كما اثرت آراؤه في اتباع الفلسفة الاوغسطينية في اوربا امثال روجر بيكون والمبشر الاسباني ريموند لول •

اما ابن خلدون فهو اشهر فيلسوف مؤرخ انتجته الاندلس • ضمن آراءه الفلسفية في كتابه المقدمة حول التاريخ ونظرته الاجتماعية الواقعية • ثم حاول ان يتحرى العامل الجغرافي في قيام الامم واندثارها • ويعتبر من قبل علماء اوربا انه واضع اسس علم الاجتماع الحديث • واشتهر ايضا ابن خلدون المتوفي عام ١٤٠٦ بكتابه التاريخي العبر •

طليطلة والتراث العربي :

استمرت تلك المدينة حتى بعد خروجها عن السيطرة الاسلامية سنة ١٠٨٥ تكون مركزا ثقافيا هاما مثل دورا رئيسيا مباشرا في نقل التراث

---

(26) Hitti, op. cit., 584-85.

العربي الاسلامي الى اوربا عن طريق الترجمة والتدريس • ويعود الفضل في ذلك لجهود رئيس اساقفتها ريموند الاول ١١٢٦ ــ ١١٥١ الذي اسفرت مساعيه عن قيام مدرسة خاصة للقيام بأعمال الترجمة سنة ١١٣٥ والتي استمرت حتى سنة ١٢٨٤ • وقد توافد الطلاب من مختلف البقاع الاوربية الى طليطلة للدراسة والاطلاع على ذلك التراث والتزود منه • فقد حاول كل من روبرت الانكليزي وزميله بطرس ترجمة القرآن الى اللاتينية سنة ١١٤٣ • كما ترجم روبرت ايضا كتاب الجبر للخوارزمي • ثم تأسست في طليطلة اول كليـــة استشراقية اوربية سنة ١٢٥٠ لغرض تفهم علـــوم المسلمين والاستعانة بها في الاغراض التبشيرية • وحافظ الملك الكاستيلي الفونسو التاسع ١٢٥٢ ــ ١٢٨٤ الملقب بالحكيم علـــى مكانة طليطلـــة العلمية • قد ترجم جيرارد الكريموني في عهده واحد وستين كتابا من اللغة العربية[٢٧] •

صقليـــــة :

لقد تبنى الحكام النورمنديون في صقلية الآداب والعلوم العربيـــة الاسلامية • اذ قام الملك روجر الثاني ١١٣٠ ــ ١١٥٤ بنشاط وافر في هذا المجال • حيث اوفد المختصين للاطلاع علـــى المخطوطات الاسلامية في طليطلة • كما شد الرحال اليه الجغرافي المعروف بأبي عبدالله الادريسي ١١٠٠ ــ ١١٦٦ المولود في مدينة سبتة من ابوين اندلسيين • وقد الف عند روجر كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق واهداه الى روجر • قسم فيه الارض الى سبع مناطق مناخية موزعة على سبعين خارطة يمكن وصل بعضها فتكون خريطة للعالم موحدة[٢٨] • وقد امن الادريسي بكروية الارض واهدى الى روجر كرة فضية تمثل الارض •

وقد ضم بلاط فردريك الثاني الرياضيين تيودور الانطاكي وليوناردو اوف بيزا • تعلم الاول على يد كمال الدين بن يونس احد علماء العراق في الموصل • ثم وجد طريقه الى صقلية حيث البلاط • اما ليوناردو فقد

(27) Durant, op. cit., 910-11.
(28) Atiya, op. cit., 230.

تلقى ثقافته الرياضية في الشمال الافريقي حيث ان والده كـان يشتغل بالتجارة هناك • ثم اصبح ليوناردو من مشاهير اوربا في ذلك الاختصاص على اثر نشره كتاب الرياضيات سنة ١٢٠٢ • ويعتبر ليوناردو المسئول الاول عن نشر الحساب الاسلامي في الربوع الاوربية • ولم تزل مصطلحاته الرياضية المقتبسة عن العربية سارية الاستعمال • ولعل من ابرزها مثلا كلمة الصفر اذ ترجمها Cephirum هذا مع العلم ان الرياضيات العربية كما اشرنا سابقا مقتبسة من التراث الهندي • غـير ان العرب ترجموا المصطلحات الهندية الى لغتهم • فالكلمة الهندية سونيا والتي تفيد معنى الفراغ او اللاشيء ترجمها العرب بالصفر[٢٩] •

كما ساهم فردريك الثاني مباشرة في نقل التراث الحضاري الاسلامي الى اوربا • وذلك بتأسيسه جامعة نابولي سنة ١٢٢٤ • والتي ضمت العديد مـن المخطوطات العربية • ووزعت نسخ منها الـى الجامعات الاوربية الاخرى • وكان من بين طلاب جامعة نابولي الفيلسوف الديني المعروف توماس اكويناس • واجرى فردريك الثاني مراسلات علمية مع علماء مصر وسوريا والموصل عـن طريق السلطات الايوبية في الرياضيات والطب والنبات والجغرافيا وكذلك حول علم الحيوان • فقد حل له علماء مصر والموصل الغازا رياضية وفلسفية معقدة • وقد استحضر من مصر خبراء في النبات وتربية الدواجن • كما اهداه الاشرف الايوبي ملك دمشق جهازا يمثل المجموعة الشمسية ويعين ساعات النهار • وترجم تيودور الانطاكي فصلا من كتاب سر الاسرار المنسوب الى ارسطو حول تربية الحيوانات كما ترجم له ميخائيل سكوت بحوثا بايلوجية وزولوجية عن العربية الى اللاتينية[٣٠] •

وقد اهتمت الاسرة الانجوية في صقلية بذلك التراث ايضا • فقد امر الملك شارل الانجوي بترجمة البحوث الطبية التي الفها الرازي • وقام بالترجمة اليهودي فرح بن سالم سنة ١٢٧٩ •

---

(29) سيجريد هونكه ، فضل العرب على اوربا ، ترجمة الدكتور فؤاد حسين ، (القاهرة ، ١٩٦٤) ٦٦

(30) E. Kantorowicz, Fredrick the second (London, 1931) 282.

دانتي ومدى تأثره بالاخيلة العربية :

يعتبر دانتي ١٢٦٥ـ١٣٢١ من رواد النهضة الايطالية بأدبه الشعري . وكان المعتقد الى وقت قريب بأن ما جاء به دانتي في الكوميديا الالهية Comedy من اوصاف للجنة والنار وكيفية العروج الى السماء ، على انها اوصاف اصيلة جادت بها مخيلته اللاتينية . الا ان المؤرخ آسن بلاسيوس Asin Palacios دلل في كتابه المسمى الاسلام والكوميديا الالهية على ان آراء دانتي مستقاة من مصادر عربية اسلامية(٣١) . اما هذه المصادر فهي رسالة الغفران لابي العلاء المعري ٩٧٣ ــ ١٠٥٧ وكذلك كتاب الفتوحات المكية لابن الاعرابي . وقد بين المؤرخ الاسباني عمليا اوجه الشبه بين الروايات الاسلامية ورواية دانتي . اذ اشارت المصادر العربية للاسراء ليلا ومن القدس وكذلك فعل دانتي . وفي الحديث عن النار قالت المصادر الاسلامية بأن هناك اسدا وذئبا يحرسان الباب . اما بالنسبة لدانتي فالحارسان اسد ونمر واضاف اليهما ذئبا . وغير اسم رئيس الجن الى فرجيل . اما عن اوصاف النار وهديرها وطبقاتها فمقتبسة بحذافيرها تقريبا عن العربية(٣٢) .

ولكن كيف تسنى لدانتي الفلورنسي ان يتأثر في ذلك التراث الاسلامي ويحوله الى قصيدة رائعة في اللغة الشعبية الايطالية ؟ يعتقد بلاسيوس بأن اول ترجمة للاحاديث التي تشرح وافية الاسراء ظهرت في اسبانيا منذ القرن التاسع . ثم وضع رئيس اساقفة طليطلة كتابا عن تاريخ العرب ترجم فيه كل ما ورد من احاديث عن المعراج معتمدا في ذلك على كتاب البخاري بصورة خاصة . ان الفصل المترجم عن المعراج من كتاب البخاري كون فصلا خاصا في كتاب تاريخ اسبانيا الذي امر بوضعه الفونسو الحكيم سنة ١٢٦٨ . ثم هناك كتاب اصدره القديس بطرس بسكال في فترة ١٢٩٧ ــ ١٣٠٠ في غرناطة عن حياة الرسول واوصاف

---

(31) Asin Palacios, Islam and The Divine Comedy, trans. by sunderland (London, 1926) 55-61.

(32) Ibid., 171-73. 276-77.

المعراج والصراط المستقيم • وقـد انتشر كتابه في مختلف جهات اوربا آنـذاك •

هذا بالاضافة الى ان التحقيق التاريخي الذي اجراه بلاسيوس حول الكوميديا الالهية ، يشير الى ان دانتي قد تلقى ثقافته الادبية على يد العالم الفلورنسي Brunetto الذي كان ملما بالثقافة العربية • وقد اطلع على ذلك التراث اثناء اقامته كممثل لحكومة فلورنس في طليطلة في عهـد الفونسو الحكيم وتجول ايضا في المعاهد العلمية الاخرى مثل اشبيلية • ونشر هذا عدة قصائد اشارت الى مدى تأثره بالآداب العربية • ويذكر بلاسيوس ان الآراء التـي جاءت في قصائد برونيتو رددها دانتـي في كوميدياه •

التأثيرات البيزنطية :

لقد اسهمت بيزنطة كما اسهم العرب في النهضتين الايطالية والاوربية في النواحي الثقافية بأساليب مباشرة او غير مباشرة • ومهما كانت العلاقات بين اللاتين والبيزنطيين من نواحيها الايجابية والسلبية فقد ازداد اطلاع اللاتين على التراث الهلنستي التي حفظته مكتبات القسطنطينية منذ تشكيل امبراطوريتهم اللاتينية ١٢٠٤ ـ ١٢٦١ • كما ان الضغط العثماني المتواصل على الامبراطورية منذ النصف الثاني من القرن الرابع عشر من الامور التي ساعدت على احياء التراث الكلاسيكي في الجهات الايطالية نتيجة لهجرة قسم من علماء البيزنطيين اليها مزودين بكتبهم الكلاسيكية ولعل من ابرز الامثلة التي تشير الى مدى تأثيرات البيزنطيين في ايطاليا هي التي تمثلت في مجهودات كل من مانويل خرايسولوراس M. Chreysoloras وجمستون بلتون Gemston Pletton وبيصاريون النيقي Bessarion of Nicaea

ولد الاول في القسطنطينية في اواسط القرن الرابع عشر واصبح استاذا للفلسفة • ثم زار ايطاليا فألقى محاضرات لعدة سنوات في جامعة فلورنس ثم حاضر ايضا في جامعتي ميلان وبافيا • وقد شبهه كورانيو

---

(33) Atiya, op. cit., 259-61.

(الانساني) الايطالي بالشمس الساطعة في السماء الايطالي واقترح تشييد قوس نصر لـه ولقب ايضا هناك بأمير الفصاحة والفلسفة اليونانية(٣٤) .

اما جمستون فيعتبر من اعلام النهضة الايطالية في النصف الاول من القرن الخامس عشر ، وينسب له الفضل في تأسيس الاكاديمية الافلاطونية في مدينة فلورنس ، وكتب هناك بحثا تناول فيه فلسفتي افلاطون وارسطو ثم اصدر كتابا بعنوان القانون ، وتعتبر محاضراته واقامته في ايطاليا من اهم الاحداث في تاريخ النهضة الايطالية(٣٥) .

كما اسهم العالم الثالث الا وهـو بيصاريون في النهضة الايطالية بشكل مباشر ، وقد ولد هذا في طربيزون البيزنطية في آسيا الصغرى في بداية القرن الخامس عشر ، وتلقى علومه العليا في القسطنطينية ، واشتهر بالشعر والفلسفة ، ثم اصبح كاثوليكيا عند زيارة رسمية للبابوية من اجل اتحاد الكنيستين فعين في مجلس الكرادلة ، وغدا منزله محفلا ادبيا لقادة النهضة الايطالية امثال المؤرخ لورنزو فالا ، وساهم في جمع المخطوطات من المراكز الدينية الشرقية مكونا مكتبة نادرة اهداها عند وفاته الى مدينة البندقية ، وقد قال عنه لورنزو فالا بأنه احسن من يجيد اليونانية بين اللاتين وابرع متحدث باللاتينية بين اليونان ، وامست مكتبته المهداة الى البندقية نواة مكتبة كنيسة القديس مارك ولم تزل صورته لحد الآن في مدخل المكتبة ، وقد حاول بيصاريون عبثا ان يبعث الحماس الصليبي في نفس رئيس جمهورية البنادقة ضد العثمانيين بعد معركة فارنا وقد توفي بيصاريون في مدينة رافينا في ايطاليا سنة ١٤٧٢(٣٦) .

* * *

(34) Vasiliev, op. cit., II. 719.
(35) Ibid., 699.
(36) Ibid., 720-22.



اسماء الحكام وفترات حكمهم

حكام حلب ١٠٩٤ ـ ١٢٦٠

تتش	١٠٩٤ — ١٠٩٥
رضوان	١٠٩٥ — ١١١٣
الب ارسلان	١١١٣ — ١١١٤
سلطان شاه	١١١٤ — ١١١٧
ايلغازي بن ارتق	١١١٧ — ١١٢٨
عماد الدين زنكي	١١٢٨ — ١١٤٦
نور الدين محمود	١١٤٦ — ١١٧٤
الصالح اسماعيل	١١٧٤ — ١١٨١
عز الدين بن محمود زنكي	١١٨١ — ١١٨٢
عماد الدين بن محمود زنكي	١١٨٢ — ١١٨٣
صلاح الدين الايوبي	١١٨٣ — ١١٨٦
الظاهر غياث بن صلاح الدين	١١٨٦ — ١٢١٦
العزيز بن غياث	١٢١٦ — ١٢٣٦
الناصر صلاح الدين	١٢٣٦ — ١٢٦٠

حماة في عهد الايوبيين

نور الدين شاهنشاه	١١٧٤ — ١١٧٨
المظفر تقي الدين	١١٧٨ — ١١٩١
المنصور ناصر الدين	١١٩١ — ١٢٢٠
الناصر صلاح الدين	١٢٢٠ — ١٢٢٩
المظفر الثاني	١٢٢٩ — ١٢٤٤
المنصور سيف الدين	١٢٤٤ — ١٢٨٤
المظفر الثالث	١٢٨٤ — ١٢٩٨
(حكام مماليك	١٢٩٨ — ١٣١٠)
المؤيد ابو الفداء	١٣١٠ — ١٣٣٢
الافضل محمد	١٣٣٢ — ١٣٤١

حمص في عهد الايوبيين

القاهر ناصر الدين	١١٧٨ — ١١٨٥
المجاهد	١١٨٥ — ١٢٣٩
المنصور	١٢٣٩ — ١٢٤٥
الاشرف مظفر	١٢٤٥ — ١٢٦٢

دمشق في العهدين البوري والايوبي

طغتكين	١١٠٣ — ١١٢٨
بوري	١١٢٨ — ١١٣٢
اسماعيل	١١٣٢ — ١١٣٤
محمود	١١٣٤ — ١١٣٨

محمد : ١١٣٨ — ١١٣٩
ابـق : ١١٣٩ — ١١٥٤.
الافضل بن صلاح الدين الايوبي : ١١٨٦ — ١٢٩٦
العادل سيف الدين : ١١٩٦ — ١٢١٨
المعظم : ١٢١٨ — ١٢٢٧
الناصر داود : ١٢٢٧ — ١٢٢٨
الاشرف موسى : ١٢٢٨ — ١٢٣٧
الصالح اسماعيل : ١٢٣٧ ، ثم ١٢٣٧ — ١٢٤٥
الصالح نجم الدين ملك مصر : ١٢٤٥ — ١٢٤٩
طورانشاه : ١٢٤٩ — ١٢٥٠
الناصر : ١٢٥٠ — ١٢٦٠

سلالة زنكي في الموصل

غازي الاول : ١١٤٦ — ١١٤٩.
مودود : ١١٤٩ — ١١٧٠
غازي الثاني : ١١٧٠ — ١١٨٠
عز الدين مسعود الاول : ١١٨٠ — ١١٩٣
ارسلان شاه الاول : ١١٩٣ — ١٢١٠
مسعود الثاني : ١٢١٠ — ١٢١٨
ارسلان شاه الثاني : ١٢١٨ — ١٢١٩
ناصر الدين محمد : ١٢١٩ — ١٢٣٣
بدر الدين لؤلؤ (مولى الناصر) : ١٢٣٣ — ١٢٥٩

المملكة الصليبية

كودفري : ١٠٩٩ — ١١٠٠ (حامي القبر)
بلدوين الاول : ١١٠٠ — ١١١٨
بلدوين الثاني : ١١١٨ — ١١٣١
فولك الانجوي : ١١٣١ — ١١٤٤
بلدوين الثالث : ١١٤٤ — ١١٦٢
اماليك الاول : ١١٦٢ — ١١٧٤
بلدوين الرابع : ١١٧٤ — ١١٨٥
بلدين الخامس : ١١٨٥ — ١١٨٦
كوي لوسينان : ١١٨٦ — ١١٩٢
هنري شامبان : ١١٩٢ — ١١٩٧
اماليك الثاني : ١١٩٧ — ١٢٠٥
ايزابيلا : ١٢٠٥
ماري : ١٢٠٥ — ١٢١٠
جون بريان : ١٢١٠ — ١٢٢٥
فردريك الامبراطور : ١٢٢٥ — ١٢٤٣.
كونراد فردريك : ١٢٤٣ — ١٢٥٤
كونرادين : ١٢٥٤ — ١٢٦٨
شارل الانجوي(ملك الصقليتين) : ١٢٧٧ — ١٢٨٤

جون لوسينان : ١٢٨٤ — ١٢٨٥
هنري : ١٢٨٥ — ١٢٩١

الفاطميـــون

المهدي : ٩٠٩ — ٩٣٤
القائم : ٩٣٤ — ٩٤٦
المنصور : ٩٤٦ — ٩٥٢
المعـز : ٩٥٢ — ٩٧٥
العزيز : ٩٧٥ — ٩٩٦
الحاكم بأمر الله : ٩٩٦ — ١٠٢١
الظاهر : ١٠٢١ — ١٠٣٥
المستنصر : ١٠٣٥ — ١٠٩٤
المستعلي : ١٠٩٤ — ١١٠١
الآمـر : ١١٠١ — ١١٣٠
الحافظ : ١١٣٠ — ١١٤٩
الظافر : ١١٤٩ — ١١٥٤
الفائز : ١١٥٤ — ١١٦٠
العاضد : ١١٦٠ — ١١٧١

الايوبيون في مصر

شيركوه : ١١٦٩
صلاح الدين : ١١٦٩ — ١١٩٣
العزيز : ١١٩٣ — ١١٩٨
المنصور محمد : ١١٩٨ — ١١٩٩
العادل : ١١٩٩ — ١٢١٨
الكامل : ١٢١٨ — ١٢٣٨
العادل الثاني : ١٢٣٨ — ١٢٤٠
الصالح ايوب : ١٢٤٠ — ١٢٤٩
طورانشاه : ١٢٤٩ — ١٢٥٠

امارة انطاكيا

بوهيمند الاول : ١٠٩٩ — ١١٠٤
تانكريد : ١١٠٤ — ١١١٢
رشارد اوف سالرنو : ١١١٢ — ١١١٩
بوهيمند الثاني : ١١٢٦ — ١١٣٠
ريموند : ١١٣٦ — ١١٤٩
رينو (الكرك) : ١١٥٣ — ١١٦٠
بوهيمند الثالث : ١١٦٣ — ١٢٠١
بوهيمند الرابع : ١٢٠١ — ١٢٣٣
بوهيمند الخامس : ١٢٣٣ — ١٢٥١ } **امراء طرابلس ايضا**
بوهيمند السادس : ١٢٥١ — ١٢٦٨ }

امارة طرابلس

برتراند : ١١٠٨ — ١١١٣
بونس : ١١١٣ — ١١٣٧
ريموند الثاني : ١١٣٧ — ١١٥٢
ريموند الثالث : ١١٥٢ — ١١٨٧
بوهيمند الرابع : ١١٨٧ — ١٢٣٣
بوهيمند الخامس : ١٢٣٣ — ١٢٥١
بوهيمند السادس : ١٢٥١ — ١٢٧٥
بوهيمند السابع : ١٢٧٥ — ١٢٨٧

مصر في عهد المماليك

شجرة الدر — ايبك : ١٢٥٠ — ١٢٥٧
نور الدين علي : ١٢٥٧ — ١٢٥٩
قطز : ١٢٥٩ — ١٢٦٠

المماليك البحرية

بيبرس : ١٢٦٠ — ١٢٧٧
بركة خان : ١٢٧٧ — ١٢٧٩
سلامش : ١٢٧٩ — ١٢٩٠
خليل : ١٢٩٠ — ١٢٩٣
الناصر : ١٢٩٣ — ١٢٩٤ (المرة الاولى)
كتبغا : ١٢٩٤ — ١٢٩٦
لا جين : ١٢٩٦ — ١٢٩٨
الناصر : ١٢٩٨ — ١٣٠٨ (المرة الثانية)
بيبرس الثاني : ١٣٠٨ — ١٣٠٩
الناصر : ١٣٠٩ — ١٣٤٠ (المرة الثالثة)
ابو بكر : ١٣٤٠ — ١٣٤١
كجك : ١٣٤١ — ١٣٤٢
احمد : ١٣٤٢
اسماعيل : ١٣٤٢ — ١٣٤٥
الكامل شعبان : ١٣٤٥ — ١٣٤٦
المظفر : ١٣٤٦ — ١٣٤٧
الحسن : ١٣٤٧ — ١٣٥١ (المرة الاولى)
الصالح : ١٣٥١ — ١٣٥٤
الحسن : ١٣٥٤ — ١٣٦١ (المرة الثانية)
محمد : ١٣٦١ — ١٣٦٣
الاشرف شعبان : ١٣٦٣ — ١٣٨٦
علاء الدين علي : ١٣٧٦ — ١٣٨١
الصالح حاج : ١٣٨١ — ١٣٨٢ (المرة الاولى)

المماليك البرجية

برقوق	١٣٨٢ – ١٣٨٩
الصالح حاج	١٣٨٩ – ١٣٩٠ (المرة الثانية)
الظاهر برقوق	١٣٩٠ – ١٣٩٩
فرج	١٣٩٩ – ١٤١٢
الشيخ المؤيد	١٤١٢ – ١٤٢١
المظفر احمد	١٤٢١
الظاهر ططر	١٤٢١
الصالح حمد	١٤٢١ – ١٤٢٢
الاشرف برسباي	١٤٢٢ – ١٤٣٨
جمال الدين يوسف	١٤٣٨
جقمق	١٤٣٨ – ١٤٥٣
المنصور عثمان	١٤٥٣
الاشرف اينال	١٤٥٣ – ١٤٦٠
المؤيد شهاب الدين	١٤٦٠ – ١٤٦١
خوش قدم	١٤٦١ – ١٤٦٧
بلباي	١٤٦٧
تيمور بغا	١٤٦٧ – ١٤٦٨
قايتباي	١٤٦٨ – ١٤٩٥
الناصر محمد	١٤٩٥ – ١٤٩٨
الظاهر قنصوه	١٤٩٨ – ١٤٩٩
الاشرف جان بلاط	١٤٩٩ – ١٥٠٠
طومان باي الاول	١٥٠٠ – ١٥٠١
قنصوه الغوري	١٥٠١ – ١٥١٦
طومان باي الثاني	١٥١٦ – ١٥١٧

سلاجقة ايران والعراق

طغرلبك	١٠٣٧ – ١٠٦٣
الب ارسلان	١٠٦٣ – ١٠٧٢
ملكشاه	١٠٧٢ – ١٠٩٢
محمود	١٠٩٢ – ١٠٩٤
برقياروق	١٠٩٤ – ١١٠٤
محمد	١١٠٤ – ١١١٨
احمد سنجر	١١١٨ – ١١٥٧
محمد بن محمد بن ملكشاه	١١١٨ – ١١٣١
داود بن محمود	١١٣١
طغرل الثاني	١١٣١ – ١١٣٣
مسعود	١١٣٣ – ١١٥٢
ملكشاه محمود	١١٥٢ – ١١٥٣
محمد بن محمود	١١٥٣ – ١١٥٩

سليمان شاه : ١١٥٩ — ١١٦١
ارسلان شاه : ١١٦١ — ١١٧٧
طغرل الثالث : ١١٧٧ — ١١٩٤

سلاجقة قونية

سليمان بن قطلمش : ١٠٧٧ — ١٠٨٦
قليج ارسلان الاول : ١٠٩٢ — ١١٠٧
ملكشاه الاول : ١١٠٧ — ١١١٦
مسعود الاول : ١١١٦ — ١١٥٦
قليج ارسلان الثاني : ١١٥٦ — ١١٨٨
ملكشاه الثاني : ١١٨٨ — ١١٩٢
كيخسرو الاول : ١١٩٢ — ١٢٠٠ (المرة الاولى)
سليمان الثاني : ١٢٠٠ — ١٢٠٣
قليج ارسلان الثالث : ١٢٠٣ — ١٢٠٤
كيخسرو الاول : ١٢٠٤ — ١٢١١ (المرة الثانية)
عز الدين : ١٢١١ — ١٢١٩
كيقباذ : ١٢١٩ — ١٢٣٦
كيخسرو الثاني : ١٢٣٦ — ١٢٤٥
قليج ارسلان الرابع : ١٢٤٥ — ١٢٦٧
كيخسرو الثالث : ١٢٦٧ — ١٢٨٤
مسعود الثاني : ١٢٨٤ — ١٢٩٥
كيقباذ الثاني : ١٢٩٥ — ١٣٠٠

ارمينيا الصغرى

هيثوم الاول : ١٢٢٦ — ١٢٦٩
ليو الثالث : ١٢٧٠ — ١٢٨٩
هيثوم الثاني : ١٢٨٩ — ١٣٠٥
ليو الرابع : ١٣٠٥ — ١٣٠٨
اوشن : ١٣٠٨ — ١٣٢٠
ليو الخامس : ١٣٢٠ — ١٣٤١
لوسينان : ١٣٤٢ — ١٣٤٤
قسطنطين : ١٣٤٤ — ١٣٦٣
ليو السادس : ١٣٧٤ — ١٣٩٣

اباطرة المغول

جنكيز خان : ١٢٠٦ — ١٢٢٧
اكوداي : ١٢٢٧ — ١٢٤١
كويوك : ١٢٤٦ — ١٢٤٨
مانكو : ١٢٥١ — ١٢٦٠
قوبليا : ١٢٦٠ — ١٢٩٤
يولجياتو تيمور : ١٢٩٤ — ١٣٠٧

خانات مغول فارس

هولاكو حفيد جنكيز خان : ١٢٥٦ — ١٢٦٥

ابقـا : ١٢٦٥ — ١٢٨٢

احمد تقدر : ١٢٨٢ — ١٢٨٤

اراغون : ١٢٨٤ — ١٢٩١

كيختو : ١٢٩١ — ١٢٩٥

غازان : ١٢٩٥ — ١٣٠٤

اولجيتو : ١٣٠٤ — ١٣١٦

ابو سعيد : ١٣١٦ — ١٣٣٤

اربـا : ١٣٣٥ — ١٣٣٦

موسى : ١٣٣٦

العباسيــــون

السفاح : ٧٥٠ — ٧٥٤

المنصور : ٧٥٤ — ٧٧٥

المهدي : ٧٧٥ — ٧٨٥

الهادي : ٧٨٥ — ٧٨٦

الرشيد : ٧٨٦ — ٨٠٩

الامين : ٨٠٩ — ٨١٣

المأمون : ٨١٣ — ٨٣٣

المعتصم : ٨٣٣ — ٨٤٢

الواثق : ٨٤٢ — ٨٤٧

المتوكل : ٨٤٧ — ٨٦١

المنتصر : ٨٦١ — ٨٦٢

المعتز : ٨٦٦ — ٨٦٩

المهتدي : ٨٦٩ — ٨٧٠

المعتمد : ٨٧٠ — ٨٩٢

المعتضد : ٨٩٢ — ٩٠٢

المكتفي : ٩٠٢ — ٩٠٨

المقتدر : ٩٠٨ — ٩٣٢

القاهر : ٩٣٢ — ٩٣٤

الراضي : ٩٣٤ — ٩٤٠

المتقي : ٩٤٠ — ٩٤٤

المستكفي : ٩٤٤ — ٩٤٦

المطيع : ٩٤٦ — ٩٧٤

الطائع : ٩٧٤ — ٩٩١

القادر : ٩٩١ — ١٠٣١

القائم : ١٠٣١ — ١٠٧٥

المقتدي : ١٠٧٥ — ١٠٩٤

المستظهر : ١٠٩٤ — ١١١٨

المسترشد : ١١١٨ — ١١٣٥

الراشد : ١١٣٥ — ١١٣٦

المقتفي : ١١٣٦ — ١١٦٠
المستنجد : ١١٦٠ — ١١٧٠
المستضيء : ١١٧٠ — ١١٨٠
الناصر : ١١٨٠ — ١٢٢٥
الظاهر : ١٢٢٥ — ١٢٢٦
المستنصر : ١٢٢٦ — ١٢٤٢
المستعصم : ١٢٤٢ — ١٢٥٨

الائمة الاثنا عشر

الامام علي بن ابي طالب ٦٦١

الحسين ٦٨٠ — الحسن ٦٦٩

علي زين العابدين ٧١٢

محمد الباقر ٧٣١ — زيد

جعفر الصادق ٧٦٥

اسماعيل ٧٦٠

موسى الكاظم ٧٩٩
علي الرضا ٨١٨
محمد الجواد ٨٣٥
علي الهادي ٨٦٨
الحسن العسكري ٨٧٤
محمد المهدي ٨٧٨

الموحـــدون

عبد المؤمن : ١١٢٩ — ١١٦٣
ابو يعقوب يوسف : ١١٨٤
يعقوب المنصور : ١١٩٩
محمد ناصر : ١٢١٤
ابو يعقوب الثاني : ١٢٢٤
عبد الواحد : ١٢٢٤
عبدالله العادل : ١٢٢٤ — ١٢٢٧
يحيى المعتصم : ١٢٢٩
ادريس المأمون : ١٢٣٢
عبد الواحد الرشيد : ١٢٤٢
ابو الحسن السعيد : ١٢٤٨

عمـر : ١٢٦٦
واثـق : ١٢٩٦

الحفصيون

عبد الواحد ابي حفص : ١٢٠٧ – ١٢٢٨
ابو زكريا يحيى الاول : ١٢٤٩
محمد المستنصر الاول : ١٢٧٧
ابو زكريا يحيى الثاني : ١٢٧٩
ابو اسحاق ابراهيم الاول : ١٢٨٤
ابو حفص عمر الاول : ١٢٩٥
محمد المستنصر الثاني : ١٣٠٩
ابو البقاء خالد : ١٣١١
ابو يحيى : ١٣١٧
محمد المستنصر الثالث : ١٣١٨
ابو بكر المتوكل : ١٣٤٦
ابو حفص عمر الثاني : ١٣٤٦
ابو العباس احمد : ١٣٤٩ – ١٣٥٠
ابراهيم المستنصر : ١٣٦٨
ابو البقاء خالد الثاني : ١٣٧٠
ابو العباس احمد الثاني : ١٤٣٤
محمد المستنصر الرابع : ١٤٣٥
ابو عمر عثمان : ١٤٨٨

المرينيون

عبد الحق : ١١٩٥ – ١٢١٧
عثمـان : ١٢٣٩
محمد الاول : ١٢٤٤
ابو بكر : ١٢٥٨
ابو يوسف يعقوب : ١٢٨٦
يوسـف : ١٣٠٧
أبو ثابت عامر : ١٣٠٨
سليمـان : ١٣٠٨
ابو سعيد عثمان : ١٣٣١
ابو الحسن علي : ١٣٤٨
ابو عنان فارس : ١٣٥٨
سعيـد : ١٣٥٩
عبد الحكيم : ١٣٦١
تاشفين : ١٣٦١
ابراهيم : ١٣٦١
محمد الثاني : ١٣٦٦
عبد العزيز : ١٣٧٢
محمد الثالث : ١٣٧٤ (اول مرة)

عبد الرحمن	:	١٣٧٤
مـوسى	:	١٣٨٤
المستنصر	:	١٣٨٦
محمد الرابع	:	١٣٨٧
المستنصر	:	١٣٩٣ (مرة ثانية)

العثمانيـــون

طغــرل	:	١٢٤٠ ـ ١٢٨٨
عثمــان	:	١٢٢٦
اورخان	:	١٣٥٩
مراد الاول	:	١٣٨٩
بايزيد الاول	:	١٤٠٢
محمد الاول	:	١٤٢١
مراد الثاني	:	١٤٥١
محمد الثاني	:	١٤٨١
بايزيد الثاني	:	١٥١٢
سليم الاول	:	١٥٢٠
سليمان الاول	:	١٥٦٦

مراجع البحث

ابن الاثير (ابو الكرم محمد) :
الكامل ، ط ١ ، ج ١٢ (احمد حلبي ومحمد افندي ، ١٣٠٣)
ابن الشحنة (ابو الوليد محمد) :
روضة المناظر في اخبار الأوائل والأواخر ، هامش كتاب الكامل لابن الاثير ج ١٢
ابن اياس (محمد) :
بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ج ٢ (مصر ، ١٣١١)
ابن خلدون (عبد الرحمن) :
العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ٣ ـ ج ٧ (مصر ، ١٢٨٤)
ابن واصل (جمال الدين) :
مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ، ج ١ ، ج ٢ (القاهرة ، ١٩٥٣ ، ١٩٥٧)
ابن شداد (بهاء الدين) :
النوادر السلطانية في المحاسن اليوسفية (القاهرة ، ١٣١٧)
ابن تغري بردى (يوسف) :
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج ٦ (القاهرة ، ١٩٣٦)
ابو الفداء (الملك المؤيد) :
المختصر في تاريخ البشر ، ج ٥ ـ ج ٧ (بيروت ، ١٩٦١)
ابو شامة (عبد الرحمن المقدسي) :
كتاب الروضتين في تاريخ الدولتين ، ج ١ (القاهرة ، ١٩٥٦)
المقريزي (تقي الدين احمد) :
السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ـ ج ٣ (القاهرة ، ١٩٣٤)
حسين مؤنس :
نور الدين محمود ، سيرة مجاهد صادق (القاهرة ، ١٩٥٩)
ليفي بروفنسال :
الاسلام في المغرب والاندلس ، ترجمة السيد محمود سالم ومحمد حلمي (القاهرة ، ١٩٥٦)
علي ابراهيم حسن :
تاريخ المماليك البحرية (القاهرة ، ١٩٦٧)
عبد القادر احمد اليوسف :
الامبراطورية البيزنطية (بيروت ، ١٩٦٦)
عبد القادر احمد اليوسف :
العصور الوسطى الاوربية (بيروت ، ١٩٦٨)

Lamb, H., Genghiz Khan, Emperor of All men (London, 1965)
Lane-Poole, S., Turkey (Beirut, 1966)
Lane-Poole, Saladin (Beirut, 1964)
Leib, B., Rome, Kiev et Byzance à la fin du XI siècle (Paris, 1924)
Marriotte, J., The Eastern Question (Oxford, 1958)
Marco Polo, The Travels, tr. Latham (Middlesex 1965)
Newhall, R., The Crusades (N.Y., 1963)
Neill, S., A History of Christian Missions (Middlesex, 1966)
Ogg, F., Source Book of Medieval History (N.Y., 1907)
Oldenbourg, Z., The Crusades, tr. A Carter (N.Y., 1966)
Ostrogarsky, G., History of the Byzantin State, tr. Hussey (Oxford, 1961)
Pernoud, R., The Crusades, tr. McLeod (London, 1962)
Powicke, F., King Henry III, and The Lord Edward, Vol. II (Oxford, 1947)
Pirenne, H., Medieval Cities, tr. Halsey (N.Y., 1956)
Runciman, S., The Sicilian vespers (Middlesex, 1958)
Runciman, S., The First Crusade (Cambridge, 1957)
Runciman, S., A History of the Crusades, The Kingdom of Jerusalem (Cambridge, 1957)
Runciman, S., A History of the Crusades, The Kingdom of Acre (Cambridge, 1955)
Southern, R., The Making of the Middle Ages (Oxford, 1965)
Setton and Baldwin, A History of the Crusades Vol. I (Penns., 1958)
Setton, Wolff and Hazard, A History of the Crusades, Vol. II (Penns., 1962)
Stevenson, W., The Crusaders in the East (Beirut, 1968)
Strayer and Munro, The Middle Agese 395-1500 (N.Y., 1942)
Sykes, P., A History of Persia, Vol. II (London, 1951)
Thompson, W., Economic and Social History of the Middle Agees (N.Y., 1928)
Treece, N., The Crusades (N.Y., 1964)
Usama Ibn Munquith, Kitab Al-Itibar, tr. Hitti (Beirut, 1964)
Vasiliev, A., A History of the Byzantine Empire, 2 Vols. (Madison, 1964)
Ware, T., The Orthodox Church (Middlesex, 1964)
William of Tyre, A History of Deeds Done Beyond the Sea, tr. Babcock and Krey (N.Y., 1943)
Yewdale, R., Bohemond I, Prince of Antioch (Princeton, 1924)

Alastos, D., Cyprus in History (London, 1955)

Asin, P., Islam and the Divine Comedy, tr. Sunderland (London, 1926)

Atiya, A., Crusade Commerce and Culture (London, 1962)

Atkinson, W., A History of Spain and Portugal (Middlesex, 1960)

Bosworth, C., The Ghaznavids, Their Empire in Afghanistan and Eastern Iran, 944-1040 (Edinburgh, 1963)

Brehier, L., L'Eglise et L'Orient au Moyen Age (Paris, 1928)

Brooke, Z., A History of Europe, 911-1198 (London, 1962)

Browne, E., Literary History of Persia, II, III, (Cambridge, 1956)

Bryce, J., The Holy Roman Empire (N.Y., 1950)

Byrne, H., The Genoese Colonies (N.Y., 1928)

Budge, E., The Monks of Kublia Khan, Imperor of China (London, 1928)

Chalandon, F., Histoire de la premier Croisade jusqu'à l'election de Godfroi de Bouillon (Paris, 1925)

Comnena, A., The Alexiad, tr. Dawes, Vol. II (London, 1962)

Cox, W., The Crusade (London, 1910)

Crump, C., and Jacob, E., The Legacy of the Middle Agees (Oxford, 1962)

Dante, The Divine Comedy, Hell, tr. Sayers (Middlesex, 1960)

Durant, W., The Age of Faith, 325-1300 (N.Y., 1950)

Gibbon, E., The Decline and Fall of The Roman Empire, 4-6 (London, 1962)

Glubb, J., The Lost Centuries, 1145-1453 (London, 1967)

Grousset, R., L'Empire du Levent, Histoire de la Question d'Orient au Moyen Age (Paris, 1964)

Heer, F., The Medieval World, Europe 1100-1350, tr. Sondhiemer

Hitti, P., History of Syria (N.Y., 1957)

Hitti, P., History of The Arabs (London, 1960)

Ibn Al-Qalanisi, The Damascus Chronicle of the Crusades, tr. Gibb (London, 1967)

Irving, W., A Chronicle of the Conquest of Granada (Everyman's lib.)

Joinville and Villehardouin, Chronicles of the Crusades tr. Shaw (Middlesex, 1967)

Kantorowiez, E., Fredrick the second (London, 1931)

Kluchevisky, W., A History of Russia, tr. Hogarth, Vol. I (N.Y., 1932)

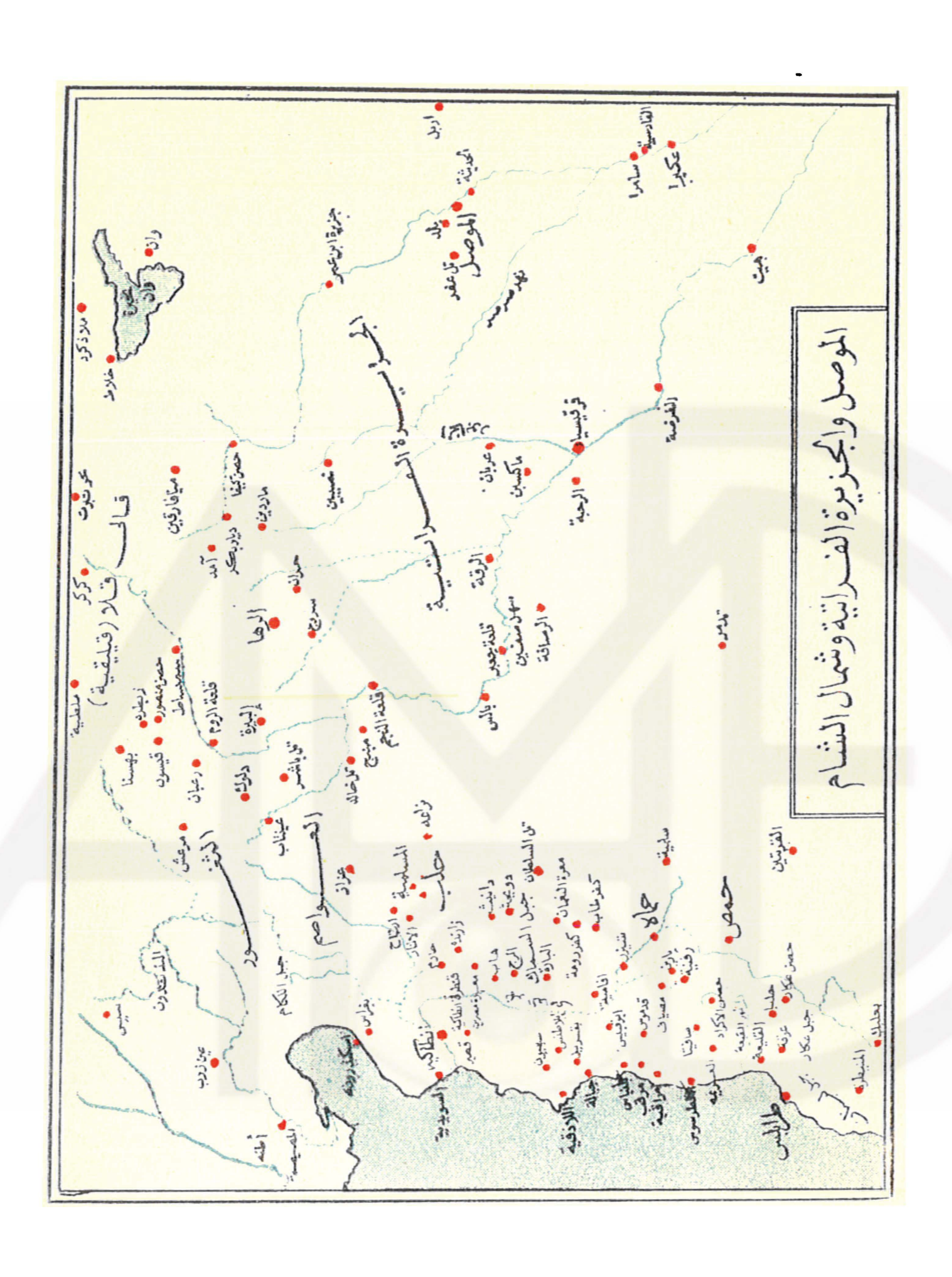
الخطأ والصواب

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
تسمي	تسمى	١٧	٨
لقب المسلمين ؟	لقب سيد المسلمين	١٧	٢٤
مجلس	مجلسا	١٩	٢٢
مظهرا	مظهر	٢٣	٧
شبايد	شباير	٢٣	١٢
اواصره	اوامره	٢٩	١٢
٨٠١	٨٠٠	٣٥	٢١
٤٧٦ ــ ١٥٧	١٠٢ ــ ١٠٦	٣٥	٢٧
توخي	توخى	٣٦	١٢
واحر	وامر	٦٠	١٢
الكليتون	الكلتيون	٦٠	١٥
جلاء	جاء	٦٣	٦
نيفيا	نيقيا	٦٤	٢٦
وله	ولم	٦٦	١٥
الاشتراك	لاشتراك	١١٩	١٩
يرون	يرين	١٢٠	٢٢
حدودوا	حددوا	١٧٠	١٩
فدا	وفدا	١٨٤	٢٤
يرقه	برقه	٢٠٣	٢٢
زعمماء	زعماء	٢٠٨	١٩
ثلاثة	ثلاث	٢١٤	٤٥
بينمما	بينما	٢١٤	٢٥
بيتر	بيتر	٢٤١	١١
الحال	الحالة	٢٤٣	١٢
١٣٠٩	١٣٩٩	٢٤٥	٢٦
لاشرافها	لاشرافهم	٢٥٩	٤



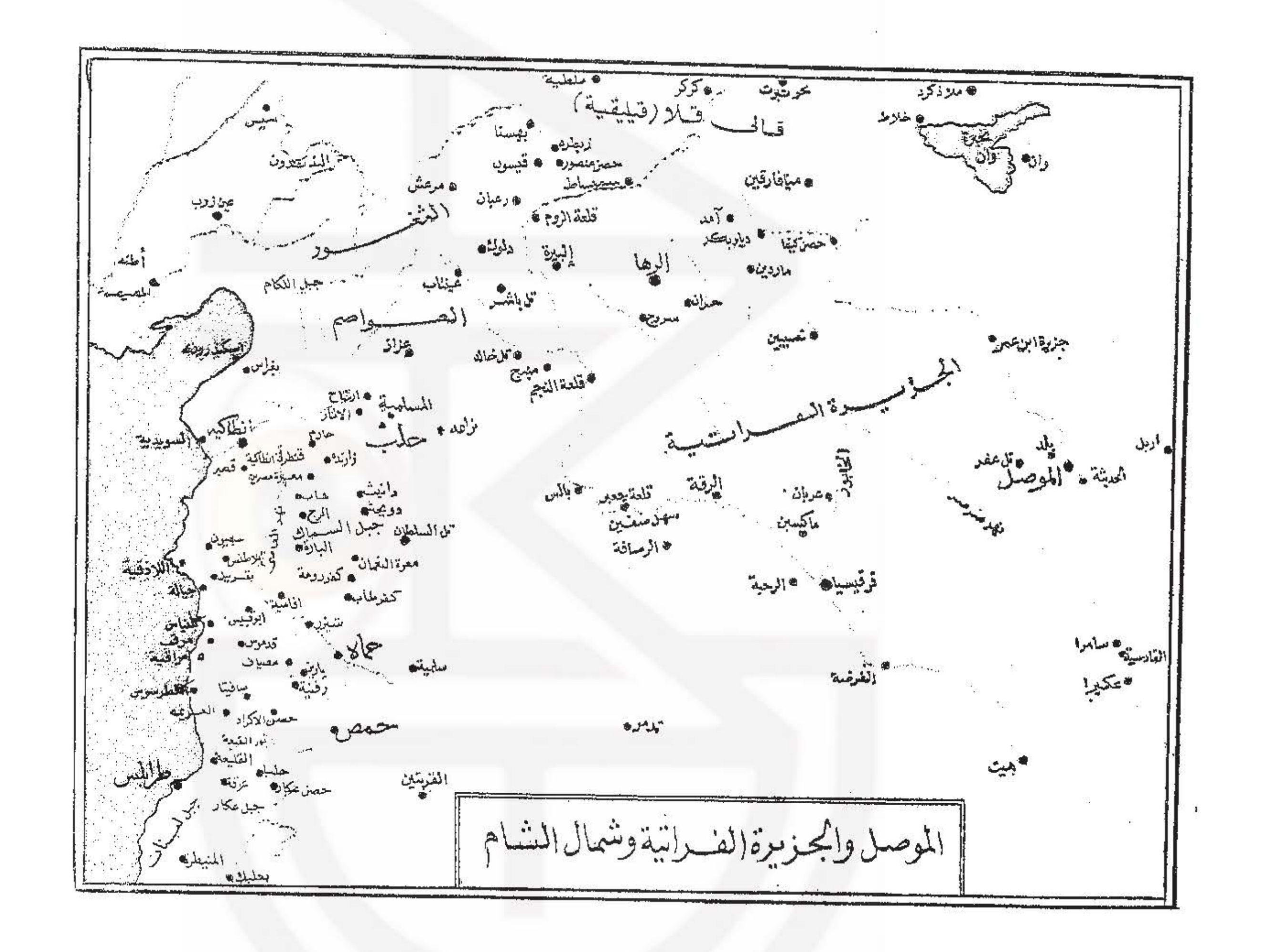
فهرست المحتويات

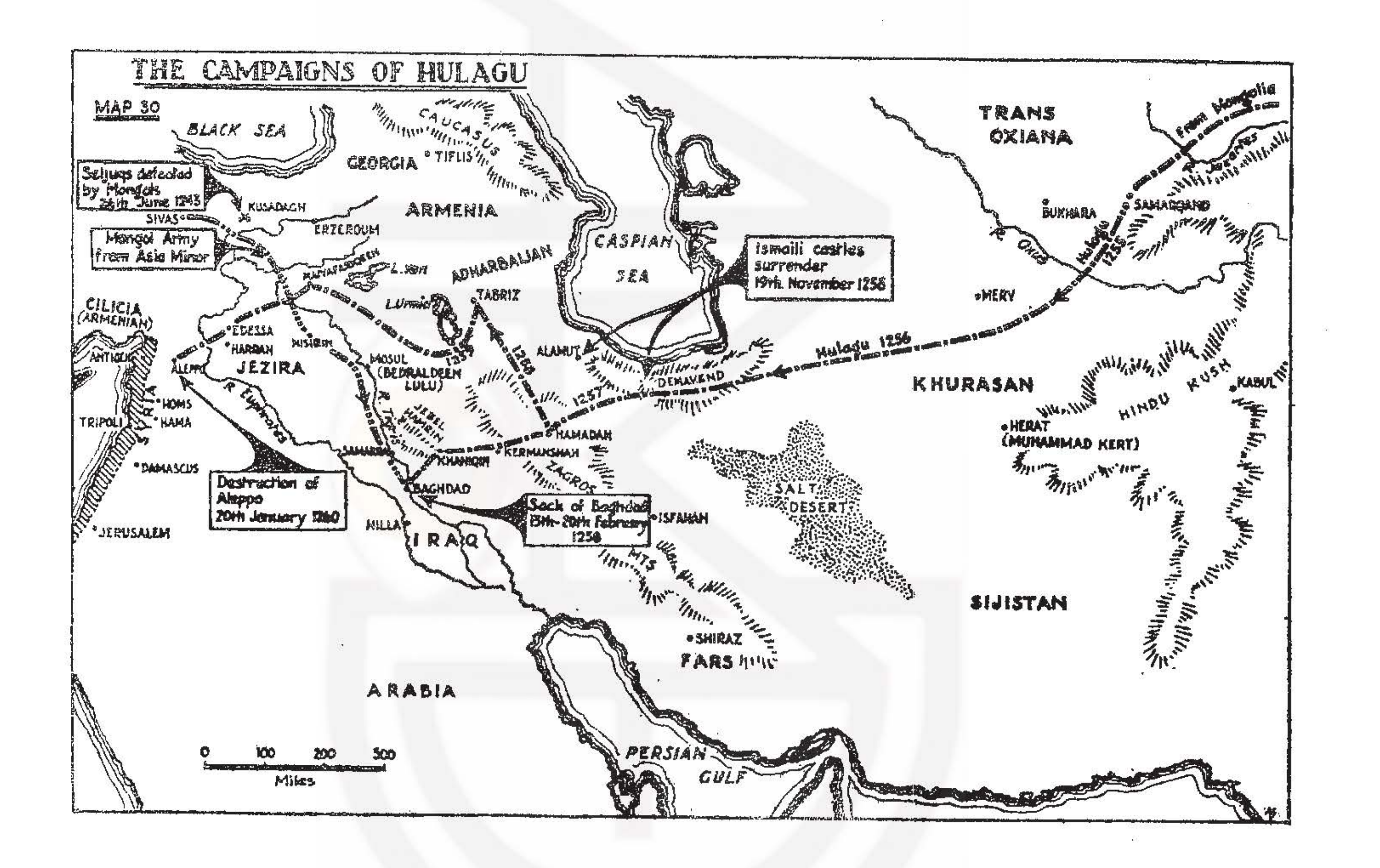




الموصل والجزيرة الفراتية وشمال الشام
الموصل
الرها
حلب
حماة
حمص

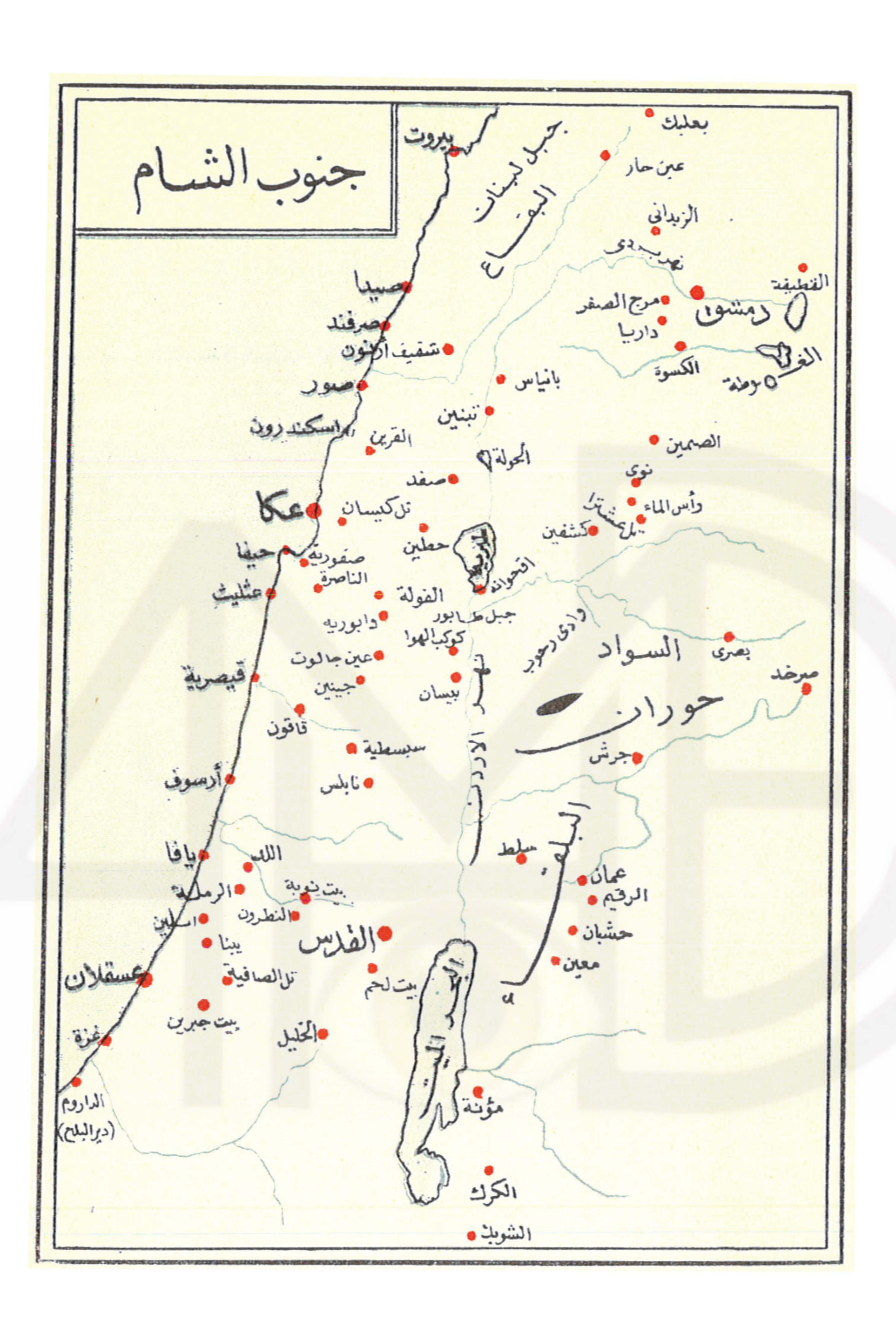
(أ)


الموصل والجزيرة الفراتية وشمال الشام
الجزيرة الفراتية
الموصل
بلد
تل عفر
الحديثة
اربل
جزيرة ابن عمر
نصيبين
ميافارقين
آمد
حصن كيفا
ماردين
الرها
حران
سروج
البيرة
قلعة الروم
دلوك
تل باشر
عينتاب
العواصم
الثغور
مرعش
رعبان
بهسنا
قيسون
ملطية
كركر
خلاط
وان
منبج
قلعة النجم
تل خالد
عزاز
حلب
المسلمية
بزاعة
بالس
قلعة جعبر
الرقة
الرصافة
قرقيسيا
الرحبة
عربان
ماكسين
سامرا
القادسية
عكبرا
هيت
تدمر
القريتين
حماة
حمص
سلمية
شيزر
أفامية
كفرطاب
معرة النعمان
كفرطاب
جبل السماق
البارة
الرج
تل السلطان
أنطاكية
السويدية
الإسكندرونة
بغراس
جبل اللكام
المصيصة
أطنه
عين زروب
سيس
اللاذقية
جبلة
بلنياس
مرقب
مصياف
رفنية
صافيتا
انطرسوس
حصن الأكراد
عرقة
طرابلس
جبل عكار
المنيطرة
بعلبك


THE CAMPAIGNS OF HULAGU
MAP 30
BLACK SEA
Seljuqs defeated by Mongols 26th June 1243
Mongol Army from Asia Minor
SIVAS
KUSADAGH
ERZEROUM
GEORGIA
TIFLIS
CAUCASUS
ARMENIA
L. Van
ADHARBAIJAN
L. Urmia
TABRIZ
CASPIAN SEA
Ismaili castles surrender 19th November 1256
ALAMUT
DEMAVEND
HAMADAN
KERMANSHAH
KHANIQIN
ZAGROS
CILICIA (ARMENIAN)
EDESSA
HARRAN
NISIBIN
JEZIRA
ALEPPO
MOSUL (BEDRALDEEN LULU)
JEBEL HAMRIN
R. Tigris
R. Euphrates
HOMS
HAMA
TRIPOLI
DAMASCUS
JERUSALEM
SAMARRA
BAGHDAD
HILLA
IRAQ
Destruction of Aleppo 20th January 1260
Sack of Baghdad 13th-20th February 1258
ISFAHAN
MTS
SHIRAZ
FARS
ARABIA
PERSIAN GULF
0 100 200 300
Miles
1257
1258
Hulagu 1256
TRANS OXIANA
from Mongolia
R. Jaxartes
BUKHARA
SAMARQAND
R. Oxus
MERV
KHURASAN
HINDU KUSH
KABUL
HERAT (MUHAMMAD KERT)
SALT DESERT
SIJISTAN

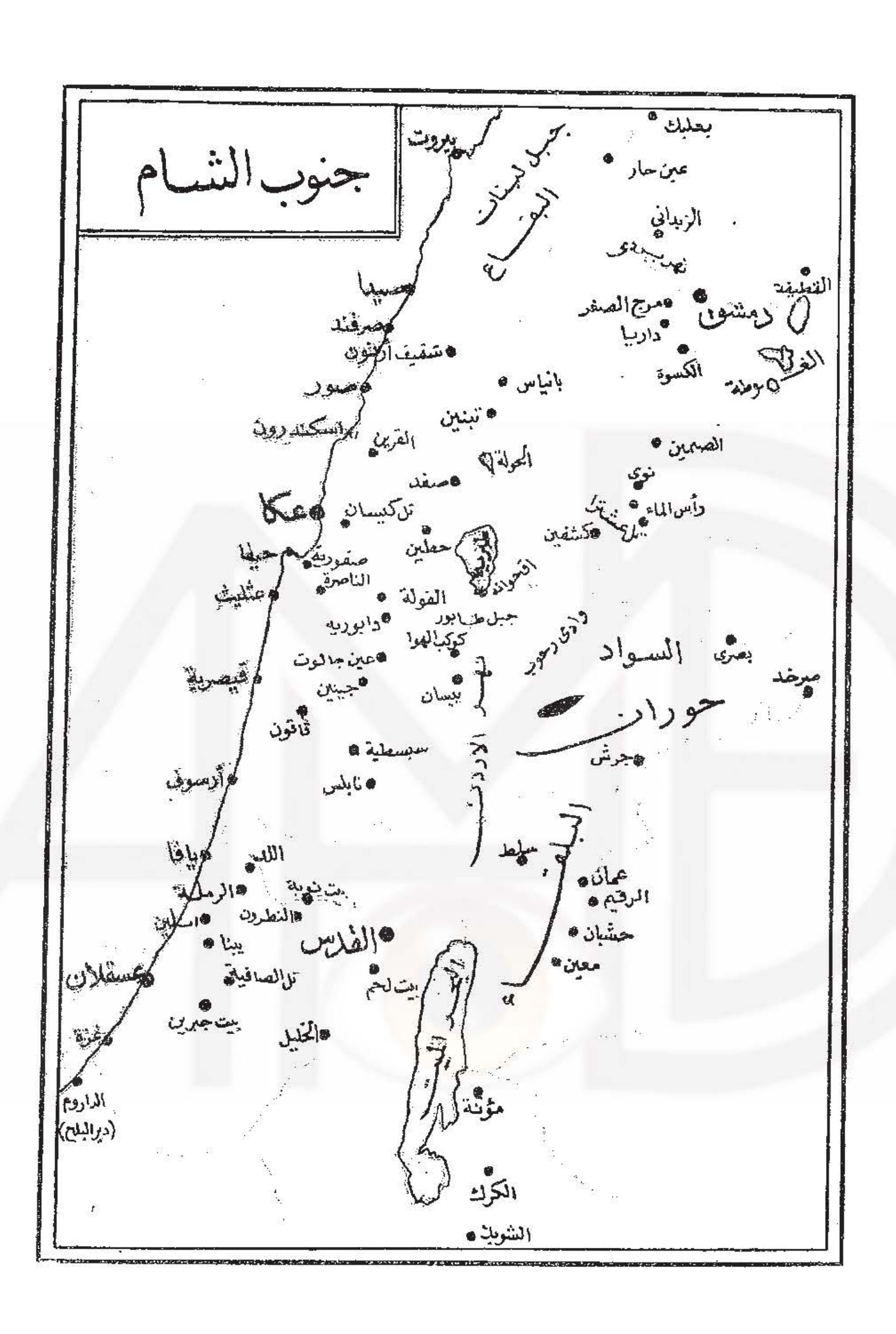
(ب)



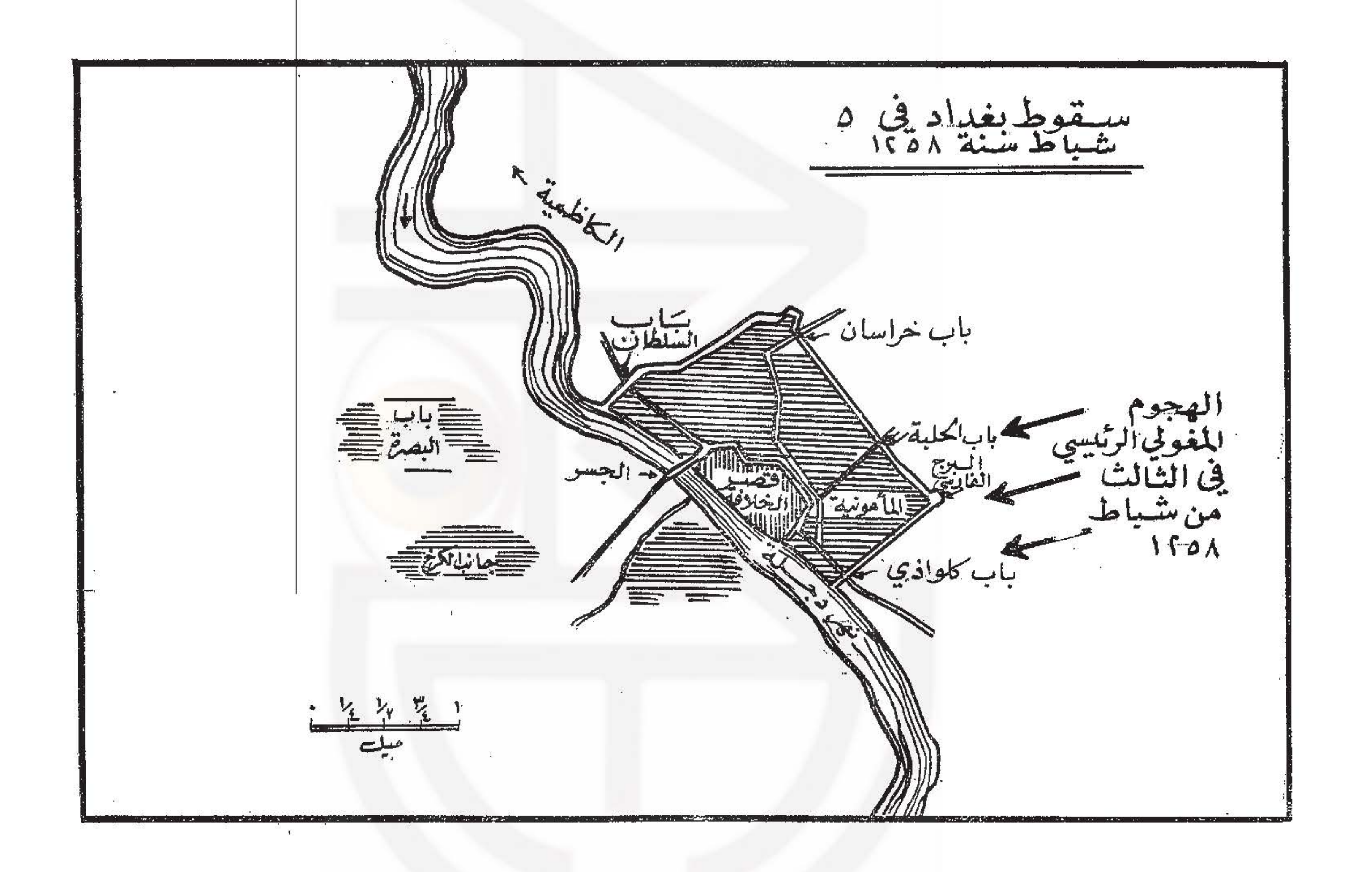


جنوب الشام
بيروت
بعلبك
عين حار
جبل لبنان
البقاع
الزبداني
الغوطة
دمشق
مرج الصفر
داريا
الكسوة
صيدا
صرفند
شقيف أرنون
بانياس
صور
تبنين
القرين
الحولة
الصنمين
صفد
نوى
عكا
تل كيسان
رأس الماء
كشفين
حطين
حيفا
صفورية
الناصرة
الأقحوانة
عثليث
الفولة
جبل طابور
دابوريه
كوكب الهوا
بصرى
السواد
عين جالوت
قيصرية
جينين
بيسان
صرخد
حوران
قاقون
سبسطية
جرش
أرسوف
نابلس
يافا
اللد
سلط
عمان
الرملة
بيت نوبة
الرقيم
النطرون
القدس
حشبان
يبنا
معين
عسقلان
تل الصافية
بيت لحم
بيت جبرين
غزة
الخليل
مؤتة
الداروم
(دير البلح)
الكرك
الشوبك

(ج)



جنوب الشام
بيروت
بعلبك
عين حار
الزبداني
جبل لبنان
البقاع
صيدا
صرفند
شقيف أرنون
صور
القطيفة
دمشق
مرج الصفر
داريا
الكسوة
الغوطة
بانياس
تبنين
الصنمين
الحولة
صفد
نوى
رأس الماء
عكا
تل كيسان
حيفا
صفورية
الناصرة
حطين
كشفين
عثليث
الفولة
جبل طابور
دابوريه
كوكب الهوا
عين جالوت
بيسان
قيسارية
جينين
قاقون
سبسطية
نابلس
بصرى
السواد
صرخد
حوران
جرش
أرسوف
يافا
اللد
الرملة
بيت نوبة
النطرون
عمان
الرقيم
حسبان
معين
القدس
يبنا
عسقلان
تل الصافية
بيت لحم
بيت جبرين
الخليل
غزة
الداروم
(دير البلح)
مؤتة
الكرك
الشوبك


سقوط بغداد في ٥
شباط سنة ١٢٥٨
الكاظمية
باب السلطان
باب خراسان
الهجوم المغولي الرئيسي في الثالث من شباط ١٢٥٨
باب الحلبة
البرج الفارسي
المأمونية
قصر الخلافة
باب كلواذي
الجسر
نهر دجلة
باب البصرة
جانب الكرخ
٠ ١/٤ ١/٢ ٣/٤ ١
ميل